

تَمْلِيكَاتٌ عَلَى كِتَابِ
 قُرْآنِ عِمْرَانَ الْمَوْحِيَاتِ
 فِي تَحْقِيقِ
 حِكْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
 حَاشِيَةً عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِلْإِمَامِ / مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ زَيْدٍ

تَأَلَّفَ

السَّيِّدُ أَبُو الْوَيْثَنِ بْنُ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ
 أَجَزَلَ اللَّهُ لَهُمُ السَّوْبَةَ وَالْبَغْفَةَ

التَّمْلِيكَاتُ

لِفَضِيلَةِ السَّيِّدِ الْعَالِمَةِ

الدَّكْتُورِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ
 بِإِذْنِ اللَّهِ لَهُ وَلِيُّ الدِّينِ طَبْعَ السَّيِّدِ

اِمْتَنَعَ بِهِ وَأَشْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

و. سَلَمَانُ بْنُ حَمَّادٍ عُثْمَانِي الْمَخْدُومُ الشَّرِيفُ
 بِمَنْشَرِ الدَّارِ وَالْمَدِينَةِ وَدَلَّاهُ عَلَى بَيْتِهِ وَأَسَانِيهِ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

مَكْتَبَةُ الْأَمْثَلِ لِلدَّهَوِيِّ

السُّعُوتِ

الْبَرَاءَةُ لِلدَّهَوِيِّ

الرِّيَاضِ

مَلِيقَاتُ عَلَى كِتَابِ
قُوَّةِ عَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ
فِي تَحْقِيقِ
حِكْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
جَاشِعٌ عَلَى كِتَابِ الشَّوْجِدِ
لِلْبَيْهَقِيِّ

مَجْمُوعَةُ الْحَقُوقِ بِمَحْفُوظَةٍ

الطَّلَبَةُ الْأُولَى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م



شركة مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

♦ الرئيسي - حولي - شارع المثنى - مجمع البدري

ص.ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي ٣٢٠١١

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

♦ فرع حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٢٦١٥٠٤٦

♦ فرع المباركية - مقابل مسجد ابن بحر - ت: ٢٢٤٩٠٦٠٤

♦ فرع الفحيحيل البرج الأخضر شارع الدبوس - ت: ٢٥٤٥٦٠٦٩

♦ فرع المصاحف - حولي - مجمع البدري: ت: ٢٢٦٢٩٠٧٨

♦ فرع الرياض - المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي ت: ٠٥٥٧٧٦٥١٣٨

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩

E - mail: z.zahby74@yahoo.com

تَلِيْقَاتٌ عَلَى كِتَابِ
قُرْآنِ عَمِيْرٍ الْمَوْحِدِيْنَ
فِي تَحْقِيقِ
حُجُوْمَةِ الْاَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ
حَاشِيَةً عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِلْاِمَامِ / مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ

تَأْلِيْفُ
السَّيِّدِ اِبْرَاهِيْمَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنِ اِبْرَاهِيْمَ الْوَهَّابِ
اَقْرَأَ اللهُ لَهُمُ السُّورَةَ وَالْفُتُوْرَةَ

التَّحْلِيْقَاتُ
لِفَضِيْلَةِ السَّيِّدِ الْعَلَّامَةِ
الدَّكْتُورِ صَاحِبِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْفُوزَانِ
غُفِرَ اللهُ لَهُ وَلَوْ اَلَذِيْهُ وَلِطَمِعِ السَّامِعِيْنَ

اِمْتَقَنَ بِهِ دَأْسُ مَنْ عَلَّمَ طَبْعُهُ
و. سَلَمَانِ بْنِ حَمَّادٍ عُمَرَانِ الْمَحَلَامِ (الشُّرَيْكِيْمِ)
غُفِرَ اللهُ لَهُ وَلَوْ اَلَذِيْهُ وَلِطَمِعِ السَّامِعِيْنَ

الْحِزْبُ الْاَوَّلُ

مَكْتَبَةُ اَمْلَقِ الدَّهْيِي
الْكُوَيْتِ

اَلْبَتْرَانُ الدَّهْيِي
الرِّيَاضُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحرره ووجهه افقه اذنت للشيخ الدكتور سلامه
اياه مما يربيه عنما بالمجلد الطبى على كتابه بالتعليقات
على قرآنه عليه الموهوبه رحاء انه ينفع المرء بها
ويكتب لى ولله الاجر. وهذا الدرر على
على فضيلته محمد وآله وصحبه

صالح بن فوزان الفوزان

12/11/2021

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه تعليقات على:

قراءة عيون الموحدين

في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين

للشيخ/ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب

أجزل الله لهم المثوبة والمغفرة

وكانت هذه التعليقات في دروس ألقاها فضيلة الشيخ العلامة:

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

بمقر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز بالرياض، ابتداءً من يوم السبت الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى لعام عشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة. نسأل الله عز وجل أن ينفع بذلك، وأن يجزي صاحب المتن خير الجزاء، إنه سميع مجيب.



مقدمة الناشر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فمن فضل الله عليّ أن لازمت شيخنا صالح الفوزان بحضور دروسه ومجالسه، وأخذ العلم عنه، ومتابعة فتاويه وبرامجه في التلفاز والإذاعة وسائر المجالات المرئية والمسموعة والمقروءة، ومازلت أختلف إليه في منزله العامر، وأجلس عنده -رفع الله مقامه في الدارين-، فيتحنّني بحسن استقباله وحفاوته بي -أكرمه الله تعالى-؛ مما يعجز لساني عن شكره ووفائه حقه علي -جزاه الله عني خيراً كثيراً وأجرًا كبيراً-، وكنت قد استأذنت شيخنا ووالدنا الشيخ العلامة الدكتور صالح بن فوزان الفوزان في إخراج تعليقاته وتوضيحاته وشرحه للكتاب المشهور باسم «قرة عيون الموحدين»؛ للإمام المجدد الثاني الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن الإمام محمد بن عبدالوهاب -رحمهم الله تعالى-.

وهذا الكتاب تعليق من الشيخ عبدالرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللهُ على كتاب التوحيد لجده الإمام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللهُ، الذي سلك فيه على طريق الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده والكفر بالطاغوت، وحذرهم من الشرك ووسائله وأسبابه، وبين صغيره وكبيره؛ داعياً إلى الالتزام بنصوص الكتاب والسنة، واتباعها، وتعظيمها، والاعتصام بها، ولقد كان للشيخ عبدالرحمن بن

حسن جهد مبذول في الجهاد في سبيل الله مع ولاية الأمر في زمانه، إضافة إلى جهوده في نشر العلم والتعليم، إلى وفاته - رحمه الله وغفر له - عشية يوم السبت ١١ / ١١ / ١٢٨٥ هـ، وقد قارب عمره المئة سنة في مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية - حرسها الله من كل مكروه، وصد عنها كل باغ -، وقد قال عنه بعض أهل العلم - كما في الدرر السنية ١٦ / ٤٠٧ - بعد أن أثنى على جده الإمام محمد بن عبد الوهاب:

كَذَا عَابِدُ الرَّحْمَنِ أَغْنَى حَفِيدُهُ بِنُورِ الْهُدَى يَهْدِي فَمَنْ ذَا يُعَادِلُهُ
يُنَافِحُ عَنْ دِينِ الْهُدَى كُلُّ مُبْطِلٍ فَيُبْطِلُ تَمْوِيهَاتِهِ وَيُنَاضِلُهُ

وقد لقبه بعض أهل العلم بالمجدد الثاني؛ لجهده واجتهاده، ومن جميل ما قيل عن الشيخ عبدالرحمن بن حسن قول ابن بشر: «وقد كان متنبها فطنا لدسائس أهل البدع».

وكتاب الشيخ وتعليقه على كتاب التوحيد (المسمى: قرّة عيون الموحدين) ليست تسميته من المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ، وإنما تسمية بعض أبنائه، وهو الشيخ عبداللطيف، وجاء اسم آخر للكتاب عند ابن الشيخ الآخر - وهو الشيخ إسحاق - في نسخة خطية بعنوان: (خاتمة البحر المفيد في بيان مسائل التوحيد)؛ كما أفاد بعض أهل العلم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كتاب قرّة عيون الموحدين فيه إضافات وزيادات وفوائد ودرر لم يتعرض لها الشيخ عبدالرحمن بن حسن في كتابه النافع فتح المجيد، وهو الشرح الموسع لكتاب التوحيد.

علمًا بأن هذا المشروع - وهو إخراج تعليقات شيخنا ووالدنا العلامة صالح الفوزان - إنما هو مشروع وقفي من أموال وقفية، وريعه والعائد من بيعه وكل ما بذل فيه هو وقف لله تعالى، وقد تم إعداد هذا الكتاب على نفقة الفقيرة لعفورها ورضاه/ سارة بنت علي بن محمد زيد الشايحي، غفر الله لها ولوالديها ولآل بيتها، وجعل ما قدمته في ميزان حسناتها أثقل ما يكون يوم القيامة.

وكل ما سبق مما أخرجنا من أعمال شيخنا وشروحه، وما يكرمنا الله -تعالى- به في المستقبل -إن شاء الله تعالى- إنما هو من باب الوقف في سبيل الله -تعالى-، الذي أسأله بأسمائه وصفاته، وأسأله بتوحيدها له وإفرادنا له بالعبادة والمحبة جَلَّ جَلَالُهُ أن يجزي شيخنا صالح الفوزان على تعليقاته وتوضيحاته وشرحه، وأن يجزي المؤلف الشيخ عبدالرحمن بن حسن مع جده الإمام محمد بن عبدالوهاب خير الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة، وأن يجمعنا معهم في دار كرامته الفردوس الأعلى مع والدنا وذرياتنا وأزواجنا وإخواننا ومشايخنا، اللهم آمين، وبه نستعين، وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا ورسولنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُمَرَ الْمُجَاهِدِ

بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَلَوْ لَدِيَ لَاحِلٌ بَرٌّ وَلَاحِلٌ

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

فإن هذا الشرح الذي بين أيدينا هو حاشية على كتاب التوحيد الذي ألفه الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ^(١)، وجعله على أبواب كل باب يختص ببيان حكم من أحكام التوحيد، وبيان حكم من أحكام الشرك بالله عَزَّجَلَّ الذي هو ضد التوحيد، فهو بيان لحقيقة التوحيد وما يضاده ويناقضه من الشرك الأكبر، أو الأصغر، فجميع أبواب الكتاب تدور

(١) هو الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد بن راشد، من بني تميم، ولد سنة خمس عشرة ومائة وألف بالعينة، نشأ على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكتب السلف عامة، وارتحل في طلب العلم، فأخذ عن علماء مكة والمدينة والأحساء والبصرة، وبدأ دعوته من حريملاء، ثم انتقل إلى العينة، ثم إلى الدرعية، فشرح الله صدر أمير الدرعية محمد بن سعود لنصرة الدعوة، وجلس الإمام المجدد للتدريس، وتوافد عليه الطلاب، وكتب الله له القبول في الأرض، وانتشرت دعوته لتشمل نجد وغيرها، له مؤلفات ورسائل عديدة في العقيدة وغيرها، منها: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، ومسائل الجاهلية، وأصول الإيثار، وثلاثة الأصول، وفضل الإسلام، وفضائل القرآن، ومختصر زاد المعاد، وغيرها كثير، توفي سنة ست ومائتين وألف.

انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٣١ وما بعدها)، ومن أعلام المجددين للشارح وفقه الله (ص ٨٣-١٢٧)، وحياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته للدكتور سليمان بن عبد الرحمن الحقييل، والشيخ محمد بن عبد الوهاب لأحمد بن حجر آل بو طامي، والإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته لسباحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون للشيخ عبد الله البسام (١/ ١٢٥-١٦٨).

على بيان التوحيد، وبيان الشرك الأكبر والأصغر، وذكر في بعض الأبواب الأسماء والصفات، لكن الغالب على الكتاب أنه في توحيد العبودية، أي: توحيد الألوهية.

وهذا الكتاب تأتي أهميته من ناحية أن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بناه على الأدلة من الكتاب والسنة، وكلام السلف، ولم يكن على نمط كتب العقائد الأخرى التي مبناها على علم الكلام، أو قواعد المنطق، أو أقوال الرجال، فيورد في الباب ما يناسبه من الآيات والأحاديث، ثم يعقب ذلك بيان فقه هذه الآيات أو هذه الأحاديث، وما تشتمل عليه من المسائل، وما يستفاد منها، فيقول: فيه من المسائل كذا وكذا.

وشرح هذا الكتاب عدة شروح، وأول من شرحه حفيده الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(١) في كتاب سماه «تيسير

(١) ولد سنة ألف ومائتين من الهجرة، قبل وفاة جده بست سنين، حفظ القرآن، واشتغل بطلب العلم على علماء الدرعية في مختلف الفنون، فبرز في التوحيد والفقه والتفسير وعلم الحديث، ومن أشهر مشايخه: والده الشيخ عبد الله، وعمه الشيخ حسين ابن الشيخ محمد، والشيخ الفقيه حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر، والشيخ عبد الله بن فاضل، والشيخ محمد بن علي بن غريب، والشيخ حسين بن غنام، وأخذ علم الفرائض عن الشيخ عبدالرحمن بن خميس، والتقى بالإمام الشوكاني الذي أجازته في علم الحديث؛ كما أجازته الشيخ الإمام الشريف حسن بن خالد الحني العريشي أحد قضاة الإمام سعود على اليمن، له من المؤلفات: «الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك»، و«حاشية على المقنع في فقه الحنابلة»، و«رسالة في بيان عدد الجمعة المشترط»، ولما غزت الجيوش المصرية الدرعية بقيادة إبراهيم باشا عن أمر الأتراك، كان الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللهُ من جملة من عُذِرَ بهم، فقتل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف. انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص ٢٩)، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون (٢/ ٣٤٢).

العزیز الحمید شرح کتاب التوحید»^(١)، وهو شرح حافل يتضمن كثيراً من العلوم في هذا الباب، ثم جاء مَنْ بعده فاختصروا هذا الشرح، وأول من اختصره الشيخ عبدالرحمن بن حسن^(٢) حفيد الشيخ المجدد وابن عم الشيخ سليمان بن عبدالله، في كتاب سماه «فتح المجيد شرح كتاب التوحید»^(٣)، ثم توالى الشروح والخواشي على هذا الكتاب، واختصر شرح الشيخ سليمان

(١) طُبِعَ عام ١٣٨٢ هـ في دمشق الشام، ط. منشورات المكتب الإسلامي لزهير شاوريش، واشترى الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم بن ثاني جميع النسخ الخاصة بالمكتب وجعلها وقفاً لله - جزاه الله خيراً - وقد بلغ الشيخ سليمان في شرحه إلى نهاية باب ما جاء في منكري القدر، ووقف على باب ما جاء في المصورين، فأكمّله الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وقد بلغ الشرح بدون التّمّة ٦١٨ صفحة، وبالتّمّة ٦٧٨ صفحة. انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص ٣٠).

(٢) ولد في الدرعية سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف، قرأ على جده الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتاب التوحيد إلى باب السحر، وغيره من الكتب، وقرأ على غيره من علماء نجد، وبعد سقوط الدرعية نقله إبراهيم باشا إلى مصر، وفي مصر قرأ على أشهر علمائها في شتى العلوم، وعاد إلى نجد سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف، فاشتهر في أيام الإمام تركي بن عبدالله، وتولى قضاء الرياض، له من المؤلفات: «الإيمان والرد على أهل البدع»، و«فتح المجيد»، و«قرة عيون الموحدين»، و«كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس»، و«كتاب في الرد على عثمان بن منصور»، و«مختصر العقل والنقل»، توفي رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الرياض سنة خمس وثمانين ومائتين وألف. انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص ٥٨)، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون (١/ ١٨٠ - ٢١٠).

(٣) هذا الكتاب من أحسن شروح كتاب التوحيد لخص فيه أكثر ما في كتاب تيسير العزیز الحمید وهذبه وأتمه مع إضافات جليّة وفوائد مهمّة، مع التحقيق وسهولة العبارة ووضوحها. طبع مراراً، وطبع بتعليقات للشيخ حامد الفقي وعليها تعليق للشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وقد طبع سنة ١٤١٥ هـ بتحقيق متقن مع العناية بتخريج الأحاديث في مجلدين، حققه الشيخ الوليد بن عبدالرحمن الفريان، مع مقدمة وافية عن الكتاب والمؤلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ وفهارس مفصلة.

أيضاً الشيخ حمد بن عتيق^(١) رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ سِمْاء: «إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد»^(٢).

ثم جاءت الحواشي على كتاب التوحيد، ومنها هذه الحاشية «قرة عيون الموحدين بتوحيد الأنبياء والمرسلين»، وهي حاشية للشيخ عبد الرحمن ابن حسن مؤلف فتح المجيد، وهي حاشية حافلة بالمعلومات كما سيأتي في الشرح إن شاء الله، وكذلك ممن اختصر تيسير العزيز الحميد الشيخ سليمان بن حمدان^(٣) المعاصر الذي توفي من سنين قليلة رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الدر النضيد على أبواب التوحيد»^(٤) وهو مطبوع، وكذلك الشيخ عبد الرحمن

(١) هو العلامة حمد بن علي بن محمد بن عتيق، ولد في الزلفي سنة سبع وعشرين ومائتين وألف، وانتقل إلى الرياض ولازم دروس الشيخ عبد الرحمن بن حسن وغيره من العلماء رَحِمَهُ اللهُ، وحصل علوماً كثيرة، تولى القضاء في الخرج وغيرها، وتصدى للتدريس، وأقبل عليه الطلاب، كان من أهل الغيرة على دين الله الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مؤلفاته: «إبطال التنديد»، و«سبيل النجاة»، و«الدفاع عن أهل السنة والاتباع»، و«حياة القلوب»، و«التحذير من السفر إلى بلاد المشركين»، و«الرد على ابن دعيجلة»، وله مراسلات مع الشيخ صديق حسن خان تدل على تواضعه ونصحه للإسلام والمسلمين، توفي رَحِمَهُ اللهُ فِي الْأَفْلاج سنة ١٣٠١ هـ. انظر: مشاهير علماء نجد (ص ١٧٩)، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون (٢/ ٨٤).

(٢) هذا الكتاب حاشية مختصرة على كتاب التوحيد، أكثر ما فيه نقول من تيسير العزيز الحميد، انتهى رَحِمَهُ اللهُ من تأليفه في شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف.

(٣) هو الشيخ العلامة سليمان بن عبد الرحمن بن محمد بن حمدان من أهل المجمعة، ولد سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وألف، وتوفي سنة سبع وتسعين وثلثمائة وألف، ولي القضاء في الطائف، ثم صار عضواً في رئاسة القضاء بمكة، ثم تولى القضاء في المدينة، ثم في المجمعة، ثم بعد إعفائه من القضاء في المجمعة انتقل إلى مكة المكرمة وجلس للتدريس في المسجد الحرام إلى وفاته رَحِمَهُ اللهُ. انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٢/ ٢٩٥ - ٣٠٠).

(٤) استخرج فيه خلاصة ما ذكره شراح كتاب التوحيد قبله، مع ما منَّ الله به عليه من الفوائد وتوضيح الشواهد، وأتبع كل آية أو حديث بما استنبطه المصنف من الفوائد، وقد طبع الطبعة الأولى في المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٩٦ هـ.

ابن قاسم^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ كتب حاشية على كتاب التوحيد سماها «حاشية كتاب التوحيد»^(٢) وهي مطبوعة، وكذلك ممن شرح هذا الكتاب عالم من علماء الشارقة يقال له: حامد ابن محسن، وقد طبع كتابه أخيراً، وشرحه عالم من علماء اليمن أيضاً، وسمعت أنه طبع شرحه، وكتب الشيخ عبد الرحمن بن سعدي^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ كتاباً سماه «القول السديد في مقاصد التوحيد»^(٤) يشرح فيه

(١) هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، طلب العلم على عدد من المشايخ، منهم: الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، والشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف، وغيرهم، وله من المؤلفات: كتاب حاشية الدرر السنية، وكتاب حاشية الروض المربع، وغيرها، وجمع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم حياته وسيرته. ومشاهير علماء نجد (ص ١٠٤)، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٢ - ٢٠٨)، والمبتدأ والخبر لعلماء في القرن الرابع عشر (٢/ ٢٩٥ - ٣٠٣).

(٢) وهي حاشية مختصرة منتخبة من أبرز شروح من سبقه من الشراح، إضافة إلى ما استفاده من مشايخه، وقد طبعت هذه الحاشية الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض، كما طبعت ثانية سنة ١٤٠٨هـ، إلى غير ذلك من الطبعات.

(٣) هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم، ولد في بلدة عنيزة في القصيم سنة سبع وثلاثمائة وألف، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في العلوم، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب وأتقنه وعمره أحد عشر سنة، ثم اجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم، وجلس للتدريس وعمره ثلاث وعشرين سنة، فكان يتعلم ويعلم، حتى إنه في سنة خمسين وثلاثمائة وألف صار التدريس ببلده راجعاً إليه، ومعول جميع الطلبة في التعلم عليه، له من المصنفات: تفسير القرآن الكريم المسمى «تيسير الكريم المنان» في ثمانية مجلدات، و«الدرة المختصرة في محاسن الإسلام»، و«توضيح الكافية الشافية»، و«الرياض النضرة»، وغير ذلك كثير، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف. انظر: مشاهير علماء نجد (ص ٢٥٦)، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢١٨ - ٢٧٢)، والمبتدأ والخبر لعلماء في القرن الرابع عشر (٢/ ٣٠٦ - ٣٤٠).

(٤) طبع في مصر «بمطبعة الإمام» على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام سبع وستين وثلاثمائة وألف.

تراجم كتاب التوحيد، وبين مقاصد الشيخ من هذه التراجم، وهو كتاب مفيد.

فكتاب التوحيد صار محل اهتمام العلماء، وكتب على ضوئه أيضًا الإمام العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني^(١) رسالة سماها «تطهير الاعتقاد من أدران الشرك والإلحاد»^(٢)، هي أيضًا في توحيد العبودية، وهي على نمط كتاب الشيخ إلا أنها مختصرة مفيدة، كذلك الشيخ محمد بن علي الشوكاني^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ كتب كتابًا سماه «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» وهو مطبوع.

(١) هو العالم الفاضل محدث وقته وفقه زمانه الشيخ محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير الكحلاني ثم الصنعاني، وُلِدَ بكحلان سنة تسع وتسعين وألف، وانتقل إلى صنعاء وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى الحجاز وأخذ عن كبار علماء مكة والمدينة، ثم عاد إلى صنعاء لنشر العلم، وإحياء السنة، والقضاء على البدعة، فجلس للتدريس وبذل فيه جهده، حتى اشتهر أمره، وعلا قدره، وارتفع سهمه، وصار مرجعًا لأهل العلم ببلاده، وكان له من الأثر المحمود ما نرجو أن يمجّزه الله به خير الجزاء، له من المؤلفات: «سبل السلام شرح بلوغ المرام»، و«العدة»، وهي تعليقات حشًا بها الإحكام لابن دقيق العيد على «عمدة الأحكام»، وغير ذلك كثير، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف. انظر: البدر الطالع (١٣٣/٢).

(٢) هذا الكتاب مع صغر حجمه عَظُمَ نفعه وعَمَّتْ فائدته، فقد رَتَّبَهُ على مقدمة وخمسة أصول وجملة فصول، دك به قلاع الشرك في الأمصار والبلاد لما كان تعظيم السواد الأعظم من الناس للقبور ومن فيها، واعتقادهم في الكهنة، وذكر فيه كثيرًا من الشبه التي يتعلّل بها المبتدعة لشركهم وأجاب عنها، وجعل ذلك على صورة السؤال والجواب؛ تحديداً للمطلوب، وتيسيرًا للفهم؛ حتى تقوم الحجة ويتم الإعذار.

(٣) هو الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني أحد الأعلام، كان مولده سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، أحرز الكثير من المعارف، واتفق على تحقيقه المخالف والموافق، يُشار إليه بالبنان في علوم الاجتهاد، له المؤلفات في أغلب العلوم منها: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، و«فتح القدير»، و«الدرر البهية»، و«إرشاد الفحول»، و«السييل الجرار»، =

فكتاب التوحيد كان هو البداية لهذه الكتب التي توالى من بعده، وكان العلماء يهتمون به ويحفظونه لتلاميذهم ويشرحونه، وكان طلبة العلم يحفظونه ويعتنون به؛ لأنه خلاصة وزبدة التوحيد، ولأنه ليس فيه قال فلان وفلان، وإنما فيه قال الله وقال رسوله، فمبناه على الكتاب والسنة.



= «شرح الصدور في تحريم رفع القبور»، وغير ذلك كثير. انظر: أبجد العلوم (٣/ ٢٠٢)، والخطبة في ذكر الصحاح الستة (ص ٢٦٨).

الكلام على البسملة بيّن مذكور في الشرح، والبداءة بها سنة؛ كما فعل البخاري وغيره من العلماء، اتباعاً للسنة في مراسلات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للملوك وغيرهم، وفي الأمر بالبداءة بها حديث معروف.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

بدأ الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وهذه هي السنة أن كل كتاب سواء كان كتاب علم، أو رسالة لأحد، أو غير ذلك، أنه يُبدأ بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»؛ كما افتتح عَزَّوَجَلَّ كل سورة في القرآن بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» سوى سورة براءة، وكذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يفتتح بها رسائله إلى الملوك والرؤساء وعماله وأمرائه، وكما كتبها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في رسالته إلى بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ يَأْئِيهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿١٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: ٢٩-٣٠]، فسنة الأنبياء والمرسلين أنهم يبدؤون كتبهم ورسائلهم ببسم الله الرحمن الرحيم.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: (والكلام على البسملة بيّن مذكور في الشرح) الذي هو الأصل، وهو تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، وكذلك فتح المجيد.

❦ قوله: (بسم الله) الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أبتدئ باسم الله، أو أستعين باسم الله، واسم الله عَزَّوَجَلَّ يشمل جميع أسمائه؛ لأن

المفرد إذا أضيف يَعمُ، وقوله: (بسم الله) أي: بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي لا يعلمها إلا الله، ولفظ الجلالة (الله) علم على ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يسمى به غيره، ومعناه ذو الألوهية، أي: العبودية، و(الرحمن الرحيم) اسمان من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ يتضمنان صفة الرحمة.

وكما أن الله عَزَّوَجَلَّ افتتح سور القرآن بـ «بِسْمِ اللَّهِ»، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افتتح الرسائل والكتب التي أرسلها بـ «بسم الله»، فكَذلك العلماء يفتتحون كتبهم بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»؛ كما فعل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا، وكما فعل إمام المحدثين الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه، وغيرهما من علماء المسلمين، فالكتاب الذي لا يُبدأ بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» هو ناقص ومخالف لأدب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وبعض الكتاب والمؤلفين الآن يستبعدون البسملة من كتبهم، وبعضهم يكتبها في أول الغلاف بعيدة عن بداية الكلام، وهذا مخالف للسنة، بل السنة أنها تُكتب في بداية الكلام. ومن هنا نعلم أن هؤلاء الذين لا يكتبون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول مؤلفاتهم في هذا العصر؛ أنهم قد خالفوا السنة، واقتدوا بالغربيين، وإلَّا فإن المشروع في حق المسلم أن يبدأ بهذه الكلمة في أموره؛ في مؤلفاته، في خطبه، في محاضراته، في رسائله، إلَّا أن هذه الكلمة لا تُكتب أمام الشعر الذي فيه هجاء أو فيه دَم، ولا تُكتب أمام الكلام الذي فيه سباب أو شتم أو كلام قبيح، تُنزّه هذه الكلمة، لا تُكتب أمام الشعر، وأعني: الشعر غير المحترم، أما الشعر النزيه الطيب فلا بأس، كذلك لا تُكتب أمام الهجاء، وأمام السب والشتم، وإنما تكتب أمام الكلام النزيه.

❁ قال: (وفي الأمر بالبداة بها حديث معروف)، وهو قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللَّهِ، فَهُوَ أَبْتَرُ»، وفي رواية: «فَهُوَ أَجْذَمُ»^(١) أي: ناقص البركة، وفي هذا الحديث مقال، ولكن يكفي ماجاء في القرآن وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتبه ورسائله، ويكفي ما صنعه العلماء.



(١) ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة، منها المرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها المرسل، وقد أخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (١٢٧/٦)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وأحمد في المسند (٣٥٩/٢)، وابن حبان في صحيحه (١٧٣/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٩/٥)، والدارقطني (٢٢٩/١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٨/٣)، وفي شعب الإبان (٩٠/٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤٣/١): «قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ، فَهُوَ أَقْطَعُ»، وفي رواية: «بِحَمْدِ اللَّهِ»، وفي رواية: «بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَقْطَعُ»، وفي رواية: «أَجْذَمُ»، وفي رواية: «لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِذِكْرِ اللَّهِ»، وفي رواية: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، روي كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي سماعاً من صاحبه الشيخ أبي محمد عبد الرحمن ابن سالم الأنباري عنه اهـ. وانظر: كشف الخفاء (١٥٦/٢)، والدر المشور (٢٦/١)، وتدريب الراوي (٥٥/١).

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات: ٥٦].

[كِتَابُ التَّوْحِيدِ] المراد بالتوحيد توحيد العبادة، وكل رسول يفتح

دعوته لقومه بهذا التوحيد: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُورُونَ﴾

[الأعراف: ٦٥]؛ كما في سورة الأعراف وهود وغيرهما.

[وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾]، دلت الآية

على أن الله عَزَّجَلَّ خلق الخلق لحكمة عظيمة، وهي القيام بما وجب عليهم من

عبادته وحده، وترك عبادة ما سواه، ففعل الأول وهو خلقهم، ليفعلوا هم

الثاني وهي العبادة.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال: (كِتَابُ التَّوْحِيدِ) هذا الكتاب ألفه رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان توحيد الألوهية

وهو توحيد العبادة، وسيأتي بيان أنواع التوحيد وأن أعظمها وأهمها توحيد

العبادة، وخص الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكتاب بهذا النوع لكثرة الغلط والخطأ

فيه، ولأنه الأساس، فلا يصح التوحيد إلا إذا صح توحيد الألوهية.

❁ قوله: (كِتَابُ): مصدر كَتَبَ، والكُتِبَ في اللغة معناه: الجمعُ، سُمِّيَ

الكتاب كتابًا لأنه جمع الكلمات والنصوص، ففيه معنى الجمع، ولذلك

سُمِّيَ كِتَابًا، ومنه «الكتيبة» من الجيش، لأنها تجمع أفرادًا من الجنود، ومنه سُمِّيَ الْخَرَّازُ كَاتِبًا؛ لأنه يجمع بين الرقاع.

❁ و(التَّوْحِيدِ) مصدر وَحَّدَ تَوْحِيدًا، ومعناه: إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ؛ فمن أفرد الله بالعبادة فقد وَحَّده، يعني: أفرده عن غيره، يُقال: وَحَّدَ وَثْنِي وَثَلْتُ، وَحَّدَ معناه: جعل الشيء واحدًا، وَثْنِي يعني: جعل الشيء اثنين، وَثَلْتُ: جعل الشيء ثلاثة، إلى آخره.

❁ قال: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾).

❁ (قول) بالجر معطوف على (التوحيد)، والتوحيد مجرور بالإضافة،

وقد

بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب بهذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وفيها حصر بما وإلا، وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون أسلوب الحصر، أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لشيء واحد وغرض واحد هو العبادة، فدل على أن توحيد العبادة هو الأصل الذي خلق الله عَزَّوَجَلَّ الخلق من أجله، وكفى بذلك أهمية، فهذه الآية فيها بيان الحكمة من خلق الجن والإنس، وهي أنهم خلُقوا للعبادة، فمنهم من عبد الله، ومنهم من عبد غير الله؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾

فالأصل أن الله عَزَّجَلَّ خلقهم للعبادة، فمن قام بذلك، قام بالواجب واستحق الجزاء من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن أخل بذلك استحق العقوبة من الله عَزَّجَلَّ؛ لأنه فعل غير ما خُلِقَ له.

❖ قال: (المراد بالتوحيد توحيد العبادة)؛ لأن أقسام التوحيد ثلاثة:

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو إفراد الله عَزَّجَلَّ بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة، وتدبير الخلائق، فيعتقد العبد أنه لا خالق، ولا رازق، ولا محيي، ولا ضار، ولا نافع، إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى هذا يُسَمَّى: توحيد الربوبية، وهو توحيد بآفعاله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا أحد يخلق مع الله، ولا أحد يرزق مع الله، ولا أحد يحيي ويميت مع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا النوع من أقرّ به وحده لا يكون مسلماً؛ لأنه قد أقرّ به الكفار، كما ذكر الله عَزَّجَلَّ في القرآن في آيات كثيرة: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] إلى غير ذلك من الآيات التي أخبر الله أن المشركين يقرّون بأن الله هو الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، ومع هذا لا يكونون مسلمين، لماذا؟ لأنهم لم يأتوا بالنوع الثاني، الذي هو مدار المطلوب.

القسم الثاني: توحيد الألوهية، ومعناه: إفراد الله عَزَّجَلَّ بالعبادة، هذا غير إفراده بالخلق والرزق والتدبير، بل إفراد الله بالعبادة، بألا يُعبد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا يُصَلَّى، ولا يُدعى، ولا يُذبح، ولا يُنذر، ولا يُحج، ولا يُعتمر، ولا يُتصدق... إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يبتغى بذلك وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا هو الذي وقعت الخصومة فيه بين الرسل والأمم، أما الأول فما وقعت فيه خصومة؛ لأن الأمم مقرّة بأن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر، ولم يُنكر توحيد الربوبية إلّا شُذّاذ من الخلق، أنكروه في الظاهر، ولكنهم مستيقنون به في الباطن، من ذلك: فرعون، وإن كان جحد وجود الرّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] فهذا في الظاهر، ولكنه في قرارة نفسه يقر بأنه ليس برب، وأنه لا يخلق، ولا يرزق، ويعترف بأن الله هو الخالق الرازق.

كذلك الشيوعية في عصرنا الحاضر جحودها للرّب، هذا في الظاهر، وإلا كل عاقل يعلم أن هذا الكون ما وُجدَ من دون خالق، ومن دون مدبّر، ومن دون موجد، أبداً، كل عاقل يعترف بتوحيد الربوبية.

أما توحيد الألوهية والعبادة، فهذا قلّ من الخلق من أقرب به، ما أقرب به إلّا المؤمنون أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، أما عموم الكفار فإنهم ينكرون توحيد الألوهية، بمعنى: أنهم لا يفرّدون الله بالعبادة، حتى وإن أقروا بالنوع الأول وهو: توحيد الربوبية، وإن عبدوا الله ببعض أنواع العبادة.

ولهذا لما قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]^(١)، فمع أنهم يعترفون بتوحيد الربوبية، لكن أبوا أن يعترفوا بتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة، ويقولون: نحن نعبد الله ونعبد معه غيره من الشفعاء والوسطاء، ليقرّبوهم إلى الله زُلفى بزعمهم، اتخذوهم وسائط، وأبوا أن يفرّدوا الله عَزَّجَلَّ بالعبادة، ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح:٢٣]. هذا في قوم نوح، والوتيرة واحدة من أول الكفار إلى آخرهم ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾.

وكذلك عبّاد القبور اليوم، يقولون: لا تَذَرُنَّ الحسن، والحسين، والبدوي^(٢)، وغيرهم، هؤلاء لهم فضل، ولهم مكانة، اذبحوا لهم، وانذروا

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/٢٣٥)، وأحمد في المسند (١/٣٦٢)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٨٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٣٣٢)، وأبو يعلى في مسنده (٤/٤٥٥)، والحاكم في المستدرک (٢/٤٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٩/١٨٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) هو أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي، من بني بري قبيلة من غرب الشام، سكن والده المغرب، فولد له صاحب الترجمة بفاس سنة ست وتسعين وخمسائة، ونشأ بها، وعُرف بالبدوي للزومه اللثام؛ لأنه كان يلبس لثامين ولا يفارقهما، يزعم الصوفية أنه كان يمكث أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام!! وأنه سمع هاتفاً يقول ثلاثاً: قم واطلب مطلع الشمس، فإذا وصلته فاطلب مغربها، وسر إلى (طنطا)؛ فإن فيها مقامك أيها الفتى!! ويروون في ذلك الأكاذيب والخرافات حتى زعموا أنه دخل مصر سنة أربع وثلاثين وستائة، فأقام (بطنطا) على سطح دار لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً اثنتي عشرة سنة!! ويقولون عنه: كان إذا لبس ثوباً أو عمامة لا يخلعها لغسل ولا غيره حتى تبلى فتبدل!! ويزعمون أنه صاحب القبر المشهور في (طنطا) المعروف بقبر البدوي، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات ما الله به عليم، فالله أعلم بحاله وإليه سبحانه الملتقى، توفي سنة خمس وسبعين وستائة. انظر: شذرات الذهب (٥/٣٤٥، ٣٤٦).

لهم، وطوفوا بقبورهم، وتبركوا بهم، لا تذروهم، لا تطيعوا هؤلاء الجفاة الذين يدعون إلى ترك عبادة القبور، ولا يعرفون حق الأولياء.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات، بمعنى: أننا نثبت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أثبتته لنفسه، أو أثبتته له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، على حد قوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فثبت لله الأسماء؛ كما قال عَزَّجَلَّ في آية سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وكذلك الصفات؛ نصف الله عَزَّجَلَّ بما وصف به نفسه؛ أنه عليم، وأنه رحيم، وأنه سميع بصير، يسمع ويُبصر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعلم، ويرحم، ويغضب، ويُعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، وهذه صفات الأفعال.

وصفات الذات كذلك؛ نصفه سبحانه أن له وجهًا، وأن له يدين، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الصفات الكاملة، نثبت لله ما أثبتته لنفسه، أو أثبتته له رسوله من صفات الذات ومن صفات الأفعال، ولا نتدخل بعقولنا وآرائنا وأفكارنا، ونقول - كما يقوله المعطلة - : هذه الصفات أو هذه الأسماء موجودة في البشر، فإذا أثبتناها شبهنا، بل نقول: إن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسماءً وصفات تليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وللمخلوقين أسماء وصفات تليق بهم، والاشتراك في الاسم، أو الاشتراك في المعنى لا يقتضي الاشتراك في الحقيقة.

ومثال ذلك: الجنة، فيها أعناب ونخيل - كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ - وفيها رمان، وفيها أسماء موجودة عندنا في الدنيا، لكن ليس ما في الجنة مثل ما في الدنيا، أبداً، ليس النخيل التي في الجنة مثل النخيل التي في الدنيا، والرمان فيها ليس مثل الرمان الذي في الدنيا، وإن اشترك في الاسم والمعنى، كذلك أسماء الله وصفاته وإن اشتركت مع أسماء المخلوقين وصفاتهم باللفظ والمعنى، فالحقيقة والكيفية مختلفة، لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تشابه إذاً في الخارج والواقع أبداً، لأن الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يشبهه شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ولا يلزم من إثبات الأسماء والصفات التشبيه - كما يقول المعطلة والمؤولة - وإنما هذا من قصور أفهامهم، أو ضلالهم، ورغبتهم عن الحق، وإلّا فكل يعلم الفرق بين المخلوق والخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما أن المخلوقات نفسها فيها فوارق، فليس - مثلاً - الفيل مثل الهرة أو البعوضة أبداً، وإن اشتركت في بعض الصفات، فالبعوضة لها سمع والفيل له سمع، والبعوضة لها بصر والفيل له بصر، فهل يقتضي ذلك أن تكون البعوضة مثل الفيل؟

الجواب: لا، وإن اشتركت في الأسماء فلا تشترك في الحقائق والمعاني.

فإذا كان هذا الفارق بين المخلوقات، فكيف بين الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والمخلوقين؟ نحن نُقَرُّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أثبتته لنفسه أو أثبت له رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. نفى المثلية وأثبت السمع والبصر، فدل على أن إثبات السمع والبصر وغيرهما من الصفات لا يقتضي

المثلية، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يشبهه أحد من خلقه.

والمقصود هنا: القسم الثاني من هذه الأقسام الثلاثة - وهو: توحيد الألوهية، توحيد العبادة - لأن الرسل من أولهم إلى آخرهم جاءوا بالدعوة إليه، فهم يأمرون الناس بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وينهون عن الشرك، أما توحيد الربوبية فإن كل العالم يقرون به ولم يجحده أحد، حتى المشركون في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو جهل، وأبو لهب، وصناديد الشرك - يقرون بتوحيد الربوبية؛ كما ذكر الله عَزَّجَلَّ ذلك في كتابه الكريم، حيث قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ [يونس: ٣١]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فهم يعترفون بتوحيد الربوبية، ولذلك يتعرض الرسل لهذا النوع من التوحيد.

وأيضاً لو أقر العبد بتوحيد الربوبية وحده فإنه لا يكفي، ولا يدخله في الإسلام، ولا يُنجاه من النار؛ ولذلك قاتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين وهم يعترفون بتوحيد الربوبية، فدل على أنه لا يكفي، بل لابد من توحيد الألوهية.

فإن قال قائل: فلماذا ذكر الله توحيد الربوبية في القرآن كثيراً؟ نقول: هذا لأجل الاستدلال به على توحيد الألوهية، لا على طلب الإقرار به من الناس؛ لأنهم مقرون به، وأيضاً من باب الإلزام للمشركين، فهم كما يقرون بتوحيد الربوبية يلزمهم أن يقروا بتوحيد الألوهية، فإذا كانوا يقرون أنه لا خالق ولا رازق ولا مدبر للكون إلا الله، فلماذا لا يخلصون له العبادة، ويتركون عبادة ما سواه؟ فلذلك يُذكر توحيد الربوبية ثم يأتي بعده مباشرة توحيد الألوهية، أو يُذكر توحيد الألوهية ثم يأتي بعده مباشرة ذكر توحيد الربوبية، من باب الاستدلال وإقامة البرهان.

مثال ذلك: قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] هذا توحيد الألوهية، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] هذا توحيد الربوبية، ذكره سبحانه برهاناً على توحيد الألوهية، وقال في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ كُفْرٌ وَلِلَّهِ جَدُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم أقام البرهان على ذلك فقال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فهذا دليل على توحيد الألوهية.

وكل رسول يفتح دعوته بأمر الناس بعبادة الله، ولا يأمرهم بالإقرار بالربوبية لأنهم مقرون بها، قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦] فكل الأنبياء يأمرهم بعبادة الله، بتوحيد الألوهية، وينهونهم عن الشرك، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، هذه الآية فيها أن جميع الرسل جاءوا بالأمر بعبادة الله، توحيد الألوهية، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الذي هو الشرك، الطاغوت هو عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يأتي في الكلام على الآية الكريمة.



قال شيخ الإسلام: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة^(١).

وقال أيضًا: العبادة اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل، والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين^(٢).

وقال أيضًا: وأما ما خلقوا له من محبة الله عَزَّجَلَّ ورضاه فهو إرادته الدينية، فذلك مذكور في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]^(٣).

... — الشَّبَحُ — ...

لما بَيَّنَّ أن كل الرسل جاءوا بالأمر بعبادة الله وحده أراد أن يبين معنى العبادة، فما معنى العبادة؟ عُرِفَت العبادة بعدة تعريفات، منها:

الأول: أن العبادة في اللغة مأخوذة من التعبد وهو التذلل والخضوع^(٤)، يُقال: طريق معبد يعني مذل للوطء بالأقدام، فالعبادة هي غاية الذل لله عَزَّجَلَّ مع غاية الحب.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/١٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٤).

(٤) انظر: مادة (عبد) في: أساس البلاغة (ص ٤٠٦)، وتاج العروس (٨/ ٣٤٠)، ومختار الصحاح (ص ١٧٢).

كما قال الإمام ابن القيم^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرُ رَسُولِهِ لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فالحب مع الذل (قُطْبَانِ) للعبادة، (وعليهما فلك العبادة دائر)، غاية الحب وغاية الذل لله عَزَّوَجَلَّ، فالذل الخلي عن الحب مثلما يذل الإنسان للجبابة، والفراغة، وغيرهم، ويخاف منهم، لكنه لا يحبهم بل يبغضهم، هذا ليس عبادة، كذلك العكس فالحب الذي ليس معه ذل ليس عبادة؛ كما يحب الإنسان أقاربه، ويحب زوجته، ويحب الطعام والشراب، لكن ليس معه ذل وخضوع، هذا لا يسمى عبادة. فتكون العبادة بكمال الأمرين: كمال الذل مع كمال الحب.

أما الذين يقولون: إن العبادة هي الحب فقط - كما تقول الصوفية - ونحن لا نعبد الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، وإنما نعبده لأننا نحبه

(١) هو الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي، المفسر، النحوي، الأصولي، الشهير بابن قيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستائة، وسمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، ولما عاد شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعائة لازمة إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جمّاً، وكان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وهو الذي هذب كتب شيخه ونشر علمه. انظر: البداية والنهاية (١٤ / ٢٣٤)، والدرر الكامنة (٥ / ١٣٨)، والوافي بالوفيات (٢ / ١٩٥)، والمقصد الأرشد (٢ / ٣٨٤)، وشذرات الذهب (٦ / ١٦٨).

فقط^(١). فهذا باطل وضلال، والعبادة ليست المحبة فقط، بل لابد أن يكون معها ذل وانقياد، وفعل لأوامر الله، وترك لنواهي الله حتى تكون عبادة صحيحة.

الثاني: وهو أشمل تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ^(٢): أن العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، هذا التعريف ما ترك شيئاً، فكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة: كالصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، وصلة الأرحام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك الأفعال القلبية، مثل: الذل، والخشوع، والخوف، والرغبة، والرغبة، والتوكل، وكذلك أقوال اللسان مثل: التسبيح، والتهليل، وتلاوة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

(١) هذا القول نُسِبَ إلى أحمد بن الموفق أبو الحسن الصوفي، المتوفى سنة خمس وستين ومائتين، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٧٢)، انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٢/ ١١٠ - ١١٣)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٨٦)، وطبقات الحنابلة (١/ ٢٣٠، ٢٣١)، والمقصد الأرشد (٢/ ٢٦٨).

(٢) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، الحنبلي، تقي الدين أبو العباس، ابن شهاب الدين، ابن مجد الدين، ولد سنة إحدى وستين وستمائة، نشأ في بيت علم ودين، فطلب العلم وهو صغير، ونظر في الرجال والعلل، وتفقه، وتمهر، وتميز، وتقدم، وصنف، ودرس، وأفتى، وفاق الأقران، وصار عجباً في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول، جلس للإفتاء وعمره تسع عشرة سنة، وخلف والده في التدريس بدار الحديث وعمره اثنتان وعشرون سنة، وسُجِنَ غير مرة إلى أن توفي معتقلاً بقلعة دمشق في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وشيعه أُمم لا يحصون، غفر الله له ورحمه رحمة واسعة. انظر: معجم الذهبي (ص ٢٦)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٣٥)، والدرر الكامنة (١/ ١٦٨)، وشذرات الذهب (٦/ ٨٠)، والبدر الطالع (١/ ٦٣).

فالعِبَادَةُ تكون باللسان، وتكون بالقلب، وتكون بالجوارح، وكل بدن الإنسان مشغول بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ لأنه عبد لله وَخُلِقَ للعبادة، فكل جسده مشغول بعبادة الله: لسانه، وقلبه، وجوارحه.

وفي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أراد الله عَزَّجَلَّ منهم أن يعبدوه، لكن هذه الإرادة ليست إرادة كونية، وإنما هي إرادة شرعية دينية؛ ولذلك قد تقع وقد لا تقع، أما الإرادة الكونية فلا بد أن تقع، فلو أراد الله من العباد إرادة كونية أن يعبدوه ما تخلف أحد عن عبادته، ولكنه سبحانه أراد منهم ذلك شرعًا، والإرادة الشرعية والدينية قد تقع وقد لا تقع.

و(الْجِنَّ) عالم من عالم الغيب، نؤمن بهم، ولكننا لا نراهم، ولذلك سُمُّوا بِالْجِنَّ من الاجتنان وهو الاستتار، ويقال: جَنَّهُ الليل إذا سَتَرَهُ، ويقال: الجنين في البطن، لأنه مستتر، فالْجِنَّ سُمُّوا جِنًّا لأنهم مستترون عن أبصارنا لا نراهم ﴿إِنَّهُمْ يَرَبْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهم من عالم الغيب، والإيمان بهم واجب، ومن جحد وجود الجن فهو كافر؛ لأنه مُكَذِّبٌ لله ورسوله وإجماع الأمة على وجود الجن، وهؤلاء الذين أنكروا وجودهم على أي شيء يعتمدون؟ لا يعتمدون على شيء إلا أنهم لا يرونهم، وهل كل موجود لابد أن تراه؟ هناك أشياء كثيرة لا تراها وهي موجودة، مثلًا: الروح التي تحركك؛ تمشي بها وتقعدها، هل تراها؟ والعقل موجود ومع هذا لا تراه.

فليس كل شيء موجود لا بد أننا نراه، هناك أشياء كثيرة جداً لانراها، وربما بعضها يعيش معنا - والله الْحِكْمَةُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمِنْ ذَلِكَ (الْجَنِّ) وَهُمْ عَالَمٌ عَظِيمٌ، إِلَّا أَنَّا لَا نَرَاهُمْ، وَهُمْ مَكْلُفُونَ مِثْلَ الْإِنْسِ.

وَأَمَّا (الْإِنْسُ) مِنَ الْإِسْتِنَاسِ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْنَسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَأْلَفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهُمْ بَنُو آدَمَ.

اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَّ لَنَا الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِهِ الثَّقَلَيْنِ - الْجَنِّ وَالْإِنْسِ - وَهِيَ: أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لَشَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: الْعِبَادَةُ، وَلِهَذَا جَاءَ بِالْحَصْرِ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] حَصَرَ الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ: أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُ، فَالْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ هِيَ: عِبَادَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خَلَقَ اللَّهُ الْجِنِّ وَالْإِنْسَ لِلْعِبَادَةِ، وَخَلَقَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ لِمَصَالِحِهِمْ، سَخَّرَهَا لَهُمْ لِيَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى عِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَمَعْنَى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أَي: يَفْرُدُونِي بِالْعِبَادَةِ، أَوْ لِيُوَحِّدُونِ؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ وَالْعِبَادَةَ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَمَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الثَّقَلَيْنِ لِعِبَادَتِهِ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ الْأَصْلُ، وَأَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا بَيَانٌ مَعْنَى (التَّوْحِيدِ)، وَأَنَّهُ: الْعِبَادَةُ، وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ مَعْنَاهُ: الْإِقْرَارُ بِالرَّبُوبِيَّةِ - كَمَا يَقُولُ الضَّلَالُ - وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ الْعِبَادَةُ، أَي: إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّلُغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقول الله عزَّجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاجْتَنِبُوا الطَّلُغُوتَ ﴾ الآية، يُخبر عزَّجَلَّ أنه بعث في كل قرن وطائفة من الأمم
رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهى عن عبادة ما زينه الشيطان لهم
وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه، فمنهم من هدى الله ووحدته عزَّجَلَّ بالعبادة
وأطاع رسله، ومنهم من حقت عليه الضلالة فأشرك مع الله غيره بعبادته،
ولم يقبل هدى الله الذي جاءت به الرسل؛ كما قال عزَّجَلَّ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

... — الشَّبَحُ — ...

✽ يقول الله عزَّجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾ اللام هنا لام القسم، و(قد) حرف
تحقيق، وتقدير الكلام: والله لقد بعثنا؛ ولذلك تُسمى هذه اللام بالموطئة
للقسم^(١)، ﴿ بَعَثْنَا ﴾ البعث هو الإرسال، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾
يعني: في كل جيل من الناس؛ لأن الأمة هي الجيل من الخلق، بعث الله فيهم
﴿ رَسُولًا ﴾، فالله سبحانه لم يترك الناس بدون رسل، فكل جيل وأمة من
الناس جاءهم رسول من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما جاء إلى قوم نوح، وقوم هود،
وقوم صالح، وقوم شعيب، وأصحاب مدين، والمؤتفكات، وقوم إبراهيم،
وقوم لوط، وكما جاء محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أمته من الثقلين الجن والإنس،

(١) انظر: حروف المعاني للزجاجي (ص ٤٢)، واللامات للزجاجي أيضًا (ص ٧٨، ٧٩)،
ومغني اللبيب لابن هشام (ص ٣٠٢، ٣٠٣).

قال عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال عَزَّجَلَّ في سورة النساء: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

فالله سبحانه لم يترك الخلق هملاً، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب، فبلغتهم دعوة الرسل جيلاً بعد جيل، إما أن يُبْعَثَ فيهم رسولٌ خاص، وإما أن تبلغهم دعوة رسول قبلهم، فرسالات الرسل باقية ومتواصلة من نوح إلى محمد - عليهم الصلاة والسلام -، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، -أي: متتابعة- ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، فالرسل سلسلة متواصلة، والخلق كلهم بلغتهم دعوة الرسل، ولم يبق أحد لم تبلغه دعوة الرسل إلا المعاندين والمكابرين والجاحدين، فهؤلاء لهم شأن آخر.

❁ وفي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] بيان لما جاءت به الرسل وهو الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك قوله عَزَّجَلَّ: ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ هذا الأمر بالتوحيد، وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ هذا النهي عن الشرك.

والمراد بالطاغوت هنا: كل ما عُبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهو مأخوذ من الطغيان أي: مجاوزة الحد والخروج عن الحق، فكل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، سواء كان راضياً بذلك، أو لم يرض بذلك؛ كما عُبد بعض الرسل والصالحين وهم لم يرضوا بذلك، فهم براء من هذه العبادة، ولكن عبادتهم عبادة للطاغوت وهو الشيطان؛ لأنه هو الذي أمر بذلك^(١).

فالطاغوت قد يُراد به المعبود نفسه إذا كان راضياً بذلك، وقد يُراد به الشيطان إذا كان المعبود غير راضٍ بذلك؛ لأن الشيطان هو الذي أمر بعبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ، وكل شرك هو عبادة للطاغوت، فدل على أن جميع الرسل جاءوا بالأمر بعبادة الله والنهي عن الشرك؛ لأنه لا يكفي الأمر بعبادة الله بل لابد من النهي عن الشرك، وهذا معنى لا إله إلا الله؛ لأنها تجمع بين نفي الشرك وإثبات التوحيد، فلا يكفي أن الإنسان يعبد الله بل لابد أن يجتنب الطاغوت، ويجتنب الشرك وإلا فإن عبادته تبطل إذا خالطها شرك، وكذلك لابد أن يتبرأ من الشرك ومن المشركين ويعاديهم في الله عَزَّوَجَلَّ، أما إذا كان لا يتبرأ منهم ولا يبغضهم؛ فإنه أقرهم على ما هم عليه فيكون لم يتبرأ من الشرك فلا ينفعه التوحيد، فقلوه: ﴿وَأَجْتَنِبُوا أَطْلَافُوتَ﴾ يشمل ترك عبادة الطاغوت، ويشمل البراءة أيضاً ممن يعبد الطاغوت.

(١) قال الطبري في تفسيره (٣/ ١٩): «والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله فبعد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء» اهـ. وانظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٥٣).

وهذا التوحيد الذي خُلقوا له ودُعوا إليه هو توحيد الألوهية: توحيد القصد والطلب، وأما توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الأفعال: فهو توحيد العلم والاعتقاد، وأكثر الأمم قد أقروا به الله.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

أكثر الأمم مقرون بتوحيد الربوبية، لكن إقرارهم به واقتصارهم عليه لا يكفيهم ولا يخرجهم من الكفر، فأبو لهب وأبو جهل صناديد المشركين يقرون بتوحيد الربوبية؛ بل إنهم في حال الشدة يخلصون في توحيد الألوهية ويخلصون الدعاء لله عَزَّجَلَّ.

فعلى سبيل الإجمال ينقسم التوحيد إلى قسمين:

الأول: توحيد خبري علمي، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، فكل الآيات التي تخبر عن الله وأفعاله، وأسمائه، وصفاته، هي في التوحيد الخبري العلمي.

الثاني: توحيد الطلب والقصد، وهو توحيد الألوهية، فكل الآيات التي تأمر بعبادة الله، ودعائه، والتقرب إليه، هي في توحيد الطلب والقصد. فعلى هذا التقسيم يكون توحيد الأسماء والصفات داخلاً في توحيد الربوبية، وإنما قُسِّم وصار قسماً ثالثاً لما ظهرت فرق المبتدعة -الجهمية^(١)،

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولا هم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شراً عظيماً، رأس في التعطيل، زعم أن القرآن مخلوق، وذهب إلى القول بأن العبد لا قدرة له أصلاً، بل فعله كحركة المرتعش، أو كالريشة في مهب الريح، أو بمنزلة حركة أغصان الأشجار، فالعبد عندهم مجبور =

والمعتزلة^(١)، والأشاعرة^(٢) - الذين ينفون الأسماء والصفات، فجعل قسمًا مستقلًا للرد عليهم، وإلا فهو داخل في توحيد الربوبية.

فتوحيد الربوبية أقر به المؤمن والكافر، ومن جحدته في الظاهر كفرعون لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

= على فعله، وأن الجنة والنار تغنيان بعد دخول أهلها حتى لا يبقى موجود سوى الله عَزَّوَجَلَّ، قتله سلَّم ابن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، وشرح الطحاوية (ص ٥٩٠).

(١) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها، وقد افرقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة. انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨).

(٢) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتلمذ على أبي علي الجبائي زوج أمه، ومضى على ذلك صدرًا من حياته، ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه وسلك طريقة ابن كلاب، وانتشر مذهبه، ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث، وانتسب إلى الإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة: الإبانة، والموجز، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب. توفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قاله الذهبي، ويقال: بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، والبدية والنهاية (١١/ ١٨٧)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣).

غَيْرِي ﴿[القصص: ٣٨]، إنما جحدته من باب المكابرة، وإلا فهو يقر ويعترف في نفسه وقلبه بتوحيد الربوبية، وأنه لا يستحق العبادة أحد إلا الله؛ ولهذا قال له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أقسم أن فرعون يعلم أن الربوبية والألوهية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنه عاند وكابر في الظاهر إبقاء على رياسته وملكه بزعمه، فالذين جحدوا توحيد الربوبية في الظاهر - وهم قلة - معترفون به في الباطن؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، جحدوا بها في الظاهر واستيقنتها أنفسهم في الباطن، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: من أجل الظلم ومن أجل العلو على الناس.



وأما توحيد الألوهية فأكثرهم قد جحدوه؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ عن قوم هود - لما قال لهم -: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَنْقُوتُ﴾ [الأعراف: ٦٥]: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقال مشركو قريش: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. وهذه الآية وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] تبين معنى الآية التي قبلها، وكذلك الآيات بعدها، وأن المراد بالعبادة التي خلقوا لها هي العبادة الخالصة التي لم يلبسها شرك بعبادة شيء سوى الله كائنًا ما كان، فلا تصح الأعمال إلا بالبراءة من عبادة كل ما يعبد من دون الله.

... — الشَّيْخُ — ...

فالأمم الكافرة عرفت مقصد الرسل، وهو أنهم إنما جاءوا يطلبون توحيد الألوهية؛ ولذلك قالوا: ﴿أَنْتَهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢]، ما قالوا للربوبية وإنما ذهبوا للعبادة، ولما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقريش: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]^(١)، ففهموا أن معنى لا إله إلا الله أفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، وليس أفراد الله بالربوبية.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٣٥ / ٥)، وأحمد في المسند (٣٦٢ / ١)، وابن حبان في صحيحه (٨٠ / ١٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٢ / ٧)، وأبو يعلى في مسنده (٤٥٥ / ٤)، والحاكم في المستدرک (٤٦٩ / ٢)، والبيهقي في الكبرى (١٨٨ / ٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالمشركون يعلمون معنى لا إله إلا الله، وعباد القبور اليوم يدعون الإسلام وهم لا يعلمون معنى لا إله إلا الله؛ بل علماءهم المتبحرون في الفقه والنحو والتفسير والحديث لا يعلمون معنى لا إله إلا الله؛ ولذلك لا ينكرون عبادة القبور، بل قد يمارسونها وهم علماء، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعث معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيَّ أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ تَعَالَى»^(١)، فدل على أن من العلماء من يحتاج إلى الدعوة إلى التوحيد، والدعوة إلى لا إله إلا الله وهو عالم، هذا من العجب العجاب.

وهذه الآية، وهي قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] تبين الآية التي قبلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، تبين أن الناس انقسموا إلى قسمين، فالله سبحانه خلقهم لعبادته، لكن منهم من عبد الله، ومنهم من عبد غير الله، مما يدل على أن الإرادة الشرعية لا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع، فلا يقال إذا كان الله خلق الخلق لعبادته كما في هذه الآية فلماذا حصل الشرك؟

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقهم لحكمة بالغة؛ خلقهم من أجل الابتلاء والامتحان، فترك الاختيار للإنسان، فمن أشرك بإرادته واختياره استحق العقاب، ولم يجبر أحدًا على اختيار التوحيد وإخلاص العبادة لله، فمن عبد الله وحده بإرادته ورغبته استحق الجنة.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولا يكفي أن الإنسان يعبد الله فقط، بل لابد أن يتجنب الشرك، وإلا لو صلى الليل والنهار، وحج واعتمر، وصام رمضان، وفعل كل العبادات، لكنه يدعو مع الله غيره، فعمله هباءً منثوراً لا قيمة له، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلا تنفع العبادة إلا مع تجنب الشرك، ومن هنا يجب على المسلمين كما يتعلمون التوحيد أن يتعلموا ما هو الشرك، فيعرفوا الشرك بأنواعه وأساليبه حتى يتجنبوه، وإلا قد يُشرك الإنسان وهو يظن أنه يعبد الله؛ كما قال المشركون عن عبادتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فهم يشركون ويظنون أنهم يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك بسبب الجهل بالشرك وما هو الشرك.

فالجهل بالشرك خطير جداً، والذين يقولون: علموا الناس التوحيد ولا تعلموهم الشرك، وليس هناك داعٍ لدراسة الطرق الضالة، والفرق الضالة، ويكفي التعرف على طريقة أهل السنة والجماعة. نقول لأمثال هؤلاء: هذا ضلال وخطأ، فلا بد من معرفة الحق، ومعرفة الباطل، من أجل أن يسلك الإنسان طريق الحق ويتجنب طريق الباطل، وإلا إذا لم يعرف الباطل فإنه يقع فيه وهو يظن أنه حق.



والله عَزَّجَلَّ خلق الثقلين ليعبدوه، فمنهم من فعل، ومنهم من أشرك وكفر؛ كما قال عَزَّجَلَّ في هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، يُبين أن حكمة الرب في خلقه للجن والإنس لا تقتضي أن كَلَّا يفعل ما تُخلق له، وأرسلت الرسل لأجله. ولهذه الحكمة أهلك الله من لم يعبدوه وحده ولم يقبلوا ما جاءت به رسله، وشرع قتالهم لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه، فمنهم من أطاع وهم الأقلون، ومنهم من عصى وهم الأكثرون.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

لا بد من إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، ولا بد من البراءة من الشرك وأهله، فلا يقل المسلم: ليس لي شأن بعبادتهم وشركهم عليهم. بل يجب على المسلم أن يبغضهم لما هم عليه من الكفر والشرك، وإلا لو كان العبد يحبهم ولا ينكر عليهم فهو قد سوغ ما هم عليه.

وبعض الناس يقولون: اتركوا الناس على عقائدهم، واجمعوهم باسم الإسلام فقط. فيريدون أن يجمعوهم على ما هم عليه من عبادة القبور من الصوفية، ومن البدع ومن سائر الفرق، على اسم الإسلام.

فنقول: هذا غلط، وهو غش وخديعة ومكر؛ لأن المتناقضات لا تجتمع أبداً، ولا بد من بيان الحق، رضي من رضي، وسخط من سخط، فمن أراد الله له الهداية قبل، ومن أراد الغواية والمكابرة يضل على بينة، فبعد البيان لا يصير

جاهلاً؛ بل يصير عارفاً، وتقوم عليه الحجة، وتبرأ منه الذمة، فلا يقول غداً عند الله: ما أتاني من نذير، وما بلغني الحق.

فقوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ يدل على أن الهداية بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يكفي أن يتعلم الإنسان ويعرف؛ بل لابد من الهداية من الله عَزَّجَلَّ، وإلا فإن كثيراً من المشركين عندهم علم ومعرفة، لكنهم لم يحصلوا على الهداية والتوفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والأصل أن الله عَزَّجَلَّ خلق الخلق للعبادة، فمن خرج عن هذا الأصل وعبد غير الله صار عبداً للشيطان، واستحق العقوبة من الله، فالذين ينادون الآن بحرية الأديان، وحرية العقائد، هذا كلام باطل، فليس هناك حرية في العقائد، ولا حرية في الأديان؛ بل الدين واحد، والعقيدة واحدة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وما خالفها فهو كفر وضلال.

ولهذا يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبلوا برق النفس والشيطان^(١)

من أبى أن يعبد الله ابتلي بعبادة غير الله عَزَّجَلَّ، وأذله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجعله عبداً لغير الله من الشهوات، والمحرمات، والطواغيت، وغير ذلك، هذه عقوبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالإنسان عبد مهما كان، إما أن يكون عبداً لله، وإما أن يكون عبداً للشيطان، ولا بد من هذا.



(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٤٦٦/٢).

وهذا التوحيد هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه؛ كما قال الكريم ابن الكريم يوسف ^(١) عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وأمر الرسل أن يقيموه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال لنبه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٦]، فأمره أن يعبده وحده، وأن يدعو الأمة إلى ذلك.

والقرآن كله في هذا التوحيد وبيانه وجزائه والرد على من جحدته كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

... — الشَّبَحُ — ...

التوحيد هو الإسلام؛ إسلام الوجه لله عَزَّجَلَّ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فلا يقبل الله إلا التوحيد، وكل الأديان

(١) كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، الذي أخرجه البخاري (٣٣٩٠) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْكُرَيْمُ، ابْنُ الْكُرَيْمِ، ابْنُ الْكُرَيْمِ، ابْنُ الْكُرَيْمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

المخالفة للتوحيد مردودة على أصحابها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، وهذا هو ما جاءت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم.
 قال: (كما قال الكَرِيمُ، ابْنُ الْكَرِيمِ) هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فهو من سلسلة أنبياء.

فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دخل السجن باشر الدعوة إلى الله في السجن، وهكذا أهل العلم وأهل الصلاح يتتهدون الفرص ويدعون إلى الله في كل مناسبة، فلما دخل السجن وجدهم يعبدون غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَنِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَنِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِ خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرىكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، استفتاه الفتيان، ولكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبادر بالفتوى حتى دعاهم إلى التوحيد، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىْ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، فذكر المؤهل وهو العلم الذي علمه الله إياه، ولم يغتر بنفسه، بل قال: ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىْ﴾ أثنى على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبين السبب فقال: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٧٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِىَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْحَجِي السَّجَنَ ءَازَبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿يوسف: ٣٧-٣٩﴾، بدأ بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، وهكذا دعوة الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، ثم قال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فالأمر له سبحانه والتدبير له سبحانه، هو الذي يأمر وينهى، وقد أمركم ألا تعبدوا إلا إياه، فما عليكم إلا الامتثال، وهذا أمر شرعي ديني، ليس أمراً كونياً.

ثم بعد أن فرغ من الدعوة جاء بتعبير الرؤيا، فقال: ﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، هكذا الدعاة إلى الله عزَّجَلَّ لا يتركون الدعوة في أية مناسبة وفي أي مجال، سواء كانوا في السجون أو خارج السجون أو في أي مكان، دائماً يحملون معهم الدعوة إلى الله عزَّجَلَّ.

الشاهد من هذا قوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ كما قال عزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والأمر هنا أمر ديني شرعي، وليس هو أمراً كونياً؛ لأنه لو كان أمراً كونياً لما تخلف عنه أحد، وإنما هو أمر شرعي متروك لاختيار الناس؛ لأن الناس يفعلون باختيارهم الشرك، ويفعلون باختيارهم التوحيد.

وجميع الرسل جاءت بالأمر بالتوحيد؛ لأن التوحيد هو الأساس، فدين بدون توحيد لا ينفع، وكل الأعمال الصالحة إذا لم تكن على التوحيد

والإخلاص فإنها باطلة، وهذا هو الدين الذي بعث الله به الرسل؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال عَزَّجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أي: من العباداة، فالذي شرع الدين هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجوز الإتيان بدين لم يشرعه الله، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣] هذا هو الدين الذي جاءت به كل الرسل، ولكنه سبحانه ذكر هؤلاء الخمسة لأنهم أولو العزم: أولهم نوح، ثم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

❁ قال: (والقرآن كله في هذا التوحيد وبيانه وجزائه والرد على من جحده)، فالقرآن لم يترك شيئاً يحتاجه الناس في أمور دينهم إلا وبينه لهم أتم بيان وأوضح بيان، قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦].

فهو هدى لجميع الناس؛ لأنه يدل على الخير ويبينه للناس، لكن إنما يهتدي به من اتبع رضوان الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه هداية خاصة، فاتباع رضوان الله سبب للهداية، أما من أعرض عن طاعة الله كان ذلك سبباً في ضلاله وعدم قبوله الهداية، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] كل هذه أوصاف لهذا القرآن العظيم الذي بين أيدينا، وهذه من أعظم أوصافه.

وفي حديث معاذ الذي رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، قال: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ عَلَى مَنْ يَسِرُّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١). فدل على أن الإسلام هو التوحيد، والفرائض من حقوقه.

وقد أجمع الفقهاء على أن الإسلام شرط لصحة الصلاة وغيرها من الأعمال، وهو مقتضى الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله، فمعنى شهادة لا إله إلا الله ترك الشرك والبراءة منه ومن فعله، وإخلاص العبادة لله وحده، والإيمان بالرسول وطاعته.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلٍ يَقْرِبُهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُهُ مِنَ النَّارِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ»؛ لِأَنَّ الَّذِي يُبْعَدُ عَنِ النَّارِ وَيُقْرَبُ مِنَ الْجَنَّةِ هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَهَمُّ مَا يُسْأَلُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٤٢٨/٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٢٣١/٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٠/٥)، والطبراني في الكبير (١١٦)، والحاكم في المستدرک (٤٤٧/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩/٣).

عنه ويُعْتَنَى به، فأمر التوحيد ومعرفته ومعرفة الشرك هو من أهم ما يسأل عنه المسلم.

وفي هذا رد على الذي يهونون من شأن التوحيد، ويقولون: الناس كلهم مسلمون ولا تتعرضوا لذكر التوحيد خشية أن تنفروهم، اتركوا الناس وعقائدهم، وادعوا إلى اجتماع الكلمة!!.

وهذا من العجيب، كيف يجتمعون والعقيدة متفرقة؟! هذا لا يمكن أبداً، لا يمكن أن تجمع بين الضدين أبداً: بين مشرك وموحد، بين مبتدع وسني، فنقول لهؤلاء الذين يهونون من شأن التوحيد: نعم جمع شمل المسلمين هذا أمر مهم وطيب، لكن ما الذي يجمع شمل المسلمين؟ لا يجمع شمل المسلمين إلا التوحيد وترك الشرك، والذي جمع بين صدر هذه الأمة من قبائل متفرقة وأجناس مختلفة وجعلهم أمة واحدة وإخوة متحابين ما هو إلا «لا إله إلا الله»، فجمع الله قلوبهم على الهدى لما أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ وتركوا الشرك.

لذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ»، يعني: من فعل السبب وأقبل على الله سهل الله له هذا العظيم ويسره عليه، فالشأن في إقبال القلب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورغبته في الخير، فمن كان راغباً في الخير، مقبلاً على الله، حريصاً على الخير، يسر الله له ما أراد.

فما هو هذا الأمر العظيم؟ قال: «تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» وهذا معنى الشهادتين؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله تدخل فيها شهادة أن محمداً رسول الله، وهذا هو الركن الأول من أركان الإسلام، ومعنى لا إله إلا الله هو: إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة وترك عبادة ما سواه.

قال: «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ»، أي: تقيم الصلوات الخمس بأن تأتي بها على الوجه المشروع: بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها، والخشوع فيها، وليس المراد مجرد هيئة الصلاة من ركوع، وسجود، وقيام وجلوس، بل المراد روح الصلاة وحقيقتها، بأن تكون صلاة صحيحة مستوفية لشروطها، وأركانها، وواجباتها، مكملة بالسنن، ولم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وتصلي)، بل قال: «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ»، وهذا كما جاء في القرآن: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وإقامة الصلاة على نوعين:

* إقامة ظاهرة بالإتيان بمشروعاتها من شروط وأركان وواجبات.

* إقامة باطنة بخشوع القلب فيها، وإقباله على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: «وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ» التي شرعها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في المال للفقراء والمساكين، «وَتَصُومُ رَمَضَانَ»، وذكر الحج، هذه أركان الإسلام الخمسة، فالعبد إذا أقام هذه الأركان فإنه يقيم ما عداها من باب أولى، وتقبل بقية الأعمال مع إقامة أركان الإسلام، أما إذا أخل بأركان الإسلام أو ببعضها فإنه لا تنفعه بقية الأعمال؛ ولذلك وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى إقامة هذه الأركان

الخمس، ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قال: بلى يا رسول الله - هذه زيادة فائدة - قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ»، فالتوحيد وإخلاص العبادة لله عَزَّجَلَّ هو رأس الأمر، وهو الأساس.

❁ قال: «وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ» عمود الإسلام الصلاة، مثل البيت لا يقوم إلا على عمود، فالإسلام لا يقوم إلا على الصلاة، فإذا فُقدت الصلاة لم يقم الإسلام، وهذا يدل على أهمية الصلاة، وأن الدين لا يقوم بدونها.

❁ قال: «وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» إذا تمت هذه الأمور كلها جاء الجهاد في سبيل الله عَزَّجَلَّ لإعلاء كلمة الله، ودحض الشرك وأهله.

فَبَيَّنَ أَنَّ جَمِيعَ الْفَرَائِضِ - الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وبقيّة الأعمال - من حقوق التوحيد ومكملاته، لكن أعمال بدون توحيد لا فائدة منها ولا قيمة لها، وكذلك إسلام بدون صلاة لا حقيقة له ولا فائدة منه، فلا تُقبل الصلاة ولا غيرها من الأعمال إلا بالإسلام - يعني بالتوحيد - كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، فالأعمال بدون توحيد لا قيمة لها ولا فائدة منها.

❁ قال: (وهو مقتضى الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله)؛ لأن مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله إخلاص العبادة لله

عَزَّجَلَّ، ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله متابعتة والعمل بشرعه، وترك البدع والمحدثات، فلا إله إلا الله تنفي الشرك، ومحمد رسول الله تنفي الابتداع في الدين. ولا يكفي نفي الشرك، بل لابد من البراءة من الشرك، فأنت وإن لم تفعل الشرك يلزمك أن تتبرأ من الشرك وأهله، فلا تحبهم، ولا تمدحهم، ولا تناصرهم، ولا تدافع عنهم، ولا تواليهم؛ لأنهم أعداء الله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١].

وتؤمن بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأن تصدقه فيما أخبر به، وتطيعه فيما أمر، وتترك ما نهى عنه وزجر، وألا تعبد الله إلا بما شرع، هذا معنى شهادة أن محمداً رسول الله، فليست هي مجرد لفظ يُقال باللسان، بل لابد من أن تشمل على هذه المعاني العظيمة حتى تكون شهادة صحيحة.



وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية

[الإسراء: ٢٣].

وهو معنى الآية الثالثة، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: أمر ووصى^(١)، فقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ فيه معنى (لا إله)، وقوله: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فيه معنى (إلا الله)، وهذا هو معنى كلمة الإخلاص؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وفسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]، فقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ فيه معنى (لا إله)، وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ هو المستثنى في كلمة الإخلاص.

فسبحان الله! كيف خفي هذا مع بيانه ووضوحه على الأذكياء من متأخري هذه الأمة؟!

... — الشَّبَحُ — ...

التوحيد هو معنى الآية الثالثة في هذا الباب والتي ذكرها الإمام المجدد رَحْمَةُ اللَّهِ، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (قضى) معناها أمر ووصى، وليس معناها حكم وقدر كما يقوله أهل الضلال؛ لأن الله لو قضى وقدر أن لا يعبد إلا إياه ما أشرك أحد من الخلق، لأنه لا يمكن لأحد أن يخالف قضاء الله وقدره، أما الأمر فالناس منهم من يفعله ويمثله ومنهم من

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/٤٦ - ٤٨).

يُخَالِفُهُ، وكذلك التوحيد، معنى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمر أمراً شرعياً ووصى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ. والقضاء في اللغة يُطلق على عدة معانٍ^(١):

منها: الأمر، والخبر؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، يعني: أخبرناهم، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، يعني أخبرناه بذلك، فالقضاء له عدة معانٍ منها الأمر.

ومنها: الفراغ؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَّتُمُ الصَّلَاةُ﴾ [النساء: ١٠٣] يعني: فرغتم، وقوله: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] يعني: فرغ من خلق السماوات والأرض ومنها: قضاء الصلاة الفاتية إذا فاتت.

فالقضاء له عدة معانٍ ولا يقتصر معناه على القضاء الذي هو القدر، فيُحْمَلُ قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ على أنه الأمر الشرعي، أي: أمر ووصى، ومن فسرهُ بأنه حكم وقدر فقد ضلّ ضلالاً مبيناً؛ لأنه لو كان كذلك ما كفر أحد من الخلق، ولا أشرك أحد من الخلق؛ لأن قضاء الله وقدره لا يمكن لأحد أن يخالفه، إنما أمره وشرعه يمكن أن يمثله من أراد الله هدايته، ويتركه من أراد الله غوايته، وهذا من باب الابتلاء والامتحان.

❁ قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أمر ووصى سُبْحَانَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ بأن تخلصوا له العبادة، وإذا جاءت (لا) و(إلا) فمعناها الحصر، فقولهُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فيه حصر العبادة لله عَزَّجَلَّ ونفيها عما سواه،

(١) انظر: لسان العرب (١٥/١٨٦، ١٨٧)، ومختار الصحاح (ص ٢٢٦).

مثل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فيها (لا) النافية، و(إلا) الاستثنائية، ففيها الحصر، وهذا الذي أمر به الله عَزَّجَلَّ في كتابه وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تكون العبادة لله وحده، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وهذه الآية تفسر آية الإسراء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن المراد بالقضاء هو الأمر.

وكلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) سميت بكلمة الإخلاص لأن معناها إخلاص العبادة لله عَزَّجَلَّ، فهي ليست مجرد كلمة تُقال باللسان، ولا يُعرف معناها، ولا يُعمل بمقتضاها؛ بل هي كلمة عظيمة لها معنى ولها مقتضى، وقد سبق كيف أن مشركي قريش وهم فصحاء العرب أبوا أن يقولوها؛ لأنهم فهموا أن معناها إفراد الله بالعبادة وترك عبادة الأوثان، وهم لا يريدون ذلك، إنما يريدون أن يبقوا على عبادة الأوثان، فهم فهموا معنى لا إله إلا الله وأنها ليست مجرد لفظ يقال باللسان فقط، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿[الصفافات: ٣٥-٣٦].

والعجب أن كثيراً ممن ينتسبون اليوم إلى الإسلام لا يفهمون معنى (لا إله إلا الله)، فتجدهم يقولونها ويعبدون الحسن، والحسين، وعبد القادر^(١)،

(١) هو أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله الجيلي الحنبلي شيخ بغداد، نسبة إلى جيل، وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان، ويقال لها أيضاً جيلان وكيلان، مولده بها سنة إحدى وسبعين وأربع مائة، وهو من سادات مشايخ الصوفية، وتُنسب إليه الطريقة القادرية من طرق الصوفية المعروفة المشهورة، قال عنه ابن كثير: «كان فيه تزهّد كثير وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات =

والبدوي.. إلى غير ذلك، فيذبحون لهم، وينذرون لهم، ويستغيثون بهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله، وما فهموا معنى (لا إله إلا الله)، وينسبون أنفسهم إلى الإسلام، وهذه مصيبة عظيمة أن الإنسان ينتسب إلى شيء ولا يعرفه ولا يحققه.

❁ وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٤٦] دل على أنه ليس كل من قال: (لا إله إلا الله) قد حقق التوحيد، وليس كل من تعلم أيضًا يعرف معنى (لا إله إلا الله)، فإذا كان أهل الكتاب يجهلون معنى لا إله إلا الله، فلا تستغرب أن يكون في المسلمين اليوم علماء يجهلون معنى لا إله إلا الله، ولما أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ»^(١) مع أنهم أهل كتاب صاروا بحاجة إلى أن يُدعوا إلى لا إله إلا الله، فدل على أن العالم قد لا يعرف معنى لا إله إلا الله وهو عالم، وهذه مصيبة عظيمة ناتجة عن عدم الاهتمام بهذا الأمر العظيم الذي هو أساس الدين وطريق النجاة.

= أكثرها مغالاة، وقد كان صالحًا ورعًا» اهـ. وقال الذهبي في آخر ترجمته: «وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن، وعليه مأخذ في بعض أقواله ودعاويه - والله الموعد - وبعض ذلك مكذوب عليه» اهـ. من مصنفاته: «الغنية لطالب طريق الحق»، و«فتوح الغيب»، و«الفوضات الربانية»، توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة. انظر: الأنساب (١٤٦/٢)، وسير أعلام النبلاء (٤٣٩/٢٠)، والعبر (١٧٥/٤)، والبداية والنهاية (٢٥٢/١٢)، وشذرات الذهب (١٩٨/٤).

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❖ قوله: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابُ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى، وفي وصفهم بأنهم أهل الكتاب تعيير لهم أنهم أهل كتاب ومع هذا لا يعملون بكتابهم، ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: أقبلوا، ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ كلمة واحدة ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ فاصلة في الخصومة قاطعة للنزاع بيننا وبينكم ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ هذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو الذي خُلق من أجله جميع الخلق، ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ كاتخاذهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهًا يعبدونه ويقولون: إنه ابن الله - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - وكما اتخذت اليهود أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله؛ يشرعون لهم، ويحللون لهم، ويحرمون، فيطيعونهم من غير دليل من كتاب أو سنة، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ولم يستجيبوا وبقوا على ما هم عليه ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، هذا فيه البراءة منهم ومن دينهم، وإعلان التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ.



وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، هذه الآية تبين العبادة التي خلقوا لها أيضًا؛ فإنه عزَّ وجلَّ قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه، وهو الشرك في العبادة، فدلَّت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة، فلا تصح بدونه أصلاً؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] هذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة:

أولها: حق الله عزَّ وجلَّ.

والثاني: حق الوالدين.

والثالث: حق القرابة.

ثم تأتي بقية الحقوق إلى عشرة، كلها مذكورة في هذه الآية.

❖ فقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا هو معنى (لا إله إلا الله)، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هو معنى الإِثْبَات (إلا الله)، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا هو معنى النفي (لا إله)، ففيها معنى (لا إله إلا الله) التي هي كلمة الإخلاص، ولا تكفي العبادة فقط، بل لابد من تجنب الشرك؛

لأن المشركين كانوا يعبدون الله أيضاً، فيحجون، ويتصدقون، ويخدمون البيت العتيق، ويخدمون الحجاج، ويعملون أنواعاً من القربات، ويكرمون الضيف، ويحسنون إلى الجار، وعندهم أنواع من العبادات لكنها لا تنفعهم؛ لأنهم يشركون بالله عَزَّجَلَّ، فالشرك يُبطل هذه العبادات كلها.

فلا يكفي أن الإنسان يعبد الله، بل لابد أن يترك عبادة ما سواه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع مع عدم الكفر بالطاغوت.

وهذا أمر يجب الانتباه إليه؛ لأن البعض يقول: إن حال الناس الذين عند القبور، يكون، ويصلون، ويصومون، ويحجون، ويتضرعون، فهل تذهب أعمالهم هباء؟ أليسوا مسلمين؟ نقول: لا، ما هم بمسلمين؛ لأنهم يشركون بالله عَزَّجَلَّ، فالشرك يُحبط الأعمال، فالإنسان قد يصوم، ويصلي، ويحج، ويصل الرحم، ويبر الوالدين، وهو مشرك؛ والشرك يحبط الأعمال، فتكون هباءً ماثوراً يوم القيامة لاقيمة لها.

كما لو صلى الإنسان وهو محدث، أو أحدث وهو يصلي، فلا تصح صلاته؛ لبطلان شرط من شروطها وهو الطهارة، فكذلك إذا أشرك العبد بطلت عبادته كما يُبطل الحدث الصلاة.

❁ قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٨]، لو أشرك هؤلاء الأنبياء لحبطت أعمالهم وهم أنبياء، وهذا من باب الفرض، وإلا فمعلوم أن الأنبياء لا يشركون، لكن لو أشرك الأنبياء على شرفهم وشرف مقامهم، لحبطت أعمالهم، فكيف بغيرهم؟!

والشرك ليس خاصًا بعبادة الأصنام كما يقوله بعض المغرورين، بل إن عبادة القبور، والاستغاثة بالأموات، والذبح لهم، والتقرب إليهم، هذه عبادة الأصنام، فلا فرق بين اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وهذه القبور التي تعبد من دون الله عَزَّجَلَّ؛ لأن الشرك هو عبادة غير الله، سواء كان صنمًا، أو شجرًا، أو مع الأحجار أو مع القبور، أو مع البشر، أو مع الأنبياء، أو مع الأولياء والصالحين، كله شرك بالله عَزَّجَلَّ.



وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿[الزمر: ٦٥-٦٦]، فتقديم المعمول يفيد الحصر، أي: بل الله فاعبد وحده لا غيره؛ كما في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقرر عَزَّجَلَّ هذا التوحيد بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. والدين هو العبادة بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه؛ كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثان^(١)

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة، فلا تغفل عما تقدم.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

❁ قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ مثل قوله عَزَّجَلَّ لما ذكر ثمانية عشر من الأنبياء، قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وفي هذه الآية يقول عَزَّجَلَّ لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي أوحى الله إليك ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ﴾ أي دعوت غير الله عَزَّجَلَّ، ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ليبطلن عملك ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿[الزمر: ٦٥-٦٦]، فإذا كان هذا موجهًا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لو أشرك لحبط عمله، وحشاه أن يشرك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن هذا من باب تحذير الأمة، فهذه الآية لا تستثني أحدًا، فكل من أشرك بالله عَزَّجَلَّ شرًّا أكبر فعمله باطل مهما كلف نفسه به،

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٨٣).

ولم يكن هذا خاصًا بأهل الجاهلية؛ بل هو عام لكل من أشرك بالله إلى أن تقوم الساعة.

❖ قوله: ﴿بَلِ اللَّهِ﴾ تقديم المعمول الذي هو المنصوب مفعول لـ ﴿فَاعْبُدْ﴾ الأصل: فاعبد الله، فقدم المفعول على الفعل من باب الحصر أي لا تعبد غيره، مثل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أصله نعبدك، فقدم المعمول ليفيد الحصر أي لا نعبد سواك، فتقديم المعمول هنا يفيد حصر عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ ونفيها عما عداها.

❖ قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: قل يا محمد للناس أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمرني بالتوحيد، وهذا يفسر - كما ذكرنا - قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وأن المراد بالقضاء هنا الأمر، فالله عَزَّ وَجَلَّ أمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية بالتوحيد، وكذلك في الآيات التي بعدها: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (١٤) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤-١٥]، وهذا إعلان أمر الله به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبيان براءته من عبادة المشركين، وأنه يعبد الله وحده لا شريك له، وأن هذا دينه وهذه ملته.

والدين هو العبادة وهو الدعاء، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، فسمى الدين عبادة وسمى العبادة دينًا، وفي قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٠] سمي الدعاء دينًا.

❖ قال: (كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثمان)



أي أن دين الله عَزَّجَلَّ أَمْرٌ وَنَهْيٌ: أمر بالتوحيد والطاعات والعبادات، ونهي عن الشرك والمعاصي، والله سبحانه يجازي على هذا الدين، فيجازي أهل العبادة والتوحيد بالجنة، ويجازي أهل الشرك بالنار.

❁ قال: (وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة)، أي: توحيد الألوهية، وهو أفراد الله بالعبادة، أما توحيد الربوبية فهذا لا يكفي، وهو الذي يقر به الكافرون والمشركون، فلم ينفعهم إقرارهم به لما كانوا يشركون في العبادة.



وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي: حرم عليكم الشرك الذي نهاكم عنه بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فالشرك أعظم ذنب عصي الله به: أكبره وأصغره.

وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك، الذي هو أعظم المحرمات؛ كما وقع في الجاهلية قبل مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عبدوا القبور، والمشاهد، والأحجار، والأشجار، والطواغيت، والجن؛ كما عبد أولئك اللات، والعزى، ومناة، وهبل، وغيرهم من الأصنام والأوثان، واتخذوا هذا الشرك ديناً، ونفروا إذا دُعوا إلى التوحيد أشد نفرة، واشتد غضبهم لمعبوداتهم؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

لما ذكر الله في سورة الأنعام تخرصات أهل الجاهلية، وخوضهم في الحلال والحرام، وأنهم حرموا أشياء من الطيبات، واستباحوا أشياء من المحرمات، فاستباحوا الميتة وأكلوها، وحرموا أنواعاً من بهيمة الأنعام، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ جِجْرُ﴾ [الأنعام: ١٣٨] يعني: ممنوعة محرمة، وكذلك الزروع حرموا شيئاً منها، فهذا تحريم من عند أنفسهم لم يشرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ

لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴿[الأنعام: ١٣٨]، أي: لا يركبونها يذبونها للأصنام والأحجار والأشجار، فلما خاضوا في هذا الأمر وحلّلوا وحرّموا من عند أنفسهم قال الله عَزَّجَلْ لنبیه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أي: أقبلوا وهلموا إليّ؛ ذلك لأن الإنسان لا يستفيد إلا مع الإقبال إلى المعلم والداعية إلى الله عَزَّجَلْ، أما المعرض فلا يستفيد.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: اقرأ ما حرم ربكم عليكم من كتاب الله عَزَّجَلْ، فليس هو من الأهواء والتخرصات والظنون، ولا من تقليد الآباء والأجداد من غير دليل؛ بل هو وحي الله عَزَّجَلْ.

ثم بدأ بالشرك فقال: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وهذا هو أعظم المحرمات بدأ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي ضمنه الأمر بإفراد الله عَزَّجَلْ بالعبادة، وهذا حق الله عَزَّجَلْ، ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] هذا هو الحق الثاني؛ كما في قوله عَزَّجَلْ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ثم ذكر عشر وصايا في هذه الآيات الثلاث إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ ولذلك سُميت بآيات الوصايا العشر: أولها الوصية بعبادة الله وترك عبادة ما سواه، وآخرها اتباع الصراط المستقيم.

❁ قال: (وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك، الذي هو أعظم المحرمات) أعظم الذنوب هو الشرك ولذلك لا يغفره الله، فإن الذنوب التي هي غير الشرك تحت المشيئة، إن شاء الله غفرها وإن شاء عذب بها، أما الشرك فلا يُغفر، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فدل على أن الشرك هو أخطر الذنوب وأكبرها.

وأكثر متأخري هذه الأمة في هذا الشرك، أما السابقون الأولون من السلف الصالح فلم يقعوا في شيء من هذه الأمور، فانتشرت في القرون المتأخرة عبادة القبور، ودعاء غير الله عَزَّجَلَّ، والذبح والنذر لغير الله، وعادوا إلى الشرك الذي كانت عليه الجاهلية الأولى.

وأول من دس الشرك في الإسلام الشيعة الفاطمية^(١) الذين استولوا على بلاد المغرب ومصر، وعلى أصقاع كبيرة من بلاد المسلمين، فبنوا المشاهد على القبور، وأسرجوها، ونمقوها، وزخرفوها، حتى افتن الناس بها وتعلقوا بها، وصاروا يدعونها من دون الله عَزَّجَلَّ، فحدث الشرك في هذه

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى (٢٧ / ١٦٧): «لم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور، وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك، ومن بدع الجهمية والمعتزلة والرافضة ما هو معروف لأهل العلم، فبنوا المشاهد المكذوبة؛ كمشهد علي رَحِمَهُ اللهُ عَنَّةَ وأمثاله، وصنف أهل الفرية الأحاديث في زيارة المشاهد والصلاة عندها والدعاء عندها وما يشبه ذلك، فصار هؤلاء الزنادقة وأهل البدع المتبعون لهم يعظمون المشاهد ويهينون المساجد، وذلك ضد دين المسلمين، ويستترون بالتشيع» اهـ.

الأمة بسبب الغلو في الصالحين، والغلو في الأموات، وبناء المساجد على قبورهم، ثم قلدهم الصوفية والخرافيون من غير الشيعة، فصاروا يبنون على القبور، والمسجد الذي لا يوجد فيه قبر ليس له قيمة عندهم، فلا يذهبون إلى المساجد الخالية من القبور.

وهذه فتنة والعياذ بالله، فأول من أظهر هذا هم أعداء الله الشيعة^(١) الذين اندسوا في الإسلام لإفساده، وهم صنعة من صنائع اليهود، أو من صنائع المجوس؛ لأن الشيعة على قسمين:
* شيعة من صنائع المجوس.

(١) «الشيعة»: هم الذين شايعوا علياً عليه السلام على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده، وهم ثلاث طوائف:
الأولى: الغالية، وإنما سموها الغالية لأنهم غلوا في علي عليه السلام وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم خمس عشرة فرقة.

الثانية: الروافض، سموها «روافض» لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر عليهما السلام، ويقال: سموها بالروافض لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام منع عسكره من الطعن على أبي بكر عليه السلام، فرفضوه، فقال: رفضتموني؟ قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم، وهم مجمعون على أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف على بن أبي طالب عليه السلام ونص عليه باسمه وأعلن ذلك، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

الثالثة: الزيدية، وإنما سموها زيدية لتمسكهم بقول زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقد كان يفضل على بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتولى أبا بكر وعمر، وهم ست فرق.

انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٥ وما بعدها)، والملل والنحل (ص ١٤٦)، والفرق بين الفرق (ص ١٥)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركون (ص ٥٢)، والتعريفات (ص ١٧١).

* وشيعة من صنائع اليهود.

يتعاونون فيما بينهم بدعوى حب أهل البيت على تفريق المسلمين، وأعانهم على ذلك الصوفية من المتسبين للسنة، الذين ليسوا شيعة في الأصل لكن يحبون القبور ويحنون إليها، فتعاونوا مع هؤلاء الشيعة وقاموا ببناء هذه القباب على القبور، ويحثون عليها ويحنون إليها كأنهم عطشى ممنوعين من الماء البارد، ويدعون إليها بحجة إحياء الآثار، ويقولون: هذه آثار الصالحين لماذا تُطمس؟

وما هي إلا وسيلة إلى الشرك، فهي أولاً تسمى آثاراً، ثم يُقال: إن فيها بركة، ثم في النهاية تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مكر وحيلة وإرادة شر بالمسلمين، ويجب التنبه لهذه الأمور وعدم التساهل فيها.

فقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَام ماذا عبدوا الأصنام؟ الجواب: لأنهم عظموا الموتى؛ عظموا الصالحين - وذاً وسواهاً ويغوث ويعوق ونسراً - عظموهم وغلوا في حقهم حتى عبدوهم من دون الله^(١).

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٤٩٢٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَأُ كَانَتْ لِهَذِيلٍ، وَأَمَّا يَغُوثٌ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لَبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَا، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحَمِيرٍ لَالٍ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوَهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ». وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٧٥، ٣٣٧٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٤)، والدر المنثور (٨/ ٢٩٤).

وهذا هو الواقع اليوم وهو الغلو في الصالحين، يقولون: فلان ولي من أولياء الله، فإذا مات بنوا على قبره قبة، ووضعوا عليه الزخارف والأستار والمباخر، وجعلوا عليه سدنة وصناديق للصدقات والتبرعات، فصارت القبور أصنامًا مثل اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وقوم نوح إنما أشركوا بسبب الغلو في الصالحين، فالخطة واحدة وهي شيطانية من قديم الزمان وحديثه.

فالواجب على المسلمين أن يصمدوا وأن ينهوا عن الغلو وعن إحياء آثار الصالحين والمعظمين؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، لكن الشيطان يقول لهم الآن: هذه آثار تاريخية ترون فيها حضارة الأولين. ثم بعد ذلك يقول لهم: هذه ليست مجرد آثار تاريخية، هذه أصحابها ينفعون ويضرون ويقضون الحاجات. ثم يبنون عليها فتصير أصنامًا تعبد من دون الله.

فيجب التنبه لمثل هذه الأمور ولكيد شياطين الإنس والجن، وسد الذرائع المفضية إلى الشرك والكفر، والشرك والكفر إنما يأتیان شيئاً فشيئاً، فإذا فُتحت الذرائع ووسائل الشرك جاء الشرك ولو متأخراً.

فلا فرق بين شرك هؤلاء المنتسبين للإسلام، وبين شرك أهل الجاهلية؛ لأنه كله عبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وما كان عبادة لغير الله فهو شرك، سواء كان المعبود قبراً أو شجرة أو حجراً أو صنماً أو حيّاً أو ميتاً.

ثم يقولون هذا هو الإسلام؛ لأنه تعظيم للصالحين، واعتراف بفضلهم، واقتداء بهم، فالبسوا الإسلام لباس تعظيم الصالحين واحترام الصالحين، ولا يسمونه شركاً.

وأبغض ما عليهم هؤلاء القبوريين الآن الدعوة إلى التوحيد؛ لأن فيها إبطاً لما هم عليه، وهم لا يريدون ذلك؛ كما ذكر الله عَزَّجَلَّ في أسلافهم: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، فإذا دعاهم مسلم إلى التوحيد قالوا: هذا وهابي، أو هذا من الخوارج^(١)، أو هذا متشدد، أو متطرف، إلى آخر هذه الألقاب، لينفروا الناس عن دعوة التوحيد؛ لأن التوحيد عندهم هو عبادة القبور، ودعاء غير الله عَزَّجَلَّ هو الإسلام عندهم، وهو التوحيد، وما خالفه هو الشرك عندهم، نسأل الله العفو والعافية.

وهذا معروف وموجود في كتبهم أنهم يحذرون من التوحيد ومن دعوة الرسل، ويأمرون بالشرك صراحة، لكنهم لا يسمونه شركاً، إنما يسمونه بأسماء مزخرفة؛ ليغروا العوام والجهال بذلك.

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْفَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصَوْمَهُ مَعَ صَوْمِهِمْ، يَمُرُّونَ مِنَ الَّذِينَ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ»، أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

وإذا قلت لهم أخلصوا العبادة لله؛ فإنهم يستنكرون هذا ويقولون: أنت تكفرنا؟ بل الذي كفرهم هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى حيث حكم على من عبد غيره ودعا غيره بأنه كافر ومشرِك، فأنقذوا أنفسكم إذا كنتم تريدون النجاة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني بيوم القيامة والبعث والجزاء ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من المعبودات التي يعظمونها كالحسن والحسين، وأهل البيت، والبدوي، والعيدروس^(١)، وغيرهم، إذا ذُكروا وأُثني عليهم فرحوا بذلك ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويفرحون بهذا الشيء.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذا الذي ذكره الله عَزَّجَلَّ في المشركين الأولين هو موجود الآن في المشركين المتأخرين الذين ينتسبون إلى الإسلام، أنهم يفرحون بمن يثني على معبوداتهم، ويزكي أعمالهم، ويمدحهم، ويبغضون من نصحهم، وأراد لهم النجاة، وأراد لهم الرجوع إلى الخير يغضبون عليه، ويكرهونه، ويلقبونه بالألقاب الشنيعة، لكن هذا لا يضر أهل التوحيد وأهل الإخلاص بإذن الله، وقد قيل في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه شاعر، ومجنون، وساحر، وكذاب، ومعلم، إلى آخر ما قالوه، وما ضره ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما ضر دينه.

(١) هو أبو بكر بن عبدالله بن أبي بكر العيدروس، من أقطاب الصوفية، ولد بمدينة تريم بحضر موت سنة اثنتين وخمسين وثمانائة، طاف بأجزاء من حضر موت حتى دخل عدن في الثالث عشر من ربيع الثاني، سنة تسع وثمانين وثمانائة، فاتخذ الصوفية ذلك التاريخ موعداً لزيارة قبره في مسجده الذي قام ببنائه العيدروس نفسه سنة تسعين وثمانائة، فصار قبره ملتقى لأهل الزيف والإلحاد يدعونه من دون الله، ويطلبون منه ما لا يقدر عليه إلا الله، والله المستعان. توفي سنة أربعة عشر وتسعمائة. انظر: النور السافر (ص ٧٧).

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾
 [الإسراء: ٤٦]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾
 ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصفات: ٣٥-٣٦].

... — الشَّبَحُ — ...

كذلك هذه الآية مثل آية التنزيه ﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ﴾
 إذا ذكرت التوحيد وإفراد الله بالعبادة ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾ معرضين؛
 لأنهم لا يريدون ترك ما هم عليه، وهذه هي المصيبة التي أهلكت كثيرًا من
 الأمم: التعصب للباطل، والحمية الجاهلية، والواجب على الإنسان الذي
 يريد النجاة أن يقبل الحق، ويدور مع الحق أينما دار، فإذا كان ما هو عليه حقًا
 حمد الله على ذلك وسأله الثبات، وإذا كان ما هو عليه باطلاً فإنه يتركه ويقبل
 الحق، ويسارع بإنقاذ نفسه من النار.

والدعاة إلى الله هم أنصح الخلق للخلق، وأحرصهم على نفع الخلق،
 وما جاءوا ليضروا الناس، إنما جاءوا لينفعوا الناس وينقذوهم من الهلاك.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ
 إِنَّا لَتَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ هذا القرآن يصدق بعضه بعضًا، ويوافق
 بعضه بعضًا، وهذه آيات من سور مختلفات كلها تتوارد على موضوع واحد،
 يقول عَزَّجَلَّ عن أهل النار في أول سورة الصفات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ يعني في
 الدنيا، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهذه كلمة تثبت التوحيد
 وتنفي الشرك، فهم يستكبرون عن هذه الكلمة ولا يقبلونها ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا

لَتَارِكُوا إِلَهَتَنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونِ ﴿ يفهمون أن معنى (لا إله إلا الله) ترك آلهتهم؛ لأنهم عرب فصحاء يعرفون معنى الكلام العربي، أو عرفوا أن (لا إله إلا الله) تثبت التوحيد الخالص وتنفي الشرك، وأن من قالها يجب عليه أن يعمل بها، وإلا يصير كاذبا، وهم لا يريدون التنافر والكذب، وكثير من المسلمين في الوقت الحاضر لا يعلمون معنى (لا إله إلا الله)، يقولونها وبيقون على عبادة غير الله، لا يأنفون من التناقض والعياذ بالله..

كيف يقولون: (لا إله إلا الله)، ثم يقولون: يا عبد القادر، أو يا بدوي، أو يذبحون لغير الله أو يندرون لهم، أو يصرفون أنواعا من العبادات لغير الله؟ فما معنى قولهم: (لا إله إلا الله)؟ هذا يعني تناقض فعلهم مع قولهم، وما هذا إلا فعل المجانين، ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا إِلَهَتَنَا ﴾ يعني: إذا قلنا هذه الكلمة تركنا آلهتنا؛ كما في الآية الأخرى لما قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، قالوا: ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] لأن معنى (لا إله إلا الله) أن تُجعل الآلهة إلهًا واحدًا، وهم لا يريدون إلهًا واحدًا، إنما كل قبيلة وكل فرد وكل بلد له أصنام، وله معبودات من دون الله عَزَّجَلَّ.

❁ قال عَزَّجَلَّ: ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا إِلَهَتَنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونِ ﴾ يعنون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفوه بأنه شاعر، وحاشا وكلا أن يكون شاعرا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا الذي نزل عليه شعر، بل هو قرآن مجيد؛ كلام الله عَزَّجَلَّ، وما عُرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشعر، ولا يُحسن الشعر أيضًا، قال عَزَّجَلَّ:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، ما ينبغي له الشعر، وقال:
 ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [٣٣٤] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ
 يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦] هذا شأن الشعراء، والرسول
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأه الله من ذلك.

قالوا: ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعني: مصاب بالجنون، سبحان الله! كيف
 يكون شاعراً، ويكون مجنوناً؟ هل المجنون يكون شاعراً؟!، لكنهم ليس
 عندهم بصيرة ولا عندهم أنفة، وإنما قصدهم السباب، والإنسان إذا صار
 يسب لا يدري الذي يقول، فيأتي بالفاظ لا يدري ما هي، فهم تارة يقولون
 شاعر، وتارة يقولون مجنون، وتارة يقولون مُعَلَّمٌ علمه غيره... إلى آخر
 ما يقولون.

وفي النهاية تبين أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق مصدوق ليس بشاعر ولا مجنون،
 فهل إذا كان شاعراً مجنوناً يظهر دينه هذا الظهور ويغطي مشارق الأرض
 ومغاربها؟ لو كان شاعراً مجنوناً ما تعدى قوله فمه، ولا تبعته الدنيا كلها في
 المشارق والمغارب.



علموا أن لا إله إلا الله تنفي الشرك الذي وقعوا فيه، وأنكروا التوحيد الذي دلت عليه، فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة - لا إله إلا الله - من أكثر متأخري هذه الأمة، لاسيما أهل العلم منهم الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام، فجهلوا توحيد العبادة، فوقعوا في الشرك المنافي له وزينوه، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه، فوقعوا في نفيه أيضًا، وصنفوا فيه الكتب؛ لاعتقادهم أن ذلك حق، وهو باطل.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال: (فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة - لا إله إلا الله - من أكثر متأخري هذه الأمة)، فقد يكون عالمًا متبحرًا في النحو والفقه والبلاغة والعلوم، لكنه في التوحيد صفر ليس عنده شيء، وعقيدته مبنية على علم الكلام وعلم المنطق، ليست مبنية على قال الله وقال رسوله، ولا يثبت إلا توحيد الربوبية الذي أثبتته المشركون، أما توحيد الإلهية وإفراد الله بالعبادة هذا لا يدور في كتبهم، وهم علماء، فصار المشركون الأولون أعلم منهم بـ (لا إله إلا الله)، ولهذا يقول الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ في كشف الشبهات: «لا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله»^(١).

فهم لهم دراية في الفقه، وعلم الحديث، ومنهم محدثون أيضًا، ولهم دراية في التفسير، وفي علم اللغة، ومع هذا هم في التوحيد صفر ليس عندهم شيء، بدليل أنهم ما اهتموا به ولا دعوا إليه ولا قاموا به، ويرون أن التوحيد

(١) انظر: مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في العقيدة (ص ١٥٥).

هو أن تُقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت فقط ويصرحون بهذا، هذا أقرب به المشركون من قبل، وليس هذا هو التوحيد المطلوب، ومن يقرأ أي كتاب من عقائد علماء الكلام يجد أنهم يركزون على توحيد الربوبية فقط، ثم إنهم أيضًا لا يستدلون بآيات أو أحاديث، وإنما يأتون بعلم الجدل، فيقولون: لو كان كذا لكان كذا، ولو كان كذا... إلى آخره.

ويقولون: هذا هو الإسلام!!، وهذا من جهلهم بمعنى الشرك؛ لأن من جهل شيئاً وقع فيه، وهذه مصيبة أن يجهل الإنسان الشرك ويقول: أنا موحد، وأنا مسلم. فيقع فيه، وما أحسن قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر يقع فيه^(١)

ولهذا يقول حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مُحَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي»^(٢)، هذا هو الفقه العظيم.

كذلك توحيد الأسماء والصفات جهلوه وأنكروه، وقالوا: هذه الآيات التي فيها الأسماء والصفات ليست على ظاهرها؛ لأن ظاهرها التشبيه والتجسيم. يسمونه تشبيهاً وتجسيماً، فيما أن يفوضوها، ويقولوا: ليس لها معنى معروفاً، وإما أن يؤولوها إلى معان أخرى غير معانيها الصحيحة،

(١) هذا البيت منسوب للشيخ علاء الدين القونوي علي بن إسماعيل بن يوسف الإمام العلامة القدوة الشافعي، قاضي القضاة بدمشق، ولد سنة ثمان وستين وستمائة بقونية من بلاد الروم، وتوفي بدمشق سنة تسع وعشرين وسبعمائة. انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات (١٤٨/٢٠)، والدرر الكامنة (٢٩/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

فعطلوا أسماء الله وصفاته من مدلولاتها؛ لأنها عندهم تقتضي التشبيه والتجسيم، وهل الله عَزَّجَلَّ يخاطب العباد بشيء فيه تجهيل وتضليل؟ هذا تجهيل وغش يُنزّه الله عَزَّجَلَّ عنه.

ولهذا يقول بعضهم: (القرآن كله شرك)^(١)، لماذا؟ لأنه كله توحيد، والتوحيد عندهم يسمونه شركاً، والشرك يسمونه توحيداً، وهذا انتكاس في الفطر والعياذ بالله، ويقول بعضهم عن كتاب «التوحيد» لابن خزيمة^(٢) الإمام الجليل إمام الأئمة، يقول: هذا كتاب الشرك. لماذا؟ لأنه يثبت الأسماء والصفات لله، وعندهم إثبات الأسماء والصفات لله شرك؛ لأنه تجسيم وتشبيه!!
انظر كيف يعمي الله عَزَّجَلَّ البصائر، وينكس الفطر، عقوبة لمن أصر على الباطل ورفض الحق.

(١) نُسب هذا القول لأبي الربيع سليمان بن علي بن عبد الله، المعروف بالعفيف التلمساني، المتوفى سنة تسعين وستائة؛ كما يُنسب إليه أيضاً عظام في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض والعياذ بالله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والتلمساني الملقب بالعفيف كان من أفجر الناس، وكان أحذق هؤلاء الملاحدة، ولما قرئ عليه كتاب فصوص الحكم لابن عربي، قيل له: هذا الكلام يخالف القرآن، قال: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا» اهـ. انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٥٠٠)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٢٠١)، والبداية والنهاية (١٣/ ٣٢٦)، وشذرات الذهب (٥/ ٤١٢).

(٢) هو الإمام الحافظ الحجة الفقيه شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري الشافعي صاحب التصانيف، قال عنه أبو حاتم: «ما رأيت على وجه الأرض من يحفظ صناعة السنن، ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها، حتى كأن السنن كلها بين عينيه، إلا محمد بن إسحاق ابن خزيمة فقط» اهـ، وقال الإمام أبو العباس بن سريج -وذكر له ابن خزيمة-: «يستخرج النكت من حديث رسول الله بالمنقاش» اهـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٥ - ٣٧٣)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٧٢٠ - ٧٢٨)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٦٢).

وقد اشتدت غربة الإسلام حتى عاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، فنشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(١).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

الذين يَدْعُونَ الإسلام هم الآن بالمليارات، لكن الإسلام الصحيح الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا قليل وغريب بين أهله المنتسبين إليه، ومن قام به عودي، وحورب، وجُهل، ولُقِّبَ بالألقاب الشنيعة، ووجه إليه أفظع التهم والافتراءات، ولم يسلم من ذلك الأنبياء ولا أتباعهم، كلهم يُتَّهَمُونَ إذا دعوا إلى الله، وأنكروا ما عليه أهل الباطل، تُوجَّهُ إليهم التهم بأنهم يريدون الملك والرياسة، ويريدون الأموال، والرياء والسمعة، وأنهم سحرة، وأنهم مجانين؛ كما هو مذكور في القرآن من أقوال الكفار في اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، خصوصاً نبينا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بمن دونه من أهل العلم؟

مثل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لما دعا إلى دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتهموه، وكذبوا عليه وافتروا عليه، وانظر إلى ما كتبه دحلان^(٢)

(١) أخرجه مسلم (١٤٥، ١٤٦) من حديث أبي هريرة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) هو أحمد بن زيني دحلان، ولد بمكة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف، ومات في المدينة سنة أربع وثلاثمائة وألف، له مؤلفات تنضح بالكذب والافتراء، وقد رد عليها كثير من علماء السنة والجماعة، ومن أحسن هذه الردود: رد الشيخ العلامة محمد بشير السهسواني الهندي المتوفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف، في كتابه: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان».

في كتابه «الدرر السنية في الرد على الوهابية»، فقد ادعى أن الشيخ كان يضمّر أن يدعي النبوة، لكن لما رأى أن الناس لن يصدقوه، كتم هذه الفكرة، وإلا فهي في نفسه. فكان دحلان هذا يعلم ما في القلوب، ويعلم الغيب، إلى غير ذلك من الافتراءات المضحكة، وليس الشيخ هو الوحيد الذي اتهم وشبهه على دعوته، وإذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام تناولهم شيء من هذا فأتباعهم من باب أولى، قال عز وجل: ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: ٤٣]. لكن هل ضرر الشيخ هذا؟ وهل ضرر دعوته؟ لم يضره شيء والله الحمد، وأصبح هذا الكتاب مسبة على صاحبه، وعلى أتباعه؛ لأنه سجل فيه جهالاته وضلالاته، وشهد على نفسه بمعاداة التوحيد وأهله.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، وقد سُئِلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في مكة: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْلَمَ مَعَكَ؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ»^(١)، حر: وهو أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعبد: وهو بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هذا أول ما بدأ الإسلام لم يكن معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قليل، وكان الناس يتهددونه في الشوارع ولا يتركونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطوف بالبيت أو يصلي، ثم أخذ الإسلام يظهر شيئاً فشيئاً حتى عم المشارق والمغارب.

قال: «وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا»، سيعود الإسلام الصحيح غريباً في آخر الزمان بين المسلمين ومدعي الإسلام والكفار، مثلما بدأ غريباً في عهد الرسول

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢) من حديث عمرو بن عبسة السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا خبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يُضْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»^(١)، وفي رواية: «الَّذِينَ يُضْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ»^(٢) هؤلاء هم الغرباء.



(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده (٧٣/٤) من حديث عبد الرحمن بن سَنَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي إسناده إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة. قال الحافظ ابن حجر: «هو واه»، وقال البخاري: «حديثه ليس بقائم». انظر: تعجيل المنفعة (١/٨٠٠)، ومجمع الزوائد (٧/٢٨٧). وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٨٦٧) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاسْتَفْتَرَقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).

وهذا الحديث صح من طرق كما ذكره العماد ابن كثير^(٢) وغيره من الحفاظ، وهو في السنن وغيرها، ورواه محمد بن نصر^(٣) في كتاب الاعتصام، وقد وقع ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد القرون الثلاثة؛ فلهذا عم الجهل

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وقد ورد من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بالفاظ متقاربة، فقد رُوي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو ابن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢)، وأحمد في المسند (٣٣٢/٢)، (١٢٠/٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٥/٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٧/١)، والحاكم في المستدرک (٤٧/١)، (٢١٧)، والطبراني في الكبير (٣٧٧/١٩)، (٧٠/١٨)، وفي الأوسط (١٣٧/٥)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٨/١٠). وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

(٢) هو الإمام الفقيه المحدث عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الشافعي، مولده سنة نيف وسبعائة، قال عنه الذهبي: «فقيه متقن، ومحدث متقن، ومفسر نقاد، وله تصانيف مفيدة، يدري الفقه، ويفهم العربية والأصول، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم» انظر: معجم الذهبي (ص ٥٦)، وذيل تذكرة الحفاظ (ص ٥٧، ٣٦١)، وشذرات الذهب (٢٣١/٦)، والدرر الكامنة (١/٤٤٥).

(٣) هو محمد بن نصر أبو عبد الله المروزي الفقيه صاحب التصانيف الكثيرة والكتب الجمة، ولد ببغداد سنة اثنتين ومائتين، ونشأ ببنيسابور، ورحل إلى سائر الأمصار في طلب العلم، واستوطن سمرقند، قال عنه الحاكم: «إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعه كان أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم» اهـ، توفي سنة أربع وتسعين ومائتين. انظر: =

بالتوحيد الذي هو أصل دين الإسلام؛ فإن أصله أن لا يُعبد إلا الله، وأن لا يعبد إلا بما شرع، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع، لكن الله عَزَّوَجَلَّ -وله الحمد- لم يُخلِ الأرض من قائم له بحججه، وداع إليه على بصيرة؛ لكي لا تبطل حجج الله وبيناته، التي أنزلها على أنبيائه ورسله، فله الحمد والشكر على ذلك.

... ————— الشَّبْحُ ————— ...

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً...» هذا حديث وإن لم يكن في الصحيحين لكن إسناده جيد، صححه جمع من الحفاظ، وله طرق يقوي بعضها بعضاً، وبعض الناس ينكر هذا الحديث؛ وذلك لجهله وعدم علمه ومعرفته بالحديث.

هذا الحديث أخبر فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن افتراق الأمم الثلاث: أمة اليهود، وأمة النصارى، وأمة الإسلام، فاليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، كلهم يشملهم اسم اليهود لكنهم فرق كثيرة، والنصارى افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة، وكلهم يزعمون أنهم نصارى، وهذه الأمة تفرقت على ثلاث وسبعين تزيد على اليهود والنصارى في الافتراق، قال العلماء: هذه الفرق هي الأصول، وإلا فالفرق تتفرع إلى أعداد كثيرة. وهذا خبر من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى، فقد افترت هذه الأمة إلى

=تاريخ بغداد (٣/ ٣١٥)، والوافي بالوفيات (٥/ ٧٥)، وطبقات الفقهاء (١/ ١١٦)،
والعبر (٢/ ١٠٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٢١٦).

فرق كثيرة، ومن يطالع كتب الفرق يجد العجب؛ كما في «الملل والنحل» للشهرستاني^(١)، و«مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» لأبي الحسن الأشعري، وغيرهما، وكل فرقة تنقسم إلى فرق كثيرة: من شيعة، وقدرية^(٢)، وجهمية، ومعتزلة... إلى آخر الفرق، افرقت هذه الأمة إلى فرق شتى مصداقاً لما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّهَا فِي النَّارِ»؛ لأنها خالفت الحق، وكونها في النار يختلف باختلاف ما هي عليه، فمن كانت مفارقتها تقتضي الردة والكفر كان في النار خالداً فيها، وقد يكون في النار وهو غير كافر لكن هذا من باب الوعيد، لا يخلد فيها بل يُعَذَّب فيها بقدر ما عنده من المخالفة للحق، فليس معنى «كُلُّهَا فِي النَّارِ» أن كل هذه الفرق كافرة؛ بل هذا فيه تفصيل بحسب نوع الافتراق؛ لأن الافتراق ينقسم إلى: افتراق ضلال فقط، وافتراق كفر وشرك.

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح، الشافعي، المتكلم على مذهب الأشعري، برع في الفقه على أحد الخوافي الشافعي، وقرأ الأصول على أبي نصر بن القشيري، وقرأ الكلام على أبي القاسم الأنصاري، وصنف نهاية الإقدام، والملل والنحل، وتلخيص الأقسام لمذهب الأعلام، ولد سنة سبع وستين وأربعمائة، وتوفي سنة ثمان وأربعين وخمسائة. انظر: طبقات الشافعية (٢/٣٢٣)، ووفيات الأعيان (٤/٢٧٣)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/٢٨٧)، وشذرات الذهب (٤/١٤٩).

(٢) القدريّة: هم نفاة القدر القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وليس لله فيه إرادة ولا خلق ولا مشيئة، فأنكروا عموم المشيئة والخلق. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٤٩٣): «والقدريّة نفاة القدر جعلوا خالقين مع الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أردأ من المجوس...» اهـ. ويُطلق اسم القدريّة على الغلاة في القدر، وهم الجبرية. انظر: الفرق بين الفرق (ص ١١٢، ٢٤١)، ومجموع الفتاوى (٨/٧-٥٨).

❁ قال: «إِلَّا وَاحِدَةً» يعني اثنتين وسبعين كلها في النار، وفرقة واحدة ناجية؛ ولذلك سموا بالفرقة الناجية، (قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟) وهذا من اهتمام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سَأَلُوا عَنْ هَذِهِ الْفِرْقَةِ حَتَّى يَتَّبِعُوهَا وَيَتَمَسَّكُوا بِمَنْهَجِهَا، قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»؛ لَأَنَّ هَذَا هُوَ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي قَالَ فِيهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فلا ينجو إلا من كان على مثل ما كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، هَذَا هُوَ طَرِيقُ النِّجَاةِ، وَهَذِهِ هِيَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ.

ولم يحصل الافتراق في القرون الثلاثة الأولى، نعم كان فيها قدرية وخوارج، لكنهم كانوا مكبوتين لا يظهرون مفارقتهم، وأهل الحق كانوا ظاهرين عليهم، فلما انقضت هذه القرون المفضلة ظهر الشر، وجهرت الفرق بضلالها وشرها؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي أَذْكَرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ»^(١).

فلما انقضت هذه القرون المفضلة حدث الشر في الناس، وظهرت الفرق على مذاهبها وأصولها، وفشت القبورية في الناس وعبادة الأضرحة والأولياء،

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين

واعتبروا أن هذا هو الدين، ويقولون: لا نتقرب إلى الله إلا بواسطة تتوسط لنا عند الله، يقيسون الله عَزَّجَلَّ على ملوك الدنيا؛ لأن ملك الدنيا لا تصل إليه إذا كنت مجهولاً إلا بواسطة، فزين لهم الشيطان أن يتخذوا وسطاء بينهم وبين الله، وقد وصفهم الله عَزَّجَلَّ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فظهرت القبورية في المسلمين من ذاك الوقت، وانتشرت وصارت هي الدين وهي التوحيد، حتى قبض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فأنبرى لهذا الضلال، وقام بنصرة الحق، ونازل هذه الفرق وخاصمهم، وأظهر دين الله عَزَّجَلَّ، فصار من أعظم المجددين بعد القرون المفضلة - عليه رحمة الله - وبقيت كتبه والحمد لله منارا يهتدي بها وينتفع بها من أراد الله له الخير، وما دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَّا مِنْ آثَارِ دَعْوَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَكُلِّ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الْآنَ وَالْمُتَمَسِّكِينَ بِمَذْهَبِ السَّلَفِ كُلِّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ دَعْوَةِ الْمَجْدِدِ الْعَظِيمِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

❁ قال: (لكن الله عَزَّجَلَّ - والله الحمد - لم يُخَلِّ الأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لَهُ بِحُجَّتِهِ) لأجل أن يبقى الحق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا من فضل الله ونعمته على هذه الأمة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لِحَفْظُونَ ﴿[الحجر: ٩]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(١)، فمهما كثر الباطل وانتشر الضلال فإنه يوجد -والحمد لله- مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ مَنْ يَقُومُ بِالْحُجَّةِ، وَيُبَيِّنُ الدِّينَ لِلنَّاسِ.



(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٣٤٢/٦)، والحاكم في المستدرک (٤/٥٦٧، ٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ، فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الْآيَةَ [الأنعام: ١٥١]»^(١).

وأما قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ، فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الْآيَةَ. قوله: «الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ» شبه هذه الوصية بوصية كُتبت فُخِّمَتْ، أي: فلم تُغَيَّرْ ولم تُبَدَّلْ؛ أراد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يزل يدعو الأمة من حين بعثه الله عَزَّجَلَّ إِلَى حين توفاه صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال مفروق سيد بني شيبان في دعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القبائل في مواسمها: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الْآيَاتِ^(٢).

وقد تضمنت هذه الآيات المحكمات أمرًا ونهيًا؛ كما قال عَزَّجَلَّ عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الْآيَاتِ [البقرة: ١٣١-١٣٢].

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤١٤/٥)، والطبراني في الأوسط (٤٣/٢) والكبير (١٠٠٦٠)، والبيهقي في شعب الإيوان (٢٠٧/٦)، وفي إسناده داود بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه ابن حبان في الثقات (٨٥/١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٥/١٧).

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ هذه الآيات الثلاث من آخر سورة الأنعام فيها عشر وصايا، بدأها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنهي عن الشرك، وختمها بالأمر باتباع الصراط المستقيم الذي هو منهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي وصايا عظيمة، ويُقال: إن هذه الوصايا جاءت في الكتب السابقة أيضًا -التوراة والإنجيل- وجاءت في القرآن، وهي مشهورة بالوصايا العشر.

وعبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفقهه الصحابة، يقول: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ، فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الْآيَةُ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: لَيْتَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَى قَبْلَ وَفَاتِهِ بِوَصِيَّةٍ نَعْتَمِدُ عَلَيْهَا تَحْصِمُ الْخِلَافَ وَالنِّزَاعَ. فَقَالَ لَهُمْ هَذَا الْخَبَرُ الْجَلِيلُ: الْوَصِيَّةُ مُوجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَ مُوَصِيًّا مَا أَوْصَى إِلَّا بِمُضْمُونِهَا، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ حَيَاتِهِ كُلَّهَا بَعْدَ الْبَعْثَةِ كُلَّهَا يَدْعُو إِلَى مُضْمُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ، فَهِيَ كَافِيَةٌ كَأَنَّهُ أَوْصَى بِهَا.

❖ قوله: «الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ»؛ لِأَنَّهُ مِنْ عَادَةِ الْمُوصِي أَنْ يَضَعَ خَاتَمَهُ عَلَى الْوَصِيَّةِ أَوْ تَوْقِيعَهُ -كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ الْآنَ- حَتَّى يَثْبُتَ أَنَّهَا لَهُ، وَهَذَا مِنْ بَابِ

التأكيد، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك الناس بلا وصية لأن عندهم الكتاب والسنة، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»^(١)؛ ولذلك ترك الناس على الكتاب والسنة، فهو أوصى بالكتاب والسنة بقوله: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ»، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وهذا من جملة الآيات التي ذكرها ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم﴾ يشمل الكتاب والسنة؛ لأن السنة منزلة من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فالذي يريد النجاة يتبع الكتاب والسنة ففيهما الكفاية، ولا حاجة إلى أن يكتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصية، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩]، (إلى الله) يعني إلى القرآن، (والرسول) يعني إلى السنة بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ذلك لأن الله ذكر قبل هذه الآيات ما تحببت فيه الجاهلية من التحليل والتحرير والتشريع بغير علم، فقال لنبيه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أي: أقبلوا إليَّ ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أقرؤه عليكم، فليس للإنسان أن يحلل ويحرم من عند نفسه، وإنما يحلل ما أحله الله، ويحرم ما حرمه الله، هذا هو المسلم الحقيقي.

(١) أخرجه الحاكم (١/١٧٢)، والدارقطني في سننه (٤/٢٤٥)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/٨٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١١٤)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/١١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١).

قوله: (وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»)، فساقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى هنا لتضمنه معنى الآيات التي تقدمت؛ وذلك قوله: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا».

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

حق الإله عبادة بالأمر لا	بهوى النفوس فذاك للشيطان
من غير إشراك به شيئا هما	سبب النجاة فحبذا السببان ^(٢)
لم ينج من غضب الإله وناره	إلا الذي قامت به الأصلان
والناس بعد فمشرِك بآلهه	أو ذو ابتداع أو له الوصفان ^(٣)

فمن صرف شيئاً من العبادة التي هي حقه سبحانه لا يستحقها أحد سواه لغيره؛ كالدعاء والاستعانة، فقد آمن بالطاغوت وأشرك بالله وكفر.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٣٤٧/٢).

(٣) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢٣٥/١).

قوله: «وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة، لكن هو سبحانه أحق ذلك على نفسه تفضلاً وإحساناً على الموحدين المخلصين، الذين لم يلتفتوا في إرادتهم، ومهماتهم، ورغباتهم، ورهباتهم، إلى أحد سواه، ولم يتقربوا بما يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده، والله أعلم.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ» ركب مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حمار؛ لأنه يجوز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك، وهذا يدل على فضل معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث كان رديف سيد الخلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه تواضع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث إنه سيد البشر ويركب حماراً، ويردف معه صاحبه، هذا من تواضعه وحسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❦ قال: «فَقَالَ: يَا مُعَاذُ» وهكذا العالم يدعو إلى الله الأفراد والجماعات، ويتحين الفرص، «فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» الرسول أراد أن يُعلمه عن طريق السؤال والجواب؛ لأن هذا أوقع في النفس مما لو قال له: يا معاذ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب بدون سؤال. وهذا لا بأس، لكن كونه يسأله أولاً لأجل أن يستثير ذاكرته ويستحضر ذهنه؛ فإن هذا يكون أوقع في نفس المتعلم، مثل ما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم الصحابة

دينهم عن طريق السؤال والجواب مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يسمعون، فطريقة السؤال والجواب طريقة جيدة.

❁ قال: «قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» هذا فيه دليل على أن الإنسان إذا سئل عن شيء وهو لا يعرفه، يرد العلم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويسكت ولا يتخرص في شيء لا يعرفه، بل يَكِلُ العلم إلى عالمه.

وهذه أيضًا من طرق التعلُّم الناجحة؛ أن الإنسان إذا سئل عن علم لا يعلمه أو عن مسألة وهو لا يعرفها، لا تحمله الأنفة أن لا يقول: لا أدري، بل يقول: لا أدري، أو يقول: الله أعلم، ولا غَضَاضة عليه في ذلك، بل هذا يدل على فضله وورعه وأدبه مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأدبه مع المعلم.

وقد سئل الإمام مالك^(١) عن أربعين مسألة، فأجاب عن أربع مسائل منها، وقال عن البقية: لا أدري، فقال السائل: جئتك من بلاد كذا وكذا أسألك عن مسائل، وتقول لا أدري؟ فقال له: اركب راحلتك واذهب إلى البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكا وقال: لا أدري. هكذا أدب العلماء.

وهذا معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، ففي هذا: رَدُّ العلم إلى عالمه، وعدم تدخُّل الإنسان في شيء وهو لا يدري عن

(١) هو أحد الائمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبي عامر بن عمرو، أبو عبد الله المدني، إمام دار الهجرة في زمانه، ولد سنة أربع وتسعين، وتوفي في الرابع عشر من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة. انظر: العبر للذهبي (١/٢٧٢)، والبداية والنهاية (١٠/١٧٤)، وشذرات الذهب (١/٢٨٩).

حكمه، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولما ذكر الله سُبحَانَهُوَتَعَالَى المحرّمات في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] ختمها بقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤]، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة، فمن يريد النجاة لنفسه، ويريد السلامة، وأيضاً يريد السلامة للناس؛ فإنه لا يتدخل في شيء لا يعرفه؛ لأنه يُورِطُ نفسه، ويُورِطُ الآخرين معه، لأنه إذا أجاب بخطأ ضلّل الناس ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

فهذه مسألة عظيمة، يجب علينا أن نتعلّقها، وأن الإنسان لا يتسرّع في الإجابة عن شيء، إلّا إذا كان يعلمه تماماً، وإلّا فليقف على شاطئ السلامة، ولا يدخل في لجة البحر وهو لا يُحسن السباحة.

قوله: «قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» هذا يُقال في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يُقال: «الله أعلم»؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد انتقل من هذه الدار إلى الرّفيق الأعلى إلى الدار الآخرة، فيؤكل العلم إلى الله سُبحَانَهُوَتَعَالَى؛ لأن الله سُبحَانَهُوَتَعَالَى أعطى رسوله علماً عظيماً ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده علم عظيم من الله، ويحيب في حياته، ولكن بعد وفاته قد بلغ البلاغ المُبين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنهى مهمته ورسالته، وانتقل إلى ربه عَزَّوَجَلَّ، فلا يحيب في مسألة.

❁ قال: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» حينئذٍ تطلع معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الإِجَابَةِ، ووجه ذهنه للإِجَابَةِ، فَأَلْقَاهَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، وهذا هو الذي خلقهم من أجله؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فهو لم يخلقهم لأجل أن يرزقوه أو يدافعوا عنه، أو ينفعوه بشيء، ما خلقهم إلا لعبادته، وعبادته راجع نفعها إليهم أيضًا؛ لأن الله عَزَّجَلَّ غني عنهم وعن عبادتهم، لكن هذا من رحمته بهم.

قال: «أن يعبدوه» ولم يقتصر على هذا؛ بل قال: «ولا يشركوا به شيئًا»؛ لأن الإنسان قد يعبد الله ويخلط عبادته بشرك، وحينئذٍ لا تصح العبادة حتى تَخْلُصَ من الشرك، وإلا لو صلى وصام الليل والنهار، وجاهد وأنفق الأموال لله عَزَّجَلَّ وتقرَّب إليه، لكن خلط مع عمله هذا شرك فإنه يبطله، وهذا كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فلا بد مع عبادة الله من ترك الشرك؛ لأن الشرك إذا دخل العبادة أبطلها وأفسدها.

وهذا يستدعي أن يتعلم العبد العبادة الصحيحة، ويتعلم الشرك؛ حتى يؤدي العبادة على وجهها الصحيح ويتجنب الشرك، وهذا حق الله عَزَّجَلَّ على عباده، وهو أول الحقوق الواجبة على العباد؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فبدأ بالتوحيد الذي هو حق الله عَزَّجَلَّ.

❁ قال: «وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ» هذا الحق تكراً منه وتفضلاً، وإلا فإنه لا يجب عليه شيء إلا بوعدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي أوجبه على نفسه بوعدِهِ الكريم، ولا أحد يوجب على الله شيئاً، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: يجب على الله كذا وكذا. ويفرضون ويوجبون على الله، تعالى الله عما يقولون.

❁ قال: «أَنْ لَا يُعَذَّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»، وهذا فيه بشارة عظيمة أن من سلم من الشرك الأكبر والأصغر وسلم من كبائر الذنوب سلم من العذاب سلامة مطلقة، أما من سلم من الشرك ولكن عنده شيء من المعاصي والكبائر، فهذا يسلم من العذاب المؤبد، فقد يعذب بذنوبه، لكن يسلم من الخلود في النار، ويؤول أمره إلى دخول الجنة؛ ذلك أن الشرك لا يُغفر، وأما ما دونه من الذنوب فإنه محل المشيئة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

❁ قال: (قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

حق الإله عبادة بالأمر لا بهوى النفوس فذاك للشيطان)

إلى آخر هذه الأبيات العظيمة التي تتضمن علماً غزيراً، فقلوه: (حق الإله عبادة) يعني: أن يعبدوه، وهذا مأخوذ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦].

❁ قوله: (بالأمر) يعني: بالشرع؛ لأن العبادة توقيفية، فليس لأحد أن يعبد الله باستحساناته، أو بعبادات آبائه وأجداده، ولا تكون العبادة صحيحة إلا إذا كانت بما شرعه الله وشرعه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (لا بهوى النفوس).

❁ قال: (فذاك للشيطان) الذي يعبد الله بما تهواه نفسه، هذا لا يعبد الله وإنما يعبد الشيطان؛ لأن العبادة وسائر الأعمال لا تصح إلا بشرطين:
 الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.
 الثاني: المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلو أن الإنسان جاء بعبادات مُحدثة ليس فيها شرك أبداً كلها خالصة لله، ولكنها ليست من شريعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي بدعة مردودة لا تُقبل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، فالعبادة لا تكون عبادة إلا بشرطين: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو معنى الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، فمعناها: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وشهادة أن محمداً رسول الله، ومعناها: المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالعبادات لا يصلح أن يكون فيها شيء من الاستحسانات البشرية، أو استدراكات العقول، أو غير ذلك، مهما حسنت نية الفاعل، ما دام أنها بدعة: فلو أن إنساناً -مثلاً- قال: الصلوات خمس، وأنا أريد زيادة خير، ولذلك سوف أصلي فريضة سادسة!! نقول: لا، هذا باطل؛ لأن هذا شيء لم يشرعه الله ولا رسوله، وإن كان قصدك حسناً، فهو عمل مردود وباطل.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقاً في كتاب البيوع - باب النجش (٤/٣٥٦ مع الفتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (٣١٧/١٣ مع الفتح).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ولهذا في الحديث: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبرُوا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم» فلما جاء ثلاثة نفر من الصحابة إلى بيت النبي ﷺ يسألون عن عبادته، من أجل أن يقتدوا به، فذكر أزواج النبي ﷺ لهؤلاء الرهط عبادة النبي ﷺ، فكانهم تقالُّوها، ولكن اعتذروا بأن الرسول ﷺ مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ؟ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أنا أصلي ولا أنام، وقال الآخر: أنا لا أتزوج النساء -يعني: يريد التبتل- وقال الثالث: أنا أصوم ولا أفطر، وفي رواية: ولا آكل اللحم. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً، وقال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أَصْلِي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١)، فلا بد أن تكون العبادة مطابقة لما جاء به النبي ﷺ ليس فيها بدع، ولا خرافات، ولا محدثات، ولا استحسانات للعقول، أو اقتداء بفلان أو علان، ما دام أن هذا المقتدى به ليس متبعاً للرسول ﷺ فليس بقدوة.

(١) أخرجه مسلم (١٤٠١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (من غير إشراك به شيئاً) أي: عبادة الله من غير إشراك (هما سبب النجاة فحبذا السبيان)، يعني: المتابعة والإخلاص سبيان.

❦ وقوله: (لم ينج من غضب الإله وناره إلا الذي قامت به الأصولان) فلا يسلم من النار إلا الذي عبد الله مخلصاً له الدين واتبع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذان الأصولان لا تصح العبادة بدونها.

❦ قال: (والناس بعد) أي بعد هذا البيان (فمشارك بإلهه) ليس عنده إخلاص، (أو ذو ابتداع) ليس بمشرك لكنه مبتدع لا يعبد الله بما شرع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يعبد الله بالهوى، أو بعادات وتقاليد آبائه، وما شابه ذلك، فالمشرك لم يأخذ الأصل الأول الذي هو الإخلاص، والمبتدع لم يأخذ الأصل الثاني الذي هو المتابعة، (أو له الوصفان) يعني يجتمع فيه أنه مشرك ومبتدع والعياذ بالله.

فأهل الضلال ثلاثة أقسام:

الأول: مشرك، وهذا رأس البلاء.

الثاني: مبتدع في الدين، وهذا بلاء خطير وعظيم.

الثالث: جامع بين الأمرين - والعياذ بالله - الشرك والبدعة.

فهذه الأبيات فيها علوم غزيرة من علوم العقيدة والتوحيد.

ولما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» استبشر معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بهذا الحديث الشريف، وفرح به غاية

الفرح، وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: «لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا» خشي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سمعه الناس أن يتكلموا على جانب الرجاء ويتساهلوا في المعاصي، ويقولوا: ما دمنا موحدين فالمعاصي لا تضرنا؛ لأن الرسول يقول: «أَنْ لَا يُعَذَّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، ونحن والحمد لله لسنا مشركين، ونحن لا نعبد إلا الله، فيتساهلون في المعاصي، فيغلبون جانب الرجاء على جانب الخوف.

وهذا من حكمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن العلم لا يوضع إلا في مواضعه، فإذا خيف من إلقاء المسائل على بعض الناس محذور أكبر، فالحكمة كتمانها عنهم شفقةً بهم، حتى لا يقعوا في المحذور، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بكتمان هذا النوع من العلم عن عامة الناس، وأخبر به معاذًا؛ لأن معاذًا من الجهابذة، ومن خواص العلماء، وإنما أخبر معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا الحديث عند وفاته، خشية أن يموت وعنده شيء من الأحاديث لم يبلغه للناس، فاستدل العلماء من هذا الحديث على أنه يجوز كتمان العلم للمصلحة، إذا كان يترتب على إيضاح بعض المسائل للناس محذور؛ كأن يفهموا خطأ، أو يتكلموا على ما سمعوا؛ كما في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(١)، يعني: لا يُلقَى على كل الناس بعض المسائل التي فيها أمور يخفى عليهم معناها، أو تشوش عليهم، وإنما يُلقَى على الناس ما يفهمونه، ويستفيدون منه، أما نواذر المسائل، وخواص المسائل، فهذه تُلقَى على طلبة العلم، والمتفقهين المتمكِّنين، وهذا من الحكمة.

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

فَلَا تَأْتِ أُمَامَ عُصَاةِ يَشْرِبُونَ الْخُمُورَ، وَيَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، وَتَقْلُ لَهُمْ: اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، اللَّهُ قَرِيبٌ مَجِيبٌ، اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرُ وَيَسْمَحُ، فَيَزِيدُونَ فِي الشَّرِّ، لَكِنْ حِينَ تَقُولُ لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ، أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَعَّدُ الزَّانَةَ بِالْعَذَابِ، وَتَوَعَّدُ عَلَى السَّرْقَةِ وَعَلَى الْمَعَاصِي بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، فَتَذَكِّرُ لَهُمْ نَصُوصَ الْوَعِيدِ، مِنْ أَجْلِ التَّوْبَةِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَتَيْتِ عِنْدَ مَتَمَسِّكِينَ وَطَيِّبِينَ فَذَكَرْتَ لَهُمْ آيَاتِ الْوَعِيدِ، فَهَذَا رَبِّمَا يَزِيدُهُمْ وَسَوَاسًا، أَوْ تَشَدَّدَا، فَأَنْتِ تَذَكِّرُ لَهُمْ آيَاتِ التَّيْسِيرِ، وَأَحَادِيثِ التَّيْسِيرِ، وَالتَّسْهِيلِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْفَرْجِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، مِنْ أَجْلِ أَنْ لَا يَزِيدُوا وَيَشْتَدُوا وَيَغْلُوا، فَكُلُّ مَقَامٍ لَهُ مَقَالٌ، وَتَوْضُوحٌ الْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا، هَذَا هُوَ الْمِيزَانُ الصَّحِيحُ، وَالنَّاسُ لَيْسُوا عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، كُلُّ يَخَاطَبُ بِمَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَلَا يَتَضَرَّرُ بِهِ.

هَكَذَا يَكُونُ طَالِبُ الْعِلْمِ، إِذَا تَعَرَّضَ لِمَسَائِلِ عِلْمِيَّةٍ غَامِضَةٍ، لَا يَعْرِفُهَا الْعَوَامُ، وَلَا تَتَّسِعُ لَهَا عَقُولُهُمْ، فَإِنَّهُ لَا يَلْقِيهَا عَلَى الْعَوَامِ، وَإِنَّمَا تُلْقَى عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ، وَعَلَى النَّاسِ الَّذِينَ يَسْتَوْعِبُونَهَا؛ وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ» (١).

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ وَالْوَاعِظَ وَالْمُعَلِّمَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرَاعِيَ أَحْوَالَ الْحَاضِرِينَ وَأَحْوَالَ النَّاسِ، وَيُعْطِيهِمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَسَائِلِ، وَلَا يُلْقَى عَلَيْهِمُ الْمَسَائِلُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَيْهَا، فَلَوْ أَتَيْتِ عِنْدَ طَلَبَةِ عِلْمٍ مُبْتَدِئِينَ، فَلَا تَلْقَ عَلَيْهِمْ غَرَائِبَ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الرَّاكِسُونَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥).

في العلم، بل تعلمهم مبادئ مبسطة سهلة يتدرّجون بها شيئاً فشيئاً، لا تطلب من طالب مبتدئ أن يقرأ في «صحيح البخاري»؛ لأنه لم يصل إلى هذا الحد، لكن لَقَّنه «الأربعين النووية»، والأحاديث القرية، وشروط الصلاة، وأحكام الطهارة، إلى آخره، كما لا تطلب من إنسان مبتدئ بعلم العربية أن يقرأ كتاب سيبويه، لكن تأمره بقراءة «الأجرومية»، ومسائل مبسطة، يدخل بها على اللغة العربية والنحو، شيئاً فشيئاً، ولذلك ألف العلماء المختصرات والمتوسّطات والمطوّلات، من أجل أن يتدرّج طالب العلم مع العلم شيئاً فشيئاً.

❁ قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: (لكن هو سبحانه أحق ذلك على نفسه تفضلاً وإحساناً على الموحدين المخلصين، الذين لم يلتفتوا في إرادتهم، ومهماتهم، ورغباتهم، ورهباتهم، إلى أحد سواه، ولم يتقربوا بما يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده) هو سبحانه الذي أوجب ذلك على نفسه ولم يوجبه عليه أحد، وجزاؤه للعباد على طاعتهم وإدخالهم الجنة ذلك فضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما الطاعات والعبادات سبب فقط، وليست ثمناً للجنة، ولو حوسب العباد على أعمالهم وأحصيت عليهم النعم، ما قابلت أعمالهم - مهما بلغت - نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنه سبحانه يكرمهم ويدخلهم الجنة تفضلاً منه.

ولهذا يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» فَقِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ»^(١)؛ لأن

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عمل الإنسان مهما بلغ لا يُقابل أقل نعمة من نعم الله عليه، أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالباء هنا سببية، أي: بسبب ما كنتم تعملون، وليست الباء بباء العوض؛ كما تقول: اشتريت القلم بريال، هذه باء العوض، أما قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بسبب ما كنتم تعملون.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

الثانية: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ.

الثالثة: أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ، فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

الرابعة: الْحِكْمَةُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

الخامسة: أَنَّ الرِّسَالََةَ عَمَّتْ كُلَّ الْأُمَّةِ.

السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

السابعة: الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ: أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ،

فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الثامنة: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

التاسعة: عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ [١٥١ -

١٥٣] عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ: أَوَّلُهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

العاشرة: الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِيهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ

مَسْأَلَةً، بَدَأَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُومًا﴾

[الإسراء: ٢٢]، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا

مَذْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وَنَبَّهَنَا اللَّهُ -سُبْحَانَهُ- عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ

بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

الحادية عشرة: آيَةُ سُورَةِ النَّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيَةُ الْحُقُوقِ الْعَشْرِ، بَدَأَهَا

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ مَوْتِهِ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَيْنَا.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمُصْلَحَةِ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: اسْتِحْبَابُ بَشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: الْخَوْفُ مِنَ الْاِتِّكَالِ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُ الْمَسْئُولِ عَمَّا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

الْعِشْرُونَ: جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ لِلْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ.

الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرُونَ: تَوَاضَعُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِرُكُوبِ الْحِمَارِ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرُونَ: جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

الثَّالِثَةَ وَالْعِشْرُونَ: فَضِيلَةُ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ.

الرَّابِعَةَ وَالْعِشْرُونَ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا الباب اشتمل على فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: بيان تفسير التَّوْحِيدِ، وأنه عبادة الله وحده لا شريك

له، هذا هو التَّوْحِيدُ؛ لأن كل الآيات التي في الباب تأمر بالعبادة وتنتهي عن

الشرك؛ كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]،

وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

وَبِالْوَلَدَيْنِ إِحْسَنًا ﴿ [الإسراء: ٢٣]، وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، فهذه الآيات تفسر التوحيد بأنه العبادة.

الفائدة الثانية: أن الرسل بعثوا بالدعوة إلى توحيد العبادة، لا بالدعوة إلى توحيد الربوبية، فليس هناك آية واحدة قالت أقرؤا بالربوبية، أو أقرؤا أن الله هو الخالق الرازق، لماذا؟ لأن هذا موجود في الناس، فهم مقرؤون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر، فتوحيد الربوبية موجود في غالب البشر، لأن الفطر تقتضيه، ولأن العاقل من الناس يعلم أن هذا الخلق لا بد له من خالق، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ كُنْ لَا يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ [الطور: ٣٥-٣٦]، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ [النحل: ١٧]، فهذه الآيات لم تطالب الناس بالإقرار بتوحيد الربوبية؛ لأنه موجود، والإقرار به لا يكفي في الدخول في الإسلام، وإنما جاءت كلها على نسق واحد تأمر بالعبادة، وإنما تذكر توحيد الربوبية للاستدلال به على توحيد الألوهية.

الفائدة الثالثة: في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه الآية فيها: أن الحكمة من خلق الجن والإنس هي عبادة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فيها: أن الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم جاءوا بالأمر بعبادة الله، وترك عبادة ما سواه، فدلّ على أن التوحيد هو الذي بُعثت به الرسل، كما أنه هو الذي خلق الخلق من أجله.

الفائدة الرابعة: أن العبادة لا تنفع مع الشرك، فمن أشرك بالله شيئاً فإنه لم يُؤدِّ حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالذي لا يعبد الله مطلقاً كالملاحدة، وكذلك الذي يعبد الله مع الشرك، كلهم سواء، الملحد والمشرِك، إنما الذي يعبد الله حقاً هو الذي يعبدُه ولا يشرك به شيئاً، هذا هو الذي يعبد الله حق عبادته وهو الذي تنفعه عبادته.



١ - بَابُ

فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكْفَرُ مِنَ الذُّنُوبِ

الباب في اللغة هو المدخل إلى الشيء.

(وَمَا يُكْفَرُ مِنَ الذُّنُوبِ) ما مصدرية أي وتكفيره الذنوب، ويجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي: والذي يكفره من الذنوب، والمراد بالتوحيد توحيد العبادة، وهو أفراد الله عَزَّوَجَلَّ بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة؛ كالدعاء، والذبح، والنذر، وغير ذلك؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

... — الشَّيْخُ — ...

لما فرغ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من بيان التوحيد وتفسيره على ضوء الآيات القرآنية والحديث النبوي ذكر في هذا الباب فضل التوحيد، والترتيب بين ذكر تعريف التوحيد أولاً، ثم ذكر فضله، هذا من أبداع ما يكون؛ لأنه لو بدأ بذكر فضل التوحيد ولم يبينه ولم يفسره ما حصل المقصود، فلا بد من بيان معنى الشيء أولاً، ثم بعد ذلك يُذكر فضله، فإذا أردت مثلاً أن تمدح الإسلام وتبين فضائل الإسلام، فلا بد أن تبين الإسلام أولاً ما هو الإسلام، ثم تذكر فضائله، وهكذا إذا أردت أن تبين فضل التوحيد، فلا بد أن تبين معناه أولاً، ثم تبين فضله؛ لأنه لا فائدة لذكر فضائله بدون معرفة حقيقته.

ومن هنا ندرك خطأ كثير من الدعاة اليوم، أو من المؤلفين المعاصرين، الذي يزعمون أنهم يكتبون عن الإسلام، وعن الدعوة، ويمدحون الإسلام مدحاً كثيراً، في محاضراتهم، وفي كتبهم، وهذا حق، لكن ما هو الإسلام أَوْلَا؟ لم يبينوا ما هو الإسلام، تقرأ الكتاب من أوله إلى آخره، أو تستمع إلى المحاضرة من أولها إلى آخرها، وكلها مدح للإسلام وثناء عليه، وبيان لمزاياه، لكن لم يبين ما هو الإسلام.

وكل فرقة من الفرق الضالة والمنحرفة تفسّر الإسلام بمذهبها، وينزلون هذا المدح، وهذا الثناء على مذهبهم، فلا يكفي أن نمدح الإسلام ونثني عليه فقط، بل لابد من بيان معنى الإسلام، وحقيقة الإسلام الذي يُنجي من الكفر، ويدخل في التوحيد، ويُنجي من النار ويدخل في الجنة، وما هي نواقض الإسلام التي تُفسد الإسلام، وتُخرج منه، وما هي مكملاته، وما هي منقصاته، لابد من هذا، أما مجرد المدح، وذكر الفضائل دون أن تبين حقيقة الشيء، فهذا خطأ عظيم.

والإسلام: هو ما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عليه صحابته الكرام، وكان عليه القرون المفضلة، أما ما خالف ذلك فليس من الإسلام في شيء، وإن كان صاحبه يدّعي أنه هو الإسلام، ومن هنا تجدون الشيخ بين في الباب الأول حقيقة التوحيد؛ لئلا يدّعي كل واحد أن مذهبه هو التوحيد، أو ما هو عليه هو التوحيد، وهذا أمر مهم جداً، لأنهم يقولون: ادعوا إلى الإسلام وبينوا مزايا الإسلام فقط، ولا تبينوا للناس حقيقة الإسلام، لأن هذا يفرق عنكم الناس!!.

❁ قوله: (بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ) الباب في اللغة هو المدخل إلى الشيء، ويكون حسياً كمدخل البيت ومدخل المسجد، ويكون معنوياً كباب من العلم، سُمي باباً لأنه يُدخل منه إلى العلم، والمؤلفات تشتمل على كتب، وأبواب، وفصول، ومسائل؛ لأن هذا التقسيم أسهل في طلب العلم، فيقال مثلاً: كتاب الصلاة، باب الطهارة، فالكتاب يشتمل على أبواب، والأبواب تشتمل على فصول، والفصول تشتمل على مسائل، فالحاصل أن الباب في العلم هو المدخل المعنوي إلى ما بعده من أنواع التفاصيل المذكورة فيه.

❁ وقوله: (بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ) يعني: ثوابه وأجره، (وَمَا يُكْفَرُ مِنَ الذُّنُوبِ) أي: وبيان ما يُكْفَرُ مِنَ الذُّنُوبِ بسبب التوحيد؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فمن سلم من الشرك وعنده ذنوب دون الشرك، ولو كانت كبائر؛ فإنها تحت المشيئة، إن شاء الله غفرها وإن شاء عذب صاحبها، ثم يدخله الجنة بعد ذلك، فالتوحيد يُكفر الله به الذنوب التي دون الشرك، ولو عُدَّ العبد بها فإنه لا يخلد في النار، بل يخرج منها، هذا فضل التوحيد: إما أن يسلم من النار نهائياً، وإما أن يسلم من الخلود فيها.

أما المشرك -والعياذ بالله- فإنه لا طمع له في الجنة، حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ولا طمع له في الخروج منها، هذا هو المشرك، فبقارن بين فضل التوحيد وبين خطر الشرك ترى العجب العجيب، أفلا يحق لعلم هذا فضله أن يُعتنى به وأن يدرس وتُعرف تفاصيله؟ حتى يكون الإنسان من أهله،

ويحوز على هذه الفضائل العظيمة، فالتوحيد جدير بالعناية؛ لأنه هو الأصل، ولأنه هو أساس السلامة من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والنجاة من النار.

❁ وقوله: (وَمَا يُكْفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ)، (ما) مصدرية ليست موصولة، وما بعدها مصدر، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى: والذي يُكفر، والعائد وهو الضمير محذوف تقديره هو، وهو فاعل محذوف؛ لأن (يُكْفِّرُ) فعل يحتاج إلى فاعل.

والمراد بالتوحيد هنا: توحيد الألوهية، وليس توحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية لا يُكفر الذنوب، ولا يُخرج من الكفر، وإنما الذي يُكفر الذنوب ويُخرج من الكفر ويُوجب دخول الجنة هو توحيد الألوهية، وهو الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، وهو توحيد العبادة، أما الاختصار على توحيد الربوبية وحده فلا يحصل به المقصود؛ لأن الكفار والمشركين مقرون به، وهو مركوز في الفطر، والرسل ما جاءت تدعو إلى توحيد الربوبية، إنما جاءت تدعو إلى توحيد الألوهية.

وتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة هو أفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بأنواع العبادة الظاهرة على اللسان والجوارح، والباطنة في القلوب من النيات والمقاصد، والخشوع، والرغبة والرغبة، والمحبة، والإنابة.

والعبادة تكون على القلب، مثل: اعتقاد القلب ونيته، والإخلاص لله في ذلك.

وتكون على اللسان، مثل: الدعاء، والذكر، وقراءة القرآن.

وتكون على الجوارح، مثل: الصلاة، والحج، والجهاد في سبيل الله، والمشي في طاعة الله، والذبح، وأشباه ذلك.

فقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ هذا أمر من الله عَزَّجَلَّ بالدعاء، أي اطلبوا منه ما تحتاجون إليه لأمر دينكم ودنياكم، وهو سبحانه غني كريم، وأكثروا من الدعاء أيضًا؛ فإنه سبحانه يحب أن يُكثر العبد من الدعاء والطلبات، ولو استجاب سُبحَانَهُ وتَعَالَى لكل من دعاه ما نقص ذلك من ملكه شيء، وكلما دعاه العبد المسلم زاد عنده محبة وإقبالًا، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال في هذه الآية: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، بهذا الشرط: (مخلصين) هذا فيه نفي الشرك، (له الدين) سمي الدعاء دينًا؛ كما سماه في الآية الأخرى عبادة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] أي: عن دعائي، هذا يدل على أن الدعاء ركن عظيم من أركان العبادة، وأنه يُطلق عليه العبادة من باب المبالغة في الاهتمام به؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحج: «الْحَجُّ عَرَفَةٌ»^(١)، وعرفة ركن من أركان الحج، ولكنه نوه بالوقوف بعرفة لأنه أعظم أركان الحج، ولأن الوقوف إذا فات، فات الحج، بخلاف ما إذا أدرك الوقوف ونقص عليه شيء

(١) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي في الكبرى (٢/٢٤٢)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وأحمد في المسند (٤/٣٠٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/٢٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/٢٥٧)، والحاكم في المستدرک (١/٦٣٥)، والدارقطني في سننه (٢/٢٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٥/١٧٣) من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي

من أركان الحج؛ فإنه يجبره ويكمله فيما بعد، أما إذا فات الوقوف فإنه يفوته الحج في هذه السنة.

كذلك الدعاء هو أصل العبادة وأعظمها؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(١)، والله عَزَّجَلَّ سماه دينًا: ﴿فَاذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وسماه عبادة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وهذا يدل على أهميته، وأن العبد لا يدعو إلا الله، وهذا هو الإخلاص، أما إذا دعا الله ودعا معه غيره فإنه يكون مشركًا، فالمشركون يدعون الله، لكنهم لم يخلصوا في الدعاء؛ بل يدعون معه غيره من الأصنام، والأنداد، والآلهة، وكذلك القبوريين يدعون الله ويكون ويتضرعون، لكنهم يدعون معه الموتى وأصحاب القبور، فهؤلاء لم يخلصوا لله عَزَّجَلَّ الدعاء؛ بل أشركوا معه غيره. فهذا الدعاء غير الخالص غير مقبول عند الله عَزَّجَلَّ.

❁ وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَاذْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: ولو كره الكافرون إخلاصكم؛ لأن الكافرين يعاندون التوحيد، ويعاندون الإيمان، ويريدون أن يكون الناس على الكفر، وهذه سمة في الكفار لا تزال إلى يوم القيامة، الكفار لا يريدون الإسلام، ولا يريدون المسلمين، وإن جاملوهم بالألسن وناققوا معهم فهم أعداء، فلا يجوز الاغترار بهم،

(١) أخرجه أبو دود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (٤٥٠/٦)، وابن ماجه (٨٩٠)، وأحمد في المسند (٢٦٧/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٤٩)، وابن حبان في صحيحه (١٧٢/٣)، والطبراني في الصغير (٢٠٨/٢)، والحاكم في المستدرک (٦٦٧/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٧/٢) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



أو بنفاقهم، أو بخداعهم؛ بل يجب أن يكون المسلمون على حذر منهم دائماً
 وأبدًا، فهم يكرهون الإسلام والمسلمين وإن تملقوا بألستهم، قال عَزَّوَجَلَّ:
 ﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨].



وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾]، واللبس الخلط، والمراد بالظلم هنا الشرك الأكبر؛
لما ثبت في حديث ابن مسعود وغيره مرفوعاً: «إِنَّمَا هُوَ الشَّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى
قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١).

أراد أن من لم يجتنب الشرك لم يحصل له أمن ولا اهتداء بالكلية، وأما
من سلم منه فيحصل له من الأمن والاهتداء بحسب مقامه في الإسلام
والإيمان، فلا يحصل الأمن التام والاهتداء التام إلا لمن لم يلق الله بكبيرة مصرّاً
عليها، فأما إن كان للموحد ذنباً لم يتب منها، حصل له من الأمن والاهتداء
بحسب توحيده، وفاته منه بقدر معصيته؛ كما قال عَرَبَجَلٌ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثَنَا الْكِتَابَ
الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ
بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]. فالظالم
لنفسه: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهو تحت مشيئة الله؛ إن
شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنبه، ونجاه بتوحيده من الخلود في النار. وأما
المقتصد: فهو الذي عمل بما أوجب الله عليه، وترك ما حرم عليه فقط، وهذه
حال الأبرار.

وأما السابق: فهو الذي حصل له كمال الإيمان باستفراغه وسعه في طاعة
الله علماً وعملاً.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤).

فهذان لهما الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة، فالكل للكل، والحصّة للحصّة؛ لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصي وعقوباتها، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وهذا الذي ذكرته في معنى هذه الآية هو ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معناها^(١)، وهو الذي دل عليه القرآن، وهو قول أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❁ قوله: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى)، (وَقَوْلُ) بالرفع معطوف على (فَضْلِ التَّوْحِيدِ)، ويجوز الجر، فيكون معطوفاً على (التوحيد)، والتوحيد مجرور بالإضافة، فيكون: (فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكْفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى)، أي: وباب قول الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾، الأمن ضد الخوف، وهذه الآية من جملة ما ذكره الله عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومحاجته لقومه؛ لأنهم حاجوه، ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: ٨٠] خاصموه، لما دعا إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وأنكر ما هم عليه من الشرك والوثنية، حاجوه وخاصموه وخوفوه من آلهتهم أن تصيبه، فرد عليهم وقال: ﴿قَالَ أَمْتَحِنُّوْنِي فِي اللَّهِ﴾ أي: أمتاحصموني في الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾ دلني على التوحيد ووفقني للتوحيد، ثم قال:

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٦١/٥)، وطريق الهجرتين (٢٩١-٣١٠).

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٨٠]، لا يخاف من هذه الأصنام لأنها ليست بشيء، ولا تضر ولا تنفع؛ بل هي حجارة هم الذين يصنعونها على شكل صور ويعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (١٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿ [الصفات: ٩٥-٩٦]، فهم يصنعونها ويعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يخاف منها خليل الله عَلَيْهِ السَّلَام؟ وكيف يخاف منها أهل التوحيد وأهل الإيمان؟

أبدًا.. أهل التوحيد لا يخافون من غير الله عَزَّوَجَلَّ، لا من الأصنام، ولا من الموتى، ولا من الجن، ولا من الشياطين، وإنما يخافون الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا هو الواجب على المسلم أن لا يخاف إلا الله، ولا يخشى إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يخاف من غيره خوف العبادة الذي معه ذل وخضوع وتقرّب إلى المخوف منه، وأما الخوف الطبيعي، مثل: الخوف من لقاء العدو، والخوف من الثعبان، والخوف مع السبع، هذا ليس عبادة؛ لأنه ليس معه ذل ولا خضوع، إنما الممنوع خوف العبادة الذي يكون معه ذل وخضوع وتقرّب إلى المخوف لدفع شره كالذبح له والنذر له لدفع شره، هذا هو خوف العبادة الذي هو الشرك الأكبر، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴿ من الأصنام والأنداد ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]، فأنتم أولى بالخوف؛

لأنكم أشركتم بالله عَزَّجَلَّ ولم تخافوه، أما الموحد فإنه لا يخاف من غير الله سُبْحَانَهُ وَوَعَالَى؛ ولهذا قال: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أنا أم أنتم ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ هل المؤمن أم الكافر؟ هل الموحد أم المشرك؟ أيهم أحق بالأمن؟ تحداهم بهذا السؤال: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] بالبرهان والدليل لا بالمغالطة والمجادلة بغير حق، وحكم الله عَزَّجَلَّ في المسألة بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فلا يحصل الأمن إلا لأهل التوحيد، وأما أهل الشرك فليس لهم أمن مطلقاً والعياذ بالله، ولما سمع الصحابة هذه الآية: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أشكل ذلك عليهم جداً، وقالوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ» ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بِشْرِكٍ، أَوْ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١).

والظلم في اللغة: هو وضع الشيء في غير موضعه^(٢)، ويطلق على النقص؛ كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣].

(١) أخرجه البخاري (٣٢، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤). ولأحمد بنحوه عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إِنَّهَا هُوَ الشِّرْكُ». أخرجه أحمد (٦٨/٦، ١٢٩/٧، ٥٢٥).

(٢) انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٨٤/٢)، ولسان العرب (٣٧٣/١٢)، والقاموس المحيط (ص ١٤٦٤)، ومختار الصحاح (ص ١٧٠).

وأما في الشرع فالظلم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ظلم الشرك، وهذا أعظم الظلم، فالمشركون أعظم ظلماً؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، ولأنهم تنقصوا حق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لماذا سُمي الشرك ظلماً؟ لأن الظلم في الأصل: وضع الشيء في غير موضعه، والشرك معناه: وضع العبادة في غير موضعها، وهذا أعظم الظلم، لأنهم لما وضعوا العبادة في غير موضعها، أعطوها لغير مستحقها، وسَوَّوا المخلوق بالخالق، سَوَّوا الضعيف بالقوي الذي لا يُعجزه شيء، وهل بعد هذا ظلم؟

النوع الثاني: ظلم العباد بعضهم لبعض؛ بالتعدي عليهم، بأكل أموالهم أو ضربهم أو قتلهم، أو بالخوض في أعراضهم، وهذا خطير جداً؛ فإن حقوق العباد لا تسقط بالتوبة فقط، بل لا بد أن يصفحوا عنها، وإلا فإنها ستقتص للمظلومين يوم القيامة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(١)، الشاة الجَلْحَاء: هي التي ليس لها قرون، والشاة الْقَرْنَاء: التي لها قرون، إذا نطحتها بقرونها، فلا بد من القصاص يوم القيامة حتى بين البهائم، وكذلك بنو آدم، يُقام القصاص بينهم يوم القيامة، فَيُقْتَصُّ من المظلومين للظلمة، ولا يُترك من حقوقهم شيء إلا إذا سمحوا بها.

الثالث: ظلم العبد لنفسه بالمعاصي التي هي دون الشرك، هذا ظلم العبد لنفسه لأنه وضعها في غير موضعها اللائق بها؛ حيث عرضها لغضب الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأهمل رعايتها وهو مسترعي عليها، وكان الواجب عليه أن

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُنْقِذُ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا اللَّائِقِ بِهَا، وَهُوَ الطَّاعَةُ، وَالْكَرَامَةُ ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ولهذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلْ ثَلَاثَةٌ: دِيْوَانٌ لَا يَعْْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيْوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيْوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، فَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ: فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يَعْْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا: فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمٍ يَوْمَ تَرَكَهُ، أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا: فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ»^(١).

فالمراد بالظلم هنا ظلم الشرك، وهو أعظم أنواع الظلم، قال عَزَّجَلْ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

❦ وقوله عَزَّجَلْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: وحدوا الله عَزَّجَلْ وأخلصوا له العبادة، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ يعني: لم يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك، فمن خلط عبادته بشرك بطلت؛ لأن الشرك يحبط الأعمال ويبطلها، قال عَزَّجَلْ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

❦ وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ أي: لهم السلامة المطلقة من المخاوف، فالمؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن كان المؤمن مخلصًا في توحيد

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٢٤٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٦٤٣)، والحاكم في المستدرک (٤/ ٦١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ولم يحصل منه شيء من المعاصي فله الأمن المطلق الذي لا خوف معه، وإن كان موحدًا لكن عنده شيء من المعاصي، فهذا له مطلق الأمن، وليس له الأمن المطلق؛ لأنه معرض للوعيد والعذاب، ولكنه يأمن من الخلود في النار والبقاء فيها، فمعه مطلق الأمن، وأما المشرك فله الخوف المطلق الذي ليس معه أمن، إذاً الأقسام ثلاثة:

الأول: أمن مطلق، لأهل التوحيد الذين سلموا من الذنوب والمعاصي.

الثاني: خوف مطلق، لأهل الشرك والكفر ليس معه أمن.

الثالث: أمن معه خوف، وهو مطلق الأمن، وهذا لعصاة الموحدين.

❦ قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ هذه مزية ثانية من مزايا التوحيد، وهي حصول الهداية للموحدّين المخلصين لله، أنهم في الدنيا يكونون مهتدين في أعمالهم، يعبدون الله على بصيرة، سالمين من الشرك في الأعمال، وسالمين من البدع والخرافات، بخلاف أهل الشرك، فإنهم غير مهتدين في الدنيا، بل هم ضالون، لأنهم يعبدون الله، ويخلطون العبادة بالشرك، ويعبدون غير الله، فهم ضالون لا مهتدون.

إذا الموحّد يعطيه الله عزّجَلْ مزيّتين:

المزية الأولى: الأمن من العذاب.

المزية الثانية: الهداية من الضلال.

بحيث أنه يعبد الله على بصيرة وعلى نور وبرهان، متبعًا للسنة متبعًا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يمشي على الجادة الصحيحة، بخلاف المشرك؛ فإنه يمشي على غير هدى، وعلى غير دين، وعلى غير برهان، يتعب نفسه في هذه

الدنيا، وهو يتقدم إلى النار، ويمشي إلى النار؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، لا يضل في الدنيا عن الحق، ولا يشقى في الآخرة، وهذا ضمان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَن اتَّبَعَ الْقُرْآنَ أَنَّهُ لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ.

❁ قوله: (كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ المراد بالكتاب القرآن؛ لأن من قبلهم عندهم كتب، ثم جاء القرآن ونسخها كلها، وأمر الله باتباع القرآن وحده، وقوله: ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخترنا ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ثناء من الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأمة، وأن الله اختارهم لحمل هذا الكتاب ووراثته، قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ قسمهم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الظالم لنفسه، وهو الموحد العاصي.

الثاني: المقتصد، وهو الذي فعل الواجبات ولم يترك منها شيئاً، وتجنب المحرمات فلم يَغْشَ منها شيئاً، وهؤلاء هم الأبرار.

الثالث: السابق بالخيرات والمقرب، وهو الذي فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات من باب الاحتياط.

فَقَسَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ كُلَّهُمْ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا

لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ [فاطر: ٣٣-٣٥]، ضمن الله عَزَّجَلَّ لهذه الأصناف الثلاثة كلها الجنة، لكن تختلف منازلهم فيها، ويختلف دخولهم فيها، وهذا فيه دليل واضح لمذهب أهل السنة والجماعة أن أصحاب الكبائر لا يكفرون - كما تقول الخوارج والمعتزلة - لأن الله وعدهم بالجنة وجعلهم من المصطفين، فالؤمن وإن دخل النار بذنوبه فإنه لا يخلد فيها بسبب التوحيد، وهذا فيه بيان لفضل التوحيد.

﴿ قوله: (الكل للكل) يعني: الأمن التام والاهتداء التام لمن أتى بكل العبادة، وتجنب المعاصي يحصل له الكل وهو الأمن المطلق، (والحصة بالحصة) الذي جاء بتوحيد ومعاص له أمن وعليه وعيد، وهذا تعهد من الله عَزَّجَلَّ لمن شكر وآمن أنه لا يعذبه، وذكر الله هذه الطبقات الثلاث في سورة الواقعة، فقال في أولها: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّفُونَ السَّيِّفُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٧ - ١١] فصلهم في أول السورة ثم أجملهم في آخرها، فقال: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿٩٢﴾ فَتَزُلُّ مِنْ حِمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤]، وكذلك جاء ذكر هذه الطبقات الثلاث في سورة الإنسان، وتفصيل أحوالهم في الآخرة، وشرابهم، وما شابه ذلك.

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: [وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ...»]

الحديث.

قوله: [مَنْ شَهِدَ] لا ريب أن الشهادة لا تكون شهادة إلا إذا كانت عن علم ويقين وصدق، وأما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع، فيكون الشاهد - والحالة هذه - كاذباً؛ لجهله بمعنى الذي شهد به.

وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفياً وإثباتاً، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك: (لا إله)، وأثبتت الإلهية لله وحده بقولك: (إلا الله)، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمُرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

... — الشَّبَحُ — ...

✽ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أي: اعترف لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبُودِيَةِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ لَيْسَتْ لَفْظًا يُقَالُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا هِيَ قَوْلٌ يَتَلَفَظُ بِهِ الْعَبْدُ بِلِسَانِهِ، وَيَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ مَا تَدُلُّ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

* أن يعمل بمقتضاها.

❦ قوله: (مَنْ شَهِدَ) يعني: نطق بلسانه معتقداً بقلبه، (أَنْ لَا إِلَهَ) أي: لا معبود بحق، (إِلَّا اللَّهُ) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقول: (لَا إِلَهَ) هذا إبطال لجميع المعبودات من دون الله، وقول: (إِلَّا اللَّهُ) هذا فيه إثبات العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ وقوله: (وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) لابد مع الاعتراف بتوحيد الله من الاعتراف برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن كفر بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجحد رسالته لم تنفعه (لا إله إلا الله)؛ لأن اليهود يقولون: (لا إله إلا الله)، ولكنهم يكفرون ببعض الأنبياء، فمن شهد أن لا إله إلا الله فإنه لا تنفعه حتى يصدق برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويطيعه فيها أمر، ويترك ما نهى عنه وزجر، ويعبد الله عَزَّجَلَّ بشريعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يعبد الله بهواه والبدع والمحدثات.

❁ وفي قوله: «عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» نفي للإفراط والتفريط، «عبد» هذا نفي للإفراط والغلو في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجعل شيء له من الربوبية، كما يعتقد المخرفون، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدٌ ليس له من الربوبية شيء، وقد سماه الله عبداً في أشرف المقامات: في مقام الوحي: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وفي مقام الإسرائاء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَبِئَآءَ مَنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسرائاء: ١]، وفي مقام الإنزال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وفي مقام التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] فهو عبد لا يُعبد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسول لا يُكذَّب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل يُطاع ويُتبع، فليس له من العبادة شيء.

فالذين يطلبون منه المدد، ويطلبون منه النصر على الأعداء، ويطلبون منه قضاء الحاجات، وتفريج الكُرَبات، هؤلاء رفعوه من العبودية إلى

الألوهية والعياذ بالله، ولم يقرُّوا بأنه عبد الله، فجعلوه شريكاً لله عَزَّجَلَّ في ربوبيَّته وإلهيَّته، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»^(١)، والله عَزَّجَلَّ يقول له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويقول عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ويقول عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^(٢) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا^(٣) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴿[الجن: ٢١-٢٣].

❖ وقوله: «وَرَسُولُهُ» هذا رد على أهل التفريط، الذين لا يقدِّرون الرسول حق قدره، إما يحدِّدون رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإما أنهم يقرُّون برسالته لكنهم لا يتبعونه الاتباع المطلوب، فهؤلاء لم يشهدوا أنه رسول الله، وشهادتهم إما باطلة وإما ناقصة، باطلة إن كانوا لا يتبعونه أبداً، وناقصة إن كانوا يتبعونه في بعض الأشياء ويخالفونه في بعض الأشياء رغبة لنفوسهم وشهواتهم.

فلا يُتساهل في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أعظم الخلق، وأشرف الخلق، وأفضل الرسل، لكن لا يعني ذلك أن نغلوا فيه، ونجعل له شيئاً من الربوبية، فلا إفراط ولا تفريط.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❦ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله عَزَّجَلَّ من أم بلا والد، وذلك لِيُظْهَرَ للعباد قدرته سبحانه على كل شيء، وقصة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ذكرها الله في القرآن، وأنها نشأت في بيت طيب، وبيت عبادة، وأن والدها توفي وهي صغيرة، وكَفَّلَهَا زكريا نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن خالتها كانت زوجة زكريا، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانَ ﴿يَعْنِي: أم مريم، ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٥]، نذرت حملها أن يكون خادماً لبيت المقدس، الذي هو أحد المساجد الثلاثة في الأرض، وكانت ترجو أن يكون ذكراً، لأن الذكر هو الذي يستطيع القيام بهذه المهمة العظيمة، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]، لأنها قالت هذا من باب الدعاء، لا من باب إخبار الله عَزَّجَلَّ أنها وضعتها، وقرئت الآية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: ٣٦] هذا لبيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالَمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وأنه لا يَخْفَى عليه هذه المولودة، وليست امرأة عمران تُخبر ربها عَزَّجَلَّ، وإنما تدعوه، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَو كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]، بمعنى: أن الذكر أفضل من الأنثى في القيام بالمهمات، فالذكر يستطيع ما لا يستطيعه الأنثى، لما جعل الله في خِلْقَةِ الذكر من الامتياز عن خِلْقَةِ الأنثى، وهذا من حيث الجنس، لا من حيث الأفراد، فقد يكون في أفراد الإناث من هو خير من كثير من الذكور، أما من حيث الجنس فالذكور أفضل من الإناث؛ لأنهم يستطيعون

من الأعمال ما لا تستطيعه الإناث، ولأن عقولهم أوفى من عقول الإناث، بلا شك.

قالت: ﴿وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ تدعو الله أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم، قال عزَّجَلَّ: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ يعني: تقبل مريم ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فنشأت في العبادة والطاعة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، وفي قراءة: (كفَّلها)^(١)؛ لأن بني إسرائيل اختصموا في مريم أيهم يكفلها، لأنها بنت عالمهم وحريرهم وشيخهم، فهم تنافسوا أيهم يكفل مريم؛ كما قال عزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] عملوا القرعة أيهم يكفل مريم ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، يعني: أنك يا محمد لم تشهد هذه القرون الماضية وما حصل فيها، ولكن هذا من آيات الله، ومن معجزات هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله أخبره بما جرى كأنه حاضر، حتى إن بني إسرائيل انبهروا لأنه جاءهم بمعلومات هم لا يعرفونها من أمورهم، وهي مذكورة في كتبهم وتواريخهم، ويعرفها علماءهم وأخبارهم، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمي لا يقرأ

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٣٧٨): «قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر (وَكَفَّلَهَا) بفتح الفاء خفيفة، و(زكرياء) مرفوع ممدود، وروى أبو بكر عن عاصم تشديد الفاء ونصب (زكرياء)، وكان يمد (زكرياء) في كل القرآن في رواية أبي بكر، وروى حفص عن عاصم تشديد الفاء و(زكريا) مقصور في كل القرآن، وكان حمزة والكسائي يشددان (وَكَفَّلَهَا) ويقصران (زكريا) في كل القرآن» اهـ. وانظر: حجة القراءات لابن زنجلة (ص ١٦١).

ولا يكتب، فدل على أن هذا القرآن ليس من عنده، وإنما هو من عند الله عزَّجَل؛ كما قال عزَّجَل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]، وهذا من العجائب، أنه آخر ما نزل من الكتب ومع هذا يقصُّ أخبار الماضين كما وقعت.

فوقعت القرعة لزكريا عَلَيْهِ السَّلَام، وكانت خالتها -أخت أمها- تحته، فكفَّلها زكريا، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ يعني: المكان الذي تصلي فيه، لأن المحراب معناه: المكان الذي يُصلى فيه، وليس خاصًا بالزاوية التي تكون في المسجد الآن ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، هذا من كرامات الأولياء، كان يجد عندها في الشتاء فاكهة الصيف، ويجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء، كان يحضره الله عزَّجَل لها إكرامًا لها، وهي تصلي في هذا المكان، ولا يتصل بها أحد من الخلق، ثم مع هذا يجد عندها نبي الله هذا الرزق.

ثم ذكر قصة زكريا ودعائه لربه، وذكر بقية قصة مريم وحملها بعيسى، قال عزَّجَل: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٤]، هذه هي المعجزة، يعني: كيف علمت: أيها الرسول وأنت آخر الرسل؟ وأنت -أيضًا- أُمِّي لا تقرأ ولا تكتب، هذا من أعظم المعجزات لك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]

يعني: لولا أن الله سبحانه أدراك بهذا ما كنت تدري عنه شيئاً، وهذا من أنباء الغيب، يعني: من الأخبار الماضية، ويطلق الغيب على المستقبل أيضاً، والغيب الماضي والمستقبل لا يعلمه إلا الله، أو من علمه الله من رسله.

قال عَزَّجَلَّ: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥ ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ [آل عمران: ٤٥-٤٦] هذه بشارة لها، لكنها انبهرت كيف يحصل لها ولد وهي لم تكن متزوجة: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٤٧ ﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِنْ بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ ﴿ [آل عمران: ٤٤-٤٩] إلى آخر الآيات.

هذا ما ذكره الله عَزَّجَلَّ من قصة مريم وابنها عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَام، ولهذا لما قرأ جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآيات التي في بيان نشأة عيسى عَلَيْهِ السَّلَام عند النجاشي بحضرة البطارقة وكبار النصارى؛ اعترف النجاشي بأن هذا وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال: «إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ»^(١)، فأسلم النجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ لما سمع ما ذكره الله عَزَّجَلَّ من نبأ عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، وتفاصيل ولادته؛ لأنه لا يمكن أن يكون من عند محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٠١/١)، وأبو نعيم في الحلية (١١٥/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٤/١) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ففي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» فيه ردُّ على اليهود وردُّ على النصارى.

أما اليهود فلأنهم جحدوا رسالة عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، ورموه بالبهت -والعياذ بالله- وقالوا: إنه ولد بغي، قُبِّحهم الله وأخزاهم، وحاولوا قتله، وسَلَّمه الله منهم، ورفعهم إليه، وألقى عليهم الخزي.

وأما النصارى فلأنهم لم يقرُّوا بأن عيسى عبد الله، وإنما ادعوا أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله، ثلاث مقالات لهم، ذكرها الله عَزَّجَلَّ في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿وَقَالَتِ الْتَصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]، ولا يزالون إلى الآن يقولون هذه الأقوال الكفرية الشنيعة ويرددونها في إذاعتهم؛ يقولون: إن عيسى هو ابن الله، وأنه الإله المخلص، وأنه مَكَّن من نفسه للقتل، فقتل وصلب من أجل أن يخلص العباد من الخطيئة التي ارتكبتها آدم عَلَيْهِ السَّلَام؛ كما يقولون قُبِّحهم الله.

❁ قوله: (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) سمي عيسى كلمة لأنه وُجِدَ بقول الله عَزَّجَلَّ: (كن)؛ لأن الغالب في البشر أنهم يوجدون بين ذكر وأنثى، إلا عيسى عَلَيْهِ السَّلَام فإنه وجد من أنثى بلا أب، بل بقوله عَزَّجَلَّ: (كن) فكان

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس هو الكلمة، وإنما سُمِّيَ بالكلمة لأنه خلق بها، بخلاف بقية البشر فإنهم يُخلَقون من أب وأم^(١).

❖ قوله: (وَرُوحٌ مِنْهُ) المراد هنا الروح المخلوقة، و(من) هنا ابتدائية وليست تبعيضية؛ كما تقول -مثلاً-: هذا الرزق من الله، معناه: أن الله هو الذي يسّر هذا الشيء، وهو الذي هيّأه وخلقها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحجّة: ١٣]، معناه: أنه حاصل ونازل وكائن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي ليست تبعيضية كما يقول النصارى: إن عيسى بعض من الله، وأنه ابن الله -تعالى الله عما يقولون- فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ روح مخلوقة كسائر الأرواح، نفخ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في مريم في جيبها، أو نفخ في فرجها، فدبت النفخة إلى الرحم، فوُجد الحمل بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من غير أب، والله على كل شيء قدير، فقد خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من تراب بلا أب ولا أم، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فليس خلق عيسى من أم بلا أب بأعجب من خلق آدم، والله على كل شيء قدير يخلق ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكلمة (منه) لا ابتداء الغاية، يعني: كلمة مبتدأة من الله، وروح مبتدأة من الله؛ وقد يسأل سائل فيقول: كل أرواح بني آدم من الله على هذا التفسير، فما وجه اختصاص عيسى بذلك؟ نقول: نعم كل أرواح بني آدم من الله،

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق (١/ ١٧٧)، وتفسير الطبري (٣/ ٢٦٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٥٩١).

لكن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خُصَّ بذلك لأنه من غير أب، بل هو روح من دون أب.

❁ قوله: (وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ)، أي: أن الجنة التي وعدها الله المتقين حق، والنار التي وعدها الله الكافرين حق، وفي هذا رد على الملاحدة الذين لا يؤمنون بالجنة والنار ولا بالبعث والحساب، ورد على المشركين الذين يحددون البعث والجزاء يوم القيامة.

فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، قاله واعتقده ونطق به (أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ)، هذا وعد من الله بسبب توحيده، وعد له بدخول الجنة وأمن من العذاب، (عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) يعني: ولو كان عنده ذنوب ومعاص دون الشرك، فإنه موعود بدخول الجنة؛ إما ابتداء من غير تعذيب، وإما بعد تعذيبه في النار، وقيل: معنى، (عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) أي: تكون منزلته في الجنة بحسب عمله؛ لأن أهل الجنة يتفاوتون في منازلهم بحسب أعمالهم، لكن الظاهر المعنى الأول أنه يدخل الجنة على ما كان من العمل ولو كان عنده شيء من المعاصي التي هي دون الشرك.

فهذا الحديث حديث عظيم، فيه البراءة من الأديان الثلاثة: دين المشركين الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ودين اليهود الذين يحددون رسالة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودين النصارى الذين يعتقدون في المسيح الإلهية، وأنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. وهذا موجود في

كتبهم التي يزعمون أنها الأناجيل وهي كذب وبهتان، وهم الذين كتبوها، وزوروها، وليست هي الإنجيل الذي أنزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل هي أناجيل مزورة ومحرفة ومدخل فيها من الشرك والكفر ما لا يعلمه إلا الله، وينادون بهذا الآن في إذاعاتهم، ويوزعون الأناجيل ويبشرون بدين المسيح بزعمهم، وكذبوا فليس هذا هو دين المسيح، ولا دين أي واحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل كل الأنبياء ضد هذا الدين الذي عليه النصارى الآن، وليس هذا هو دين المسيح حاشا وكلا، وليس هذا هو الإنجيل الذي أنزله الله على عبده ورسوله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن عيسى كإخوانه من المرسلين يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك، ولم يقل لهم اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، وإنما هذا من افتراءهم وكذبهم، وسيفضحهم الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حينما يقول الله لعيسى: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. فيقول: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦]. أنت تعلم ما يصدر مني، حتى ما في قلبي وفي نفسي قبل أن أتكلم، أنت تعلم أني لم أقل هذه المقالة وإنما هي مكذوبة، ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿[المائدة: ١١٦-١١٧].

هذا الذي أمرهم به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كغيره من إخوانه النبيين، فالأنبياء كلهم جاءوا بهذا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ



أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، فلم يأت نبي من الأنبياء بشيء
 من الشرك، حاشا وكلا، بل الشرك خلاف دعوة الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة
 والسلام، فيكف يُنسب إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من بينت الرسل أنه شرك؟! .



فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل، وهم الأكثرون، فقلبوا حقيقة المعنى، فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور، والمشاهد، والطواغيت، والأشجار، والأحجار، والجن، وغير ذلك، واتخذوا ذلك ديناً، وشبهوا وزخرفوا، واتخذوا التوحيد بدعة، وأنكروه على من دعاهم إليه، فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم؛ فإنهم عرفوا معناها، وأنكروا ما دلت عليه من الإخلاص؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰؤُلَاءِ لِيُشَاعِرَ نَجْنُونُ ﴿[الصفات: ٣٥-٣٦].

والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكروه أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من القبور، والمشاهد، والطواغيت، ونحوها، فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه، وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه؛ لهذا تجده يقول: لا إله إلا الله. وهو يدعو مع الله غيره.

... — الشَّيْخُ — ...

أثبتوا المنفي وهو الشرك، فاعتقدوا الشرك في القبور والأشجار والأحجار والأصنام، ونفوا الميث وهو أفراد الله بالعبادة، فهم خالفوا وعاكسوا هذه الكلمة العظيمة، وإن كانوا يقولونها بألسنتهم.

والآن إذا جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد وترك عبادة القبور والأضرحة، يقولون: هذا خارجي، وهذا مبتدع، وهذا جاء بدين خامس، أو دين جديد، فيبدعون أهل التوحيد، ويمدحون أهل الشرك، ويظنون أنهم

هم المسلمون، وأن الإسلام هو عبادة القبور والتقرب إلى الأموات والأولياء والصالحين، وهذا من قلب الحقائق والعياذ بالله، وهذا موجود في كتبهم التي يردون بها على أهل التوحيد.

فأهل الجاهلية عرفوا معنى لا إله إلا الله، لكنهم أبوا أن يلتزموا بها خشية التناقض، وهؤلاء لم يعرفوا معناها؛ ولذلك وقعوا في الشرك وهم يقولونها، ويقولون لمن قال لهم: اتركوا عبادة القبور والأضرحة والأولياء والصالحين، يقولون: أنت تنتقص الأولياء والصالحين وتبغضهم. نقول لهم: بل أنتم تنقصتم الله عَزَّجَلَّ وأبغضتموه، ونحن لا نتقص الأولياء والصالحين بل نحبههم، ولكن نقول: ليس لهم في العبادة حق، إنما العبادة حق لله عَزَّجَلَّ. فهم لا يعرفون أن لا إله إلا الله تبطل الشرك؛ ولذلك يستمرون على الشرك وهم يقول: لا إله إلا الله. فيتناقض قولهم مع عملهم والعياذ بالله.



قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الإله هو الذي تأله القلوب. محبة وإجلالاً، وإنابة، وإكراماً، وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً، وخوفاً ورجاءً وتوكلًا^(١).

وقال الوزير أبو المظفر^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ في (الإفصاح): قوله: شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إله إلا الله؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، قال: واسم (الله) مرتفع بعد (إلا) من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه. قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت وعلى الإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبتت الإيجاب لله كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن رجب^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: الإله هو الذي يُطاع فلا يُعصى؛ هبة له،

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٧).

(٢) هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد الشيباني، ولد سنة تسع وتسعين وأربعمائة بالسواد، ودخل بغداد شاباً، فطلب العلم وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وسمع الحديث، وقرأ القراءات، وشارك في الفنون، وصار من فضلاء زمانه، وصنف كتباً جيدة مفيدة من ذلك: «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح» في مجلدات، شرح فيه الحديث، وتكلم على مذاهب العلماء، واختصر كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت، وله كتاب «العبادات في الفقه» على مذهب الإمام أحمد، وأرجوزة في المقصور والممدود، وأرجوزة في علم الخط، وغير ذلك، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد، وقد كان فقيراً لا مال له، ثم تعرض للخدمة إلي أن وزر للمقتفي، ثم لابنه المستنجد، وكان من خيار الوزراء، وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم، توفي سنة ستين وخمسمائة. انظر: وفيات الأعيان (٦/ ٢٣٠)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٢٦)، والبداية والنهاية (١٢/ ٢٥٠)، وشذرات الذهب (٤/ ١٩١).

(٣) هو الإمام الحافظ والمحدث الفقيه زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، البغدادي ثم الدمشقي، ولد ببغداد سنة ست وثلاثين وسبعمائة، ثم توجه مع أبيه تلقاء دمشق، وفيها شب وترعرع واكتهل، وبها توفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة، له المؤلفات =

وإجلالاً، ومحبة، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاءً له. ولا يصلح ذلك كله إلا لله عَزَّجَلَّ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور -التي هي من خصائص الإلهية- كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك^(١).

وقال البقاعي^(٢): (لا إله إلا الله)، أي: انتفى انتفاءً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم. قال: وهذا العلم هو من أعظم الذكري المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهلٌ صرف.

... الشَّيْخُ ...

الوزير أبو المظفر سمي الوزير لأنه استوزر لبعض الخلفاء، وكان من أجلة العلماء رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَلَهُ مَوْلَف «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح»، وهو

=السديدة والمصنفات المفيدة، منها: شرح على صحيح البخاري لم يكمل، وشرح على الجامع للترمذي، وغير ذلك. انظر: الدرر الكامنة (٣/ ١٠٨، ١٠٩)، وشذرات الذهب (٦/ ٣٣٩)، وذيل تذكرة الحفاظ (ص ١٨٠ - ١٨٢)، وطبقات الحفاظ (ص ٥٤٠)، وشرح علل الترمذي بتحقيق الدكتور همام عبدالرحيم سعيد (١/ ٢٤٦ - ٢٥٧).

(١) انظر: كلمة الإخلاص (ص ٢٣).

(٢) هو الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، الشافعي، المحدث، المفسر، الإمام العلامة المؤرخ، ولد سنة تسع وثمانمائة، أخذ عن أساطين عصره كابن ناصر الدين وابن حجر، وبرع وتميز وناظر وانتقد حتى على شيوخه، وصنف تصانيف عديدة من أجلها: «المناسبات القرآنية»، و«عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران»، و«تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارص وابن عربي»، توفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة. انظر: الضوء اللامع (١/ ١٠١)، وطبقات المفسرين للداودي (ص ٣٤٧)، وشذرات الذهب (٧/ ٣٣٩).

شرح للجمع بين الصحيحين، ولما وصل إلى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ» كتب على هذا الحديث مجلدًا كاملاً من أوله الفقه إلى الفقه، وذكر فيه اختلاف الأئمة الأربعة رَحِمَهُمُ اللَّهُ في كل مسألة من باب الاستطراد، فهذا الكتاب المسمى بالإفصاح هو قطعة من شرحه على كتاب الجمع بين الصحيحين.

❦ قوله: (قوله: شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إله إلا الله) هذا شرط أن يعلم بمعناها، أما أن يردد المرء كلاماً لا يفقه معناه، فهذا لا يفيد شيئاً.

(إلا الله) هذا ما يسمونه بالاستثناء إذا لم يذكر المستثنى منه فإنه يجوز في المستثنى الرفع والنصب، يعني مرفوع بالضمّة.

❦ قال: (وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت وعلى الإيمان بالله) فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله، والإيمان بالله هو التوحيد.

ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ له رسالة اسمها: «كلمة الإخلاص» مطبوعة ومتداولة، وهي رسالة قيمة وجديرة بالعناية، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (الإله هو الذي يُطَاع فلا يُعصى؛ هيبته له، وإجلالاً، ومحبة، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاءً له)، فهو سبحانه الذي تُصرف له العبادة بجميع أنواعها، ومنها: الخوف، والرجاء، والرغبة، والرغبة، والرهبة، والذبح، والنذر،

وسائر العبادات، فلا يُسأل إلا هو، ولا يُخاف إلا منه، ولا يُرجى إلا هو، ولا يُدعى إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كل هذا داخل في معنى لا إله إلا الله، فمن دعا غير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله؛ فإنه قد صرف العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلم يكن مخلصاً لله عَزَّجَلَّ، وإن كان يعبد الله بأنواع من العبادات، ما دام أنه يعبد معه غيره فعبادته لله باطلة.

قال الله عَزَّجَلَّ في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١)، وفي لفظ آخر: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»^(٢)، فهو سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، وصواباً على سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد في المسند (٣٠١/٢)، وابن حبان في صحيحه (١٢٠/٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٦٧/٢)، والطبراني في الأوسط (٣٢٤/٦)،

والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٩/٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قلت: وهؤلاء المتأخرون جهلوا (لا إله إلا الله)، وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى توحيد الربوبية، وهو القدرة على الاختراع، فأثبتوا ما نفتته (لا إله إلا الله) من الشرك، وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلاً منهم، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

... — الشَّيْخُ — ...

أراد الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يُبَيِّنَ جهل هؤلاء المتأخرين لمعنى كلمة التوحيد، فهم في عقائدهم التي ألفوها على قواعد المنطق وعلم الكلام يفسرون التوحيد بأنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وأن الإله هو القادر على الاختراع، فيقولون: (لا إله) يعني: لا قادر على الاختراع والخلق (إلا الله). وهذا هو توحيد المشركين الأولين؛ لأنهم يعترفون به ولم ينفعهم، فهذا التفسير باطل وليس هو معنى التوحيد، إنما التوحيد هو إفراد الله عَزَّجَلَّ بالعبادة، أما الإقرار بالربوبية فهو لا يكفي ولا ينجي من عذاب الله.

ولذلك تجدهم ينكرون على من دعاهم إلى إفراد الله عَزَّجَلَّ بالعبادة وترك عبادة القبور، ويقولون له: أنت خارج عن مذهب أهل السنة، وهذا عهدنا عليه الناس وعليه العمل، ومن العلماء من لم ينكروه، وأشبه ذلك.

سبحان الله!! هل العلم يؤخذ من عادات الناس وأهوائهم؟! لا.. العلم يؤخذ من كتاب الله ومن سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا سيما علم التوحيد، ولا يؤخذ من عادات الناس وما هم عليه، ولا مما قاله العالم الفلاني

بدون دليل، لا يؤخذ هذا حتى في مسائل الفقه إلا بدليل، فكيف بمسائل التوحيد؟

فمثل هؤلاء العلماء الذين سكتوا أو برروا ما عليه عباد القبور، هؤلاء لا يُحتج بهم، وإن كانوا علماء فهم علماء ضلال، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَثَمَةُ الْمُضِلِّينَ»^(١)؛ ذلك لأن الناس يحسنون الظن بهم، فينقادون إليهم ويقودونهم إلى الضلال، وإنما العلماء هم أهل خشية الله وأهل العمل بالعلم، وأهل التوحيد، وهم ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام.



(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد في المسند (٢٧٨/٥)، والدارمي (٨٠/١)، وابن حبان (١١٠/١٥)، والحاكم في المستدرک (٤٩٦/٤)، والبيهقي في الكبرى (١٨١/٩) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي الباب من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال محيي الدين النووي^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضُيِّعَ من أزمان متطاولة، ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح^(٢).

قوله: (في هذه الأزمان) يعني: القرن الخامس والسادس، وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده؟! وقد استحكمت فيه الغربية.

ولشيخنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في تفسير هذه الكلمة كلام بديع حسن واضح لم يسبق إلى مثله، فليراجع لمسيس الحاجة إليه.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا في زمن النووي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»^(٣)، فالمعصية إذا لم تُنكر ونزلت العقوبة؛ فإنها تعم الصالح والطالح: الطالح لأنه فعل المعصية، والصالح لأنه لم ينكر فاستحق العقوبة،

(١) هو يحيى بن شرف بن حسن بن حسين بن جمعة بن حزام الحازمي، العالم محيي الدين أبو زكريا، النووي ثم الدمشقي، الشافعي العلامة شيخ المذهب وكبير الفقهاء في زمانه، ولد بنوى سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وتوفي سنة ست وسبعين وستمائة، صنف التصانيف النافعة المفيدة في الحديث والفقه وغيرها، منها شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين، والأربعين النووية، وغيرها. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٨/٣٩٥)، والعبر (٥/٣١٢)، والبداية والنهاية (١٣/٢٧٨)، وطبقات الحفاظ (ص ٥١٣).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦/٣٣٤)، ومسلم (٢٨٨٠).

قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأَنْفَال: ٢٥]، فإذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوشك الله أن يعمهم بعذاب منه، حتى الذين لم يفعلوا المعاصي يقع بهم العذاب لأنهم لم ينكروه، ولم يغاروا لله عَزَّجَلَّ، وأما الذين ينكرون فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ينجيهم بسبب إنكارهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

﴿قوله: (وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده؟! وقد استحكمت فيه الغربة)؛ لأنه كلما تأخر الزمان يكثر الخبث، ويكثر الشر، ويُقبض العلم، ويبقى الجهل، وتشتد غربة الدين في آخر الزمان، حتى اعتقدوا أن الشرك هو التوحيد، وأن التوحيد هو الشرك والكفر، فهل بعد هذه الغربة غربة؟



قوله في الحديث: «وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» تأكيد لمعنى لا إله إلا الله الذي دلت عليه، ووضعت له، من باب اللف والنشر المقدم والمؤخر، وهو بيان لحقيقة معنى هذه الكلمة؛ لأنها دلت بجملتها على التوحيد، فلا إله تنفي الشرك في العبادة قليله وكثيره، وبَيَّنَّه بقوله: «لَا شَرِيكَ لَهُ» في إلهيته وهي العبادة.

وقوله: «وَحَدَهُ» هو معنى «إلا الله»، فهو الإله الحق وحده دون كل ما سواه من أهل السماوات والأرض؛ كما دلت على ذلك الآيات المحكمات، ومتواتر الأحاديث الصحيحة، فتدبر هذا البيان يطلعك على بطلان قول من يقول بجواز دعوة غير الله، والله عَزَّجَلَّ يقول لنبيه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣١]، وغيرها من الآيات الآتي ذكرها إن شاء الله.

فقوله: «وَحَدَهُ» تأكيد للإثبات.

وقوله: «لَا شَرِيكَ لَهُ» تأكيد للنفي.

وقوله: «وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» أي: وشهد أن محمداً عبده ورسوله، أي: بصدق ويقين؛ وذلك يقتضي اتباعه، وتعظيم أمره ونهيه، ولزوم سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن لا تعارض بقول أحد؛ لأن غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجوز عليه الخطأ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عصمه الله عَزَّجَلَّ، وأمرنا بطاعته والتأسي به، والوعيد على ترك طاعته بقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (من باب اللف والنشر المقدم والمؤخر) هذا عند البلاغيين: اللف والنشر غير المرتب^(١)، فقوله: (لا إله إلا الله وحده) هذا تأكيد لآخر الكلمة (إلا الله)، وقوله: (لا شريك له) هذا تأكيد لأولها، فهو بدأ بتأكيد آخر الكلمة قبل أولها، وهذا من اللف والنشر غير المرتب.

مثل قوله عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسَوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، بدأ بالشق الأخير، وهو من باب اللف والنشر غير المرتب، والمرتب أن يبدأ بالذين ابيضت وجوههم، وهذا أسلوب عربي بليغ يأتي في القرآن الكريم.

❁ قوله: (فتدبر هذا البيان يطلعك على بطلان قول من يقول بجواز دعوة غير الله، والله عَزَّجَلَّ يقول لنبيه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الدَّاعِينَ﴾) قال الخطيب القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة (ص ٣٣٢): «اللف والنشر: هو ذكر متعدد على جهة التفصيل، أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقةً بأن السامع يَرُدُّه إليه، فالأول ضربان؛ لأن النشر إما على ترتيب اللف؛ كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُوتُوا فِيهِ وَلِلَّيْلِ نَسْجُوتُ فِيهِ فَمَنْ فَضَّلَهُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].... وإما على غير ترتيبه كقول ابن حيوس:

كَيْفَ أَسْلَمُوا وَأَنْتَ حَقِيقٌ وَغَضَبٌ مَنْ وَغَزَالَ لِحْظًا وَقَدْ أَوْرَدَفَا

... والثاني: كقول: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]؛ فإن الضمير في (قالوا) لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين، ثقةً بأن السامع يَرُدُّ إلى كل فريق قوله، وأمنًا من الإلباس؛ لما عَلِمَ من التعادي بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه» اهـ. بتصرف يسير.
وانظر أيضًا: خزانة الأدب وغاية الأرب (١/ ١٤٩).

الْمُعَذِّبِينَ ﴿ فلو دعا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير الله - وحاشاه أن يدعو غير الله - لكان من المعذنين، وفي الآية الأخرى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، فإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو أشرك لكان من المعذنين وحبط عمله فكيف بغيره؟ وقال في الرسل الآخرين: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ثم إن شهادة أن لا إله إلا الله لا تكفي إلا مع شهادة أن محمداً رسول الله، وكذلك شهادة أن محمداً رسول الله لا تكفي إلا مع شهادة أن لا إله إلا الله، فلا بد من الشهادتين.

❖ قال: (وذلك يقتضي اتباعه، وتعظيم أمره ونهيه)، فكما أن لا إله إلا الله ليست مجرد لفظ يُقال باللسان إنما تتضمن المعنى والاعتقاد والعمل، فكذلك شهادة أن محمداً رسول الله ليست لفظاً يُقال باللسان، إنما يلزم قائلها الاتباع والافتداء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصديقه فيما أخبر، وترك ما نهى عنه وزجر، فهي ليست مجرد لفظ يُقال باللسان، بل لها معنى ومدلول لا بد من التزامه حتى تصح شهادة أن محمداً رسول الله، وإلا فالمشركون يشهدون أنه رسول الله بقلوبهم، ويعترفون بذلك، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا اللَّهَ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وأبو طالب عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتني سمحاً بذاك مبيناً^(١)

(١) انظر: الزاهر لأبي بكر الأنباري (١/ ٣٨٠)، وزاد المسير (٣/ ٢١)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٢)، وسمط النجوم العوالي (١/ ٣٩٤).

فهو يعترف أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله، لكنه لم يتبعه من باب الحمية الجاهلية لدين المشركين، فمنعته الملامة أو حذار مسبة على آبائه وأجداده من اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحملته الحمية الجاهلية على البقاء على الشرك والعياذ بالله، فمجرد الاعتراف بأنه رسول الله لا يكفي؛ ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

❁ قال: (ولزوم سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن لا تعارض بقول أحد)؛ بل تقدم سنته على كل قول مهما كان قائله، فلا قول لأحد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، فالذي يشهد أنه رسول الله ولا يأخذ من أحاديث الرسول إلا ما يوافق هواه، وما لا يوافق هواه إما أن يفسره بغير تفسيره، وإما أنه يقول: في سنده كذا وكذا، وهو خبر آحاد.. إلى آخره. فمثل هذا لم يشهد بأن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم من الخطأ فلا يقول إلا حقاً، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم من الخطأ، أما غيره من العلماء فهم محل اجتهدا يخطئون ويصيبون، فيؤخذ من اجتهداهم وأقوالهم ما وافق الحق، ويترك ما خالف الحق.

فمن شهد أن محمداً رسول الله لا بد له من هذه الأمور حتى يكون شاهداً بحق:

- * أن ينطق بها بلسانه.
- * أن يعتقددها في قلبه.
- * أن يعمل بها بجوارحه.
- * أن يقدم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قول كل أحد.

فلا يجب اتباع شخص بعينه إلا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما غيره فإنه يُتبع فيما اتبع فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُتبع فيما خالف فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فضل أحداً من المشائخ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو اعتقد أن أحداً يستغني عن طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِثْبِيب؛ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ»^(١)، فمن اعتقد أن شخصاً تجب طاعته وقبول أقواله غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه مرتد عن دين الإسلام؛ لأن هذا لا يكون إلا في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما غيره فإنه يؤخذ من قوله ما وافق سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُترك ما خالفها.

قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فأوجب طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أوجب طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغ عن الله ومعصوم من الخطأ، فتجب طاعته في كل حال من غير توقف، ومن غير شك في قوله

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢٢).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، هذا أمر من الله عَزَّجَلَّ بأن يؤخذ كل ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن (ما) هنا موصولة من صيغ العموم، فيجب الأخذ بكل ما ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك باتباع كل ما أمر به، والانتفاء عن كل ما نهى عنه.

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿وَأِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿وَاطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات، فطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجب لا خيار فيه.

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وهذا وعيد من الله عَزَّجَلَّ لمن خالف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تصيبه (فتنة) في قلبه، وهي الشرك والزيغ والعياذ بالله، أو (عذاب أليم) أي: عقوبة عاجلة أو آجلة بالقتل أو سلب الأموال والأولاد هذا في الدنيا، وفي الآخرة النار والعياذ بالله، فالذي يخالف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوعد بهاتين العقوبتين:

عقوبة قلبية: بأن يُصرف قلبه عن الحق فيفتن، وهذه أشد.

عقوبة بدنية: بأن يصاب في بدنه بعقوبة في الدنيا؛ كالمرض، والقتل، والضرب، أو غير ذلك، وفي الآخرة عذاب النار أشد وأنكى.



قال الإمام أحمد^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّحْتُهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ^(٢). وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشَّرْكَ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكُ»^(٣) لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك، وقد وقع التفریط في المتابعة وتركها، وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على، قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاسيما من العلماء كما لا يخفى.

... — الشَّبَحُ — ...

يعني عجب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ من قوم يعرفون صحة الحديث ثم يخالفون إلى اجتهد بعض العلماء، فيقولون: قال فلان. فإذا خالف قول

(١) هو إمام المحدثين، والناصر للدين، والمناضل عن السنة، والصابر في المحنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، أحد الأئمة الأربعة المتبوعين، ولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة، وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين. انظر: سيرة الإمام أحمد بن حنبل لأبي الفضل صالح بن أحمد بن حنبل (ص ٢٩ وما بعدها)، وتاريخ دمشق (٥/ ٢٥٢)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٨).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الثوري، من أهل الكوفة، ولد سنة سبع وتسعين، كان من كبار أئمة المسلمين لا يختلف في إمامته وأمانته وحفظه وعلمه وزهده، توفي سنة إحدى وستين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٧١)، وحلية الأولياء (٦/ ٣٥٦) وتاريخ بغداد (٩/ ١٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩)، وطبقات الحفاظ (ص ٩٥).

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

فلان قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يجوز الأخذ به، وإن كان إمامًا جليلاً مثل سفيان الثوري، فالأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَجْتَهِدُونَ، ويريدون الحق، منهم من يصيبه ومنهم من يخطئه، فهم ليسوا معصومين، وكذلك لا يتعمدون مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل إن حصل منهم شيء من المخالفة فإنه عن غير قصد، فهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ معذورون ومأجورون على اجتهداتهم، لكن لا يجوز لمن عرف الخطأ أن يتبعه، وإن كان قول سفيان، أو قول الإمام أحمد، أو مالك، أو أبي حنيفة^(١)، أو الشافعي^(٢)؛ لأنهم بشر يصيبون ويخطئون، ولم يعطهم الله عَزَّجَلَّ العصمة، كما أعطاهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى أبدًا.

فإذا كان الذي يذهب إلى رأي سفيان - وهو الإمام الجليل الورع التقى الفقيه المعروف في الأمة - المخالف لسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوعد بهذا الوعيد، فكيف بمن يذهب إلى رأي من هو أقل من سفيان، كمن يذهب إلى

(١) هو فقيه أهل العراق وإمام أصحاب الرأي، أحد الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي الكوفي، ولد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة، ورأى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قدم عليهم الكوفة. انظر: تاريخ بغداد (٣٢٣/١٣)، ووفيات الأعيان (٤٠٥/٥)، وسير أعلام النبلاء (٣٩٠/٦)، وطبقات الحفاظ (ص ٨٠).

(٢) هو فقيه عصره، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان الشافعي، كان مولده بغزة سنة خمسين ومائة، ونُقل إلى مكة وله سستان، وتوفي سنة أربع ومائتين بمصر وله أربع وخمسون سنة. انظر: حلية الأولياء (٦٣/٩)، والعبر (٣٤٣/١)، ومعجم الأدباء (١٩٠/٥) وشذرات الذهب (٩/٢).

رأي جاهل أو رأي صاحب هوى، وأصحاب البدع والمحدثات، ويقول: هذه أقوال علماء. ويأخذ بها وهي مخالفة لقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هذه -والعياذ بالله- فتنة، وهي تصيب القلب، والذي يصيب القلب أشد من الذي يصيب البدن.



قوله: [وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ]، فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده؛ كما في الآيات المحكمات، وما فيها من الرد على كفار النصارى، وهم ثلاث طوائف: طائفة قالوا: إن عيسى هو الله، وطائفة قالوا: إنه ابن الله، وطائفة قالوا: إن الله ثالث ثلاثة. يعنون عيسى وأمه.

... — الشَّيْخُ — ...

لأن عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضلت فيه طائفتان:
الأولى: طائفة اليهود، الذين فرطوا في حقه وجحدوا رسالته، وزعموا -قبحهم الله- أنه ولد بغى؛ لأنه ليس له أب.
الثانية: طائفة النصارى، الذين غلوا في حق المسيح حتى اتخذوه إلهًا مع الله عَزَّجَلَّ، وأفرطوا في حقه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فالمسلم يخالف الطائفتين، فيشهد برسالته ونبوته، ولكن لا يغلو فيه كما غلت النصارى، ولا يجفو في حقه كما جفت اليهود، وأما إنه من أم بلا أب، فإن الله على كل شيء قدير، خلق آدم من تراب بدون أب ولا أم، وخلق حواء من آدم بدون أم، فالذي خلق آدم من تراب قادر على أن يخلق عيسى من غير أب، وإنما خلقه بقوله: (كن)، فالذي يخلق من أم وأب، أو من أب بلا أم، قادر على أن يخلق من أم بلا أب، ولذلك قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فليس شأن عيسى بأعجب من شأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال: ﴿وَقَالَتِ الْنَصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، فيقولون: الله، وعيسى، وروح القدس، ثلاث، ثم يقولون: إله واحد. فكيف تكون الثلاثة شيئًا واحدًا؟ هذا لا تصدق به العقول ولا تتصوره، أن الثلاثة تكون واحدًا، والواحد يكون ثلاثة، ولا نزل به كتاب ولا سنة، إنما هو شيء ابتدعه؛ ولذلك تسمى عقيدتهم بعقيدة التثليث والمثلثة. ولهذا أنزل الله عَزَّجَلَّ قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤] فالله عَزَّجَلَّ ليس له والد، وليس له ولد، وليس له مشابه من خلقه، هذه هي العقيدة الصحيحة في الله عَزَّجَلَّ؛ ولهذا يُؤثر عن بعض النصارى الذين أسلموا في العصر الحاضر أنه لما سُئِلَ عن سبب إسلامه قال: لما سمعت سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أخذت في قلبي، فاسترحت من تفكير أخذ علي الليل والنهار، كيف يكون الثلاثة واحدًا، والواحد ثلاثة؟



فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْحَقَّ، وَأَبْطَلَ الْبَاطِلَ، فَقَالَ: ﴿يَتَّاهِلَ الْكَتَبُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، والآيات بعدها.

... — الشَّبَحُ — ...

❦ قوله: ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ❦ الغلو هو الزيادة، ذلك أن النصارى غلوا في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ورفعوه من مرتبة البشرية إلى مرتبة الإلهية، ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ❦ أي: لا تنسبوا إليه من الولد ومن الشبيه ما نزه نفسه عنه، ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ❦ فالله عَزَّجَلَّ لم يلد ولم يولد، والمسيح مولود من أم، فيكيف يتصور أنه إله مع أنه مولود؟ ❦ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ ❦ والرسول غير المرسل، ﴿وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا﴾ ❦ وهي قوله: (كن)، فبسبب وجود المسيح هو كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكان بهذه الكلمة بدون أب؛ ولهذا يقال للمسيح: (كلمة الله)؛ لأنه خُلِقَ بهذه الكلمة، ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ❦ وقد عرفنا فيما سبق أن المراد هنا: الروح المخلوقة؛ لأن الأرواح مخلوقة، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ روح من جملة الأرواح المخلوقة، وقوله: ﴿مِنْهُ﴾ ❦ ليست للتبعيض، وإنما هي لابتداء الغاية، مثل قوله: ﴿وَسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ ❦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَنْفَكُّوْنَ ﴿ [الجاثية: ١٣]، (منه) هنا ليست للتبعيض، فهذه المخلوقات ليست بعض من الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما ابتداء تسخيرها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ومنهم المسيح، فمن جحد رسالة المسيح أو ادعى أنه فوق الرسالة فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ أي: الله، والمسيح، وروح القدس؛ كما هو قول بعض النصارى، ﴿ أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ ﴾ هذا تنزيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون له ولد؛ لأن الولد يشبه الوالد، وهو جزء من الوالد، وهذا تنقص لله عَزَّوَجَلَّ ﴿ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فهو غني عن الولد، وليس هو بحاجة إلى الولد؛ لأن الذي يحتاج إلى الولد هو الفقير الذي يريد ذرية، ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ مفوضًا إليه جميع الأمور يتصرف فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو يدبر الكون ولا يشق عليه، وليس بحاجة إلى معين ولا ظهير، ولا شبيه ولا مثيل، ولا ولد ولا والد، غني عن كل ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إلى قوله: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ [النساء: ١٧٦] كلها في سياق تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن قول النصارى إن المسيح ابن الله، وهذا مما أحدثوه في النصرانية بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقرون، لما ظهر اليهودي بولس الذي ادعى الإيمان بالمسيح ليفسد دين المسيح، وصدقه النصارى في دعواه الإيمان بالمسيح، فغير وبدل وأدخل في دينهم الوثنيات، ومنها قوله: (إن المسيح ابن الله)، فتم له ما أراد من إفساد دين المسيح وإدخال الوثنيات على النصارى، واعتقدوها لغباوتهم وغفلتهم.

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

مَرْيَمَ﴾ في مواضع من سورة المائدة [المائدة: ١٧، ٧٢].

وأخبر الله عَزَّجَلَّ عما قاله المسيح عَلَيْهِ السَّلَام وهو في المهد، فقال عَزَّجَلَّ:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَمْرِيءُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) يَتَأَخَتِ

هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ

نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠)

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١)

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ

وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا

كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ

رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٢٧-٣٦].

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا القول الثالث، وهو قول الذين يقولون: إن الله هو المسيح، فجعلوا

المسيح هو الله، جل الله عما يقولون، وقالوا: إنه نزل ليخلص العباد من

خطيئة أبيهم آدم، وقدم نفسه للقتل، فقتل وصُلب من أجل فداء بني آدم، ثم

في اليوم الثالث قام من القبر وصعد إلى السماء، هذا الكلام لا يقوله المجانين

والعياذ بالله، حتى الحيوانات والخنازير لا تقول هذا الكلام، بل تنزه الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والآن مع أن النصرارى يقولون مقولتهم هذه في حق الله عَزَّجَلَّ، نجد من يقول من المنتسبين للإسلام: إخواننا المسيحيين. ويدعون إلى تقارب أديان، كيف نقارب الإسلام -دين التوحيد- مع دين الوثنية ودين التفريق؟ والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ولم يقل: أنا الله، أو أنا ابن الله، أو أنا ثالث ثلاثة، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ الذي هو الإنجيل، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي: رسولاً إلى بني إسرائيل، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فهو عبد كشأن العبيد يصلي إلى الله عَزَّجَلَّ، ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ فهو إذا عبد من عباد الله يصلي ويزكي ويتعبد لله عَزَّجَلَّ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ثم يموت بعد، فهل الله عَزَّجَلَّ يموت؟ الله عَزَّجَلَّ حي لا يموت، بينما المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يموت؛ ولهذا قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧]، فهو يموت كغيره، فدل على أنه ليس بآله، ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ هذا أيضا عبادة، البر بالوالدين عبادة، وقال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ وهل الله عَزَّجَلَّ له والدة، تعالى الله عما يقولون، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ٣٢ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ﴾ والله سبحانه لم يولد ﴿وَيَوْمَ أُمُوتُ﴾ وهل الله عَزَّجَلَّ يموت؟ ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ والله سبحانه هو الذي يحيي الموتى.

هذا كله كلام المسيح، وهذه مقالات المسيح ذكرها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ليرد بها على النصرارى، وهم يقولون بأن هذا كلام المسيح لأنه موجود في الإنجيل، وموجود في كتبهم؛ ولهذا لما سمع النجاشي القرآن قال: هذا والذي ينزل على موسى من مشكاة واحدة، فأسلم رَحِمَهُ اللَّهُ وقد كان نصرانياً.

قال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ذلك شأنه وهذه قصته ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ يَبَيِّنُ الْحَقَّ فِي عِيسَى وَرَدَّ عَلَى النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ لَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَتَّخِذَ الْوَلَدَ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ شَبِيهَ بِالْوَالِدِ وَاللَّهُ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَالْوَالِدُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْوَلَدِ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ نَزَهَ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ فَلَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَعِينُهُ، بَلْ بِمَجْرَدِ مَا يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ، مِنْ غَيْرِ تَأَخُّرٍ، فَلَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَعِينُهُ أَوْ مَنْ يُؤَاوِرُهُ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ وَرَبُّكُمُ﴾ هَذَا كَلَامُ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ فِي الْمَهْدِ، وَيَقُولُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَفِيعٌ وَرَبُّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ وَرَبُّكُمُ﴾ [مريم: ٣٦ - ٣٧] فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ حَقًّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ طَرِيقٌ مُعْتَدِلٌ، هَذَا هُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ هَذَا بَعْدَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَصَلَ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَ النَّصَارَى فِي شَأْنِ الْمَسِيحِ، مِنْهُمْ طَائِفَةٌ بَقِيَتْ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ وَأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى ثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَانِ، وَبَقِيَّةُ النَّصَارَى خَالَفُوا فِي شَأْنِ الْمَسِيحِ.



فبين عَزَّجَلَّ الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا، ومن خرج عنه هلك، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥١) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿[آل عمران: ٥٩-٦٠]، فبين عَزَّجَلَّ الصراط المستقيم بيانا شافيا كافيا وافيا، وأقام حججه على توحيده، فأحق الحق، وأبطل الباطل ولو كره المشركون.

قوله: ﴿وَكَلَّمْتُهُ ۖ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرِيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، أي قوله: ﴿كُنْ﴾، فخلقه بكن فكان فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّجَلَّ، خلافا للجهمية أيضا.

... — الشَّيْخُ — ...

فلا غرابة في خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَام من أم بلا أب ما دام أن الله خلق آدم من تراب بدون أب ولا أم، فالذي قدر على خلق آدم من تراب قادر على خلق عيسى من أم بلا أب من باب أولى، وهو لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والنصارى الآن يروجون ما يسمونه بالإنجيل، أو الكتاب المقدس، وفيه هذه الكفريات الشنيعة والعياذ بالله، ولا يستحيون؛ لأن الله نكس قلوبهم، فصاروا لا ينجلون من الباطل، مع أن هذا الكتاب الذي يروجونه فضيحة عليهم، وليس هو دين المسيح ولا جاء به المسيح، وإنما هو من اختلاقهم وتغييرهم، ويروجونه على أن هذا هو دين المسيح.



قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخذ عليها العهد على أنه عَزَّجَلَّ ربهم وإلههم؛ كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآيات، وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله عَزَّجَلَّ.

وذكر ابن جرير^(١) عن وهب بن منبه^(٢) قال: نفخ جبريل في جيب درع مريم، حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت، وعن السدي^(٣): أن النفخة دخلت في صدرها فحملت^(٤).

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، كان مولده في سنة أربع وعشرين ومائتين، قال عنه ابن كثير: «كان فصيح اللسان، وروى الكثير عن الجمل الغفير، ورحل إلى الآفاق في طلب الحديث، وصنف التاريخ الحافل، وله التفسير الكامل الذي لا يوجد له نظير، وغيرهما من المصنفات النافعة في الأصول والفروع» اهـ. توفي سنة عشر وثلاثمائة. انظر: تاريخ بغداد (٢/ ١٦٢)، وتاريخ دمشق (٥٢/ ١٨٨)، والوافي بالوفيات (٢/ ٢١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧)، والبداية والنهاية (١١/ ١٤٥).

(٢) هو وهب بن منبه بن كامل بن سبيح بن سحسار من أبناء فارس، كنيته أبو عبد الله، كان ينزل دمار على مرحلتين من صنعاء، كان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهد، ولد سنة أربع وثلاثين، ومات سنة ثلاث عشرة ومائة. انظر: مشاهير علماء الأمصار (ص ١٢٢)، وتاريخ دمشق (٦٣/ ٣٦٦)، وطبقات الحفاظ (ص ٤٨).

(٣) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي الأعور السدي، أحد موالى قریش، قال النسائي: «صالح الحديث»، وقال يحيى بن سعيد القطان: «لا بأس به»، وقال الإمام أحمد: «ثقة»، مات سنة سبع وعشرين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٢٣)، والثقات لابن حبان (٤/ ٢٠)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٤)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٦٢).

وقال ابن جريج^(١): يقولون إنما نفخ في جيب درعها وكمها^(٢). انتهى مختصرًا.

فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نفخ، والله خلق بقول (كن) فكان؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢]، فسبحان من لا يخلق غيره، ولا يُعبد سواه.

وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، فقال في الجواب: هذا ليس خاصًا بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل المخلوقات كذلك كلها؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ أي: خلقًا وإيجادًا، وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته.

وفي هذا الحديث الرد على اليهود، أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله؛ فإنهم كانوا هم والنصارى في طرفي نقيض، فنسبوه إلى أنه ولد بغى - قاتلهم الله - فأكذبهم الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وأبطل قولهم؛ كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها، فالنصارى غلوا في عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم، أبو خالد وأبو الوليد، القرشي الأموي المكي، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة، سمع طاووسًا ومجاهدًا وعطاء، وسمع منه الثوري والليث بن سعد وحماد بن سلمة ويحيى بن سعيد الأنصاري، وغيرهم، توفي سنة خمسين ومائة وقد جاوز السبعين. انظر: التاريخ الكبير (٥/ ٤٢٢)، والطبقات الكبرى (٥/ ٤٩١)، والجرح والتعديل (٥/ ٣٥٦)، والثقات (٧/ ٩٣)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٥)، وطبقات الحفاظ (ص ٨١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٦٣).

أعظم الغلو والكفر والضلال، واليهود جفوا في حقه غاية الجفاء، وكلاهما قد ضل ضللاً بعيداً، بينه الله عَزَّجَلَّ في مواضع كثيرة من كتابه، وبين الله عَزَّجَلَّ الحق والصدق، ورفع قدر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعله من أولي العزم الخمسة المذكورين في سورة الأحزاب والشورى، وأمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصبر كما صبروا، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فهم أفضل الرسل على التحقيق، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلهم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فهو روح مخلوقة جاء بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ونفخها في مريم، فتكوَّن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الروح المخلوقة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما أين نفخ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فهذا لا يعلمه إلا الله، ولا شأن لنا به، المهم أنه نفخ عَلَيْهِ السَّلَامُ النفخة التي تكون بها المسيح، سواء نفخ في جيب درعها، أو في فرجها، الله أعلم، ففي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] الضمير يرجع إلى فرجها، وفي قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] الضمير يرجع إليها، فالله أعلم أين نفخ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رُوحَ مَخْلُوقَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَالْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فَهَلِ الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا مِنَ اللَّهِ يَعْنِي أَنَّهَا بَعْضٌ مِنَ اللَّهِ؟ الْجَوَابُ: لَا؛ لِأَنَّ (مِنْ) هُنَا لَيْسَتْ تَبْعِيضِيَّةٌ، فَهِيَ تَأْتِي عَلَى مَعَانٍ، مِنْهَا التَّبْعِيضِيَّةُ، وَمِنْهَا الْإِبْتِدَائِيَّةُ.. إِلَى آخِرِهِ، وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أَيُّ: خَلَقًا وَإِيجَادًا، كَذَلِكَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ خَلَقًا وَإِيجَادًا.

وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى فِي غُلُوبِهِمْ فِي الْمَسِيحِ، وَدَعَاؤِهِمْ أَنَّهُ اللَّهُ، أَوْ ابْنُ اللَّهِ، أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَقَدْ حَذَرْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَغْلُو فِي حَقِّهِ كَغُلُو النَّصَارَى، فَقَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١)، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَتْبَاعِهِ: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثُمَّ انْتَقَلَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ - قَاتِلِهِمُ اللَّهُ - الَّذِينَ جَفَوْا فِي حَقِّ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى أَنَّهُ وَلَدٌ بَغِيٌّ.

وَالِاعْتِدَالُ أَنْ نَقُولَ فِي الْمَسِيحِ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَنَقُولَ: (هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)، هَذِهِ هِيَ عَقِيدَةُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٤٥) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والله عَزَّجَلَّ رفع قدر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواضع كثيرة من كتابه، وجعله من أولي العزم من الرسل؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣]، هؤلاء هم أولو العزم، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم، وقد أمر الله عَزَّجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصبر كما صبروا، فقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].



قوله: [وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ]: أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْقُصُورِ، وَالشَّارِ، وَالْفَوَاكِهَ، وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

[وَالنَّارَ حَقٌّ]: أَعَدَّهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِمَن كَفَرَ بِهِ، وَأَشْرَكَ فِي إِلَهِيَّتِهِ وَرَبُّوبِيَّتِهِ، وَأَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. وَمَن لَمْ يُوِّمَنَّ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ وَالرَّسْلِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَبَيِّنُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَمَا أَعَدَّ فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَذَكَرَ أَنَّهَا دَارُ الْمُتَّقِينَ، وَذَكَرَ النَّارَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ أَعَدَّهَا لِمَن كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ.

قوله: [أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ]: جَوَابُ (مَنْ) الشَّرْطِيَّةِ، أَي: مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - إِلَى آخِرِهِ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، أَي: بِإِخْلَاصِهِ وَصِدْقِهِ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ وَمَا أَرْسَلَ بِهِ، وَخَالَفَ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ فِي الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ فِي حَقِّ عِيسَى، وَعَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّنَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا وَلَهُ ذُنُوبٌ، فَهَذِهِ الْحَسَنَةُ الْعَظِيمَةُ تَرْجَحُ بِجَمِيعِ السَّيِّئَاتِ، فَتَدْبِرُ هَذَا الْحَدِيثَ؛ فَإِنَّهُ عَظِيمٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

... — الشَّيْخُ — ...

هَذَا رَدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِي يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ، وَفِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَشْهَدُ عَلَى انْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِمْ.

فَالْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْبَرَاءَةَ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ دِينِ النَّصَارَى، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْبَرَاءَةِ مِنْ دِينِ الْمُشْرِكِينَ.

❦ قوله: «أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»؛ ذلك أنه إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة، هذا الجواب، فدل على أن من لم يأت بهذه الأمور كلها أنه ليس من أهل الجنة.

وهذا فيه شاهد لهذا الباب -باب في بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب- فمن خالف اليهود والنصارى والمشركين «أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، وإن كان عنده ذنوب؛ فإنه يدخل الجنة برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إما أن يدخلها من أول وهلة بأن يغفر الله له ذنوبه بدون عذاب، وإما أن يُعَذَّبَ بذنوبه ثم يدخل الجنة بعد ذلك، فهو من أهل الجنة.

فالعبد إذا مات على التوحيد فهو من أهل الجنة قطعاً، إما من أول وهلة، وإما في النهاية، وفي هذا بيان فضل التوحيد، وأما الكافر أو المشرِك فهو من أهل النار خالداً مخلداً فيها، قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٨٩-٩٠]، فالمراد بالחסنة هنا حسنة التوحيد، والمراد بالسَيِّئة سيئة الشرك.



وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ عِتْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(١).

قوله: [وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ عِتْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»].

قوله: [وَلَهُمَا] أي: البخاري ومسلم، وهذا حديث طويل اختصره المصنف، وذكر منه ما يناسب الترجمة، وهو قوله: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»، وهذا هو حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص، ونفي الشرك. والصدق والإخلاص متلازمان، لا يوجد أحدهما بدون الآخر؛ فإن من لم يكن مخلصاً فهو مشرك، ومن لم يكن صادقاً فهو منافق، والمخلص: أن يقولها مخلصاً الإلهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله عز وجل.

وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذي قال فيه الخليل عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

... — الشَّبَحُ — ...

هذا حديث عتبان بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث له قصة، لكن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ منه محل الشاهد، والحديث أصله أن عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، قد أنكرت بصري وأنا أصلي

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، ولم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددت يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأتحذه مصلى، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فغدا إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أبو بكر واستأذنه أن يدخل بيته، ثم صلى ركعتين في ناحية من البيت، قال عتبان: وحبسناه على خزيرة صنعناها له، فثاب في البيت رجالٌ من أهل الدار ذوو عدد فاجتمعوا، فقال قائلٌ منهم: أين مالك بن الدخيشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يريد بذلك وجه الله؟»، قال: الله ورسوله أعلم؛ فإننا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». هذا أصل الحديث.

❁ وقوله: «فَإِنَّ» هذا جواب أول الحديث الذي اختصره المصنف، فهي تعليلية، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذب عن هذا المسلم الغائب بسبب توحيده.

❁ قوله: «حَرَّمَ عَلَى النَّارِ» التحريم المنع، أي: منعه من دخول النار، وحرَمَ النار على أن تمسه، يعني: منع النار عنه بسبب توحيده، وهذا فيه فضل التوحيد، وأن الله يحرم على النار من قال: (لا إله إلا الله)، أي: تلفظ بها بلسانه، معتقداً لمعناها بقلبه، قاصداً بها وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ فقوله: «يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» قيدٌ يُجْرَجُ من قائلها نفاقاً؛ لأن المنافقين يقولون: لا إله إلا الله، لكنهم لا يبتغون بذلك وجه الله، وإنما يريدون التستر

على أنفسهم والعيش مع المسلمين، ولا يقصدون معناها ومدلولها، فدل على أن التلفظ بـ (لا إله إلا الله) لا يكفي حتى يخلص في قولها، ويقصد بها وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وحديث أبي سعيد -الذي سبق- وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، هذا مطلق يقيده حديث عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه لا بد أن يكون قاصداً مع ذلك وجه الله، يعني: مخلصاً لله عَزَّجَلَّ لا يقصد بهذه الكلمة طمعاً من مطامع الدنيا، ولا يقصد بها رياء ولا سمعة، إنما تلفظ بها عارفاً بمعناها، عاملاً بمقتضاها.

وفي هذا الحديث أيضاً أن هذه الكلمة لا بد أن يؤتى بها كلها، فلا يكفي أن يقول كما تقول الصوفية: الله، الله! أو كما تقوله خواصهم: هو، هو، هو! هذا ليس ذكراً لله عَزَّجَلَّ، ولا يؤدي الغرض المطلوب، بل لا بد أن يقول: (لا إله إلا الله) بهذا اللفظ.

❁ قوله: (فإن من لم يكن مخلصاً فهو مشرك، ومن لم يكن صادقاً فهو منافق)، فالصدق ينافي النفاق، والإخلاص ينافي الشرك، ولا بد من الصدق والإخلاص في هذه الكلمة، فمن قالها وهو يشرك بالله لم تنفعه، ومن قالها وهو لا يقصد بها وجه الله كالمنافقين لم تنفعه أيضاً، وهذا هو الإسلام، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله،



وهو دين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ودين جميع المسلمين من أول
 الخليقة إلى آخرها، الذي عليه الرسل وأتباعهم، وهو دين الإسلام الذي
 لا يقبل الله من أحد سواه، قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ
 مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].



وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

والحنيف: هو الذي ترك الشرك رأسًا، وتبرأ منه، وفارق أهله وعاداهم،
وأخلص أعماله الظاهرة والباطنة لله وحده؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]، فإسلام
الوجه هو إخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق، وهو معنى الآية ونحوها
إجماعًا، فهذا هو الذي ينفعه قوله: لا إله إلا الله؛ ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَقَدِ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾.

وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله، ويستغيث به، من ميت أو
غائب لا ينفع ولا يضر؛ كما ترى عليه أكثر الخلق، فهؤلاء وإن قالوها فقد
تلبسوا بما يناقضها، فلا تنفع قائلها إلا بالعلم بمدلولها نفيًا وإثباتًا، والجاهل
بمعناها وإن قالها فإنها لا تنفعه؛ لجهله بما وضعت له الوضع العربي الذي
أريد منها من نفي الشرك، وكذلك إذا عرف معناها بغير تيقن له، فإذا انتفى
اليقين وقع الشك.

ومما قيدت به في الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غير شاك»، فلا تنفع إلا
من قالها بعلم ويقين، لقوله: «صدقًا من قلبه، خالصًا من قلبه»، وكذلك
من قالها غير صادق في قوله؛ فإنها لا تنفعه؛ لمخالفة القلب اللسان؛ كحال
المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وكذلك حال المشرك،
فلا تقبل من مشرك؛ لمنافاة الشرك للإخلاص، ولما دلت عليه هذه الكلمة
مطابقة؛ فإنها دلت على نفي الشرك، والبراءة منه، والإخلاص لله وحده

لا شريك له مطابقةً، ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله: لا إله إلا الله؛ كما هو حال كثير من عبدة الأوثان؛ يقولون: لا إله إلا الله، وينكرون ما دلت عليه من الإخلاص، ويعادون أهله، وينصرون الشرك وأهله.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❖ قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ يعني: خلصًا، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذه البراءة من الشرك وأهله.

❖ قوله: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ هذا هو التوحيد، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فيه شرطي قبول العمل، وهما: الإخلاص والمتابعة، لا بد من هذين الشرطين، وهذا ينفي البدع والمحدثات والخرافات، فلا يُعبد الله إلا بما شرعه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما وافق السنة، فهذا هو الذي تنفعه لا إله إلا الله.

وهذه الكلمة: (لا إله إلا الله) تُسمى العروة الوثقى، وتُسمى كلمة الإخلاص، وتُسمى كلمة التوحيد، فلها عدة أسماء، وكثير ممن يقولونها الآن لا يخلصون لله عَزَّجَلَّ، وإنما يدعون غيره من الأموات والقبور، وصار شغلهم الشاغل التعلق بالمخلوقين والأولياء والصالحين، فلا تنفعهم (لا إله إلا الله)؛ لأنهم لم يخلصوا، ويقولونها وهم مشركون.

ولا يمكن أن يعمل بمقتضاها إلا إذا علم معناها، ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]،

أي: قال لا إله إلا الله وهو يعلم معناها، وإلا كيف يعتقدونها وكيف يعمل بمقتضاها وهو لا يعرف معناها؟! ولذلك عباد القبور لا يدرون أن معناها أن لا يُعبد إلا الله، فلما جهلوا هذا المعنى صاروا يعبدون غير الله، فآفتهم جاءت من الجهل بمعنى لا إله إلا الله، فلا بد من العلم بالمعنى، ولا بد من اليقين، فقد يعرف الإنسان الشيء ويعلمه لكن لا يعتقد به بالقلب، فلا ينفع العلم بدون اعتقاد، قال الله عَزَّجَلَّ في آية آل عمران: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، والمشركون الأولون أبوا أن يقولوها، لعلمهم أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله، والمشركون المتأخرون جهلوا هذا، وصاروا يقولونها وهم يشركون بالله عَزَّجَلَّ لأنهم يجهلون المعنى.

❖ قوله: (ولمّا دلت عليه هذه الكلمة مطابقة)؛ لأن اللفظ له ثلاث دلالات^(١):

* دلالة مطابقة. * أو دلالة تضمن. * أو دلالة التزام.

❖ قوله: (كما هو حال الكثير من عبدة الأوثان)، المراد بأصحاب الأوثان الذين يدعون الإسلام، والوثن: هو كل ما عُبدَ من دون الله، من قبر، أو شجر، أو حجر، أو جن، أو إنس، كل هذا يسمى وثناً.



(١) قال السبكي في الإبهاج (١/ ٢٠٤): «دلالة اللفظ على تمام مسماه مطابقة، وعلى جزئه تضمن، وعلى لازمه الذهني التزام» اهـ. وانظر: الإحكام للأمدي (١/ ٣٦)، والتقريب والتحبير (١/ ١٣٠).

وقد قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ [الزخرف: ٢٧-٢٨]، وهي: (لا إله إلا الله)، وقد عبر عنها الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعناها الذي وضعت له، ودلت عليه؛ وهو البراءة من الشرك، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؛ كما تقدم تقريره.

وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص؛ كان قوله لهذه الكلمة كذباً منه، بل قد عكس مدلولها، فأثبت ما نفتته من الشرك، ونفى ما أثبتته من الإخلاص.

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة، وسبب ذلك: الجهل بمعناها، واتباع الهوى، فيصرفه عن اتباع الحق وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

هذا معنى لا إله إلا الله: قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا معنى النفي، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ هذا معنى الإثبات، ثم قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً﴾ أي: (لا إله إلا الله) التي هي مضمون هذا النفي وهذا الإثبات، ﴿بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: في ذرية إبراهيم، فلا يزال فيه من يعبد الله عَزَّجَلَّ حتى بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعاد دين إبراهيم ودين التوحيد، وأزال الشرك والوثنية، وهو النفي والإثبات، وشروط (لا إله إلا الله) سبعة، نظمها بعضهم في قوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

هذه سبعة شروط لا بد منها: علم، ويقين، وإخلاص، وصدقك، ومحبة، وانقياد، والقبول لها.

❁ قوله: (فهذا الذي ذكرنا هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة)، أي: ذلك الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ مِنَ الانحراف في معنى (لا إله إلا الله) هو حال كثير من القرون المتأخرة، لَمَّا بُنِيَتْ المشاهد على القبور في عهد الفاطميين الشيعة، وحصل الشرك في هذه الأمة، فعبدوا الأضرحة والقبور، وهم يقولون: لا إله إلا الله. فيجمعون بين المتناقضات؛ بين قول: لا إله إلا الله، وبين الشرك.



وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». رَوَاهُ ابْنُ حَبَّانَ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ^(١).

قوله: «لا إِلَهَ إِلَّا الله»، ف (لا) نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثنى، وخبرها محذوف تقديره: لا إِلَهَ حق إلا الله.

... ————— الشَّيْءُ ————— ...

لما كانت نعمة الله عَزَّوَجَلَّ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نعمة عظيمة، فقد اصطفاه الله على الناس برسالاته وبكلامه، أراد أن يقوم بشكر هذه النعمة؛ لأنه كلما عظمت النعمة عظم الشكر، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا رَبِّ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ»، وهذا يدل على أن العبادات توقيفية، فلا يجوز الإقدام على شيء منها إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا كليم الله ورسوله إلى فرعون لا يفعل عبادة إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف بغيره؟! فهذا فيه الرد على المبتدعة الذين يتعبدون لله بما تستحسنه عقولهم، أو بما أدركوا عليه آباءهم وأجدادهم من غير دليل، فإذا كان موسى كليم الله، يطلب من ربه أن يُعَلِّمَهُ شَيْئًا يذكره به ويدعوه به، فغيره من باب أولى.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٠٨/٦)، وأبو يعلى في مسنده (٥٢٨/٢)، وابن حبان في صحيحه (١٠٢/١٤)، والحاكم في المستدرک (٧١٠/١)، والطبراني في الدعاء (٤٣٥/١).

وفي هذا الحديث أيضًا أن الأنبياء بحاجة إلى تعليم الله لهم؛ كما قال الله عَزَّجَلَّ لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال الله عَزَّجَلَّ في آية سورة النساء: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فإذا كان الأنبياء بحاجة إلى تعليم الله، وإلى تشريع الله لهم في العبادة، فكيف بغيرهم ممن يبتدع البدع، ويتقرب بها إلى الله، ويظن أنها تنفعه عند الله، وأنه ليس بحاجة إلى الرجوع إلى الشرع، كما يفعله المبتدعة؟! وقوله: ﴿أَذْكُرْكَ وَادْعُوكَ بِهِ﴾ هذا فيه أن (لا إله إلا الله) ذكر، وأنها دعاء عبادة؛ لأن الدعاء على قسمين:

الأول: دعاء عبادة، وهو الثناء على الله عَزَّجَلَّ بأسمائه وصفاته.

الثاني: دعاء مسألة، وهو طلب الحوائج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أرشده الله وعلمه إلى أن يذكره ويدعوه به، وهو قول: (لا إله إلا الله)، فدل ذلك على أنها أعظم الذكر؛ لأنها كلمة الإخلاص، وهي العروة الوثقى؛ لأنها جمعت بين نفي الشرك وإثبات التوحيد لله عَزَّجَلَّ، وهي كلمة عظيمة مع قلة ألفاظها، واختصارها، وخفتها على اللسان.

قوله: ﴿قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه أنه لا بد من النطق بها؛ لأن الله قال له: ﴿قُلْ﴾؛ كما في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١)، فلا يكفي أن الإنسان يعترف بها بقلبه دون أن يتلفظ بها.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا»، يعني يقولون: لا إله إلا الله، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد أن يُحْصِه اللهُ بشيء يذكره به لا يشاركه فيه غيره؛ لأن نعمته عليه أعظم.

وهذا يدل على تيسير هذه الكلمة، وأنها يقولها أكثر الخلق، والشيء إذا عظمت الحاجة إليه يسره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلما كانت البشرية بحاجة إلى هذه الكلمة يسرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فبين الله عَزَّ وَجَلَّ له عظمة هذه الكلمة، وأنه لا شيء أعظم منها، فقال: «يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ» أي: السبع الطباق، «وَعَامِرُهُنَّ» أي: ساكنهن، «غَيَّرِي»؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السماء، أي: في العلو، وفي هذا إثبات علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على السماوات، فهو عَزَّ وَجَلَّ في السماء، يعني: على السماء؛ لأن (في) تأتي بمعنى (على)؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، يعني: على الأرض، وقوله: ﴿وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، يعني: على جذوع النخل.

فتأتي (في) بمعنى (على) إذا أُريد بالسما السماء المبنية؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس في شيء من خلقه، بل هو سبحانه أعظم من كل شيء.

أما إذا أُريد بالسما العلو، فهو سبحانه مستوٍ على عرشه بائن من خلقه؛ لأن السماء تُطلق ويُراد بها العلو؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَشَجَرٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، يعني: في العلو.

❖ قال: «وَعَامِرُهُنَّ» أي: ساكنهن، «غَيْرِي» أي: غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه في السماء، يعني: على السماء، «وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ» أي: السبع الطباق، وهذا فيه أن الأرض سبع طبقات، وأن كل طبقة لها سكان؛ كما أن السماء طبقات، وكل طبقة لها سكان من الملائكة، ويدل لهذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أي: سبع، كذلك في الحديث الصحيح: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١)، فالأدلة تدل على أن الأرض سبع طبقات، وكل طبقة فيها سكان؛ كما أن السماوات سبع طباق، وكل طبقة فيها سكان.

❖ قال: «لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ» يعني: في إحدى كفتي الميزان، «وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ» يعني: في الكفة الأخرى، «مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يعني: رجحت بهن وبمن فيهن من السكان.

فهذا فيه فضل (لا إله إلا الله)، وأنها لا يعدلها شيء، وفيه بيان فضل التوحيد وأنه يعدل السماوات والأرض ومن فيهن، وأن هذه الكلمة التي قد لا يلقي لها بعض الناس بالاً هي بهذه العظمة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فينبغي للمسلم أن يكثر من هذه الكلمة العظيمة؛ لأنها أعظم الذكر، ولأنها ترجح بالسماوات والأرض ومن فيهن.

❖ قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، ف (لا) نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثنى، وخبرها محذوف تقديره: لا إله حق إلا الله)، هذا

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إعراب (لا إله إلا الله)، و(لا) النافية للجنس تعمل عمل (إن)، فت نصب الاسم وترفع الخبر؛ ولهذا يقولون: إنها من أخوات (إن)، وهي على عكس كان وأخواتها التي ترفع الاسم وتنصب الخبر، وتسمى هذه الحروف - إن وأخواتها وكان وأخواتها - بالنواسخ؛ لأنها نسخت حكم المبتدأ والخبر، فالأصل في المبتدأ والخبر الرفع، لكن إذا دخلت عليه (إن) تغير الإعراب، فصار الاسم منصوباً والخبر مرفوعاً، وإذا دخلت عليه كان وأخواتها فإنها تجعل الاسم مرفوعاً، والخبر منصوباً.

ف (لا) نافية للجنس تعمل عمل (إن)، و(إله) اسمها مبني معها على الفتح في محل نصب بـ (لا)؛ لأنه ليس مضافاً ولا شبيهاً بالمضاف، وخبرها محذوف وجوباً تقديره: (لا إله بحق إلا الله)، (بحق) هذا هو الخبر، أما من يقول: تقدير الخبر: (موجود)، أي: لا إله موجود. فهذا كفر وإلحاد؛ لأن الآلهة موجودة كثيرة منها حق ومنها باطل، وهذا القول - لا إله، أي: لا إله موجود إلا الله - هو مذهب أهل وحدة الوجود، حيث يجعلون جميع المعبودات هي الله، وهذا الكلام باطل في إعراب (لا إله إلا الله)، فلا يقال: لا إله أي موجود، إنما يقال: لا إله بحق، لتنفى الآلهة التي تُعبد بالباطل؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فأخبر أن هناك معبودات وآلهة غير الله عَزَّجَلَّ، لكنها كلها باطل، والإله الحق هو الله عَزَّجَلَّ.

وكذلك الذي يُفسر (لا إله إلا الله) بأنه لا قادر على الاختراع إلا الله؛ كما يقوله علماء الكلام، فهذا أيضًا تفسير باطل؛ لأن هذا لا يزيد على توحيد الربوبية، و(لا إله إلا الله) إنما هي في توحيد الإلهية؛ لأن (الإله) معناها: المعبود، أي: لا معبود بحق إلا الله، وهذا هو تفسيرها الصحيح و(إلا) أداة استثناء، و(الله) هذا مستثنى، فهي تنفي ما قبلها، وتثبت ما بعدها، فنفت الألهة المعبودة بالباطل، وأثبتت الإله الحق وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان المستثنى منه منفيًا جاز فيه الرفع والنصب، والمستثنى منه هنا منفي بـ (لا)، فيجوز فيه الرفع والنصب، والرفع أظهر.



قال الله عَزَّجَلْ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فالهَيْتَةُ عَزَّجَلْ هي الحق، وكل ما سواه من الآلهة فالهَيْتَةُ باطلة؛ كما في هذه الآية ونظائرها.

فهذه كلمة عظيمة هي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، وكلمة الإخلاص، وهي التي قامت بها السماوات والأرض، وشرع في تكميلها السنة والفرص، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد، فمن قالاها وعمل بها صدقًا، وإخلاصًا، وقبولًا، ومحبة، وانقيادًا لها، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله عَزَّجَلْ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ هذا معنى (إلا الله)، وقوله: ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ هذا معنى (لا إله)، فهذه الآية فسرت معنى (لا إله إلا الله) تمامًا.

✽ قال: (فهذه كلمة عظيمة هي العروة الوثقى)؛ ذلك لقوله عَزَّجَلْ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ لأن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هو معنى (لا إله إلا الله).

✽ قال: (وهي كلمة التقوى)؛ كما قال عَزَّجَلْ في الصحابة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ يعني: لا إله إلا الله ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، (وهي كلمة الإخلاص)؛ لأنها أخلصت التوحيد لله عَزَّجَلْ، وأبطلت الشرك.

فهذه أساء لهذه الكلمة العظيمة: كلمة التوحيد، والعروة الوثقى، وكلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، وما قامت السماوات والأرض إلا بالتوحيد، ولو فقد التوحيد في السماوات والأرض لخرت، قال عزَّجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ ولهذا إذا كان آخر الزمان وفقدت هذه الكلمة قامت القيامة، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ»^(١)، فلا تقوم إلا على شرار الخلق؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ شَرِّارِ النَّاسِ مَنْ تَقُومُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»^(٢)، فإذا خلا الكون من لا إله إلا الله خرب.

❖ قال: (وشرع في تكميلها السنة والفرص)، فقد شرعت العبادات المسنونة، والعبادات المفروضة، لتحقيق (لا إله إلا الله)، فلا تصح جميع الأعمال فرضاً أو نفلاً إلا بتحقيق هذه الكلمة.

❖ قال: (ولأجلها جردت سيوف الجهاد)، لأجلها فرض الجهاد في سبيل الله حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وهو معنى لا إله إلا الله؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣)، فإذا أبوا أن يقولوا: لا إله إلا الله، وجب على المسلمين قتالهم، حتى يقولوا: لا إله إلا الله.

(١) أخرجه مسلم (١٤٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه: «ومن يتخذ القبور مساجد»، وأخرجه بهذه الزيادة: أحمد في المسند (٤٥٤/١)، وابن حبان في صحيحه (٢٦١/١٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٦/٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠/٣)، والبخاري في مسنده (١٣٦/٥)، والطبراني في الكبير (١٠٤١٣).

(٣) سبق تخريجه (ص ١٨٤).

فما شرع الجهاد لأجل الطمع في الممالك والأموال، أو توسيع السلطة، أو السيطرة على الناس، ما شرع إلا لنشر التوحيد، وإعلاء كلمة الله في الأرض، وإزالة الشرك والكفر، وعبادة الله وحده لا شريك له، هذا الذي شرع من أجله الجهاد في سبيل الله، ومن لم يكن قصده هذا فليس هو في سبيل الله، ولما سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرجل يُقاتل حمية، والرجل يُقاتل شجاعة، والرجل يُقاتل من أجل المغم، أي ذلك في سبيل الله؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١)، هذا هو الذي يكون في سبيل الله.

❁ قال: (وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد)، وبها ظهر الفرق بين عباد الله وعباد الشيطان، فالذين عبدوا الله وحده لا شريك له هم عباد الرحمن، والذين أشركوا مع الله غيره واتبعوا أهواءهم هم عباد الشيطان.

❁ قال: (فمن قالها) لا بد من القول، (وعمل بها) لا يكفي القول، بل لا بد من العمل، ولا يمكن العمل إلا بمعرفة معنى لا إله إلا الله، فلا بد من النطق بها باللسان، ومعرفة معناها، والعمل بمقتضاها، (صدقًا، وإخلاصًا) لا بد من الصدق والإخلاص في العمل، فالصدق ينفي النفاق، لأن المنافق يقول: لا إله إلا الله، لكنه ليس صادقًا في قولها، والإخلاص ينفي الشرك؛ لأن هناك من يقول: لا إله إلا الله، ويدعو غير الله من الأصنام، والقبور،

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأضرحة، والأولياء، والصالحين، فهؤلاء لم يخلصوا العبادة لله فلا تنفعهم
لا إله إلا الله.

❁ قال: (وقبولاً، ومحبةً، وانقياداً لها) فيتقبل ما تدل عليه هذه الكلمة
ولا يكرهه أو يستثقله، وكذلك يجب هذه الكلمة، ويجب أهلها، ويعادي
أعداءها، ثم ينقاد لما تدل عليه هذه الكلمة، أما إذا فعله من غير انقياد وإنما
هو مجاملة أو لغرض آخر، فعمله لا ينفعه، فلا بد أن يكون عمله عن انقياد
واستسلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه شروط سبعة نظمها بعضهم في قوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

وبعض المشايخ زاد شرطاً آخر، فقال:

وزيد ثامنها الكفران منك بما سوى الإله من الأشياء قد أُلها

يعني: الكفران بالطاغوت؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

❁ قال: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)؛ كما سبق في حديث
عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن من حقق كلمة التوحيد أدخله الله الجنة على
ما كان من العمل، ولو كان عنده ذنوب دون الشرك؛ فإن الذنوب لا تمنعه
من دخول الجنة، إما من أول وهلة، وإما أن يُعَذَّبَ بذنوبه ثم يدخل الجنة
بعد ذلك.



وفي الحديث الصحيح: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

يوم عرفة هو اليوم التاسع من ذي الحجة الذي يقف فيه الحجاج في عرفات؛ ليؤدوا الركن الأعظم من أركان الحج، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِر فيه من هذا الدعاء: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، وهذا فيه أن (لا إله إلا الله) هي أفضل الذكر وأفضل الدعاء.

وسماها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاء؛ لأن الدعاء قسمان:

* دعاء عبادة: وهو ذكر الله عَزَّجَلَّ، والثناء عليه بما هو أهله.

* ودعاء مسألة: وهو طلب الحوائج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَيُسْتَحَبُّ للمسلم في يوم عرفة سواء أكان من الحجاج أم من غيرهم أن يكثُر من قول: (لا إله إلا الله)؛ لأنها أفضل الدعاء الذي يُقال في أفضل يوم.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢١٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٣٧٨)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٨٤) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريب مرسلاً، وأخرجه الترمذي (٣٥٨٥) وحسنه، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، بلفظ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ...».

❖ قوله: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي» فيه أن دين الأنبياء واحد وهو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن (لا إله إلا الله) ذكر عند جميع الأنبياء؛ كما علمها الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَام.



وفي حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجْلاً، كُلُّ سِجْلٍ مَدُّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَيْكَ عُذْرٌ، أَلَيْكَ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ»، رواه الترمذي وحسنه^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث البطاقة المشهور، وقوله: «فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ» يعني: ورقة صغيرة مكتوب فيها لا إله إلا الله؛ لأنه قال هذه الكلمة عن صدق وإخلاص ويقين ومات عليها، فتوضع السجلات في كفة وتوضع البطاقة التي فيها لا إله إلا الله في كفة، فتطيش السجلات وتثقل البطاقة فيدخل الجنة، فكما أن لا إله إلا الله رجحت بالسموات والأرض ومن فيهن غير الله، فهي أيضاً رجحت بالسيئات، وهذه فضيلة أخرى لهذه الكلمة العظيمة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد في المسند (٢/٢١٣)، وابن حبان في صحيحه (١/٤٦١)، والحاكم في المستدرک (١/٤٦)، والطبراني في الأوسط (٥/٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٢٦٤).

وهذا الحديث -حديث البطاقة- وغيره من الأحاديث التي تدل على أن لا إله إلا الله يدخل بها صاحبها الجنة وينجو من النار مقيدة بالأحاديث الأخرى التي تدل على وجوب العمل، أما من يقولها ولا يعمل بمقتضاها فإنها لا تنفعه، لكن هذا الرجل قالها عن يقين وإخلاص ومات على ذلك، أي: مات موحدًا، تائبًا إلى الله عَزَّجَلَّ، فمحا الله بها جميع ذنوبه.

وفي هذا بيان فضل التوحيد، وأن الله يكفر به جميع السيئات، ويشهد لذلك أيضًا الأحاديث الآتية في آخر الباب، وليس المراد أن مجرد النطق بلا إله إلا الله حصل به القبول العظيم لهذا الرجل، بل هو نطق مع اعتقاد ويقين وإخلاص لله عَزَّجَلَّ، بدليل الأحاديث الأخرى؛ لأن الأحاديث يُقيد بعضها بعضًا ويُفسر بعضها بعضًا، فلا نأخذ طرفًا ونترك الأطراف الأخرى.

فمن قال: إن النطق بـ(لا إله إلا الله) يكفي، ولو فعل الإنسان ما فعل من الشرك وعبادة غير الله.. إلى آخره. نقول له: هذا ليس بصحيح، والذي يأخذ طرفًا من الأدلة ويترك الأطراف الأخرى هو من أهل الزيغ الذين يأخذون بالمتشابه ويتركون المحكم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، أما الراسخون في العلم فإنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فيردون المتشابه إلى المحكم، ويفسرون كلام الله وكلام رسوله بعضه ببعض، فيقيدون المطلق، ويخصصون العام، ويفسرون المجمل، هكذا فعل الراسخين في العلم.

أما أهل الزيغ فهم يأخذون الطرف الذي يصلح لهم ويتركون الأطراف الأخرى، ويقولون: نحن نستدل بالقرآن وبالأحاديث. نقول: كذبتهم، لم تستدلوا بالقرآن ولا بالأحاديث، الاستدلال بالقرآن والأحاديث يقتضي الاستدلال بالكل، وليس الاستدلال بالبعض فقط.

❖ قوله: «يُصَاحُ» يعني: يُنادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق.

❖ قوله: «تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًا» السجل هو الدفتر الكبير الذي تُكتب فيه الأشياء، وهو ليس مثل سجلات البشر، تلك الدفاتر الصغيرة هذه، إنها «كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ».

❖ قوله: «فَيَقُولُ: بَلَى، إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ» وهذا دليل على أن التوحيد حسنة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] هذا هو التوحيد، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ المراد بالسيئة هنا الشرك، ﴿فَكَبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، فالتوحيد أعظم الحسنات، والشرك أعظم السيئات والعياذ بالله.

والله عَزَّجَلَّ لا يظلم أحداً، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فهذا الرجل عصي الله فيما يملأ تسعة وتسعين سجلاً، ولكن الله كان حليماً عليه ولطيفاً به فأنصفه ولم يظلمه.

❁ قوله: «فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وماذا تكون تلك البطاقة الصغيرة في تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر؟ من حيث الثقل تطيش البطاقة، لولا ما فيها من التوحيد؛ لأن التوحيد هو الذي ثقلها، فالسجلات أثقل منها، لكنها فيها كلام عظيم وهو التوحيد.

❁ قوله: «فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتَوَضَّعَ السَّجَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ» هذا فيه إثبات وزن الأعمال يوم القيامة، وهذا من كمال عدل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أنه لا يظلم أحداً، حيث توزن الحسنات والسيئات يوم القيامة.

❁ قوله: «فَطَاشَتِ السَّجَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ» طاشت يعني ارتفعت وخفت، فكما أن (لا إله إلا الله) ثقلت ورجحت بالسموات والأرض؛ فإنها ترجح بالسيئات التي هي دون الشرك، أما لو كان معها شرك فإنها لن تنفع صاحبها، لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فحديث البطاقة هذا فيه بيان فضل التوحيد إذا سلم صاحبه من الشرك، وأن الله عَزَّجَلَّ يغفر له ذنوبه ولو كانت كثيرة.



قوله: [لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي] أي: كل من في السماوات والأرض، وقوله: [غَيْرِي] استثنى ممن في السماوات نفسه؛ لأنه العلي الأعلى تعالى وتقدس؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، علو القهر، وعلو القدر، وعلو الذات، فالثلاثة كلها صفته، ودلت على كماله؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] الآية، في سبعة مواضع من كتابه، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿نَعْرُجُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وأمثال هذه الآية. فمن سلب علو الله عَزَّجَلَّ على خلقه، فقد خالف صريح الكتاب والسنة، وألحد في أسمائه وصفاته.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا فيه الرد على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين ينفون علو الله عَزَّجَلَّ على عرشه، والعلو ثلاثة أنواع: علو القهر، علو القدر، وعلو الذات^(١).

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وله العلو من الوجوه جميعها	ذاتاً وقهراً مع علو الشاني
لكن نفاة علوه سلبوه إكماً	ل العلو فصار ذا نقصان
حاشاه من إفك النفاة وسلبهم	فله الكمال المطلق الرياني
وعلوه فوق الخليقة كلها	فطرت عليه الخلق والثقلان

... إلى آخر الأبيات في أنواع الأدلة على علو الله.

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٣٩٦ وما بعدها).

فالجهمية والمعتزلة والأشاعرة يثبتون علو القهر وعلو القدر، وينفون علو الذات، أما أهل السنة والجماعة فهم يثبتون العلو بجميع أنواعه الثلاثة.

وقد وردت آيات الاستواء على العرش في سبعة مواضع من القرآن كلها بلفظ واحد: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، و(استوى) يعني: ارتفع على العرش، و(العرش) هو سقف المخلوقات وأعظم المخلوقات، فالاستواء والعلو كلاهما ثابت لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

❖ وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ هذا من أدلة العلو؛ لأن الصعود لا يكون إلا إلى أعلى، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ الرفع أيضاً لا يكون إلا إلى أعلى.

❖ قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فيه إثبات الفوقية لله عَزَّجَلَّ.

❖ وقوله: ﴿تَخْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ الخروج هو الصعود، والصعود لا يكون إلا إلى أعلى، فدل على أن الله في العلو، و(الملائكة) خلق من خلق الله ومن عباد الله وهم عمار السماوات، و(الروح) نوع من الملائكة، وقيل: الروح جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، فعطفه من عطف الخاص على العام.

❖ قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ لما مكر اليهود بعيسى عَلَيْهِ السَّلَام وأرادوا قتله، حماه الله عَزَّجَلَّ منهم، وقال له: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وليست الوفاة هنا وفاة الموت، وإنما هي وفاة القبض، فقوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ يعني: قابضك، أي يقبضه وفيه الحياة عَلَيْهِ السَّلَام، وقيل: المراد بالوفاة وفاة النوم، يعني: أصابه نوع من النوم؛ لأن النوم يسمى وفاة؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ في آية سورة الأنعام:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، فالنوم وفاة صغرى، وما أصاب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو من الوفاة الصغرى التي هي النوم، وليس المراد بالوفاة وفاة الموت؛ لأن عيسى لم يمت بعد بل لا يزال حيًّا إلى أن ينزل في آخر الزمان، ويحكم بشريعة الإسلام، ثم يموت بعد ذلك الموت الذي كتبه الله عليه؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قضى بالموت على كل مخلوق ومنهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ هذا في آخر الزمان ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]. فمعنى (متوفيك) أي: قابضك أو منيمك نومًا.

❁ قوله: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ رفعه الله إليه من بينهم وهم لا يشعرون، وألقى الشبه على واحد منهم فقتلوه ظنًّا منهم أنه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي دلهم على المكان إلى كان فيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلْبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧]، ولهذا قال: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ ٥٤ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

فالشاهد أن قوله: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ فيه إثبات العلو لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الرفع لا يكون إلا إلى أعلى.



ومعنى هذه الكلمة نفي الإلهية عن كل شيء سوى ما استثنى منها وهو الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه النص على أن الأراضين السبع كالسماوات، لكن هذه الكلمة العظيمة، لا يحصل رجحانها إلا في حق من أتى بقيودها التي قيدت بها في الكتاب والسنة، وقد ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سورة براءة وغيرها كثيرا ممن يقولها ولم ينفعهم قولها؛ كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم، وتنوعهم في نفاقهم، فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود.

فمنهم من يقولها جاهلاً بما وضعت له، وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه، والصدق والإخلاص وغيرها؛ كعدم القبول ممن دعا إليها علماً وعملاً، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه؛ كحال أكثر من يقولها قديماً وحديثاً، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر.

ومنهم من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى، أو غير ذلك من الأسباب وهي كثيرة؛ منها: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله: (ومعنى هذه الكلمة) أي: لا إله إلا الله (نفي الإلهية عن كل شيء سوى ما استثنى منها وهو الله عَزَّوَجَلَّ)، فليس هناك إله حق إلا الله سبحانه،

وما عداها فهي آلهة باطلة، والمعبودات تسمى آلهة؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿أَجْعَلِ
الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، وقوله: ﴿أَنْ أَمْشُوا وَأَصِيرُوا عَلَىٰ إِلَهِتِكُمْ﴾ [ص: ٦].

❁ قوله: (وفيه النص على أن الأراضين سبع)، أي: حديث البطاقة؛
لأنه قال فيه: «والأراضين السبع»، فنص على أنها سبع؛ كما أشار إلى ذلك
في قوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فالمثلثة تقتضي أن الأرض سبع
طبقات كما أن السموات سبع.

❁ قوله: (لكن هذه الكلمة العظيمة، لا يحصل رجحانها إلا في حق
من أتى بقيودها) فهي ليست مجرد كلمة ترجح بالسموات والأرض، بل
لا يحصل رجحانها إلا لمن أخلص هذه الكلمة لله عَزَّجَلَّ وأتى بشروطها، أما
الذي يقولها مجرد لفظ وهو لا يستحضر معناها ولا يدري معناها، أو يفسرها
بغير تفسيرها الصحيح، أو يعبد غير الله وهو يقولها، هذا لا تنفعه لا إله
إلا الله، وجودها كعدمها، ولذلك فإن كثيرًا من الوثنيين وعباد الأضرحة
الآن يرددون لا إله إلا الله في الأوراد والصباح والمساء، يأخذون بالفضائل
لكن لا يتأملون المقصود بها، ولذلك يدعون الموتى، ويتوسلون بالأضرحة
والأولياء والصالحين، ويرددون هذه الكلمة؛ مجرد ترديد بلا فائدة، لا ينفون
ما نفته، ولا يثبتون ما أثبتته، مجرد كلام يرددونه من غير فهم ومن غير عمل
والعياذ بالله، فلا تنفعهم لا إله إلا الله.

فأهل الكتاب يقولون لا إله إلا الله، وقد قال الله عَزَّجَلَّ عنهم في سورة
براءة: ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا

حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿[التوبة: ٢٩]﴾، فهم يقولون: لا إله إلا الله، لكن يقولون: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، ويدعون الموتى، ويبنون على القبور، فلا تنفعهم لا إله إلا الله، بل أمر الله عَزَّجَلَّ بقتالهم وهم أهل كتاب.

وكذلك ذكر الله عَزَّجَلَّ صفات المنافقين في سورة التوبة، حتى سميت هذه السورة بالفاحشة؛ لأنها فضحت المنافقين، فلم تنفعهم لا إله إلا الله، لما لم يقولوها بصدق، إنما يقولونها نفاقاً، وجعلهم الله في الدرك الأسفل من النار، تحت عبدة الأوثان، وهم يقولون: لا إله إلا الله.

﴿قوله:﴾ (على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود) المشكلة الآن أن بعض الناس وبعض من ينتسبون إلى العلم -مع الأسف- يكرهون الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، وهذه مصيبة، فهم يكرهون مدلول هذه الكلمة، ويصفون الذين يدعون إلى التوحيد بأنهم يريدون تفريق المسلمين، وتنفيرهم، وغير ذلك مما يقولون، فعلى الإنسان أن يحذر من هؤلاء الذين لا يقبلون هذه الكلمة ولا ينقادون لها، وإنما ينقادون لمذاهبهم، وأحزابهم ومناهجهم، ويقولون: إن هذه جزئيات، والدعوة إلى وحدة المسلمين أهم.

يا سبحان الله!! المسلمون يتحدون بدون توحيد، وبدون إخلاص لله عَزَّجَلَّ!! هذا لا يمكن أبداً، والواجب أن يُصحح الأساس أولاً، ثم بعد ذلك يُدعى إلى الاجتماع، فالاجتماع مطلوب، والتفرق منهى عنه، ولكن

الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، لم يقل: اجتمعوا فقط، بل قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ وحبل الله هو التوحيد، وهو الدين، وهو الإسلام^(١)، فلن يحصل الاجتماع إلا بالتوحيد، والإسلام، والإيمان.

❁ قوله: (كعدم القبول ممن دعا إليها علمًا وعملاً) يستقلون الدعوة إلى التوحيد، ويقولون: لا تنفروا الناس من الدين بالدعوة إلى التوحيد، ألا يوجد في الدين إلا توحيد؟!!

يا سبحان الله!! هذا سمعناه منهم، وقرأناه في بعض كتبهم، وهؤلاء يخشى عليهم من الردة إن لم يتوبوا إلى الله سُبحانه وتعالى، فالذي يستثقل التوحيد، ويستثقل معنى لا إله إلا الله والدعوة إليه وبيانه للناس هذا يكون مرتدًا عن دين الإسلام.

❁ قوله: (ومنهم من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى) هذا المشكلة، هو يعرف معناها ويعرف مدلولها، ولكن يمنعه من

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٣٢، ٤٣٣): «فأما الحبل ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه كتاب الله القرآن، رواه شقيق عن ابن مسعود، وبه قال قتادة والضحاك والسدي.

والثاني: أنه الجماعة، رواه الشعبي عن ابن مسعود.

والثالث: أنه دين الله، قاله ابن عباس وابن زيد ومقاتل وابن قتيبة، وقال ابن زيد: هو الإسلام.

والرابع: عهد الله، قاله مجاهد وعطاء وقتادة في رواية وأبو عبيد.

والخامس: أنه الإخلاص، قاله أبو العالية.

والسادس: أنه أمر الله وطاعته، قاله مقاتل بن حيان اهـ.

وانظر: تفسير الطبري (٤/ ٣١، ٣٢)، وتفسير البغوي (١/ ٣٣٣).

الالتزام والعمل بها هذه الأشياء: إما محبة الجاه والسلطة، وإما هوى في نفسه يتعارض مع مدلول هذه الكلمة، وهذا هو الذي حصل للمشرّكين، ما تركوا التوحيد إلا بسبب النخوة الجاهلية وتمسكهم بعبادات آبائهم وأجدادهم، كلهم يقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ويقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْأَخِيرَةِ﴾ [ص: ٧]، ويقولون: ﴿أَنْتُمْ هُنَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] هذا في ترك الهجرة والجهاد، فمن كان يقول: لا إله إلا الله، وترك الهجرة مشحة بوطنه وماله، وترك الجهاد في سبيل الله خوفاً من القتل، فهذا يدخل في هذه الآية، فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تقتضي الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد التوحيد، وتقتضي الجهاد في سبيل الله لإعلاء هذه الكلمة ونفي ما يضادها، فمن لم يعمل هذا فقد آثر ما تهواه نفسه على ما يحبه الله ورسوله.

قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يعني: انتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وهذا وعيد من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ساهم فاسقين خارجين عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وأما أهل الإيمان الخُلص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة، واجتمعت لهم قيودها التي قيدت بها؛ علمًا، ويقينًا، وصدقًا، وإخلاصًا، ومحبةً، وقبولًا، وانقيادًا، وعادوا في الله، ووالوا فيه، وأحبوا فيه، وأبغضوا فيه.

وقد ذكرهم الله عَزَّ وَجَلَّ في مواضع من سورة براءة وغيرها، وخصهم بالثناء عليهم والعفو عنهم، وأعد لهم جنته، وأنجاهم من النار؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وغير هذه الآيات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة، فهؤلاء ومن اتبعهم بإحسان هم أهل لا إله إلا الله.

فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده، والعمل بطاعته، والهرب من معصيته، وإيثار ما يحبه عَزَّ وَجَلَّ رغبةً وعملاً، وترك ما يكرهه خشيةً ورجاءً، واعتبر الناس بأحوالهم، وأقوالهم، وأعمالهم، ونياتهم، وإرادتهم، وما هم عليه من التفاوت البعيد: تبين له خطأ المغرورين؛ كما في

الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي»^(١).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❖ قوله: (وعادوا في الله، ووالوا فيه) هذه علامة الإخلاص: المعادة في الله، والمحبة في الله، فتحب من يحبه الله، وتبغض من يبغضه الله.

❖ قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أول صفاتهم أنهم أولياء بعض، فيحبون في الله، ويبغضون في الله، وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ هذه صفاتهم، وهذا كله من مضمون لا إله إلا الله.

❖ قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ رتب هذا على اتباع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين قالوا هذه الكلمة مخلصين، وهاجروا من أجلها وجاهدوا في سبيل الله من أجلها، واستشهدوا وقتلوا في سبيل الله من أجلها، وتركوا الأوطان والأموال من أجلها، فالذين جاءوا واقتدوا بهم من المتأخرين يكونون معهم يوم القيامة، فهذه الآية تدل على وجوب الاقتداء بالصحابة؛ لأنهم خير القرون، ولأنهم صحبوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم أدري من غيرهم في أمور الشريعة؛ لأنهم تلقوها عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة،

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد في المسند (١٢٤/٤)، والحاكم في المستدرک (١٢٥/١)، والطبرانی في الكبير (٧١٤١)، والبيهقي في الكبرى (٣٦٩/٣) وفي شعب الإيمان (٣٥٠/٧) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فمن أصول عقيدة أهل السنة والجماعة الاقتداء بالسلف الصالح ولا سيما الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا سيما السابقون الأولون منهم.

❁ وقوله: ﴿يَا حَسَنُ﴾ الإحسان: إتقان الشيء وإتمامه، فالمراد الاقتداء بهم على الوجه المطلوب، من غير غلو، ومن غير تساهل، فمجرد الانتساب إليهم بالاسم دون التحقيق هذا ليس اتباعاً لهم، فمن انتسب إلى السلف ولكنه يخالفهم في العقيدة، ويخالفهم فيما ثبت عنهم من القول والعمل، ويقتدي بغيرهم، هذا ليس تابِعاً للسابقين الأولين، وإن كان يدَّعي هذا، فالعبرة بالتحقيق لا بالدعوة، كذلك من انتسب إليهم وتابِعهم على ما هم عليه، ولكنه يغلو ويزيد، وينسب إليهم أشياء لم تصدر عنهم، لا بالقول ولا بالفعل، فهذا أيضاً لم يتبعهم بإحسان، بل خالفهم وأسند إليهم شيئاً لم يقولوه.

فكثير من الجهال أو المبتدئين في طلب العلم اليوم ينسبون إلى السلف أشياء لم تثبت عنهم، وليس لهم مرجع في هذا يرجعون إليه، فيجب التنبه لهذا الأمر، ولا يكفي مجرد الانتساب إليهم من غير تحقيق، ولا الانتساب إليهم وإضافة أشياء إليهم لم يقولوها ولم يتحقق منها ولم يثبت منها، فقوله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا حَسَنُ﴾ هذا قيد، فليس كل من ادعى متابعة السلف الصحابة يكون محققاً حتى يتبعهم بإحسان، وذلك يستدعي معرفة ما كان عليه السلف الصالح، من أجل أن يتبعهم بإحسان، وإلا إذا لم يعرف ما هم عليه فإنه لا يتبعهم بإحسان.

ثم وعهدهم الله بهذا الوعد: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فهذا جزاء من اتبع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان؛ جزاؤه الرضوان، وهذا أعلى شيء ولذلك بدأ الله به بقوله: فالرضوان أعظم من الجنة؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

❖ قوله: (فهؤلاء) يعني: السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، (ومن اتبعهم بإحسان هم أهل لا إله إلا الله) الذين حققوها قولاً، وعلماء، وعملاً، هؤلاء هم أهلها؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ يعني: لا إله إلا الله، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، فليس كل من ادعى انتسابه للسلف يؤخذ بقوله؛ بل لابد من التحقق من علمهم واتباعهم للسلف، حتى يُعرف حقيقة ما يدعون وما يقولون، وإلا فإن كثيراً ممن يدعون دعاوى لا يحققونها قد يدعونها من باب الخديعة والمكر للمسلمين، وليس هذا من باب إساءة الظن بمن أظهر الخير، لكننا لا نمنحه الثقة ولا نعتمد عليه حتى نعرف حقيقته.

❖ قوله: (كما في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ) هذا حديث جامع مانع، و(الْكَيْسُ) يعني: العاقل، من الكياسة وهي العقل، (من دان نفسه) يعني: حاسبها، فيحاسب الإنسان نفسه ولا يزكيها؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، فالعاقل الذي يحاسب نفسه ويعتبرها مقصرة ومفرطة في جنب الله، أما الذي يزكي نفسه ويمدحها، فهذا ليس بكيس ولا حاذر.

❁ قوله: «وَعَمِلْ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ» لابد من أمرين: محاسبة النفس، والعمل للدار الآخرة، هذا هو العاقل.

❁ قوله: «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا» هذا الذي ينتسب إلى الحق وإلى اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقول: لا إله إلا الله، ولكن من غير تحقيق لمعناها وعمل بمقتضاها، بل يتبع نفسه هواها في كل ما تطلب، ولو كان في معصية الله أعطاه إياه، هذا عاجز في الحقيقة، قال: «وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي» والأمني رأس مال المفاليس، فالذي يتمنى على الله دون أن يعمل، هذا لا يفيد شيئاً.



وَلِلَّتَّرْمِذِيِّ - وَحَسَنُهُ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَعَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(١).

قوله: [وَلِلَّتَّرْمِذِيِّ - وَحَسَنُهُ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَعَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»]، في هذا الحديث ما يبين معنى (لا إله إلا الله) التي رجحت بجميع المخلوقات وجميع السيئات، وأن ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره، وذلك يقتضي كمال التوحيد، فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص، من العلم، واليقين، والصدق، والإخلاص، والمحبة، والقبول، والانقياد، وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث فيه فضل التوحيد أيضًا، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ...» هذا يُسمى بالحديث القدسي، والحديث القدسي هو ما يرويه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه عَزَّجَلَّ، فيكون القائل: هو الله، والمتكلم: هو الله، والراوي: هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيه إثبات الكلام لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في الأوسط (٣١٥/٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، ويشهد له ما في صحيح مسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي:

أن الحديث القدسي من كلام الله لفظه ومعناه، وأما الحديث النبوي فإن معناه من الله -وحي من الله- ولكن لفظه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد أخطأ من قال: إن الحديث القدسي لفظه ومعناه من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لأنه حينئذٍ لن يكون هناك فرق بينه وبين الحديث النبوي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله، وهذا يقول: لا، ما قال الله، إنما الذي قال هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!

فهذا غلط واضح، وما أظن أن أحداً من السابقين تكلم بهذا الكلام، بل كانوا يروون الحديث القدسي كما جاء ولا يتعرضون لمثل هذا الكلام.

والفرق بين القرآن والحديث القدسي:

* أن كلا منهما كلام الله، لكن القرآن متعبد بتلاوته، والحديث القدسي ليس متعبدًا بتلاوته.

* أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي، والحديث القدسي قد يكون آحادًا، ليس متواترًا، وقد يكون صحيحًا، أو حسنًا، أو ضعيفًا، بحسب السند.

❦ قوله: «يا ابن آدم» هذا خطاب من الله عَزَّجَلَّ لجنس بني آدم، والمعنى: يا بني آدم؛ لأن المفرد إذا أضيف يعم، «إِنَّكَ لَوَآتَيْنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا» القُرَاب هو ملء الشيء، أو ما يقارب ملأه، والخطايا هي: ذنوب ومعاصي لكنها دون الشرك، ولذلك قيده بقوله: «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا» يعني: بذنوب دون الشرك، أما من لقي الله مشركًا فإن الله لا يغفر له؛ كما قال عَزَّجَلَّ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] يعني دون الشرك من الذنوب والمعاصي لمن يشاء، وقوله: ﴿ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ (ما) هذه موصولة من صيغ العموم، يعني: الذنوب التي دون الشرك وإن كانت من الكبائر، فإن الله عَزَّجَلَّ يغفرها إذا شاء سبحانه، وقد يُعَذِّبُ صاحبها ثم يدخله الجنة بعد ذلك.

ففي هذا الحديث فضل التوحيد؛ لأن من سلم من الشرك فإنه أتى بالتوحيد، فيحصل على هذا الوعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو المغفرة، ودل أيضًا على أن من لقي الله بالشرك فإن الله لا يغفره له.

﴿ قوله: «لَأَتَيْتُكَ بِقُرْبَاهَا» أي: ملء الأرض «مَغْفِرَةً»، فرحمته ومغفرته وسعت كل شيء، فمن ظن أن ذنبًا لا تسعه مغفرة الله فإنه لم يعرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمغفرة الله واسعة، إلا الشرك فإنه لا يُغْفَرُ، وفي هذا يقول عَزَّجَلَّ: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿ قوله: (في هذا الحديث ما يبين معنى لا إله إلا الله التي رجحت بجميع المخلوقات، وجميع السيئات)؛ لأن قوله عَزَّجَلَّ: «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» هذا معنى (لا إله إلا الله)؛ لأن لا إله إلا الله تنفي الشرك، فهذا الحديث في أهل لا إله إلا الله، الذين قالوها عارفين بمعناها، عاملين بمقتضاها.

فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) رجحت بجميع المخلوقات؛ كما في حديث أبي سعيد الذي قبل هذا حديث: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «يَا رَبِّ،

عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ»، ورجحت بالسموات والأرض؛ كما في حديث البطاقة الذي سبق، وفي هذا الحديث رجحت بالسيئات التي دون الشرك.

❁ قوله: (وأن ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره)؛ لقوله عَزَّجَلَّ: «لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» فكلمة (شَيْئًا) في سياق النفي تعم كل شرك، سواء أكان أكبر أم أصغر، لكن الشرك الأكبر لا يغفر لصاحبه ويخلد في النار، أما الشرك الأصغر فإنه لا يغفر لصاحبه، لكن لا يخلد في النار، بل يُعَذَّبُ بقدر ذنبه، ثم يدخل الجنة، هذا على القول بأن الشرك الأصغر لا يغفر، وبعض العلماء يرى أن الشرك الأصغر يدخل في مغفرة الله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: (فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص من العلم، واليقين، والصدق، والإخلاص والمحبة، والقبول، والانقياد، وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة) هذه شروط لا إله إلا الله، لا يسلم من الشرك إلا من حقق لا إله إلا الله بشروطها السبعة التي سبقت.

❁ قوله: (كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ﴾ ٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، القلب السليم هو الموحد المخلص لله عَزَّجَلَّ، الذي سلم من الشرك والنيات الخبيثة.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: سَعَةُ فَضْلِ اللَّهِ.

الثانية: كَثْرَةُ ثَوَابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللَّهِ.

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذُّنُوبِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ: (٨٢) الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

الخامسة: تَأْمُلُ الْخُمْسِ اللَّوَاتِي فِي حَدِيثِ عِبَادَةِ.

السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ حَدِيثِ عِتْبَانَ، وَمَا بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَكَ

مَعْنَى قَوْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمُعْرُورِينَ.

السابعة: التَّنْبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ.

الثامنة: كَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

التاسعة: التَّنْبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا

يَخْفُ مِيزَانُهُ.

العاشرة: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَوَاتِ.

الحادية عشرة: أَنَّ لَهُنَّ عَمَّارًا.

الثانية عشرة: إِنْثَابُ الصِّفَاتِ، خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.

الثالثة عشرة: أَنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ

عِتْبَانَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»،

أَنَّهُ تَرَكَ الشَّرْكَ، لَيْسَ قَوْلُهَا بِاللِّسَانِ.

الرابعة عشرة: تَأْمُلُ الْجُمُعَ بَيْنَ كَوْنِ عِيسَى، وَمُحَمَّدٍ عَبْدَيَّ اللَّهِ،

وَرَسُولَيْهِ.

الخامسة عشرة: مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَى بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللَّهِ.

- السادسة عشرة: مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحًا مِنْهُ.
- السابعة عشرة: مَعْرِفَةُ فَضْلِ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.
- الثامنة عشرة: مَعْرِفَةُ قَوْلِهِ: «عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ».
- التاسعة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ.
- العشرون: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الْوَجْهِ.



٢- بَابُ

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

قوله: [بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ] أي: «ولا عذاب»؛ كما في الحديث^(١)، وتحقيق التوحيد: تصفيته وتخليصه من شوائب الشرك، والبدع، والإصرار على الذنوب، فمن كان كذلك فقد حقق التوحيد، وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة، لا يوجد إلا في أهل الإيثار الخالص، الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه؛ كما قال عزَّ وجلَّ في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وفي قراءة: (المُخْلِصِينَ)^(٢)، وهم في صدر الأمة كثيرون، وفي آخرها هم الغرباء، وقد قلوا، وهم الأعظمون قدرًا عند الله.

... — الشَّرْحُ — ...

✽ قوله: (بَابُ) أي: هذا باب، مبتدأ وخبر، (مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ) هذا مبتدأ ثان، خبره: (دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، وتحقيق التوحيد تصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن الذنوب، ومن البدع والمحدثات، من فعل

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢١٠): «قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام، والمعنى: إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم، وقرأ عاصم وحمة والكسائي بفتح اللام، أرادوا: من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش» اهـ، وانظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص ٣٤٨)، والحجة في القراءات السبع (ص ١٩٤)، وحجة القراءات لابن زنجلة (ص ٣٥٨).

هذا فقد حقق التوحيد، والفرق بين هذا الباب والباب الذي قبله -باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب-: أن هذا الباب أعلى من الأول؛ لأن في الأول الموحّد الذي عنده ذنوب قد يحاسب، وقد يعذب، وقد تكون كبائر دون الشرك، لكنه يسلم من الخلود في النار بفضل التوحيد، أما هذا الباب فهو فيمن يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ لا يُحاسب ولا يُعذب أصلاً، وهذا لا يحصل إلا لمن حقق التوحيد، فالأول وحّد الله عزَّ وجلَّ، والثاني حقق التوحيد، فهذا لا حساب عليه ولا عذاب، يدخل الجنة من أول وهلة، وهذا مرقى صعب لا يصل إليه إلا السابقون والمقربون.

❁ قال: (وتحقيقه تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك) الأكبر والأصغر، و(البدع) وهي العبادات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولادليل عليها من كتاب الله وسنة رسوله، ومن (الإصرار على الذنوب) لم يقل: ومن الذنوب؛ لأن الإنسان بشر قد يقع في الذنوب، لكن المؤمن الموحّد يتوب منها ولا يُصر عليها، فيلقى الله وهو تائب من جميع الذنوب، هذا هو الذي حقق التوحيد، وهذا مقام رفيع لا يناله إلا المقربون والسابقون من هذه الأمة.

❁ قوله: (وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة) يعني: قليل المنصب، لا يناله إلا أفراد من الأمة، (لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخُلص، الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه؛ كما قال عزَّ وجلَّ في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾) يناله الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ويناله السابقون من أتباع الرسل، ويوسف

عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ولما عرضت له الفتنة وتجملت له المرأة وراودته عن نفسه حماه الله عَزَّ وَجَلَّ من الوقوع في الفاحشة، لماذا؟ لأنه من عباده المخلصين؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ السبب: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وفي قراءة: (المُخْلِصِينَ)، فحماه الله بالإخلاص، وهذا هو تحقيق التوحيد.

❁ قوله: (وهم في صدر الأمة كثيرون، وفي آخرها هم الغرباء، وقد قلوا، وهم الأعظمون قدرًا عند الله) الذين حققوا التوحيد في صدر الأمة كثيرون، لكن في آخر الزمان يقلوا ولا يُفقدون في هذه الأمة، لكن يصيرون غرباء، مضطهدين ومحتقرين في الناس، هؤلاء هم أهل هذه المرتبة؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤].



وقال عَزَّجَلُ عن خليله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴿. أَي: أَخْلَصْتُ دِينِي وَأَفْرَدْتُ عِبَادَتِي﴾ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿. أَي: خَلَقَهَا وَابْتَدَعَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ﴾ حَنِيفًا ﴿. أَي: فِي حَالَةٍ كُونِي حَنِيفًا، أَي: مَائِلًا عَنِ الشَّرِكِ إِلَى التَّوْحِيدِ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

ونظائر هذه الآية في القرآن كثير؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال عَزَّجَلُ: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: يَقُولُ عَزَّجَلُ مَخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، أَي: أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلَ، وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ، وَاتَّبَعَ شَرْعَهُ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أَي: فِي عَمَلِهِ، وَاتَّبَاعَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ^(١).

فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الإخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه ومن فعله؛ كما تقدم في الباب قبل هذا.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا هو تحقيق التوحيد، البراءة من الشرك ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ والإخلاص لله ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أَي نِيَّتِي وَقَصْدِي وَعَمَلِي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مَقْبَلًا عَلَى اللَّهِ مَعْرُضًا عَمَّا سِوَاهُ، مَهْمَا كَلَفَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١).

الأمر ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من المشركين، جاء بها في أول الكلام وفي آخره، تأكيداً لها؛ ولأن البراءة من المشركين من تحقيق التوحيد، أما الذي لا يتبرأ من المشركين فهو لم يخلص التوحيد لله عَزَّجَلَّ.

فالذي يستأنس معهم، ويأكل ويشرب معهم، ويجالسهم، ويقول: أنا ما علي منهم، لهم دينهم ولي ديني. هذا لم يتبرأ من المشركين؛ لأن الذي يتبرأ منهم يبتعد عنهم ويعاديهم.

✽ قوله: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو الله عَزَّجَلَّ، وقوله: ﴿فَطَرَ﴾ يعني: خلق ابتداءً، يقول العربي: هذه بئر فطرتها بيدي، يعني: أنا الذي حفرها، ولم يسبق أن حفرها غيري، والفطر: هو إيجاد الشيء من غير مثال سابق، فالله خلق السماوات والأرض من غير مثال سابق، بل ابتدعها سبحانه بديع السماوات والأرض، أي: ابتدعها من غير أن يسبق لها نظير بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، متوجه إلى التوحيد ومعرض عن الشرك وأهله، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا من باب التأكيد للبراءة من الشرك.

✽ قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ إسلام الوجه لله هو الإخلاص لله عَزَّجَلَّ في القول والعمل، فيخلص نيته وقصده لله عَزَّجَلَّ لا ينوي بأعماله ولا يريد غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا رياء ولا سمعة، ويتجنب الشرك أكبره وأصغره، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للشرع غير مبتدع، وكذلك متجنب للإصرار على الذنوب والمعاصي فلا يبقى على ذنب بل يتوب إلى الله عَزَّجَلَّ.

❖ قوله: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ هذه الآية مثل التي قبلها، ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يخلص العمل لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: يكون عمله موافقاً للشرع ليس فيه بدع ومحدثات؛ لأن الله لا يقبل البدع والمحدثات، لا يقبل إلا ما شرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو حسن قصد الفاعل، وقال: أنا لم أقصد إلا الخير والتقرب إلى الله. نقول: قصد الخير لا يكفي، والذي تتقرب به إلى الله يجب أن يكون موافقاً للشرع؛ فإن كان مخترعاً فإنه لا ينفع، ولا يُقبل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

❖ قوله: العروة الوثقى: هي لا إله إلا الله، فمن أخلص لله في القول والعمل، واتبع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتجنب البدع ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ هو معنى لا إله إلا الله.

❖ قوله: (قال العماد ابن كثير) يعني: عماد الدين، وهو إسماعيل بن كثير، يُلقب عماد الدين، ويُكنى أبا الفداء، وهو من أئمة التفسير ومن أئمة المحدثين، ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية.

❖ قوله: (أي: أخلص له العمل، وانقاد لأوامره، واتبع شرعه) هذا معنى الإسلام والإحسان، الإسلام يعني الإخلاص، والإحسان يعني المتابعة وعدم الابتداع، وكثير من الناس لا يروق لهم العمل بالسنة، وإنما

(١) سبق تخريجه (ص ١٠٠).

يروق لهم العمل بالبدع والمحدثات، ولا يحرصون على السنة وإنما يحرصون على البدع، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا من الشيطان يريد أن يصدّهم عن الحق، فتجدهم يتسابقون إلى البدع المخترعة، ويتناقلونها، ويكتبونها، ويوزعونها على الناس في نشرات أو في كتب، يحرصون عليها حرصاً شديداً؛ لأن الشيطان يؤزهم على ذلك، بينما لا تجدهم يحرصون على السنن، ولا يسألون عنها، ولو علموها فإنهم لا يعملون بها إلا بفتور وقلة، وهذا من الشيطان ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأهل البدع ينشطون في بدعهم، ويحرصون عليها؛ لأن شياطين الإنس والجن هم الذين يحثونهم ويقودونهم إلى هذه الأمور، لأجل القضاء على السنة والشريعة بهذه الطريقة، ويقولون: هذا عبادة لله، وفي هذا زيادة خير.. إلى آخر ما يقولون.

وهذا كله إنما هو منافٍ للإخلاص؛ لأن الإخلاص يعني: إفراد الله عزَّجَلَّ بالقصد والنية، والبراءة من الشرك وأهله.



وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾]، قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: يمدح الله عبده ورسوله وخليته إبراهيم إمام الحنفاء؛ بترئته من المشركين، ومن اليهودية، والنصرانية، والمجوسية.

والأمة: هو الإمام الذي يُقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال مجاهد^(١): «كان إبراهيم أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار»^(٢).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذه صفات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان قدوة وإماماً للحنفاء، وهو أبو الأنبياء صلى الله وسلم عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وقد ذكر الله له خمس صفات في هذه الآية:

(١) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي مولا هم المكي، شيخ القراء وإمام المفسرين، روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، ولد سنة إحدى وعشرين، وتوفي سنة أربع ومائة. انظر: تاريخ دمشق (١٧/٥٧)، وسير أعلام النبلاء (٤/٤٥٠)، ولسان الميزان (٧/٣٤٩)، وطبقات الحفاظ (ص ٤٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٩١، ٥٩٢)، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٦٨٢)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/١٧٦) لابن المنذر.

الصفة الأولى: أنه كان أمة، والأمة والإمام بمعنى واحد، أي: القدوة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] يعني: قدوة في الخير. وقيل: معنى ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أنه أول ما بعثه الله لم يكن على وجه الأرض مؤمن، بل كان وحده على الإيمان والتوحيد، فكان غريباً في وجه الأرض، ولذلك جعله الله أمة، أي: يقوم مقام أمة.

الصفة الثانية: أنه كان قانتاً، والقنوت: الثبات والدوام، أي: ثابتاً على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَدَاوِمًا عَلَيْهَا، لا يتزحزح عنها لأي غرض كان، لا من التهديدات ولا من المغريات، فلا يتأثر بالمغريات ويترك الطاعة، ولا يتأثر بالتهديدات والوعيد من المخالفين فيترك طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل هو ثابت عليها. أما الذي يتزعزع، ويتأثر بالأحداث، ويتحول عن العبادة وعن الطاعة مع أول صارف من شهوة أو شبهة أو تهديد، فهذا ليس قانتاً لله.

ويُطلق القنوت على طول القيام في الصلاة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، فمعنى وصف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بأنه كان قانتاً أي: أنه كان مداوِمًا على طاعة الله، ثابتاً عليها، بخلاف الذي يجتهد في يوم أو شهر أو سنة ثم بعد ذلك يتراجع انتكاساً بعدما بدأ بالخير لكنه لم يكمل، فالواجب على العبد أن يثبت

على الخير، بمعنى أنه يلازم عمل الخير، ولا يتخلى عنه، ولو كان قليلاً؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ»^(١).

وكذلك ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ يعني: أنه يعمل هذا مخلصاً لله، لا يقصد به رياء ولا سُمعة، ويؤخذ من هذا وجوب الإخلاص؛ لأن بعض الناس قد يصلي ويحسن صلاته، ويطول قيامه وركوعه من أجل رياء الناس، فإذا أَحَسَّ أن عنده أحد يطول الركوع والسجود؛ من أجل أن يوصف بأنه صاحب طاعة، وإذا صلى وحده نقر الصلاة، وخففها، والإخلاص: أن يقصد الإنسان بعمله وجه الله، ولا يقصد بذلك طمعاً من مطامع الدنيا، أو مدحاً، وثناءً من الخلق، ولا يستمع إلى لومهم إذا لاموه في طاعة الله، ما دام أنه على الطريق الصحيح، وعلى السنة، فلا يضره ما يقوله الناس، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

الصفة الثالثة: أنه كان حنيفاً: والحنيف هو المقبل على الله بجميع قلبه ووجهه المعرض عما سواه، والحنيفية هي الإقبال على الله والإعراض عما سواه، وهي ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

الصفة الرابعة: أنه كان بريئاً من المشركين، فلم يقتصر على كونه أمة، وقانتاً وحنيفاً، بل كان يتبرأ من المشركين، والبراءة من المشركين هي من أصول العقيدة.

الصفة الخامسة: أنه يشكر نعمة الله عليه، ولا يتكبر بها، ولا يفخر بها، ولا ينسى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٣) واللفظ له، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عليهم، اغتروا وتجبروا وبطروا وتكبروا على الناس - ما زادته نعم الله إلا شكرًا وتعبدًا لله عَزَّوَجَلَّ.

فمن اتصف بهذه الصفات فقد حقق التوحيد، فيجب على العبد أن يعرض نفسه على هذه الصفات، فإن توفرت فيه فقد حقق التوحيد، وله البشرى بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن كان عنده تقصير فيها أو خلل، فعليه بالتوبة، ولا يقنط من رحمة الله، بل يبادر بالتوبة وسد الخلل وإصلاح النقص، والله يتوب على من تاب.

❁ قوله: (يمدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخنفاء؛ بتبرئته من المشركين، ومن اليهودية، والنصرانية، والمجوسية)، فاليهودية والنصرانية المحرفة ليست على دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فهي حدثت بعده؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأَهَّلَ آلُكَتَبٍ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، فالذين يقولون: إن اليهودية والنصرانية دين إبراهيم يكذبون على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويكذبون على إبراهيم، والمقصود اليهودية والنصرانية المحرفة أو المنسوخة، هذه ليست لا من دين موسى، ولا من دين عيسى، ولا من دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.



قلت: وكلا القولين حق، فقد كان الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ كذلك، فتأمل قول مجاهد -والله أعلم- لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته ونبوته ورسالته عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمدحه الله تعالى بترثته من المشركين؛ كما قال عَزَّجَلُ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿[مریم: ٤١-٤٢]، وقوله: ﴿وَإِنِّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿[الصافات: ٨٣-٨٤]، فهذا -والله أعلم- كان في ابتداء دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يكن إذ ذاك على وجه الأرض مسلم غيره، وبذلك جاء الحديث (١).

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته، وكسر الأصنام، وصبر على ما أصابه في ذات الله، وهذا هو تحقيق التوحيد، وهو أساس الدين ورأسه؛ كما قال عَزَّجَلُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

... — الشَّيْخُ — ...

قوله: ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ الصديق: هو المبالغ في الصدق مع الله عَزَّجَلُ ومع خلقه، فلا يصدر منه كذب أبدًا؛ ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ، فَإِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الضُّجُورِ، وَإِنَّ الضُّجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١).

❖ وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ الشيعة: يعني الأتباع، لما ذكر الله قصة نوح أول الرسل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: إن من أتباعه على دينه، والرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم دينهم واحد، وهو: أفراد الله عَزَّجَلَّ بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، والبراءة من الشرك وأهله.

أما مسمى (الشيعة) في الوقت الحاضر فقد اتخذ للذين يتحلون الانتساب إلى أهل البيت ومحبة أهل البيت، وهو اصطلاح حادث، وشعار مبتدع؛ لأن كل المسلمين والحمد لله يحبون أهل البيت، ولا يبغيض أهل البيت مسلم، كل المسلمين يحبون أهل البيت المستقيمين على طاعة الله، ويوقرونها، ويكرمونها، ويعرفون قدرهم، وليس هذا خاص بالشيعة، بل الشيعة يكذبون؛ لأنهم يخالفون أهل البيت، فأهل البيت أهل توحيد وأهل عقيدة وأهل دين، والشيعة مشركون ومبتدعون، فليسوا شيعة أهل البيت في الحقيقة.

❖ قوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ بهذا السبب صار من شيعة نوح؛ لأنه جاء ربه بقلب سليم، وهو الإخلاص لله عَزَّجَلَّ، ففي أول بعثة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن على وجه الأرض من هو على دين نوح غير إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ،

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيا بعد صار المسلمون كلهم من شيعة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن شيعة جميع الأنبياء.

❦ قوله: (فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان) أي: كان مخالفاً لهم ومبايناً لهم من جميع الوجوه، مقطوع الصلة بالمشركين، إلا صلة الدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، وإنكار المنكر، ليس بينه وبينهم صلة محبة ولا مودة، فقد كان يتبرأ حتى من أبيه؛ بل اتخذهُ عدوًّا وهو أقرب الناس إليه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ❦ [الممتحنة: ٤]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ❦ [التوبة: ١١٤].

❦ قوله: (وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته، وكسر الأصنام، وصبر على ما أصابه في ذات الله) لما ذهبوا إلى عيدهم، اعتذر عن الذهاب معهم للعيد لأنه مريض ❦ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ❦ [الصفات: ٨٩]، فلما انفرد بالأصنام قام إليها وكسرها بيده، فمن يجرو على فعل هذا بين أمة ظالمة غاشمة، فيكسر أعز شيء عندهم وهو الأصنام؟ لأحد يجرو على هذا إلا أهل الإخلاص وأهل اليقين بالله عَزَّجَلَّ، فهو كسر أصنامهم وهو يتوقع ماذا سيكون منهم، ولكنه صبر في ذات الله عَزَّجَلَّ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ

﴿٢٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠]،
فإنال هذه المرتبة بعد الصبر وتحمل المشقة، ما نالها بدون ثمن، فكانت العاقبة
له.

﴿٣١﴾ قوله: (وهذا هو تحقيق التوحيد وهو أساس الدين ورأسه) هذا
الذي فعله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أساس التوحيد، وتحقيق التوحيد، فمن أراد
أن يحقق التوحيد فليتبّع ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليسر على نهجه وعلى منهجه
الذي سار عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ
اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، فالنبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه الله بإحياء ملة إبراهيم وإعادتها.



وأنت تجد أكثر من يقول: لا إله إلا الله، ويدعي الإسلام، يفعل الشرك بالله في عبادته؛ بدعوته من لا يضر ولا ينفع، من الأموات، والغائبين، والطواغيت، والجن، وغيرهم، ويحبهم، ويواليهم، ويخافهم، ويرجوهم، وينكر على من دعا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة، ويعادي من عمل به وأحبه وأنكر الشرك وأبغضه، وبعضهم لا يعد التوحيد علمًا، ولا يلتفت إليه؛ لجهله به وعدم محبته، فالله المستعان.

... — الشَّيْخُ — ...

الذي يقول: لا إله إلا الله، ثم يدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، ويتعبد إلى الله بالبدع والخرافات، هذا ليس صادقًا فيما يقول، وكثير ممن يدعون الإسلام الآن، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله يصرفون عبادتهم لغير الله، فلم يحققوا قولهم بعملهم، بل خالف عملهم قولهم، فتجد أحدهم يقول: أنا مسلم، وربما يصلي، ويصوم، ويحج، ويؤدي العبادات، لكنه لا يُخلص لله عَزَّوَجَلَّ، فاقد للشرط الأول وهو الإخلاص، فهذا لا يكون مسلمًا.

وهذا موجود كثيرًا ومعروف عند الأضرحة والقبور، لا يخفى على أحد ممن شاهدتهم، أو ممن قرأ وسمع عنهم، بل تسمع في إذاعتهم الآن الاستنجاد بالرسول والاستغاثة به قبل الأذان وبعده، فهو شيء يعلنونه ليس بخفي، ثم تجهد مع ذلك ينكرون على من ينهاهم عن عبادة القبور وعن عبادة الأولياء والصالحين، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويقولون: هذا خارج عن

الإسلام. فهم يعتقدون الحق باطلاً، والباطل حقاً والعياذ بالله، فيعتقدون أن الإخلاص لله وترك عبادة ما سواه بدعة وضلالة، وأن الدين عندهم هو دعاء الصالحين والاستنجاد بالأموات.

وبعضهم لا يكتفي بأن يعادي من دعا إلى التوحيد، بل يقاتله وينزل به أقصى ما يمكن من أنواع الضرر.

وبعضهم لا يتعلم التوحيد الذي جاءت به الأنبياء والرسل، ودعا إليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل يزهدون فيه، ويقولون: نحن مسلمون نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولا يعرفون معنى الشهادتين، ولا يطبقون مدلولهما، ولا يقرؤون في كتب التوحيد، بل يعادونها ويقاطعون أهلها، فكيف يعتبر هؤلاء أنفسهم أنهم من المسلمين فضلاً عما حقق التوحيد الذي نحن بصده الآن؟ هؤلاء ما عرفوا التوحيد أصلاً، فكيف يحققونه؟ والتوحيد لا يُعرف بالميراث أو بتقليد ما عليه الناس، إنما يُعرف بدراسة ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودراسة كتب عقيدة أهل السنة والجماعة، دراسة حقيقية واعية، أما بدون ذلك فلا يمكن للجاهل بالشيء أن يحصله، لا بد من معرفة التوحيد ومعرفة ما يضاده وما يفسده، فهذا باب عظيم -وهو تعلم التوحيد، وقراءة كتب التوحيد، وتفهمها- ومهم جداً لطلبة العلم، وهو أول ما يُبدأ به، وهو الأساس.



وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٥٩].

قوله: [وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾]، قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي من إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون وجلون من مكره بهم؛ كما قال الحسن البصري: «المؤمن من جمع إحساناً وشفقاً، والمنافق من جمع إساءةً وأمناً»^(١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِثَانِيَةِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨] أي: يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية، لقوله عَزَّوَجَلَّ عن مريم: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحریم: ١٢]، أي: أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه وما شرعه الله، وإن كان أمراً فهو ما يحبه الله ويرضاه، وإن كان نهياً فهو ما يكرهه ويأباه، وإن كان خبراً فهو حق؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحّدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا هو الأحد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له. انتهى^(٢).

قلت: فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد، ومعرفته على الحقيقة، ومحبته، وقبوله، والدعوة إليه؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ

(١) هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/٣٢)، وابن المبارك في الزهد (ص ٣٥٠)، والطبراني في الأوسط (١/١٨٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٢٤٩).

بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَصَابٍ ﴿[الرعد: ٣٦]﴾، وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه، وبالله التوفيق.

... — الشَّيْخُ — ...

يورد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب الآيات التي تدل على أن أعظم أنواع تحقيق التوحيد هو تصفيته وتخليصه من الشرك الأكبر والأصغر، لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، فنفي عنهم جميع أنواع الشرك الأكبر والأصغر، وفي هذه الآية وما بعدها ذكر الله عَزَّجَلَّ صفات عظيمة للمؤمنين، حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿[المؤمنون: ٥٧-٦١] فذكر أربع صفات:

الأولى: أنهم من خشية ربهم مشفقون، يعني: خائفون، فالؤمن يخاف من العقوبة، ويخاف من غضب الله، ولا يأمن من مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي هذا ردُّ على المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان في القلب، ولا يضر مع إيمان معصية. وفيه أيضًا رد على الصوفية؛ فإن منهم من قال: أنا لا أعبد الله خوفًا من عقابه، ولا طمعًا في ثوابه، ولكن أعبدته محبة له^(١). وهذا ضلال.

الثانية: أنهم يؤمنون بالقرآن جميعًا من أوله إلى آخره، ولا ينكرون شيئًا من ذلك، وأعظم ما في القرآن توحيد الله عَزَّجَلَّ بجميع أنواع التوحيد:

(١) انظر بعض كلام هؤلاء في: تاريخ بغداد (١٢/١١٢)، وطبقات الحنابلة (١/٢٣١)، والنبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٧٢).

توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، ويؤمنون بما جاء في القرآن من الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، يؤمنون بذلك ولا يردون منه شيئاً، ولا يتوقفون فيه؛ لأنه كلام رب العالمين عَزَّ وَجَلَّ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فهو ليس محلاً للريب والشك والرد، فالؤمن يؤمن بكتاب ربه، سواء عرف معناه أو لم يعرفه، وسواء عرف الحكمة أو لم يعرفها، يؤمن به لأنه كلام الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثالثة: أنهم لا يشركون بربهم، تجنبوا الشرك بجميع أنواعه، فصفت عقيدتهم، وسلم توحيدهم من أن يخدشه أو يناقضه أو يناقضه شرك أكبر أو أصغر.

الرابعة: أنهم مع ما يأتونه من الأعمال الصالحة العظيمة، فهم لا يعجبون بها ولا يستكثرونها، وإنما يعتبرون أنفسهم مقصرين في جانب الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يعني: خائفة يخشون ألا تقبل أعمالهم، فهم جمعوا بين العمل وبين الخوف ألا يقبل هذا العمل، أما من لم يخف من رد عمله فهذا معجب بعمله، ويرى أنه استحق من الله عَزَّ وَجَلَّ المغفرة والجنة، وقد لا يكون عمله مقبولاً، ولا صحيحاً عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالؤمن يُقدم الأعمال الصالحة مع الخوف ألا تقبل، خلافاً للذي يَمُنُّ على الله بأعماله ويعجب بها، ويرى أنه استحق بها الجنة، وهو لا يدري هل صحت أم لا؟ وهل تُقبَّل أم لا؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مَنَ

الْمُنْقِنَ ﴿ [المائدة: ٢٧]، فهم جمعوا بين الصفتين: العمل الصالح، والخوف من عدم القبول، ولهذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سمعت هذه الآية: يا رسول الله، أهم الذين يزنون، ويسرقون، ويشربون الخمر، ويخافون الله عَزَّجَلَّ؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ»^(١).

الشاهد من الآية قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ ولهذا اقتصر الشيخ على ذكر هذه الصفة، لأنها تفسر تحقيق التوحيد، وأنه السلامة من الشرك بجميع أنواعه.

❁ قوله: (قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي من إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون وجلون من مكره بهم) المكر المحمود هو إيصال العقوبة إلى من يستحقها من حيث لا يشعر، وهو من الله حق؛ لأنه سبحانه لا يمكر إلا بمن مكر به، أو مكر بعباده مجازاة، وهو عدل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما المكر المذموم فهو إيصال خفية الأذى إلى من لا يستحقه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَآئِ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ لأن هؤلاء مكروا بأنبياء الله وأرادوا قتلهم بغير حق، فمكر الله بهم بأن عاقبهم عقوبة أوصلها

(١) روي هذا الحديث بألفاظ متقاربة من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة، أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وأحمد في المسند (١٥٩/٦)، والحاكم في المستدرک (٤٢٧/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٧/١).

إليهم بطريق خفي لم يشعروا به، جزاء منه وعدلاً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمكر منه سبحانه محمود لأنه بحق، والمكر من المخلوق مذموم لأنه بغير حق.

❁ قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية (الإيمان بآيات الله القرآنية معلوم، أما الإيمان بآيات الله الكونية فهو: الإيمان بأنها تدل على قدرة الله عَزَّجَلَّ، وعلى استحقاقه للعبادة، وهذا هو تحقيق التوحيد.

❁ قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ لم يقتصر على قوله: ﴿أَعْبُدَ اللَّهَ﴾، بل لابد مع عبادة الله من ترك الشرك، وإلا فإن العبادة تكون باطلة، فلا تنفع صاحبها.



عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ قُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لِدَعْتُ.

قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ قُلْتُ: أَرْتَفَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ قُلْتُ: حَدِيثُ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمُ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بَرِيدَةَ ابْنِ حُصَيْبٍ الْأَسْلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حِمَّةٍ.

فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ أَنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: دَعَرِضْتُ عَلَى الْأُمَمِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلِيَّتِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُبُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحِصَنِ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

قوله: [عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ] هو الحارثي، من تابعي التابعين^(١)،
عن الشعبي.

قال: [كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ]: هو الوالي مولاهم، الفقيه عن ابن
عباس وخلق، قال اللالكائي^(٢): ثقة إمام حجة، قتله الحجاج بن يوسف^(٣)،
فما أمهله الله بعده^(٤).

(١) سمع جابر بن سمرة، وعمار بن روية، والشعبي، وسمع منه الثوري، وشعبة، وزائدة،
وأبو عوانة، وقال عنه الإمام أحمد: «ثقة مأمون من كبار أصحاب الحديث» اهـ، ولد في
زمن معاوية في حدود سنة ثلاث وأربعين، وتوفي سنة ست وثلاثين ومائة. انظر: التاريخ
الكبير (٧/٣)، والجرح والتعديل (١٩٣/٣)، وسير أعلام النبلاء (٤٢٢/٥).

(٢) هو الإمام الحافظ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الرازي، الشافعي، مفيد بغداد
في وقته، أحد تلامذة الشيخ أبي حامد الإسفرائيني، برع في المذهب، وعني بالحديث
فصنف فيه أشياء كثيرة، ولكن عاجلته المنية قبل أن تشتهر كتبه، توفي سنة ثمان عشرة
وأربعمئة، له من المؤلفات: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»، وهو كتاب مهم
جداً لطالب العلم للوقوف على كلام السلف في الاعتقاد بالأسانيد. انظر لترجمته: تاريخ
بغداد (٧٠/١٤)، وسير أعلام النبلاء (٤١٩/١٧)، والوافي بالوفيات (١٥٤/٢٧)،
والبداية والنهاية (٢٤/١٢)، وطبقات الشافعية (١٩٧/٢).

(٣) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم أبو محمد الثقفي، ولاه عبد الملك الحجاز، فقتل فيها
ابن الزبير، ثم عزله عنها وولاه العراق، أهلكه الله سنة خمس وتسعين كهلاً، وكان ظلوماً
جباراً يسفك الدماء، قال الذهبي: «وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله»
اهـ. انظر: تاريخ دمشق (١١٣/١٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٤٣/٤)، والبداية والنهاية
(١٣٢/٩).

(٤) قتله الحجاج سنة خمس وتسعين للهجرة، في قصة مشهورة ذكرها غير واحد. انظر: الطبقات
الكبرى (٢٥٦/٦)، ووفيات الأعيان (٣٧١/٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٢١/٤).

قوله: [فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ] يعني: كوكبًا رُجم به تلك الليلة، يُقال: البارحة لِلَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وأما قبل الزوال فيُقال: الليلة.

قوله: [قُلْتُ: أَنَا] أي: أنا رأيته، [ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ] قال ذلك حذرًا من الشرك، لئلا يظن الحاضرون أنه قام من الليل للعبادة، فيكون قد ادعى لنفسه ما لم يفعله، فما أشد حذر التابعين ومن قبلهم من الشرك دقيقه وجليله، والحذر من أن يُحمد بما لم يفعله، فما أعز من سلم من الشرك؛ كما سيأتي.

قوله: [حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ]. فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمُ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْنٍ الْأَسْلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. هذا الحديث قد روي مرفوعاً^(١).

والشعبي اسمه عامر بن شراحيل الحميري الشعبي الإمام، روى عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم، وعن أبي هريرة وعائشة وجابر وابن عباس وخلق، قال الشعبي: «ما كتبت سوداء في بيضاء»^(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥١٣) مرفوعاً من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أبو داود (٣٨٨٤)، والترمذي (٢٠٥٧)، وأحمد في المسند (٤٣٦/٤)، والطبراني في الأوسط (١٢١/٢) والكبير (٥٨٧)، والبيهقي في الكبرى (٣٤٨/٩) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال أبو عيسى: «وروى شعبة هذا الحديث عن حصين عن الشعبي عن بريدة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٤٨٢)، وأبو خثيمة في كتاب العلم (ص ١٢)، وابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (ص ٢٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢١/٤).

أي: كلما سمع حفظ فحدث به من حفظه، توفي سنة ثلاثة ومئة^(١).

وبريدة هو ابن الحصيب بن عبد الله بن الحارثي الأسلمي، أسلم قبل بدر، وعمل على اليمن في أيام النبي ﷺ، صحابي مشهور^(٢).

قوله: [لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حَمَةٍ] هذا - والله أعلم - في أول الأمر، ثم رخص في الرقي إذا كانت بحق، والله أعلم.

قوله: [قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ] فيه حسن الأدب مع العلم وأهله، وأن من فعل شيئاً سئل عن مستنده في فعله: هل كان مقتدياً أم لا؟ ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله؛ ولهذا ذكر ابن عبد البر إجماع أهل العلم على أن المقلد ليس من أهل العلم، فتفطن لهذا!!

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث حديث حصين بن عبد الرحمن تابعي جليل رَحِمَهُ اللهُ، قال: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ» كذلك تابعي جليل من تلاميذ ابن عباس، فقال: «أَيُّكُمْ رَأَى الْكُوكَبَ الَّذِي أَنْقَضَ الْبَارِحَةَ؟»، والكوكب: معناه الشهاب الذي يُرمى به الشيطان، لأن الشهب تنطلق من الكواكب ويرمى بها الشياطين لتمنعهم من استراق السمع من السماء.

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٢٤٦/٦)، وتاريخ بغداد (٢٢٧/١٢)، وسير أعلام النبلاء (٢٩٤/٤).

(٢) قيل: إنه أسلم عام الهجرة إذ مر به النبي ﷺ مهاجراً، وشهد غزوة خيبر والفتح، وكان معه اللواء، واستعمله النبي ﷺ على صدقة قومه، توفي سنة ثلاث وستين. انظر: الجرح والتعديل (٤٢٤/٢)، وسير أعلام النبلاء (٤٦٩/٢)، والإصابة في تمييز الصحابة (٢٨٦/١).

و(الْبَارِحَة) يقولون: إنها تُطلق على الليلة الماضية، فإذا كان قبل الزوال يُقال: الليلة، وبعد الزوال يُقال: البارحة، وسُميت (بارحة) لأنها برحت، أي: ذهبت، يُقال: برح المكان إذا غادره.

❁ قال: «قُلْتُ: أَنَا» أي: أنا رأيته، ثم إنه خاف على نفسه من الرياء أن يُظن أنه يصلي ويتعبد في تلك الساعة، فكره أن يُحمد بما لم يفعل، فقال: «أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ» وهذا من الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والاحتياط، «وَلَكِنِّي لِدَعْتُ» بين السبب الذي من أجله سهر بالليل، واللدغة: هي لدغة ذات السموم من الحيات والعقارب، والعادة أن من يلدغ يطلب العلاج.

❁ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (لثلا يظن الحاضرون أنه قام من الليل للعبادة، فيكون قد ادعى لنفسه ما لم يفعله، فما أشد حذر التابعين ومن قبلهم من الشرك دقيقة وجليله، والحذر من أن يُحمد بما لم يفعله) حتى لو أن الإنسان عمل العمل الصالح لا ينبغي له أن يتحدث عنه، ولا أن يُخبر الناس عنه؛ لأن هذا يكون من الرياء، فكيف إذا لم يكن عمل شيئاً ويريد أن يمدحه الناس؟ هذا أشد، قال الله عَزَّوَجَلَّ في اليهود: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨].

❁ قال: «قَالَ: فَإِذَا صَنَعْتَ» يعني ماذا صنعت بعد أن لدغت؟ قال: «ارْتَقَيْتُ» أي: قرأت على نفسي، أو تركت من يقرأ على الرقية، والرقية: هي القراءة على المصاب باللدغة أو غيرها من الأمراض، بأن يقرأ أو ينفث على المصاب، وهي سبب من أسباب الشفاء بإذن الله، ومن أنفع العلاج إذا

صدر عن يقين من الرّاقِي و يقين من المَرْقِي ؛ لأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل هذا القرآن شفاءً للأمراض المعنويّة: أمراض الشُّرك، والنفاق، والمعاصي، وشفاء للأمراض الحسيّة: أمراض الأجساد؛ لأنه كلام رب العالمين سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عزَّوجلَّ: ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرْعَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فالرُّقية بالكتاب والأدعية أمر مشروع.

❁ قال: «قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟» أي: ما هو دليلك على أن تعمل الرقية؟ وهذا فيه أن الإنسان لا يُقدم على فعل شيء إلا بدليل، قال: «حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ»: عامر بن شراحيل الشعبي، وهو أيضًا تابعي جليل اشتهر بالتفسير والحفظ، قال: «حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْنٍ الْأَسْلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حِمَّةٍ»، قال الشارح تعقيباً على هذا الحديث: (هذا الحديث قد روي مرفوعاً) أي: روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا هو دليل حصين أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حِمَّةٍ»، أي: لا رقية إلا من إصابة العين، وهي الإصابة بسبب نظر الحاسد، الإصابة بعين الحاسد حق، وهي من آيات الله عزَّوجلَّ أن جعل بعض الناس إذا نظر إلى شيء أُصيب، وعلاج الإصابة بالعين معروف، وهو: أن يُقرأ على المصاب، أو يُطلب من العاين أن يدعو بالبركة للمصاب، وأن يتوضأ بماء، ويؤخذ ما تساقط من أعضائه ثم يُصب على ذلك المصاب بالعين، وكذلك يُغسل ما يلي جسمه من الثياب بماء، وتؤخذ الغسالة وتصب على المريض ليشرب منها فيشفى بإذن الله.

❁ قال: «أَوْ حُمَةٍ» وهذا محل الشاهد، الحمة: سم العقرب أو سم الحية، فدل هذا الحديث على جواز الرقية من لدغة الحية أو العقرب.

❁ وقوله: «لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ» هذا حصر مفاده أنه لا تجوز الرقية إلا من هذين الشيئين، مع أن الأدلة جاءت في أن الرقية تصلح من كل مرض، فما الجمع بينها؟ الجمع بينها إما أن يقال: كان في أول الأمر لا رقية إلا من عين أو حمة، ثم بعد ذلك رخص في الرقية من جميع الأمراض، أو يحمل على الأكمل، أي: لا رقية أحسن ولا أتم من الرقية من العين والحمة، ولا يمنع ذلك أن يكون هناك رقية من غيرهما من الأمراض، يعني: أنفع الرقى وأحسنها ما كان من هذين الداءين، فالحصر هنا حصر إضافي، وليس حصرًا حقيقيًا.

❁ قال: (قوله: «قَدْ أَحْسَنَ مَنْ أَنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ» فيه حسن الأدب مع العلم وأهله، وأن من فعل شيئًا سُئِلَ عن مستنده في فعله)، وهذا فيه أنه لا حرج على من عمل بالدليل الذي بلغه؛ لأنه بنى عمله على دليل.

فإذا سمعت الدليل لا يجوز لك أن ترد الدليل وتقول: هذا لا يكفي. لأن بعض الناس إذا سمع الدليل الصحيح، ووجده لا ينطبق على هواه ورغبته، صار يلوك بلسانه الأحاديث ويتكلم فيها عن غير علم وعن غير بصيرة، ويقول: هذا لا يكفي، أو هذا فيه كذا وكذا.

فلا يجوز الاستهانة بأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي ينبغي على العبد أن يقف عند حده ويتأدب معها، فهذا تابعي يقول: «قَدْ أَحْسَنَ

مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ» فدل هذا على أنه لابد في أمور الدين من العقيدة، والحلال والحرام، والأحكام الشرعية، لابد من دليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❦ قوله: (ولهذا ذكر ابن عبد البر إجماع أهل العلم على أن المقلد ليس من أهل العلم، فتفطن لهذا!). المقلد هو الذي لا يعرف الدليل، ولا يعرف مناهج الأحكام، وإنما يأخذ أقوال الناس فقط، من غير معرفة لدليلها أو مستندها، هذا ليس بعالم، إنما هو ناقل فقط، وأما العالم فهو الذي يعرف الحكم بدليله ومستنده.



قوله: [وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ]: هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ابن هاشم، ابن عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حبر الأمة، وترجمان القرآن، دعا له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(١)، وصار آية في العلم والفهم، وكثرة ما روى من الأحاديث، على أنه من صغار الصحابة، لكن طلب الحديث من كبار الصحابة، فحفظ الأكثر مما كان عندهم، رضي الله عنهم أجمعين.

قوله: [أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ»] قلت: فالله أعلم متى عرضت، وعرضها أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أراه مثالها إذا جاءت الأنبياء يوم القيامة ومن تبعهم، فمن نجا بالإيمان بالله، وبما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذي شرعه لهم، وهو عبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، والأخذ بما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ عن نوح: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٢-٣]، فعبادته: توحيده، وتقواه: طاعته بامثال ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، وطاعة رسوله.

هذا هو الدين؛ أن لا يُعبد إلا الله، وأن لا يُعبد إلا بما شرع فعلاً وتركاً، وأن يُقدم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٦/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٨٣/٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢٣٠/٤)، والطبراني في الأوسط (١٣٣/٢)، وفي الكبير (١٠٦١٤)، والحاكم في المستدرک (٦١٥/٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه البخاري (٧٥) بلفظ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ»، و(١٤٣) مقتصرًا على قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

... — الشَّيْخُ — ...

إذا قيل: (ابن عباس) لا ينصرف إلا إلى عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه هو الذي اشتهر بذلك، وقوله: «وَعَلَّمَهُ التَّائِيلَ» يعني: تفسير القرآن، فصار (آية في العلم والفهم) ببركة دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك صار يُلقب بحبر الأمة، وترجمان القرآن، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحضره مع كبار المهاجرين والأنصار، ويستشير به وهو صغير السن نظرًا لعلمه.

❦ قوله: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ») أي: جيء بالأُمم، يعني: بمثال للأُمم فعرضت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعض العلماء يقول: لعله كان في ليلة الإسراء، والبعض يقول: لعله رؤيا رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعضهم يقول: إن الرسول أسري به مرة ثانية في المدينة، وهذا لا دليل عليه، والأحسن التوقف في هذا، وهو الصحيح؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحدد الزمان والمكان الذي فيه عُرِضَتْ عليه الأُمم، فنحن نتوقف.

أما كيف عُرِضَتْ؟ فإن الله عَزَّجَلَّ على كل شيء قدير، فهو سبحانه قادر على أن يصوِّرَ لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثال مجيء الأُمم يوم القيامة، وهذا من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وهذا من آيات الله، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨].

✽ قال: (فمن نجا بالإيمان بالله، وبما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذي شرعه لهم، وهو عبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، والأخذ بما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ عن نوح: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾) فالتقوى والطاعة والخشية لله عَزَّوَجَلَّ، وأما الاتباع والطاعة فتكون للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فلا سبيل إلى طاعة الله إلا بطاعة رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وإلا كيف تُعرف طاعة الله، وكيف تُعرف عبادة الله إلا بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام؟

✽ قوله: (هذا هو الدين أن لا يُعبد إلا الله) هذا فيه التوحيد، (وأن لا يُعبد إلا بما شرع فعلاً وتركاً) هذا فيه الاتباع والاعتداء والنهي عن الابتداع في الدين.

✽ قوله: (وأن يقدم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه) فلا يُقدم على طاعة الرسول شيئاً أبداً، لا طاعة الوالدين، ولا طاعة العالم الفلاني أو الملك الفلاني، ولا طاعة أي أحد، ولا يُقدم طاعة نفسه وهواه على طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قوله: «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ» الرهط: العشرة وما دونه، «وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ» أي: أتباعه، «وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» أي: يُبعث في قومه فلا يتبعه منهم أحد؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْرِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١].

وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل قديماً وحديثاً، والأكثر غلبت عليهم الطباع البشرية، فعصوا الرسل فهلكوا؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتْسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والناجون وإن كانوا أقل القليل فهم السواد الأعظم؛ فإنهم الأعظمون قدرًا عند الله وإن قلوا، فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة، فقد اغتر بهم كثيرون، حتى بعض من يدعي العلم اعتقدوا في دينهم ما يعتقده الجهال الضلال، ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ» يعني: لم يتبعه إلا ما دون العشرة والبقية على الكفر، «وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ» لم يتبعه من قومه إلا رجل

واحد أو رجلان فقط، وبقية الأمة لم يستجيبوا له، «وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» كل قومه على الكفر أبوا أن يستجيبوا له، فيأتي يوم القيامة ليس معه أحد.

ففي هذا دليل على أن العبد لا يغتر بالكثرة؛ فإن أكثر الناس لا يؤمنون، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ فالكثرة لا يغتر بها؛ لأن أكثر الناس على الضلال، وعلى الكفر بالله عَزَّجَلَّ؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وفي هذا أيضًا أنه لا يزهد بالحق لقلة من يتبعه، فالآن مثلاً لو تدعو إلى التوحيد وتنهى عن الشرك، أو تدعو إلى إثبات الأسماء والصفات لله عَزَّجَلَّ وتنهى عن التعطيل، قيل لك: أكثر الناس ليسوا على هذا الكلام، فهم يدعون الموتى، ويدعون القبور، ويؤولون الصفات، فهل الناس كلهم على ضلال إلا أنت؟ تُقال هذه المقالة، ونسمعها، ونقرأها دائماً، وهي كلام باطل؛ لأن الحق لا يُعرف بكثرة الناس، ولا بقلتهم، إنما يُعرف بدليله من الكتاب ومن السنة، ولو لم يكن عليه أحد، ولو لم يكن عليه إلا قليل، فهو الحق لا يتغير.

فلا يغتر بالكثرة إذا كانت على الباطل، ولا يزهد في القلة إذا كانت على الحق، المدار على الحق، سواء كان عليه الكثير أو القليل، والحق لا يعرف بالرجال، وإنما العكس يعرف الرجال بالحق.

❁ قوله: (حتى بعض من يدعي العلم اعتقدوا في دينهم ما يعتقده الجاهل الضلال، ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله) هذا تعليق من الشيخ

رَحْمَةُ اللَّهِ، فبعض من يدعي العلم في وقته، وفي وقتنا هذا، وإلى الأبد، يحتاجون بالكثرة، فإذا جئتهم بالأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة على بطلان ما هم عليه قالوا: هذا الذي عليه أكثر الناس. سبحان الله!! وهل أنت متعبد بما عليه الناس؟ أو متعبد بما عليه الكتاب والسنة؟ فالواجب على المسلم الذي يخاف الله ويريد النجاة لنفسه الاعتراف بالحق والرجوع إليه وإن كان عليه القليل، أما الاحتجاج بما عليه الناس بدون دليل فهذا هو قول الكفرة الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وكما قال فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، أي لست وحدي على هذا الأمر، بل كانت عليه قرون قبلي.

فهذه حجة داحضة يكررها المشركون وأهل الباطل في كل زمان ومكان، نقول لهم: لا عبرة بالكثرة، وإنما العبرة بالدليل من الكتاب والسنة، ولو لم يكن عليه إلا القليل.



قوله: «إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ»، فيه فضيلة أتباع موسى من بني إسرائيل، ممن آمن منهم بالرسول، والكتب التي أنزلها الله: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وغيرها.

وكانت بنو إسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود، وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرون جدًا، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجمعة: ١٦]، أي: في زمانهم، وذلك أن في زمانهم وقبلة ممن كفر بالله خلقًا لا يحصيهم إلا الله؛ كحزب جالوت، وبُخْتَنَصَّر، وأمثالهم، ففضل الله بني إسرائيل بالإيمان، فصاروا أفضل أهل زمانهم، وحدث فيهم ما ذكر الله في سورة البقرة وغيرها؛ من معصيتهم لأنبيائهم، واختلافهم في دينهم، فقد ذكره الله عَزَّجَلَّ محتجًا به على اليهود الذين كفروا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتدبر ما ذكره الله عَزَّجَلَّ من أحوالهم بعد الاختلاف.

... — الشَّبَحُ — ...

قوله: «إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ» أي: خلق كثيرون، «فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي» ظن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم أمته؛ لأنه أكثر الأنبياء تبعه، «فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ»، وفي هذا دليل على فضل قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه اتبعه الأكثرون من قومه وآمنوا به، وهذا قبل التغيير والتبديل في بني إسرائيل، ولذلك اختارهم الله وفضلهم على العالمين.

❁ قال الشيخ رحمه الله: (وكانت بنو إسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود) هذا في أول الأمر قبل التحريف والتبديل، كان منهم مؤمنون كثيرون على الحق، لكن لما دخل التغيير والتبديل تغير الوضع كثيرًا عما كان في زمن موسى، وزمن الأنبياء الذين جاءوا من بعده عليهم الصلاة والسلام، فكان أولهم على الحق يؤمنون بالله وبرسله وبكتبه، لكن المتأخرون منهم حرفوا وبدلوا وغيروا وأنكروا نبوة عيسى عليه السلام، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء وإن كانوا من بني إسرائيل فهم كفار من أهل النار، والفضل إنما هو لمن سبق منهم على الإيمان والتوحيد.

وكان بنو إسرائيل إذ ذاك على الإيمان بالله عز وجل، وأكثر أهل الأرض على الكفر، فلذلك فضلهم الله على العالمين، وليس هذا مدحًا مطلقًا لبني إسرائيل، بل هو مدح لمن سبقوا على الإيمان بالله ورسله وكتبه.



قوله: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ - وفي رواية: «قَدْ سَدَّ الْأَفَقُ»^(١) - فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فيه فضيلة هذه الأمة، وأنهم أكثر الأمم تابعا لنبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كثروا في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وفي عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فملأوا القرى والأمصار والقفار، وكثر فيهم العلم، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة، فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضلة، وقد قلوا في آخر الزمان.

قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في مسائله: وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، فالكمية: الكثرة والعدد، والكيفية فضيلتهم في صفاتهم؛ كما في الحديث بقوله: «وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». قوله: [ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ] أي: الحاضرون له في ذكرهم هذا الحديث، وفيه أيضا فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم في مذاكرتهم العلم، وحرصهم على فهم ما حدثهم به نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حرصا على العمل به، وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل؛ لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم ولم ينكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك عليهم، لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه، بل يُقال: لعل الحكم كذا وكذا؛ كقول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا الحديث.

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٠، ٥٧٥٢).

قوله: [فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُمْ فَقَالَ: فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» أي: لا يطلبون الرقية من أحد، ولا يكتون إذا كان فيهم ما يستشفى بالكي منه، ولا يتطيرون، والطيرة شرك، فتركوا الشرك رأساً، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد، فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي وإن كان يراد للشفاء. والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله، وتفويضهم أمورهم إليه، وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبره وقضاه، فلا يرغبون إلا إلى ربهم، ولا يرهبون إلا منه، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم، قال الله عز وجل عن يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦].

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

قوله: ﴿ فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ ﴾ وفي هذا فضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفضل أُمته، وأنهم أكثر الأمم دخولاً الجنة، فقد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكبر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكبر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكبر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَبْيَضٍ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَسْوَدَ»^(١)، وجاء في الحديث

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآخر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»^(١).

✽ قوله: «فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» هذا محل الشاهد من الحديث.

✽ قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضلة، وقد قلوا في آخر الزمان) نعم، قلوا في آخر الزمان لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(٢)، فهم كثروا في عهد الخلفاء الراشدين، والقرون المفضلة الثلاثة، وفتحوا الأمصار، ونشروا العلم في أرجاء الأرض، وتبعهم خلق كثير من العرب والعجم، حتى كثر سواد الأمة، وملأ الأرض وغالب المعمورة، ثم بعد ذلك صاروا في قلة ونقص؛ كما أخبر بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

✽ قال: (قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في مسائله: وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، فالكمية: الكثرة والعدد، والكيفية فضيلتهم في صفاتهم)، (شيخنا) يعني: جده الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ لأنه أدرك جده وقرأ عليه

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، وأحمد في المسند (٣٤٧/٥)، والدارمي في سننه (٢٨٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٥/٦)، والطبراني في الأوسط (١٦٨/٢)، والحاكم في المستدرک (١٥٥/١)، من حديث بريدة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٨٨/١١): «فكأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجا رحمة ربه أن تكون أمته نصف أهل الجنة أعطاه ما ارتجاه وزاده» اهـ.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وهو صغير رَحِمَهُمُ اللَّهُ، (الكمية) كثرة عدد الأمة في القرون المفضلة، و(الكيفية) ما هم عليه من العلم والعمل، وتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونفع الخلق.

❁ قال: «ثُمَّ نَهَضَ» أي: قام «فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ» ولم يبين لهم من هؤلاء السبعون، فلحرص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الخير بحثوا من هؤلاء السبعون؟ يريدون أن يقتدوا بهم، وهذا من حرص السلف على الخير والعمل به، ما اعتبروا هذا الخبر أمراً عادياً، بل اهتموا به.

فأهل الإيمان والخير إذا ذكرت لهم الفضائل، وذكر لهم الثواب والجنة تشوقوا إلى ذلك، وطلبوا بيان الأعمال التي توصل إلى هذا الثواب وإلى هذه الجنة، وهؤلاء رجال الآخرة، وأما رجال الدنيا فإنهم ينشطون إذا ذكرت لهم التجار والمكاسب، يسألون أين هؤلاء التجار، وأين هذه المكاسب، وما الطريق إلى حصول على هذه التجارات؟ همهم دنياهم، أما هؤلاء فهمهم آخرتهم، يسألون عما ينجيهم في الآخرة، وعما يسبب لهم دخول الجنة.

❁ قال: «فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ» يعني: بحثوا من هم؟ «فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لَأَن أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ»، وهذا فيه جواز الاجتهاد، والبحث عن العلم، وأن ذلك كان في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» هؤلاء هم السبعون ألفاً، وهذه صفاتهم:

الأولى: «لَا يَسْتَرْقُونَ» يعني: لا يطلبون من غيرهم أن يرقهم أو يقرأ عليهم الرقية؛ لأن طلب الرقية من الناس فيه سؤال لغير الله، وفيه مذلة، فهم يستغنون عن الناس، ترفعاً عن السؤال؛ لأن سؤال الناس مكروه، لما فيه من الحاجة لغير الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن كان السؤال عند الحاجة جائزاً، لكن تركه أفضل، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بايع بعض الصحابة على ألا يسألوا الناس شيئاً، فكان بعضهم يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه^(١).

الثانية: «وَلَا يَكْتَوُونَ» الكي علاج معروف ونافع بإذن الله، إذا وافق محله نفع الله به، ولكن نظراً لما فيه من استعمال النار والتعذيب بالنار فإنه مكروه، كراهية تنزيهه، فهم تركوا الكي من أجل ما فيه من الكراهة.

الثالثة: «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ» التطير هو التشاؤم بالأشخاص أو بالطيور، أو بالأماكن، أو بالأزمنة، فالذي يتطير بها ويعتقد فيها السوء، فيترك حاجته ويعدل عما عزم عليه تأثراً بالطيرة، فقد أشرك، وهذا سيأتي تفصيله في باب: ما جاء في التطير. والواجب على من وقع في نفسه شيء من التطير أن يدفعه بالتوكل على الله، وألا يرجع عما عزم عليه، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»^(٢)، وإلا ما من أحد إلا ويقع في نفسه شيء، ولكن يدفعه بالتوكل، ولهذا يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣) من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢١٣/١) من حديث الفضل بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي إسناده مقال لجهالة مسلمة بن عبد الله الجهني، وللانقطاع بينه وبين الفضل.

بِالتَّوَكُّلِ»^(١)، فإذا أحس الإنسان بشيء يتوكل على الله ويدفع هذا الهاجس، ولا يعمل بالطيرة، فمن رده الطيرة عن حاجته فقد أشرك؛ لأن الطيرة شرك، والشرك أعظم الكبائر.

الرابعة: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فالذي حملهم على ترك هذه الأمور هو التوكل على الله، تركوا المكروهات، وهي طلب الرقية من الناس، والكفي، وتركوا المحرمات، وهي الطيرة، وهذا هو تعريف تحقيق التوحيد: تجنب الشرك بجميع أنواعه، وتجنب البدع، وتجنب المحدثات في الدين، والخرافات. وهؤلاء هم السابقون والمقربون الذين فعلوا الواجبات، والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، وبعض المباحات احتياطاً، هؤلاء هم المقربون، وهم السابقون، فكانوا ممن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

وهذا مطابق للترجمة: (بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، وهذا هو الشاهد من الحديث، وليس في هذا أن ترك الأسباب مطلوب من المسلم، بل فعل الأسباب مطلوب مع التوكل على الله عَزَّجَلَّ، وهؤلاء لم يتركوا الأسباب وإنما تركوا أسباباً مكروهة، أما الأسباب التي لا تُكره فإنه

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد في المسند (٣٨٩/١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣١٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٠/٥)، وأبو يعلى في مسنده (٢٦/٩)، والحاكم في المستدرک (١/٦٥)، والبيهقي في الكبرى (١٣٩/٨). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢١٣/١٠): «وقوله: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» إشارة إلى أن من وقع له ذلك، فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة، أنه لا يؤاخذ بها عرض له» اهـ.

يجب الأخذ بها، فلا يجوز ترك الأسباب النافعة ويقال: يكفي التوكل على الله. كما أنه لا يجوز الاعتماد على الأسباب وحدها، بل لا بد من الأمرين: * التوكل على الله.

* والأخذ بالأسباب النافعة التي ليس فيها كراهة.

أما الأسباب المكروهة فتركها أحسن، ومن ذلك الكي، وطلب الرقية من الناس، والمكروه إذا احتاج الإنسان إليه تزول كراهته، فإذا احتاج الإنسان إلى الكي يكتوي وتزول الكراهة، وإذا احتاج إلى الرقية، وهو لا يحسن الرقية، ووجد من يرقيه، أو جاءه من يرقيه ابتداءً، تزول الكراهة، ويطلب من أهل الخير من يرقيه.



قوله: [فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحِصَنٍ]: صحابي مشهور؛ شهد بدرًا والمجاهد كلها مع النبي ﷺ، وهو من بني أسد بن خزيمة، قتله طليحة ابن خويلد شهيدًا، وكان قد سار مع خالد بن الوليد لقتال أهل الردة، فقاتل بني أسد لردتهم عن الإسلام، وكان فيهم طليحة وقد ادعى النبوة وصدقه، فأكرم الله عكاشة على يده لما كان كافرًا ثم بعد ذلك هداه الله إلى الإسلام، وجاهد الفرس مع سعد بن أبي وقاص، وصار له في الفرس وقائع معروفة في السير، وكان ممن استشهد في قتالهم في وقعة الجسر المشهورة^(١).

قوله: [فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ] فيه: أن شفاعة الحي لمن سألہ الدعاء إنما كانت بدعائه، وبعد الموت قد تعذر ذلك لأمر لا تخفى على من له بصيرة. فمن سأل ميتًا أو غائبًا فقد سألہ ما لا يقدر عليه، ومن سأل أحدًا ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله ندًا لله عَزَّجَلَّ؛ كما كان المشركون كذلك، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] أنه ربكم،

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر الأسدي، كان ممن شهد الخندق من ناحية المشركين، ثم أسلم سنة تسع، ووفد على رسول الله ﷺ في المدينة، ثم ارتد بعد وفاة النبي ﷺ في أيام الصديق، وادعى النبوة، خذله الله على يدي خالد بن الوليد، وتفرق جنده، فهرب إلى الشام، فأقام فيها حتى مات الصديق، ثم رجع إلى الإسلام، وجاء يُسَلِّم على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: اغرب عني، فإنك قاتل الرجلين الصالحين: عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم، فقال: يا أمير المؤمنين، هما رجلان أكرمهما الله على يدي، ولم يهني بأيديهما. فأعجب عمر كلامه، ثم عاد إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليرموك والقادسية ونهاوند الفرس، وكان من الشجعان المذكورين، والأبطال المشهورين، وقد حسن إسلامه بعد هذا كله، وكان يُعد بألف فارس، استشهد بنهاوند سنة إحدى وعشرين. انظر: تاريخ دمشق (١٤٩/٢٥)، والبداية والنهاية (١١٨/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة (٥٤٢/٣).

وخالقكم وَمَنْ قبلكم، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، فلا ترغبوا عنه إلى غيره، بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير.

... — الشَّيْخُ — ...

لما سمع هذا عكاشة بن محصن الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ممن أسلم قديماً، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ»، هذا فيه جواز طلب الدعاء من الحي، فلا حرج من طلب الدعاء من أهل الخير ومن أهل التقوى والعلم ممن تُرجى إجابة دعوتهم؛ لأن عكاشة طلب من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يُنكر عليه، وهذا من الحي القادر، أما الميت فلا يُطلب منه شفاعته، ولادعاء، ولا غير ذلك؛ لأن الميت لا ينفع نفسه وهو ميت، فكيف ينفع غيره؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١) انقطع عمله الشخصي وبقي له عمل غيره، في الدعاء من الحي، أو عمل قدمه لنفسه فصار يستمر بعد موته؛ كالوقوف أو الصدقة، أو العلم الذي نشره، فينفعه الله به وهو ميت.

❁ قال: (فمن سأل ميتاً أو غائباً فقد سأل ما لا يقدر عليه) والدليل على أن الميت لا يُطلب منه شيء، أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يطلبون من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته الدعاء لهم، فلما مات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يذهبوا إلى قبره ويطلبوا منه الدعاء، بل كانوا يطلبون من عمه العباس أن يستسقي لهم،

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: يطلب الغيث لهم من الله، فهذا دليل على أن الميت لا يُطلب منه شيء، سواء كان نبياً، أو كان صديقاً، أو كان صالحاً من الصالحين.

❦ قال: (ومن سأل أحداً ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله نداً لله تعالى) فمن طلب من أحد شيئاً لا يقدر عليه إلا الله، حياً كان أو ميتاً، (فقد جعله نداً لله) أي: جعله شريكاً مع الله؛ كالذي يطلب أن يشفيه من المرض، أو يجلب له الرزق، أو يخلق له الولد، أو ينزل الغيث، أو غير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله، يطلبون من بعض الأشخاص من الأحياء أو الأموات إنزال الغيث، ويشكون إليه ما أصابهم من جذب، ويظنون أن هذا الشخص يقدر على إنزال الغيث، هذا شرك أكبر والعياذ بالله.



قوله: «أَنْتَ مِنْهُمْ»: لِمَا كَانَ يَعْلَمُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِيْمَانِهِ وَفَضْلِهِ وَجِهَادِهِ؛
كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١).

قوله: [ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ]. فَقَالَ: سَبَقَكَ
بِهَا عُكَّاشَةُ^(٢)، والظاهر أنه أراد -صلوات الله وسلامه عليه- سد الذريعة،
لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك، فيسأله من ليس أهلاً له، وذلك منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تعريض كما لا يخفى.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «أَنْتَ مِنْهُمْ» هذا خبر من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن عكاشة
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وتحقيق
هذا فيما بعد؛ فَإِنَّ عُكَّاشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ شَهِيدًا فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ، فِي حَرْبِ
طَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ الَّذِي ارْتَدَّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَادَّعَى النَّبُوَّةَ، ثُمَّ
إِنَّهُ تَابَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقُتِلَ شَهِيدًا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حُرُوبِ
فَارِسٍ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ
كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(٢) أي: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ كَافِرًا فَيَقْتُلُ الْمُسْلِمَ، ثُمَّ
يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَعَ مَنْ قَتَلَهُ بِسَبَبِ التَّوْبَةِ
وَالْإِسْلَامِ.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشاهد أن عكاشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحقق فيه خبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث نال الشهادة في سبيل الله مع ما له من السابقة العظيمة في الإسلام، والجهاد مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي هذا دليل من أدلة النبوة، وعلم من أعلام النبوة، حيث أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبر فوق كما أخبر به، وهذا من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما نحن فليس لنا أن نشهد لأحد بالجنة، ولو كان من أصلح الناس، لكن نرجو له، وكذلك لا نشهد على أحد بالنار، ولو كان من أفسق الناس، لأننا لا ندري ما يُحتم له، ولكن نخاف عليه.

❦ قال: (ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أن هذا الرجل لا يستحق هذه المنزلة؛ لأنه ليس مثل عكاشة بن محصن، لكنه لم يواجهه بما يكره، وهذا من حسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يقل له: أنت لا تستحق هذا، أو لست منهم، فيحصل للرجل كسوف بال، أو يحصل له ردة فعل، بل واجهه بكلام طيب، حيث قال له: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»؛ وأيضاً لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خشي أن يقوم غير هذا الرجل ويتسلسل الأمر، فهو بقوله هذا سد هذا الباب من أصله. والشاهد من هذا الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ»، فهم تركوا هذه الأشياء الثلاثة لأنها إما محرمة أو مكروهة، وهذا من تحقيق التوحيد.

فهذا حديث عظيم دلَّ على مسائل:

أولاً: دلَّ على جواز الرقية من العين ومن الحُمّة وغيرهما؛ لأنه فعله حصين بن عبد الرحمن، واستدل بحديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيًا: في الحديث دليل على فضل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأُمَّته الذين آمنوا به.

ثالثًا: فيه دليل على عدم الاحتجاج بالكثرة، وهذه مسألة مهمة.

رابعًا: فيه حرص الصحابة على مسائل العلم ومعرفتها، حيث خاضوا

في طلب معنى هذا الحديث الذي ألقاه عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبحثوا فيه، قال الشيخ: فيه المناظرة في العلم.

خامسًا: في الحديث دليل على كراهية سؤال الناس، وأن سؤال الناس

فيه تنقيص للتوحيد، أما الاستغناء عنهم فهذا فيه كمال للتوحيد، وهو من تحقيق التوحيد.

سادسًا: الحديث دليل على جواز العلاج بالكَيِّ مع الكراهة، بشرط أن

يكون المعالج به من أهل المعرفة، الذي يعرفون موضع الألم وموضع الكَيِّ،

ومقدار الكَيِّ، وفيه دليل على أن الإصابة بالعين حق، وأنها تُعالج بالرقية،

وتعالج بما أرشد إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاستغسال أيضًا.

سابعًا: فيه دليل على علم من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث أخبر أن

عُكَّاشَةُ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا، وقد قُتِلَ شهيدًا في سبيل الله بعد ذلك.

ثامنًا: وفيه دليل على استعمال المعارض في الأمور التي يُكره مواجهتها

الناس بها، ودل أيضًا على حُسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعامله مع أصحابه،

وكذلك يجب أن يقتدي به أهل العلم وأهل الدعوة في مخاطبتهم للناس.

تاسعًا: وفيه دليل على طلب الدليل على المذهب، حيث إن سعيد بن

جُبَيْر طلب من حُصَيْن بن عبد الرحمن الدليل على ما فعله من طلب الرقية،

فلما جاء بالدليل استحسنته، وقال له: «قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ».



عاشراً: وفيه دليل على ما تزجّم له المصنف، وهو الشاهد للباب أن من
حقّق التّوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، وأن تفسير ذلك بأن يترك
الشرك الأكبر والأصغر، ويترك الأمور المكروهة، احتياطاً لعقيدته.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: مَعْرِفَةُ مَرَاتِبِ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ.

الثانية: مَا مَعْنَى تَحْقِيقِهِ.

الثالثة: ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الرابعة: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنَ الشُّرُكِ.

الخامسة: كَوْنُ تَرْكِ الرُّقِيَّةِ وَالْكَيِّْ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

السادسة: كَوْنُ الْجَامِعِ لِنِلْكَ الْخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلُ.

السابعة: عُمُقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.

الثامنة: حِرْصُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ.

التاسعة: فَضِيلَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْكَمِّيَّةِ وَالْكِيفِيَّةِ.

العاشرة: فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الحادية عشرة: عَرْضُ الْأُمَمِ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثانية عشرة: أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُخْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.

الثالثة عشرة: قِلَّةُ مَنْ اسْتَجَابَ لِلْأَنْبِيَاءِ.

الرابعة عشرة: أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحْدَهُ.

الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا الْعِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الْاِغْتِرَارِ بِالْكَثَرَةِ، وَعَدَمُ

الرَّهْدِ فِي الْقِلَّةِ.

السادسة عشرة: الرُّخْصَةُ فِي الرُّقِيَّةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

السابعة عشرة: عُمُقُ عِلْمِ السَّلَفِ لِقَوْلِهِ: «قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا

سَمِعَ، وَلَكِنْ كَذَا وَكَذَا»، فَعِلْمُ أَنَّ الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ لَا يُخَالِفُ الثَّانِي.

الثامنة عشرة: بُعْدُ السَّلَفِ عَنْ مَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» عَلَّمَ مِنْ أَعْلَامِ النَّبِوَةِ.

الْعَشْرُونَ: فَضِيلَةُ عُكَّاشَةِ رَجَايَ اللَّهِ عَنْهُ.

الْحَادِيَةَ وَالْعَشْرُونَ: اسْتِعْمَالُ الْمَعَارِيضِ.

الثَّانِيَةَ وَالْعَشْرُونَ: حُسْنُ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٣- بَابُ

الْخَوْفِ مِنَ الشُّرْكِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قوله: [بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشُّرْكِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾]، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: أما دخول المشرك النار فهو على عمومته، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بين الكتابي: اليهودي والنصراني، وبين عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ وسائر الكفَّرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحدته وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مصرًّا عليها ومات على ذلك فهو تحت المشيئة، فإن عفا عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُدِّبَ، ثم أُخْرِجَ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلَ فِي الْجَنَّةِ. انتهى^(١).

قلت: هذا قول أهل السنة والجماعة لا اختلاف بينهم في ذلك، وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك؛ لأن الله عَزَّجَلَّ قَطَعَ الْمَغْفِرَةَ عَنِ الْمَشْرِكِ، وَأَوْجَبَ لَهُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ، وَأَطْلَقَ وَلَمْ يُقَيِّدْ، ثم قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩٧).

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ❁ فخصص وقيد فيما دون الشرك، فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه، فلا يُرجى له معه نجاة إن لم يتب منه قبل الوفاة.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا الباب في غاية المناسبة بعد الأبواب السابقة؛ لأنه إذا أتقن الإنسان الأبواب السابقة، فعرف التوحيد، ثم عرف فضل التوحيد، ثم عرف تحقيق التوحيد، بقي عليه أن يخاف من ضد التوحيد وهو الشرك؛ لأن الإنسان لا يأمن على نفسه أن يقع في الشرك، ولو كان من أعلم الناس وأقواهم إيماناً؛ فإنه عرضة للابتلاء والامتحان.

فالذين يقولون الآن: إن الناس تثقفوا وعرفوا وتجاوزوا مرحلة السذاجة، فلا يخاف عليهم من الشرك؛ لأن الشرك وعبادة القبور والأضرحة، هذه الأمور من السذاجة، فلا داعي للتحذير منها؛ لأن الناس يعرفونها.

نقول لهم: هذا من الغرور، أو التغرير بالناس، فإن الإنسان مهما بلغ من العلم والإيمان والتقوى لا يأمن على نفسه من الضلال ومن الزيغ والانحراف، والوقوع في الشرك إما عن جهل، وإما عن انحراف وزيغ وضلال والعياذ بالله، وما دام الإنسان على قيد الحياة فإنه عرضة للفتن.

❁ فقلوه: (الْخَوْفُ مِنَ الشَّرِّ) الخوف: ضد الأمن، وهو توقع المكروه، والشرك: هو عبادة غير الله عَزَّجَلَّ بأن سبي شيء من العبادة لغير الله؛ كأن يذبح للأصنام، أو للقبور، أو للأشجار والأحجار، أو للجن، أو ينذر لهم، أو يخاف منهم، أو يعتقد فيهم أنهم ينفعون أو يضررون من دون الله عَزَّجَلَّ،

هذا هو الشرك، وقد وقع فيه خلقٌ كثير، وعندهم علم؛ وقعت فيه اليهود وعندهم علم، ووقعت فيه النصارى وعندهم علم، ووقع في هذه الأمة بعد القرون المفضلة مع وجود العلم.

فلا يأمن المسلم على نفسه من الوقوع في الشرك، والواجب عليه أن يحذر منه، ولا يحذر منه إلا إذا عرف ما هو الشرك حتى يتجنبه.

والشرك ينقسم إلى قسمين:

الأول: شرك أكبر يُخرج من الملة، ويكون صاحبه خالداً مخلداً في النار.
الثاني: شرك أصغر لا يُخرج من الملة، ولكنه وسيلة إلى الشرك الأكبر، وأيضاً هو وإن كان شركاً أصغر فإنه أعظم من الكبائر.

فالشرك أكبر الكبائر سواء أكان أكبر أم أصغر، فلا يُتَهاون به، لا الأكبر، ولا الأصغر، وهذا مما يوجب على المسلم أن يتعلم الشرك، وما هي حقيقته وما هي أنواعه، وما هي أسبابه؟ حتى يتجنبه، ويحذر منه، ويسأل الله الثبات؛ لأنه وإن علم فإنه لا يأمن على نفسه من الانحراف والزيغ، فاليهود والنصارى وضلال هذه الأمة وقعوا في عبادة الأنبياء والأولياء والصالحين، وهم يعلمون، وعباد القبور الآن أغلبهم متخرجون من الجامعات، ومعهم أعلى الشهادات العلمية، ومع ذلك يخضعون للقبور ويعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ولم ينفعهم علمهم، فلذلك يجب على المسلم الحذر من الشرك، فهو بين أمرين:

الأول: إما أن يقع فيه عن جهل إذا لم يكن يعرف ما هو الشرك وما هي أنواعه؛ كما حصل لبني إسرائيل حين قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وكما حصل من بعض الصحابة حين قالوا لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»^(١).

الثاني: أن يقع فيه ليس عن جهل، وإنما عن عناد وتقليد للآخرين.

قال: (وقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾) هذه الآية فيها التحذير من الشرك، وهي خبر من الله عَزَّجَلَّ أنه لا يغفر الشرك، سواء أكان شركاً أكبر أم أصغر، وهذا يدل على خطورته، بينما قال عَزَّجَلَّ في آخر الآية: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فكل الذنوب التي دون الشرك تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفرها، وإن شاء عذب بها، ثم يخرج أصحابها من النار إلى الجنة، فمآل الموحدين إلى الجنة، إما ابتداءً، وإما بعد تعذيبهم بالنار على ذنوبهم ومعاصيهم، فلهم طمع في مغفرة الله عَزَّجَلَّ.

أما المشرك فليس له طمع في مغفرة الله، فَنَطَهُ اللَّهُ مِنْهُ، وقطع طمعه بقوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وكلمة ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ تعني كل شرك، ولا تخص نوعاً من أنواع الشرك، بل كل أنواع الشرك لا يغفرها الله عَزَّجَلَّ لمن مات عليها، وفي هذه الآية لم يستثن، كما استثنى في آخرها،

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد في المسند (٢١٨/٥)، والطبري في تفسيره (٤٥/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٩٠٦)، وابن حبان في صحيحه (٩٤/١٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٧٩/٧)، والمروزي في السنة (١٦/١)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٧/١)، والطبراني في الكبير (٣٢٩١، ٣٢٩٢) من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولم يأت بالمشيئة، بينما جاء بها في قوله لأصحاب الكبراء: ﴿وَيَعْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فهذا مما يدل على خطورة الشرك، وإذا كان بهذه الخطورة، فكيف لا يخافه الإنسان على نفسه؟

✽ قوله: (قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: أما دخول المشرك النار فهو على عمومته، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بين الكتابي: اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان، وسائر الكفرة) والآن يوجد فريق من الناس يقول: إن اليهود والنصارى مؤمنون ولا يجوز تكفيرهم. والذي يقول هذه المقالة يعتبر مرتدًا عن الإسلام؛ لأنه لم يُكفر الكافر، ومن لم يُكفر الكافر فهو مثله.

فاليهود والنصارى على وضعهم الحاضر وبعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإعراضهم عن اتباعه، وتكذيبهم لرسالته، لا يجوز أن يقال: إنهم أهل دين. لأنهم كفروا وصاروا من أهل النار، إلا أن يتوبوا إلى الله عَزَّجَلَّ، ويتبعوا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالذي يقول: إنه لا يجوز تكفيرهم. هذا إما جاهل، وإما مغالط والعياذ بالله، والواجب عداوة اليهود والنصارى، واعتقاد أنهم كفار، وكيف نقول: إنهم مؤمنون، وهم يحسدون نبوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولون في حق الله المقالات الشنيعة والعياذ بالله؟ وكيف نقول: إن النصارى مؤمنون وهم يقولون: المسيح ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله؟

والعجيب أنك تجد مع هذا الكفر الصريح من يدعو إلى التقارب بين الأديان الثلاثة، يعني: نجمع بين الكفر والإيمان، ونقرب بين الكفر

والإيمان؟ لا يقول هذا إلا جاهل لا يعرف الدين، أو معاند ومخالف لدين الله عَزَّوَجَلَّ، فهذه والعياذ بالله ظاهرة قبيحة ظهرت في هذا الزمان، وهو الدعوة إلى التقارب والحوار بين الأديان الثلاثة.

والصحيح الذي يجب اعتقاده: أنه لا فرق بين اليهودي والنصراني وعبدة الأوثان، وسائر الكفرة؛ كلهم كفار والعياذ بالله.

❁ قوله: (ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره) لا فرق عند أهل الحق بين يعرف من الحق ولكنه كفر به وعانده وأبى أن يتبعه، وبين الكافر عن جهل؛ لأن الجاهل مطلوب منه أن يتعلم وأن يسأل عن الدين، أما كونه يُعرض ويبقى على ما هو عليه فهذا ليس له عذر، لأن المعذرة انقطعت بإرسال الرسل، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فقامت الحجة، وزال الجهل، وانقطعت المعاذير، ولا فرق بين الكافر الأصلي الباقي على كفره، والكافر المرتد الذي أسلم ثم ارتد عن دين الإسلام.

❁ قوله: (وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به) فإن كانت ذنوبه دون الكبائر دخلها من أول وهلة، وإن كانت عنده كبائر فهو تحت المشيئة، إما أن يعفو الله عنه ويدخلها من أول وهلة، أو يعذب بها ثم يدخل الجنة.

❁ قوله: (قلت: هذا قول أهل السنة والجماعة لا اختلاف بينهم في ذلك) هذا مُجمع عليه بين أهل السنة والجماعة، أن من مات على الشرك فإنه

.....

من أهل النار قطعًا، ولا طمع له في الجنة، ومن مات على التوحيد فهو من أهل الجنة قطعًا، لكن إن كان سالمًا من الكبائر دخل الجنة من أول وهلة، وإن كان عنده كبائر فهو تحت المشيئة ومآله إلى الجنة.



قوله: (وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(١) أي: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الرحمن.

والخلة أخص من المحبة؛ ولهذا خص بها الخليلان: إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: وهذا أيضًا يخيف العبد، فإذا كان الخليل إمام الحنفاء، الذي جعله الله أمة وحده، وابتلاه بكلمات فآتمهن، وقال: ﴿وَابْتَرِهيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وأمر بذبح ولده فامثل أمر ربه، وكسر الأصنام، واشتد نكيره على أهل الشرك، ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام؛ لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله، بهدايته وتوفيقه لا بحوله هو، ولا بقوته.

وما أحسن ما قال إبراهيم التيمي^(١): «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟»^(٢).

فهذا أمر لا يؤمن من الوقوع فيه، وقد وقع فيه الأذكىاء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة، فأتخذت الأوثان وعُبدت، فالذي خافه الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة، فبنيت المساجد

(١) هو إبراهيم بن يزيد التيمي، عابد مشهور، قال الذهبي: «يقال: قتله الحجاج، وقيل: بل مات في حبسه سنة اثنتين وتسعين، وقيل: سنة أربع وتسعين، لم يبلغ إبراهيم أربعين سنة» اهـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٦٠، ٦١)، والوافي بالوفيات (٦/١٠٧)، وشذرات الذهب (١/١٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/٢٢٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٢٨٧).

والمشاهد على القبور، وصُرفت لها العبادات بأنواعها، واتخذ ذلك دينًا، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح، واللات والعزى ومناة، وأصنام العرب وغيرهم.

فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم! بل وقع ما أعظم من الشرك بالإلهية في شركهم في الربوبية مما يطول عده..

فذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ السبب الذي أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبلة وبعده.

... — الشَّجْ — ...

❖ قوله: (وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾) الخليل: هو إبراهيم، سُمي بالخليل لأن الله اتخذه خليلًا؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، والخلة: هي أعلى درجات المحبة، ولم ينل هذه المرتبة من الخلق إلا إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهذه ميزة عظيمة، فإن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»^(١)، وأما بقية المؤمنين فإن الله يحب كل مؤمن وكل تقى.

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ يدعو لمكة ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: أبعدني وجنبي عبادة الأصنام، فإذا كان الخليل على منزلته العظيمة - التي لم ينلها من الخلق إلا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يخاف على نفسه، مع أنه قاوم الشرك، وكسر الأصنام، وصبر على ما ناله من الأذى حتى أُلقي في النار بسبب موقفه من الشرك والمشركين، ومع هذا لم يأمن على نفسه أن يُبتلى فيقع في الشرك؛ لأنه بشر، والبشر عرضة للابتلاء والامتحان ما داموا على قيد الحياة.

ثم لم يقتصر خوفه على نفسه، فدعا لبنيه أن يجنبهم الله عبادة الأصنام، وهذا من نصحه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بين السبب الذي حمله على هذا الخوف وعلى هذا الدعاء، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]؛ لأنه رأى أن عبادة الأصنام وقع فيها كثير من الناس، فخشى على نفسه أن يقع في الشرك، وفي هذا الاعتبار والعظة بما عليه الغير، والسعيد من وعظ بغيره، فما دام قد وقع فيها الكثير فالخطر شديد، وكثرة الشرك في الناس توجب الخوف أن يقع الإنسان فيما وقع فيه الناس، وأن يسري إليه البلاء الذي وقع فيه الناس.

ولهذا قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟»، فإذا كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد خاف على نفسه من الشرك والابتلاء، فكيف نأمن نحن على أنفسنا؟

❁ قوله: (فهذا أمر لا يأمن من الوقوع فيه الأذكىاء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة) فقد وقع فيه الأذكىاء من الناس في هذا الزمان، فتجد بعض

من عندهم خبرة ومعرفة، وعندهم علوم، يأتي إلى القبر ويبكي عنده، ويرفع يديه ويتضرع عند القبر، ويقول: يا سيدي فلان أعثني، أنا في حسبك، أنا في ضيافتك، وأشبه ذلك. وهو على درجة كبيرة من الثقافة ومن العلم والمعرفة، لكنه والعياذ بالله لم ينفعه علمه.

❁ قوله: (بعد القرون المفضلة)؛ لأن الشرك الأكبر حدث في هذه الأمة بعد القرون المفضلة، حينما استولى الفاطميون الشيعة على البلاد الإسلامية وبنوا الأضرحة على القبور، وصار ذلك سبباً في عبادة القبور من دون الله عزَّجَل، وحينما ظهرت الصوفية المستجلبة من صوفية الهند، أو من صوفية النصارى، فعبدت القبور من دون الله عزَّجَل، واعتقدوا في الأولياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون.

❁ قوله: (فبنيت المساجد والمشاهد على القبور، وصرفت لها العبادات بأنواعها، واتخذ ذلك ديناً) فالبناء على القبور سبب للشرك، فلذلك يُنهى عن البناء على القبور، ويُؤمر بهدم البناء على القبور؛ كما أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عمه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفة الراشد، فقال له: «أَنْ لَا تَدَعَ تِمْتَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»، والمشرف: هو المرتفع، «إِلَّا سَوَّيْتَهُ» يعني: أزلت ارتفاعه؛ لأن بقاءه مرتفعاً سبب للشرك به، «وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا»^(١)؛ لأن الصور إذا علقت ونصبت كان ذلك سبباً لعبادتها؛ كما حصل في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَام.

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قوله: (فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم!) وقد بلغ الشرك في آخر هذه الأمة من المنتسبين إلى الإسلام أشد مما وقع في الجاهلية؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، أما مشركو هذا الزمان فإنهم يشركون في الرخاء والشدة، بل يزيد شركهم في الشدة على شركهم في الرخاء، فإذا وقعوا في شدة ارتفعت أصواتهم بمناداة الموتى، والاستغاثة بهم لينقذوهم مما وقعوا فيه.

❁ قوله: (فذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ السبب الذي أوجب الخوف عليه وعلى ذريته بقوله: ﴿ رَبِّ إِيَّاهُنَّ أَضَلَّلَنَّا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]) وهذا فيه الخوف من الفتنة إذا انتشرت، فأهل الإيمان يخافون منها، أن تسري إليهم وإلى أولادهم، وهذا مما يوجب علينا الحذر من هذه الفتن التي انتشرت وعمت وطمت في المجتمعات، فنخاف منها على أنفسنا وعلى بيوتنا وعلى أولادنا؛ لأن الشر إذا كثر عظم خطره، بخلاف إذا قل أو خفي، فإنه لا يضر إلا أهله.

❁ قوله: (وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبلة وبعده) أول من أحدث الشرك في الأرض قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما غلوا في الصالحين ونصبوا صورههم، واستمر الشرك في الأمم إلى زمن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسيستمر إلى أن تقوم الساعة، ولا يُرفع من الأرض.



فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق، وما وقعوا فيه من الشرك العظيم، الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه، والوعيد على فعله، والثواب على تركه، وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه، نسأل الله الثبات على الإسلام، والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] رد أمرهم إلى الله كما رد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد بَيَّنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فيما أنزله على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفر لهم، فلا معارضة، وقد بين حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق، وما وقعوا فيه من الشرك العظيم) ومن العجيب أن هؤلاء الذين يدعون الأولياء والصالحين أنهم يقرؤون القرآن ويحفظونه، وربما يحفظه الواحد منهم بالقراءات السبع أو العشر، ويتلوه ويرتله، ويجوده، ومع هذا تمر عليه الآيات التي في الشرك ولا يتنبه لها، وهو يدعو غير الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، يعني: كأن القرآن ما هو إلا ألفاظ تُردد، من غير أن يتدبرها ويعمل بما فيها.

❁ قوله: (نسأل الله الثبات على الإسلام، والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) هذه دعوات مباركة ختمها بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، لأن الحول والقوة لله، والإنسان لا يعتمد على نفسه في ترك الشرك، ولزوم التوحيد، وإنما يعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (رد أمرهم إلى الله كما رد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وذلك حين يقول الله عَزَّ وَجَلَّ له يوم القيامة: ❁ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ❁ [المائدة: ١١٦-١١٨]، ففوض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من كمال التوحيد.

لكن لا يقول قائل: إن أمر المشرك مفوض لا ندرى ما جزاؤه؟ لأن جزاءه قد بينه الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن، بأنه لا طمع له في مغفرة الله، وأنه محروم من الجنة.



وَفِي الْحَدِيثِ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَضْعَرُّ». فَسُئِلَ عَنْهُ.
فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»^(١).

قوله: في الحديث لأصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى كُفْرِ الشِّرْكَ الْأَضْعَرُّ». فَسُئِلَ عَنْهُ. فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن محمود بن لبيد.

فإذا كان يخافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه، الذين وحدوا الله بالعبادة، ورغبوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته، فهاجروا وجاهدوا من كفر به، وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم، وما أنزله الله في كتابه من الإخلاص، والبراءة من الشرك، فكيف لا يخاف من لا نسبة له إليهم في علم ولا عمل، مما هو أكبر من ذلك؟ وقد أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره: «حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»^(٢).

وقد جرى ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمت به البلوى في أكثر الأقطار، حتى اتخذوه ديناً مع ظهور الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه، والتخويف منه؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٨/٥، ٤٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٣/٥) من حديث محمود ابن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٣٠١) من طريق محمود بن لبيد عن رافع بن خديج عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد في المسند (٢٧٨/٥)، وابن حبان في صحيحه (٢٢١/١٦)، والحاكم في المستدرک (٤٩٦/٤).

مِنَ الْأَوَّلِينَ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۖ ﴿[الحج: ٣٠-٣١].

وهذا هو تحقيق التوحيد؛ كما تقدم في الباب قبله، ثم قال عَزَّوَجَلَّ محذراً عباده من الشرك: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك في العبادة إذا تدبرها فلا حيلة فيه.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

❁ قوله: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ». فَسُئِلَ عَنْهُ. فَقَالَ: «الرِّيَاءُ» الخطاب هنا للصحابة -رضوان الله عليهم-، فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف الشرك على الصحابة الذين هم أفضل القرون، فكيف بمن دونهم ممن يأتي بعدهم؟

❁ وقوله: «الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ» دل على أن الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر:

الشرك الأكبر: هو صرف شيء من العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، مثل: دعاء غير الله، والذبح لغير الله.

أما الشرك الأصغر: فهو على قسمين:

شرك ظاهر: وهو يظهر على اللسان في الأقوال، مثل: الحلف بغير الله، وقول: لولا الله وأنت، أو ما شاء الله وشئت، إلى غير ذلك من الأقوال.

شرك خفي: وهذا مستتر في القلب لا يطلع عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل يسير الرياء، والرياء: أن يقوم الإنسان بالعبادة من أجل مدح الناس له، فيتصدق أو يخشع في الصلاة ليمدحه الناس، أو يطلب العلم ليُقَالَ: عالم، إلى غير ذلك مما يُقصد بعمله مدح الناس وثناؤهم.

والرياء: مأخوذ من الرؤية، فإذا أحب الإنسان أن يرى الناس عمله فهذا هو الرياء وهو شرك أصغر، سباه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شركًا أصغر لأنه ليس فيه دعاء لغير الله، ولا ذبح لغير الله، ولا استغاثة بغير الله، وإنما فيه فقط قصد لغير الله، وهو يصدر من المؤمن؛ ولذلك خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة، وهم أفضل القرون، وأفضل الخلق بعد الأنبياء، فمن يأمن الرياء بعد صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان يُخَافُ على الصحابة مع ما لهم من جلائل الأعمال؟ وكيف يأمنه من هو دونهم على نفسه؟ فعلى الإنسان أن يخلص أعماله لله عَزَّ وَجَلَّ ولا يقصد رياء ولا سمعة.

❦ قوله: (وقد أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره: «حَتَّى تُلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانُ») يعني: من علامات الساعة أن جماعات من هذه الأمة يلحقون بالمشركين، يعني: يعبدون الأصنام من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، سواء أكانت أصنامًا منحوتة، أم قبورًا وأضرحة، لا فرق في ذلك، وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالذي يقول: إن هذه الأمة لا يقع فيها شرك، ويأمن من الشرك، ويقول: إن البلاد الإسلامية مصونة ومحمية من عند الله، فأهلها كلهم أهل

توحيد، ولا يقع منهم شرك، ولو كانوا يدعون القبور، ويعظمون الموتى، ويقول: هذا ما هو بشر، أو يقول: أنا من المسلمين، وأعيش مع المسلمين، وفي بلاد المسلمين، فلا يقع مني شرك.

نقول له: كل هذه اعتبارات لا قيمة لها، والإنسان قد يقع منه الشرك في أي مكان، وقد يقع منه الشرك ولو كان ما كان من العلم والمعرفة؛ لأن الشرك لا يؤمن على أحد.

❁ قوله: «وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانِ» هذا خبر من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن عبادة الأصنام والأوثان ستعود في هذه الأمة، وربما كانت الدعوة إلى إحياء الآثار الآن مقدمة إلى عبادة الأصنام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❁ قوله: (وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٠) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) (❁) الرجس نجاسة؛ لأن الشرك نجاسة والعياذ بالله، والأوثان: جميع ما عبد من دون الله؛ من حجر، أو شجر، أو قبر، أو صنم، أو غير ذلك؛ ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»^(١)، فلو عبد قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصار وثناً، ولكن الله حماه بدعوة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٧٢/١) برقم (٤١٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٤١/٥) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٠٦/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥٠/٢)، وفيه: «وثنًا يُصلى إليه»، وليس فيه عطاء بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الحميدي في مسنده (٤٤٥/٢)، والدليمي في الفردوس (٤٩٣/١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❖ قوله: (ثم قال عَزَّجَلَّ محذراً عباده من الشرك: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. التوحيد علو وارتفاع، والشرك هبوط وسقوط والعياذ بالله، فقلوه: ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ❖ يعني: سقط من العلو، ولا يدري أين يقع، ربما يتدافعه الطير وهو في الهواء، وربما يلقيه الهواء في مكان بعيد، كذلك المشرك لا يدري أين مصيره ولا أين يقع.



وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً دَخَلَ النَّارَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١).

قوله: [وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً دَخَلَ النَّارَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ]: وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً، والتخويف منه.

والند: المثل والشبيه، فمن دعا ميتاً أو غائباً، وأقبل إليه بوجهه وقلبه، رغبة إليه ورهبة منه، سواء سأله أم لم يسأله، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله. ولهذا حرم الله عَزَّجَلَّ اتخاذ الشفعاء، وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار؛ لكونه ينافي الإخلاص، الذي هو إقبال القلب والوجه على الله في كل ما يخافه العبد، ويرجوه، ويتقرب به، ويدين به.

ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى إلى غيره، وذلك ينافي الإخلاص، ويأتي بيان ذلك في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً» الند: هو الشريك، «دَخَلَ النَّارَ» هذا فيه أن من مات على الشرك دخل النار؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالمشرك إذا مات على الشرك ليس له مأوى إلا النار،

وليس له طمع في دخول الجنة، أما لو تاب إلى الله من الشرك قبل الموت فإن الله يغفر له ويدخله الجنة، فالعبرة بما يموت عليه الإنسان، ومن يدري متى يموت؟ الموت غيب لا يعلمه إلا الله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وربما يكون الموت أقرب شيء إلى الإنسان.

ففي هذا الحديث الحذر من سوء الخاتمة، وفيه أن من مات على الشرك فلا مطمع له في الجنة ولا في رحمة الله عَزَّجَلَّ.

فهذا مما يوجب على الإنسان أن يسأل الله حسن الخاتمة، ويوجب عليه إذا كان على شيء من الشرك أن يبادر بالتوبة، ولا تأخذه المكابرة والمعادنة والتقليد الأعمى أن يبقى على شركه، ولا يغتر بالكثرة ويقول: الناس كلهم على هذا، فيهلك نفسه والعياذ بالله.

﴿قوله:﴾ (ولهذا حَرَّمَ الله عَزَّجَلَّ اتخاذ الشفعاء، وأنكر على من فعل ذلك أشد إنكار) فالذين يدعون الأولياء والصالحين ويذبحون لهم وينذرون لهم ويقولون: نحن لا نعبدهم، ولكن نريد شفاعتهم.

نقول: هذا هو فعل المشركين الأولين سواء، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ما قالوا: هذا شرك، أو نحن اتخذناهم شركاء لله، وإنما قالوا: هؤلاء شفعاء ووسائط لنا عند الله. والشفاعة تُطلب من الله عَزَّجَلَّ؛ لأنها مللك لله، فتقول: اللهم شفّع فيّ نبيك وعبادك الصالحين.



وَمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(١).

قوله: [وَمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»]، قوله: «وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» هذا هو الإخلاص كما تقدم، وقوله: «وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» هذا هو الشرك، فمن لقي الله بشرك دخل النار قل أو كثر.

أما الشرك الأكبر: فلا عمل معه، ويوجب الخلود في النار؛ كما تقدم في معنى الآيات.

وأما الأصغر - كيسير الرياء، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقوله: ما لي إلا الله وأنت، ونحو ذلك - فهذا لا يكفر إلا برجحان السيئات بالحسنات. قال بعض العلماء: اقتصر على نفي الشرك؛ لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم؛ إذ من كذب رسل الله فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، فالمراد: من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيل. انتهى^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ» يعني: مات؛ لأن الإنسان إذا مات فقد لقي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل حديث ابن مسعود: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً».

(١) أخرجه مسلم (٩٣).

(٢) انظر: فتح الباري (١/٢٢٨)، وعمدة القاري (٢/٢٠٩)، وفيض القدير (٦/٢٢٦).

❖ قوله: «من لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» أي شيء من الأشياء، بأن يدعو الملائكة، أو الرسل، أو الأولياء والصالحين، أو الأشجار، أو الأحجار، أو غير ذلك؛ لأن كلمة (شيئًا) تشمل كل ما يعبد من دون الله، من حي، أو ميت، أو جامد، أو متحرك.

فالذين يقولون: إن الشرك هو عبادة الأصنام فقط. هذا من الجهل والغرور، بل الشرك هو عبادة غير الله، سواء أكان من الأصنام أم من غيرها.

❖ قوله: «دَخَلَ النَّارَ» فمصير المشرك إلى النار.

❖ قوله: (وأما الأصغر -كيسير الرياء، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقوله: ما لي إلا الله وأنت، ونحو ذلك-: فهذا لا يكفر إلا برجحان السيئات بالحسنات) اختلف العلماء في الشرك الأصغر على أقوال، هي:

الأول: أن الله عَزَّوَجَلَّ يغفره للعبد ويدخله الجنة.

الثاني: أنه لا بد من تعذيبه، لكنه لا يخلد في النار.

الثالث: إن رجحت حسناته غفر له، وإلا لم يغفر له.

ثلاثة أقوال في هذه المسألة، والصحيح -والله أعلم- أنه لا يُغفر، أي: لا بد من تعذيبه، لكنه لا يخلد في النار، وذلك لعموم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا عام في الأكبر والأصغر، لكن المشرك شركًا أصغر لا يخلد في النار، بل يُعذب على قدر شركه، وهذا مما يدل على خطورة الشرك الأصغر.

فهذا الحديث دل على ما دل عليه الحديث الذي قبله؛ أنه لو تاب من الشرك قبل موته، ومات على التوحيد دخل الجنة، ففيه الحث على سؤال الله حسن الخاتمة، وفيه الحث على التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل الموت، وفيه أن الإنسان لا يأمن على نفسه من الشرك الذي هلك فيه خلائق كثيرة من الناس.

❁ قوله: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» من مات على التوحيد لا يشرك بالله شيئاً -يعني: على التوحيد الخالص لله عَزَّوَجَلَّ- دخل الجنة، وهذا مجمل تفصله النصوص الأخرى؛ أنه لو كان عنده كبائر إن شاء الله غفرها له وأدخله الجنة بلا عذاب، وإن شاء الله عذبه بذنوبه في النار ثم يخرج منه، وأما إن لم يكن عنده كبائر فإنه يدخل الجنة بلا عذاب. فلا بد من هذا التفصيل.

وعلى كل حال الحديث يدل على أن الاعتبار بالخواتيم، وأن من مات على الشرك فهو من أهل النار، ولو كانت سبقت له أعمال طيبة وأعمال صالحة فإنها تحبط وتبطل بالشرك، فإذا مات عليها لم تنفعه أعماله مهما كانت؛ لأن الشرك يحبط الأعمال، ولا يبقى معه عمل.

فهذا الباب بمجمله يدل على الخوف من الشرك، ففيه المطابقة من هذه الأدلة لما ترجم له الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الخوف من الشرك عظيم جداً، ولا يأمن الشرك أحد مهما بلغ.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: الخَوْفُ مِنَ الشُّرْكِ.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ الرِّيَاءَ مِنَ الشُّرْكِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ مِنَ الشُّرْكِ الْأَصْغَرِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ أَخَوْفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

الخَامِسَةُ: قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

السَّادِسَةُ: الْجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ

شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

الثَّامِنَةُ: الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ: سُؤَالُ الْخَلِيلِ لَهُ وَلَبْنِيهِ وَقَايَةَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

التَّاسِعَةُ: إِعْتِبَارُهُ بِحَالِ الْأَكْثَرِ لِقَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلَن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

فَمَنْ يَتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

الْعَاشِرَةُ: فِيهِ تَفْسِيرُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّرْكِ.



٤- بَابُ

الدُّعَاءُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قوله: [بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال أبو جعفر بن جرير: يقول عَزَّجَلَّ ذكره لنبیه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا محمد هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها؛ من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاز إلى طاعته، وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقتي ودعوتي، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ بذلك، ويقين علم مني به، ﴿أَنَا﴾ يدعو إليه على بصيرة أيضًا ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وصدقني وآمن بي، ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ﴾ يقول عَزَّجَلَّ ذكره: وقل تنزيهاً لله وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم مني. انتهى^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/٧٩، ٨٠).

وهذه الآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى، قاله العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ^(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٣٦]، وما زال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يدعون إلى ما أمر الله به؛ من الدعوة إلى توحيده في العبادة،

والنهي عن الشرك به، ويجاهدون على ذلك، والآيات في الأمر بذلك كثيرة جداً؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

✽ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هذا الباب مناسبتة لما قبله ظاهرة جداً، فالأبواب التي قبله في معرفة التوحيد، وبيان فضل من حقق التوحيد، ومعرفة الشرك والخوف منه، فلما عرف المسلم هذه الأبواب حينئذ صار عنده علم في عقيدته يؤهله لأن يدعو إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يُحذِّرَ الناس من الشرك، ولا يسعه أن يقتصر بعلمه على نفسه ويترك الناس على ما هم عليه، فإنه يجب على من علم علماً أن يبلغه للناس وأن يدعو إليه، ولا سيما علم التوحيد وما يضاده من الشرك والبدع والخرافات، فإن

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٨٢).

هذا العلم أنزله الله للجميع، وأمر بتبليغه ونشره للناس، ونهى عن كتمانها؛ لما في ذلك من الأضرار العظيمة، قال الله عزَّجَل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال عزَّجَل: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالواجب على المسلم أن يمتد خيره إلى غيره، وأن ينفع الناس، ويعلمهم بما علمه الله، ويخرجهم من الضلال الهدى، فإنه مسؤول عن ذلك أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن علم هذه الأبواب -عرف التوحيد وفضله، وعرف تحقيقه، وعرف الشرك وتجنبه- فإنه يجب عليه أن يدعو إلى ذلك، ولا يسكت على الشرك؛ كما هو واقع كثير من طلبة العلم والعلماء، الذين يرون الناس على العقائد الفاسدة، والعقائد الباطلة، وعبادة الأضرحة، ويسكتون على ذلك، ويقولون: نحن لا نهتم إلا بأنفسنا. وهم بهذا قد ضيَّعوا واجباً عظيماً، ولو أن العلماء وطلبة العلم قاموا بما أوجب الله عليهم من هذا الأمر في جميع الأمصار لرأيت للمسلمين حالة غير هذه الحالة، فالآن بلاد الإسلام تعج بالشرك الأكبر، تُبنى فيها المشاهد، والمزارات الشركية، ويُنفق عليها الأموال، ودول الكفر تساعد على ذلك، والمسلمون ساكتون على هذا الوضع، وهذا خطر عظيم أصاب الأمة، وما أصيبت به من حروب ومجاعات وأمور تعرفونها إنما هو نتيجة لهذا الإهمال -والعياذ بالله- فهذا واجب عظيم.

❁ ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ الدُّعَاءِ) أي: الدعوة إلى التوحيد (إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) أي: تعليم الناس هذا الأمر العظيم.

وقول الله عَزَّجَلْ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أمره سبحانه أن يقول للناس: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: طريقي ومنهج الذي أسير عليه، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أَدْعُو الناس إلى توحيد الله، وعبادته، وامتنال أمره، واجتناب نهيه، وكذلك الدعوة إلى بقية شرائع الدين، فتكون الدعوة للكفار للدخول في الإسلام، وتكون الدعوة للعصاة من المسلمين للتوبة إلى الله عَزَّجَلْ، وأداء الواجبات، والتحذير من الوقوع في الشرك، واجتناب المحرمات، فالدعوة ليست مقصورة على دعوة الكفار، بل حتى المسلمون الذين هم بحاجة إلى الدعوة لوقوعهم في المعاصي والمخالفات يحتاجون إلى دعوة، دعوة إلى التوبة، وأداء الواجبات، وترك المحرمات، والمخافة من الله عَزَّجَلْ، فالدعوة عامة، والدعوة إلى معرفة التوحيد ومعرفة ضده.

فقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ فيه دليل على وجوب الإخلاص في الدعوة، وأن يكون قصد الإنسان في الدعوة وجه الله عَزَّجَلْ، لا يقصد بها طمعاً دنيوياً، أو مدحاً وثناءً من الناس، أو أن يكون له مكانة في المجتمع، وبروز بين الناس، فإن كان هذا قصده فهو خاسر، وهذا لا يدعو إلى الله وإنما يدعو إلى نفسه؛ كما ذكر ذلك الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مسائل هذا الباب.

فقد يدعو الإنسان، ويحاضر، ويخطب، لكن قصده من ذلك أن يتبين شأنه عند الناس، ويصير له مكانة بينهم، فيمدحونه، ويتجمعهرون عليه، ويكثرهون حوله، فإذا كان هذا قصده، فهو لم يدع إلى الله، وإنما يدعو إلى

نفسه والإنسان الذي يترك الدعوة فإنه ترك واجباً عظيماً، والإنسان الذي لم يُخلص في الدعوة يقع في محذور عظيم، بل لابد من الدعوة وأن تكون خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون القصد منها إقامة شرع الله، والقصد منها هداية الناس ونفع الناس، سواء مدحوك أو ذمُّوك، فبعض الناس، إذا لم يُمدح ويُشجَّع تَرَكَ الدعوة، وهذا دليل على أنه لا يدعو إلى الله، وإنما يدعو إلى نفسه، فليتنبه المسلم ويكون رائده وقصده من دعوته هو الإخلاص لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، ونفع الناس، وتخليصهم من الشرك، ومن البدع، ومن المخالفات، وأن يؤدي الواجب الذي عليه، والكثرة حول الشخص لا تدل على فضله، بعض الأنبياء لم يتبعه إلا القليل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُرِضْتُ عَلَى الْأُمَمِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١)، هل هذا يدل على عدم فضل هذا النبي؟ الجواب: حاشا وكلاً، فالإنسان لا ينظر إلى كثرة الحاضرين، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(٢).

وقد اجتمع الناس على باب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يريد الخروج إلى الصلاة، فلما خرج ومشوا خلفه، التفت إليهم وقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، قال: «ارجعوا فإنها ذلة للتابع فتنه للمتبوع»^(٣).

(١) سبق تخريجه (ص ٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٢، ٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٢ / ٥).

وفي قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ دليل على أنه يُشترط في الذي يدعو إلى الله أن يكون عالمًا بما يدعو إليه، وعالمًا بما ينهى عنه، فمن لم يكن عالمًا بما يدعو إليه فإنه لا يجوز له أن يدعو إلى الله؛ لأنه جاهل، والجاهل لا يصلح للدعوة إلى الله؛ لأنه قد يُحلل حرامًا، أو يُحرم حلالًا، أو يقول على الله بلا علم، فيضلل الناس، وقوله: ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ فيه أن اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتضي الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا كان الرسول يدعو إلى الله على بصيرة، فإن أتباعه يقتدون به ويدعون إلى الله على بصيرة.

فدلت هذه الآية على بيان منهج الدعوة ومقوماتها، وأنها طريقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطريقة أتباعه؛ لقوله: ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ فكل من اتبعه إلى يوم القيامة يجب عليه أن يدعو إلى الله على علم ومعرفة لا عن جهل وتخرص، أما الذين يدعون أنهم أتباعه، ولكنهم يخالفونه في كثير من الأمور، فهؤلاء وإن انتسبوا إليه فليسوا أتباعًا له على الحقيقة.

❁ وقوله: ﴿وَسُبَّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه أن الذي يدعو إلى الله يجب عليه أن ينزه الله عما لا يليق به؛ من الشرك، والنقائص، والعيوب، بأن يثبت لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، وأن يحذر من الشرك والرياء والسمعة، وأن تكون عقيدته صالحة مستقيمة، فالذي عنده ابتداء أو عنده شرك لا يصلح أن يكون داعية؛ لأنه لم ينزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه أن الداعية يجب عليه البراءة من أهل الشرك، وعدم موالاتهم ومحبتهم، بل يقاطعهم، ويعاديهم في الله

عَزَّجَلَّ، أما الذي يزعم أنه يدعو إلى الله لكنه لا يتبرأ من المشركين، بل ربما يدعو إلى الحوار والتقارب بين الأديان، كما يقولون الآن، أو كما يقول بعضهم: إن اليهود والنصارى إخواننا!! وقد قالها بعض الجهال من الذين يزعمون أنهم من رؤساء الدعاة إلى الله، أو يقول: إن اليهود والنصارى ليسوا كفاراً، أو غير ذلك من المقالات الباطلة، فهذا لم يتبرأ من المشركين، ويجب عليه أن يتعلم أولاً، ويدعو نفسه أولاً، ثم بعد ذلك يدعو الناس على علم وبصيرة. فهذه الآية فيها عبر عظيمة، وفيها أسس الدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ.

ففي هذه الآية الكريمة مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: أن طريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطريقة أتباعه: الدَّعوة إلى الله.

المسألة الثانية: أن من لم يدع إلى الله وهو يستطيع الدعوة إلى الله، فإنه لم يحقق اتباعه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل اتباعه فيه نقص عظيم.

المسألة الثالثة: التنبيه على الإخلاص في الدعوة لقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، فإن بعض الناس إنما يدعو إلى نفسه، فالذي يقصد المدح، والثناء، وكثرة الأتباع، وكثرة الجماعة، هذا لا يدعو إلى الله.

المسألة الرابعة - وهي مسألة عظيمة - : أن الداعية إلى الله لا بد أن يكون على بصيرة، مؤهلاً بالعلم النافع الذي يستطيع به أن يدعو إلى الله، وأن يجادل المغرضين والمعارضين، ويُدْحِضُ حججهم بلسانه وبقلمه، فالدعوة إلى الله تكون باللسان، وتكون بالقلم أيضاً، وتكون بالسيف والجهاد، فيُشترط في

الداعية شرط أساسي، بل أصلي، بأن يكون على علم، وأما الجاهل فلا يصلح للدعوة، وإن كان عنده عبادة، وعنده ورع، وعنده ثقى، وعنده غيره على الدين، وعنده محبة للدين، هذا شيء طيب، وصفات طيبة، لكن نقول له: الدعوة لا يدخل فيها إلا من كان على علم، أما مجرد الخوف والخشية والعبادة والورع والغيرة والصلاح، فهذا شيء طيب، لكن أنت لا تصلح للدعوة لأنك لست على علم، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، ويقول: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ والحكمة هي العلم، فأنت لا تصلح للدعوة، تعلم أولاً، فإذا تعلمت تعال للدعوة.

فالدعوة ليست بالمسألة الهيئية، ولذلك عندما حصل هذا الإهمال في الدعوة حصل ما حصل الآن من التفكك والتخاذل؛ لأن الدعوة دخل فيها ما هب ودب، من الجهال والمغرضين وأصحاب المطامع، ولا تنجح دعوة لم يتوفر فيها الشروط الإلهية التي اشترطها الله عَزَّجَلَّ، ولا يبقى إلا الأصلح دائماً وأبداً، ولو كثرت الجماعات الدعوية، ما دامت أنها ليست على الشروط التي اشترطها الله، والمنهج الذي رسمه الله ورسوله، فإنها لا تنجح مهما بلغت من الكثرة والقوة، وستتلاشى وتصاب بالنكسة والفشل، أما إذا كانت مؤسسة على العلم وعلى الإخلاص والنصيحة، فهذه تنجح بإذن الله، ولو كانت من فرد واحد.

المسألة الخامسة: أن الشرك نقص عظيم يجب تنزيه الله عنه؛ لأن الله عَزَّجَلَّ كامل، له الكمال المطلق، فمن أشرك به فقد تنقصه، ومن نفى صفات

الله عَرْجَلٌ، أو أوّلها، فقد تنقص الله عَرْجَلٌ، فالمؤولة والمشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، أو يؤوّلون صفات الله، أو يلحدون في أسمائه، هؤلاء تنقصوا الله عَرْجَلٌ، وهذا نقص ينزه الله عَرْجَلٌ عنه، ومن وصفه بما لا يليق به، أو سماه بغير ما سمي به نفسه، فقد تنقصه، ومن حكم بغير ما أنزل فقد تنقصه، ومن عصى أمره أو ارتكب نهيه فقد تنقصه سبحانه.

المسألة السادسة - وهي مهمة جداً: البراءة من المشركين، فالذي يدعو إلى الله - بل وكل مسلم، لكن الذي يدعو إلى الله من باب أولى لأنه قدوة - يجب عليه أن يتبرأ من المشركين؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء المؤمنين، قال عَرْجَلٌ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فمن لم يتبرأ من المشركين فإنه لم يحقق الدعوة إلى الله عَرْجَلٌ، حتى وإن انتسب إليها، وهذه مسألة عظيمة.



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وفي رواية: «إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى» - فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ». أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: [عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أي: عبد الله بن عباس - «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...»] الحديث، وأهل الكتاب المذكورون في هذا الحديث: من كان في اليمن من اليهود والنصارى إذ ذاك.

قوله: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وكانوا يقولونها، لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه؛ من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

فكان قولهم: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لا ينفعهم؛ لجهلهم بمعنى هذه الكلمة، كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة؛ فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات، والغائبين، والطواغيت، والمشاهد، فيأتون بها ينافيه، فيثبتون ما نفتته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧١، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

أثبتته من الإخلاص كذلك، وظنوا أن معناها: القدرة على الاختراع! تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم.

وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، فلم يدخلهم في الإسلام؛ كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْتُمْ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم، وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يدخلهم في الإسلام؛ لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية، وهو إخلاص العبادة، ونفي الشرك، والبراءة منه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فهذا التوحيد هو أصل الإسلام.

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَسِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال: ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ

أَلْعَلِّيَ الْكَبِيرِ ﴿ [غافر: ١٢]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ 》
 أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿ [الزمر: ٢-٣]، وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي
 دعت إليه الرسل، وأنزلت به الكتب في القرآن كثير، وسنذكر بعض ذلك إن
 شاء الله عَزَّجَلَّ في هذا التعليق.

قوله: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ» منصوب على أنه خبر «يكن» مقدم، و«شهادة»
 اسمها مؤخر، ويجوز العكس.

وفيه دليل على أن توحيد العبادة هو أول واجب؛ لأنه أساس الملة،
 وأصل دين الإسلام. وأما قول المتكلمين ومن تبعهم: إن أول واجب معرفة
 الله بالنظر والاستدلال!، فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، ولهذا كان
 مفتتح دعوة الرسل أُمَمَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ: ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
 غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [هود: ٢٦]، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ وَمَا
 أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾
 [الأنبياء: ٢٥]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا يحتمل شيئين:

أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على
 الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة.

والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق
 لجميع الموجودات، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب

الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تنفعهم، أو تقربهم من الله زلفى. انتهى.

قلت: وهذا الاحتمال الثاني يتضمن الأول.

وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عكرمة، ومجاهد، وعامر أنهم قالوا: ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلق السماوات والأرض فهذا إيمانهم^(١).

وعن عكرمة أيضًا: تسألهم من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره^(٢).

وتقدم أن «لا إله إلا الله» قد قيدت في الكتاب والسنة بقيود ثقال، منها: العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والقبول، والانقياد، والكفر بما يُعبد من دون الله.

فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة، وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه، والناس متفاوتون في العلم بها والعمل، فمنهم من ينفعه قولها، ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: «لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ» أي: معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والبعث هو الإرسال، أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن، وهو القطر المعروف جنوب

(١) انظر: تفسير الطبري (٧٨/١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧٧/١٣).

جزيرة العرب، سُمي باليمن لأنه يقع أيمن الكعبة، والشام سُمي بالشام لأنه يقع شامي الكعبة.

أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاضياً ومعلماً وداعياً إلى الله عَزَّجَلَّ، ينوب عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المهمات، ففي هذا فوائد منها:

أولاً: فيه مشروعية إرسال الدعاة إلى الله عَزَّجَلَّ، وأنه سنة نبوية.

ثانياً: فيه فضيلة لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث اختاره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه المهمة العظيمة، مما يدل على فضله وعلمه؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يرسل إلا من توفرت فيه الشروط المطلوبة، وقد توفرت في معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أعلم الناس بالحلal والحرام.

ثالثاً: فيه العمل بخبر الواحد؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل معاذاً وَحْدَهُ، وهذا يدل على أنه يعتمد خبر الواحد ولا يشترط التواتر - كما يقوله بعض الضَّالَّال - يقولون: أمور العقائد لا يُقبل فيها خبر الواحد. والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتفى بخبر الواحد، فأرسل معاذاً إلى اليمن يدعو إلى الله ويعلم التوحيد، وهكذا، لم يكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرسل رسلاً جماعات، وإنما كان يرسلهم أفراداً، كما بعث عليّاً، وبعث معاذاً، وبعث أبا عبيدة بن الجراح، وهذا يدل على قبول خبر الواحد في أصول الدين وفروعه، وأما ما قاله بعض علماء الكلام فهو باطل.

وكان في اليمن يهود ونصارى، فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» هذا فيه وصية الإمام لمدوبه حينما يرسله، فيخط له المنهج،

ويرسم له الطريق الذي يسير عليه، وهذه سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعوثه، أنه إذا أرسل جيشاً أو سرية يوصيهم.

❦ وقوله: «أهل الكتاب» المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، سُمُّوا أهل الكتاب لأن الله أنزل عليهم التوراة والإنجيل؛ التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما الصلاة والسلام، فسُمِّيَ أتباع الرسولين بأهل الكتاب، فرقاً بينهم وبين الوثنيين، الذين ليس لهم كتاب، ولا يؤمنون بالرسل.

وقصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا أن يتأهب معاذ لمن سيقدم عليهم، وأنهم أهل كتاب يحتاجون إلى استعداد علمي للمجادلة والمناظرة.

فدل ذلك على أن الداعية يجب عليه معرفة حالة المدعوين، وهذا من منهج الدعوة: أن الداعية ينظر في حالة المدعوين، ويخاطب كلًّا منهم بحسب ما يليق به، فإن كان يخاطب علماء فإنه يخاطبهم بما يليق بهم، وإن كان يخاطب عواماً يخاطبهم بما يليق بهم؛ لأن الناس ليسوا على حد سواء، فلا يليق بالداعية أن يخاطب العلماء بخطاب الجاهل، ولا يليق به أن يخاطب الجاهل بخطاب العلماء، ولا يليق بالداعية أن يخاطب السلاطين بخطاب عامة الناس، أو يخاطب عامة الناس بخطاب السلاطين، كلٌّ يخاطبه بما يرى أنه أقرب إلى قبوله للحق، قال الله عَزَّجَلَّ لرسوله موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

✽ قوله: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يجوز في الإعراب نصب «أَوَّلَ» على أنها خبر مقدم لـ «يكن»، ورفع «شهادة» على أنها اسم «يَكُنْ» مؤخر، ويجوز العكس: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، والأصل تقديم اسم كان وتأخير خبرها.

✽ (وفي رواية: «إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى») دليل على مسائل:

المسألة الأولى: أنه يُبدأ بالدعوة إلى التوحيد قبل كل شيء؛ لأن التوحيد هو أساس العقيدة، فإذا صلح التوحيد فحينئذ تبني عليه الأعمال، وإذا لم تصلح العقيدة فلا فائدة من الأعمال، فيجب على الداعية أول ما ينظر في أمر الناس ينظر في عقيدتهم، فإن كان فيها خلل أو فساد فإنه يدعو إلى إصلاحه، حتى تكون الأعمال صحيحة ونافعة عند الله، أما إن كانت العقيدة فاسدة فإن الأعمال لا تنفع، وجهد الداعية لا يفيد.

وقد كانت الرسل أول ما تبدأ أقوامها بالدعوة إلى التوحيد، فيقولون: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، لم يبدؤوهم بالنهي عن الزنا، أو الربا، وإن كانت هذه محرمات وكبائر، لكن بدؤوهم بما هو أهم وهو: الدعوة إلى عبادة الله وحده، فعلى هذا المنهج أوصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامله أن يسير على منهج الأنبياء.

أما الذي لا يدعو إلى التوحيد ولا يهتم به، وإنما يدعو إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويدعو إلى الفضائل والزهد، ويترك الدعوة

إلى التوحيد، فهذا مخالف لدعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ودعوته لا تثمر ولا تفيد شيئاً.

المسألة الثانية: أن العلماء يحتاجون إلى من يدعوهم إذا كان عندهم انحراف، ولا يُقال حينئذٍ: إنهم علماء لا يحتاجون للدعوة، فهؤلاء أهل كتاب ومع هذا صاروا بحاجة إلى أن من يدعوهم إلى أهم شيء، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله، فاليهود والنصارى يقولون: لا إله إلا الله بألسنتهم، ولكنهم لا يحققونها بأعمالهم، فمنهم من يقول: المسيح ابن الله، ومنهم من يقول: عزيز ابن الله، فليس المراد مجرد اللفظ والنطق بلا إله إلا الله، بل لابد من تحقيقها بالاعتقاد والعمل.

ومثلهم عباد القبور اليوم، الذين يقولون: لا إله إلا الله، بكثرة، لكنهم يدعون غير الله، ويعبدون غير الله، فلا تفيدهم لا إله إلا الله، فهم في حاجة إلى أن من يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإن كانوا يصلون، ويصومون، ويحجون، ويبكون، ويقرؤون القرآن، فما دام عندهم شرك فإن هذه الأعمال لا تنفعهم، وهم بحاجة إلى الدخول في الإسلام من جديد.

المسألة الثالثة: التدرج في الدعوة، وأن الداعية إلى الله يتدرج ويبدأ بالأهم فالمهم، يبدأ بالتوحيد أولاً، ثم ينتقل إلى الصلاة لأنها أهم شيء بعد التوحيد، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الزكاة لأنها قرينة الصلاة في كتاب الله عَزَّجَلَّ، فيدعو بالتدرج شيئاً فشيئاً.

هذا منهج الدعوة الصحيح الذي جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنحن نأخذ منهج الدعوة من سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نأخذه من منهج الطائفة الفلانية، أو الفرقة الفلانية، أو الجماعة الفلانية التي تضع لنفسها منهجاً تسير عليه، بل نحن نسير على منهج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونترك الاصطلاحات، والمناهج المحدثات، والمخططات التي يضعها البشر، فالذي يريد الدعوة إلى الله على الوجه الصحيح يمشي على سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❦ قوله: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وفي رواية: «إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى» - جاء المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الرواية ليفسر بها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن معنى شهادة أن لا إله إلا الله توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وإفراده بالعبادة، هذا هو المقصود من شهادة أن لا إله إلا الله، أما الذي يشهد أن لا إله إلا الله ولا يفرد الله بالعبادة، بل يدعو غيره، فهذا وإن كان يشهد بها نطقاً، لكنه لا يشهد بها حقيقة، ولا يعمل بمقتضاها.

❦ قوله: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ» أي: أوجب عليهم «خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَبَيْلَةٍ» وهذا هو الركن الثاني من أركان الإسلام، فإذا تحقق الركن الأول انتقل إلى الركن الثاني، وإلا ليس هناك فائدة أن يؤمروا بالصلاة وهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله حقيقة، وإن كانوا يتلفظون بها؟ لا فائدة في هذا حتى يحققوا التوحيد، حينئذ تدعوهم إلى الصلاة وإلى ما بعدها.

❁ قوله: «خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»، وهي: صلاة الفجر، وصلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء، هذه خمس صلوات في كل يوم وليلة تجب المحافظة عليها، أما الذي لا يصلي، أو يصلي وقتًا دون وقت، فهذا ليس بمسلم، وإن شهد أن لا إله إلا الله فإنه ليس بمسلم؛ لأنه لم يُقم الركن الثاني، وهو إقامة الصلوات الخمس، وفي هذا دليل على أهمية الصلاة، وأنها يُدعى إليها بعد الدعوة إلى التوحيد؛ لأنها عمود الإسلام.

ولا يكفي أن يصلي الإنسان فرضًا ويترك فرضًا، أو يصلي غالب الفروض ويترك بعضها، بل لابد أن يحافظ عليها جميعًا، خمس صلوات تتكرر في كل يوم وليلة، يحافظ عليها مدى الحياة من حين يبلغ سن التكليف إلى أن يتوفاه الله وهو يحافظ على هذه الصلوات الخمس في كل يوم وليلة.

❁ قوله: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ» أي: قبلوا منك الصلاة وأقاموها، «فَاعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ» انتقل إلى الركن الثالث وهو الزكاة، والزكاة حق في أموال الأغنياء للفقراء، قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، والزكاة قرينة الصلاة في اثنين وثمانين موضعًا من كتاب الله عز وجل مما يدل على أهميتها، والزكاة تسمى أيضًا: صدقة واجبة؛ لأن الصدقة على قسمين: صدقة واجبة، وصدقة تطوع، فالزكاة صدقة واجبة؛ لأنها فرض وركن من أركان الإسلام.

❦ قوله: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ» والغني: هو الذي يملك النصاب الفاضل عن كفايته وكفاية من يعول، ونصاب كل شيء بحسبه كما بينته السنة، «فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ» هذا فيه بيان مصرف من مصارف الزكاة، والفقراء هم أهم أصناف أهل الزكاة؛ لأن أهل الزكاة ثمانية أصناف، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

أول هذه المصارف: الفقراء، والفقير: هو من لا يجد شيئاً أصلاً، أو يجد شيئاً لا يكفيهِ لستته، أما الذي يجد ما يكفيهِ لستته فهذا غني لا تحل له الزكاة. وفي هذا الحديث دليل على أنه يجوز الاقتصار في صرف الزكاة على صنف واحد من الأصناف الثمانية، ولا يلزم أنه يعمم الأصناف الثمانية بها، وفيه دليل على أن الزكاة تصرف في فقراء البلد، فما دام البلد فيه فقراء فهي حق لهم، ولا يجوز نقلها عنهم إلى بلد آخر وهم محتاجون إليها، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ»، وهذا أمر يغفل عنه كثير من الناس.

في هذا الحديث ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أركان من أركان الإسلام:

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وفي ضمنه شهادة أن محمداً رسول الله؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله لا تصح إلا مع شهادة أن محمداً رسول الله، لكنه اقتصر عليها لأن شهادة أن محمداً رسول الله داخلة في ضمنها.

الركن الثاني: الصلاة.

الركن الثالث: الزكاة.

ونحن نعلم أن أركان الإسلام خمسة:

الركن الرابع: الصيام.

والركن الخامس: حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

فلماذا اقتصر النبي ﷺ على هذه الثلاثة؟ أجيب عن هذا بأجوبة:

الجواب الأول: أن هذا الحديث مختصر، فالرسول ﷺ ذكر أركان الإسلام الخمسة، لكن الرواة أو بعض الرواة اختصر وذكر هذه الأصناف الثلاثة فقط.

الجواب الثاني: أن النبي ﷺ ذكر الأركان التي يُقاتل من امتنع منها، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، هذه من امتنع منها فإنه يُقاتل.

الجواب الثالث: من العلماء من يقول: إن الرسول ﷺ اقتصر على هذه الأركان الثلاثة لأنها تجمع بقية أمور الدين، فشهادة أن لا إله إلا الله عنوان العقيدة، فهي تجمع أمور العقيدة الصحيحة، وإقام الصلاة هي أعظم العبادات، فإذا حافظ العبد على الصلاة صار محافظاً على ما سواها؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فالمحافظة على الصلوات الخمس يدعو إلى المحافظة على بقية

أمر الدين، أما الذي لا يصلي فإنه لا يبالي ببقية أمور الدين، وأيضًا إذا أدى الإنسان الزكاة طيبة بها نفسه، وآثار حب الله على حب المال، سهل عليه التصديق والإنفاق في سبيل الله وفي وجوه البر. فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أمهات العبادات التي يدخل غيرها في ضمنها وتحتها، فذكر العبادة القولية وهي الشهادة، والعبادة البدنية وهي الصلاة، والعبادة المالية وهي الزكاة، ويدخل تحت هذه العبادات العظام غيرها من الأعمال.

والشاهد للباب من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» فهذا فيه الدعوة إلى الله وفيه بيان منهج الدعوة، وهو أنه يبدأ بالأهم فالهم، ويتدرج بالدعوة شيئًا فشيئًا، وأنه يعرف أحوال المدعوين من أجل أن يتعامل معهم بما يليق بهم، وأن خطاب العلماء غير خطاب العوام؛ العلماء يحتاجون إلى مناظرة وإلى مجادلة - كحال اليهود والنصارى - أما العوام فلا يحتاجون أكثر من الأمر والنهي، فيجب على الداعية أن يكون مؤهلًا لذلك.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا حال المتأخرين في عصره في فهمهم لمعنى لا إله إلا الله: «فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات، والغائبين، والطواغيت، والمشاهد، فيأتون بما ينافيها، فيشتبون ما نفتته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك، وظنوا أن معناها: القدرة على الاختراع! تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم»، المتكلمون - وهم علماء الكلام والنظار - يفسرون (لا إله إلا الله) بتوحيد الربوبية، فيقولون: (لا إله) أي: لا قادر على الخلق والاختراع

والإيجاد (إلا الله)، وهذا تفسير باطل، لأن هذا كان يقر به المشركون من قبل، ولم يدخلهم في الإسلام بل قاتلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، واستحل دماءهم وأموالهم، فليس المقصود بالتوحيد هو الإقرار بتوحيد الربوبية فقط، بل المراد الإقرار بتوحيد الإلهية وهو أفراد الله عَزَّجَلَّ بالعبادة.

والمتكلمون بنوا عقيدتهم على علم الجدل والبراهين التي يسمونها العقلية، ولم يبنوها على الكتاب والسنة.

❦ قوله: (وأما قول المتكلمين ومن تبعهم: إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال! فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده) النظر مركوز في الفطر، لا يُحتاج إليه، وأول ما يؤمر به الإنسان: أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولا يُقال له: انظر أولاً واستدل على وجود الخالق، ثم بعد ذلك إذا عرفت أنه ما من إله إلا الله فاعبده!! هذا لم تأت به الرسل، ولا نزلت به الكتب.

❦ قال: (فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أُمَمَهُمْ إلى توحيد العبادة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢])، كل الرسل أول ما يأمرهم يقولون لأُمَمَهُمْ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ولم يقولوا: انظروا أولاً ثم بعد ذلك اعبدوا الله.

❦ قال: (قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]) كل جاؤوا بالأمر بعبادة الله وإفراده

بالإلهية، وما جاؤوا يطالبون الناس بالنظر والاستدلال أولاً؛ لأنهم مقرون ومعترفون به، وما أنكروا حتى تقول لهم انظروا.

❁ قال: (وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠])، قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا يحتمل شيئين:

أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة.

والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات).

التفسيران متقاربان ليس بينهما اختلاف، سواء فسرنا ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: في وجوده، أو في عبادته واستحقاقه للعبادة.

❁ قال: (وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا: ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السماوات والأرض فهذا إيمانهم) ما من أحد يدعي أن السماوات والأرض مخلوقة لغير الله، ولا أحد يدعي أن شجرة أو حيواناً أو صخرة خلقها غير الله، حتى الملاحظة لا يدعون أن هذا الكون خلقه الرئيس الفلاني، أو المهندس الفلاني، أو الدولة الفلانية، كلهم يعترفون بفطرهم وبألستهم أنه لا خالق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قال: (وعن عكرمة أيضاً: تسألهم من خلق السماوات والأرض؟

فيقولون: الله، فذلك إيمانهم، وهم يعبدون غيره)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ

أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿[يوسف: ١٠٦] هذا معناها، معناها أنهم يقرون بربوبيته ويحدون إلهيته، يقرون بأنه هو الرب ومع هذا يعبدون غيره.

❁ قال: (وتقدم أن «لا إله إلا الله» قد قُيدت في الكتاب والسنة بقيود ثقال، منها: العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والقبول، والانقياد، والكفر بما يُعبد من دون الله) تقدم أنه لا يكفي التلفظ بـ «لا إله إلا الله»، بل لابد من معرفة معناها، والعمل بمقتضاها.

❁ قال: (فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة) من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه نفعته، ومن قالها وكفر بما يُعبد من دون الله قد حرمه الله على النار، لابد من هذه القيود، ولا يكفي التلفظ بها فقط.



قوله: «إِن هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَتَبَيَّنَ» فيه دليل على أن المشرِك لا يُطالب بفعل الصلاة إلا إذا أسلم بتركه الشرك باطنًا وظاهرًا؛ لأن الإسلام شرط لصحة العبادة، كما قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ ما معناه: إنه يدل على أن المطالبة في الفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم في الآخرة، والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه، وهذا قول الأكثرين. انتهى^(١).

قوله: «إِن هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فِتْرَةً فِي فُقَرَائِهِمْ» فيه أن الزكاة لا تنفع إلا مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ، وصلى الصلوات الخمس بشروطها وأركانها وواجباتها. والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ويدل على هذه الجملة قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان، لقوة الداعي إلى ذلك؛ لأن ذلك يقتضي الإتيان بها لزومًا.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. قال أنس في الآية: «توبتهم خلع الأوثان، وعبادتهم ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة»^(٢).

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٩٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٠)، والطبري في تفسيره (٧٨/ ١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩٢٧٢)، والحاكم في المستدرک (٣٦٢/ ٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٤٢).

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «أمرتم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له»^(١).

وقال ابن زيد: «أبى الله أن تقبل الصلاة إلا بالزكاة»^(٢).
وفيه بيان مصرف الزكاة.

... — الشَّيْخُ — ...

قضية: أن المشركين مخاطبون بفروع الشرائع أو غير مخاطبين، هذه قضية خلافية، الظاهر فيها أنها ليس تحتها طائل، المهم أن الأعمال لا تصح إلا بعد التوحيد هذا هو المقصود.

وقول النووي رَحِمَهُ اللهُ: (ويزاد في عذابهم في الآخرة) يعني: يعذبون على ترك الصلاة، وعلى ترك الزكاة، وعلى ترك العبادات، زيادة على تعذيب الكفر والشرك. فمن أدى الزكاة وهو مشرك لم يشهد أن لا إله إلا الله لم تنفعه، أو يشهد أن لا إله إلا الله لكنه لا يصلي، لا تنفعه الزكاة؛ لأن أول شيء التوحيد ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصيام، ثم الحج، ثم بقية الأعمال.

﴿قوله:﴾ (ويدل على هذه الجملة قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾) الآية تدل على ما دل عليه الحديث، فيها ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا معنى: «لا إله إلا الله».

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨٧/١٠)، والطبراني في الكبير (١٠٠٩٥)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨٤٤/٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨٧/١٠).

الثاني: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ هذا معنى: «افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة».

الثالث: ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ هذا معنى: «افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم».

فجاء الحديث موافقاً لكتاب الله عزَّ وجلَّ.

❖ قوله: (فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان لقوة الداعي إلى ذلك؛ لأن ذلك يقتضي الإتيان بها لزوماً) هذا هو الحكمة في الاختصار على هذه الثلاثة، أن من أتى بهذه الثلاثة أتى ببقية شرائع الإسلام من باب أولى.

❖ قوله: (قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾) كذلك هذه الآية مثل الحديث الذي معنا، ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي: تابوا من الشرك، وهذا معنى: «لا إله إلا الله»، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ هذا معنى: «افترض عليهم خمس صلوات»، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ هذا معنى: «افترض عليهم صدقة...»، فوافق الحديث كتاب الله عزَّ وجلَّ في الإتيان بهذه الثلاثة؛ لأنها أمهات العبادات، ولأن من حافظ على هذه الثلاث حافظ على غيرها من باب أولى.



قوله: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَيْكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»: تحذيراً له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله في الزكاة، وهو أخذها من أوساط المال؛ لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة، وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه، وهذا أصل ينبغي التفطن له.

قوله: «وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ» يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالماً لمن أخذ ذلك منه، ودعوة المظلوم مقبولة، ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَيْكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» هذا فيه أن الزكاة لا تؤخذ من الجيد، ولا تؤخذ من الرديء، وإنما تؤخذ من المتوسط؛ لأنها عدل، فإن أخذت من الجيد فهذا جور وظلم، وإن أخذت من الرديء فهذا ظلم للفقراء ونقص في حقهم، وإذا أخذت من الوسط فهذا هو العدل. ❁ قوله: (وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه) لا يجوز الغلو في العبادات والزيادة في العبادات.

❁ قوله: «وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ»؛ لأن هذا نوع من أنواع الظلم، وإلا فإن الظلم أنواع كثيرة - والعياذ بالله - أعظمه الشرك، والمظلوم إذا دعا استجيبت دعوته ولو كان كافراً، وقوله: «وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ» يشمل الولاية، والعمال، والموظفين، ويشمل كل من له سلطة، أن يعدل بين الناس، ولا يظلمهم، ولا يتعدى على أموالهم.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ». قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَتَيْتُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَارْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَتُونِي بِهِ»، فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(١). يدوكون. أي: يخوضون^(٢).

قوله: [عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] أي: ابن مالك بن خالد الأنصاري، الخزرجي، الساعدي، أبو العباس، صحابي شهير، أبوه صحابي أيضًا، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: [«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»].

الحديث فيه البشارة بالفتح، وهو علم من أعلام النبوة، وقد وقع كما أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) انظر: لسان العرب (٤٣٠/١٠)، وتهذيب اللغة (٣٨١/١٠)، وتاج العروس (١٦٤/٢٧).

قوله: «يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»: قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصاً بعلي، ولا بالأئمة؛ فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله، لكن هذا الحديث من أكثر ما يحتج به على النواصب، الذين لا يتولونه، أو يكفرونه، أو يفسقونه كالخوارج، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة، الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم؛ فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، لكن هذا باطل؛ فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً.

وفيه: إثبات صفة المحبة لله خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم.

وفيه: فضيلة أخرى لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَا خصه به من إعطاء الراية، ودعوته أهل خيبر للإسلام، وقاتهم إذا لم يقبلوا، وقد جرى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قاتهم كرامات مذكورة في السير والمغازي.

وفيه: مشروعية الدعوة إلى الإسلام، الذي أساسه شهادة أن لا إله إلا الله؛ لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قوله: [فَقَالَ: أَتَيْنَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ]، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه الإيمان بالقدر؛ لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى.

قوله: (فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ) أي: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أرسل إليه من يأتيه به، وفي صحيح مسلم: أن الذي جاء به سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وعن إياس بن سلمة عن أبيه أن الذي جاء به سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ) أي: تفل.

قوله: (وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ): هو بفتح العين والراء والهمزة، أي: عوفي في الحال عافية كاملة، وذلك بدعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الحديث، فدعا له فاستجيب له عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيه عَلم من أعلام النبوة أيضًا، وذلك كله بالله ومن الله وحده، وهو الذي يملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، لا إله غيره، ولا رب سواه.

قوله: «انْفُذْ» وهو بضم الفاء والهمزة.

قوله: «على رِسْلِكَ»: أمره أن يسير إليهم بأدب وأناة، «حتى تنزل بساحتهم»، الساحة: هي ما قرب من حصونهم.

قوله: «ثُمَّ اذْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ» هذا هو الشاهد من الترجمة، وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم.

قال شيخ الإسلام: دين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله: هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب، والخضوع لله وحده دون ما سواه، فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلمًا، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، وأما الإيمان فأصله تصديق القلب، وإقراره بمعرفته^(١).

وقوله: «وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ»: مما أمر به وشرعه من حقوق لا إله إلا الله. وهذا يدل على أن الأعمال من الإيمان، خلافاً للأشاعرة والمرجئة في قولهم: إنه قول! وزعموا أن الإيمان هو مجرد التصديق، وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة؛ لأن الدين ما أمر الله به فعلاً، وما نهى عنه تركاً.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٣).

وفيه دلالة على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء؛ لدلالتهما على فضلهم، وأمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره، وله السابقة والجهد والفضائل ما ليس لغيره، وقد خد الأخاديد وأضرمها بالنار، وقذف فيها من غلا فيه^(١)، أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقد هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم، فصار من أشد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بُعداً عن الشرك، وشدةً على الشرك، حتى أحرقهم بالنار.

وكذلك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع مع أعطي من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه.

وهما أفضل أهل الكرامات، فما زادهم ذلك إلا قوة في التوحيد، وشدة على أهل الشرك والتنديد؛ كما جرى لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الاستسقاء بالعباس^(٢)، وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة^(٣).....

(١) أخرج ابن عبد البر في التمهيد (٣١٧/٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٤٧٥) من طريق سلام بن أبي القاسم عن عثمان بن أبي عثمان الأنصاري قال: «جاء ناس من الشيعة إلى علي، فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت هو، قال: من أنا؟ قالوا: أنت هو، قال: ويلكم من أنا؟ قالوا: أنت ربنا، قال: ويلكم ارجعوا فتوبوا، فأبوا، ف ضرب أعناقهم، ثم قال: يا قبر اتنني بحزم الحطب، فحفر لهم في الأرض أخذوداً فأحرقهم بالنار ثم قال:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أجبت ناري ودعوت قنبراً

وانظر: منهاج السنة النبوية (٣٠٦/١)، وفتح الباري (١٢/٢٧٠)، ونيل الأوطار (٥/٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٠١٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه (٤/٧) من طريق أبي عمران الجوني عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم لما فتحوا تستر قال: فوجد رجلاً أنفه ذراع في الثابوت كانوا يستظهرون ويستطرون به، فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب عمر: إن هذا نبي من الأنبياء، =

في بيت مال الهرمزان^(١)، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوة في الدعوة إلى التوحيد، وشدة على أهل الشر، والإنكار عليهم، وجهادهم. لكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه، ما قد يلتبس على الجهال الذين قد تلبسوا بالشرك، ويظنون أن ذلك كرامات، وهي من مكر الشيطان وإغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وقد قال عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن يتدبره؛ فإنه الصراط المستقيم، ولا يلتفت إلى ما زخرفته الشياطين، كما اغتر به من اغتر من هذه الأمة ومن قبلهم.

قوله: «وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ» من أداء الفرائض على الوجه الشرعي، والنهي عن تعدي الحدود التي حدها الله بين الحلال والحرام؛ وذلك من الإيمان. والأعمال كلها من مسمى الإيمان؛ فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فإذا أخذ بالإسلام،

=والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء، فكتب: أن انظر أنت وأصحابك -يعني: أصحاب أبي موسى- فادفونه في مكان لا يعلمه أحد غيركما، قال: فذهبت أنا وأبو موسى فدفناه». وانظر: تفسير ابن كثير (٧٩/٣)، والبداية والنهاية (٤٠/٢).

(١) هو الهرمزان الفارسي، كان من ملوك فارس، أُسر في فتوح العراق، وأسلم على يد عمر، ثم أقام بالمدينة، واستشاره عمر في قتال الفرس، قال ابن سعد: «قال المسور بن مخرمة: رأيت الهرمزان بالروحاء مهلاً بالحج مع عمر عليه حلة حبرة». انظر: الطبقات الكبرى (٩٠/٥)، والإصابة في تمييز الصحابة (٥٧٢/٦، ٥٧٣).

الذي هو التوحيد والإخلاص، وأحل ما أحله الله، وحرم ما حرمه الله، وأمر بذلك، وجاهد عليه، فقد قام بما وجب عليه، وبالله التوفيق.

قوله: «فوالله» فيه جواز حلف المفتي على ما أفتى به غيباً.

قوله: «لَأَنَّ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» حمر النعم: بسكون الميم، الإبل الحمر، وهي أنفس الأموال عند العرب.

وفيه الترغيب في الدعوة إلى الله، وطلب الهداية لمن أراد الله هدايته؛ ليحصل للداعي إلى الحق هذه الفضيلة بهداية من اهتدى، فلا ينبغي التفريط في هذه المطالب العالية، وبالله التوفيق.

قوله: (يدوكون أي: يخضون) بيّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى معنى هذه اللفظة بأن المراد: خوض السامعين في هذا الخير، وتمني حصوله. والله أعلم.

... — الشَّجْخ — ...

قوله: ﴿أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ﴾ خيبر: حصن من حصون اليهود يقع شمالي المدينة، وبينهما مسافة طويلة، ولا يزال يحمل هذا الاسم إلى الآن.

كانت بلادًا زراعيّة، وبلاد نخيل وإنتاج للتمور، ويُضرب المثل فيقال: كجالب التمر إلى خَيْبَرَ، أو كجالب التمر إلى هجر، يعني: أن الذي يأتي بشيء إلى بلده يُنتَج ذلك الشيء يصبح كجالب التمر إلى خَيْبَرَ، ولهذا يقول حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

إنا ومن يُهدي القصائد نحونا كُمُسْتَبْضِعَ تَمَرًا إِلَى أَهْلِ خَيْبَرَ^(١)

ولمَّا غدر يهود المدينة - وهم بنو النضير - بعهدهم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حاصرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى اصطَلَحُوا معه على أن يتركوا له ما معهم من السلاح والقوة^(٢)، ويَجْلُوا إلى خَيْبَرَ وإلى أَذْرِعَاتٍ بِأَرْضِ الشَّامِ؛ كما ذكر الله ذلك في أول سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ

(١) انظر: تاريخ دمشق (٢٠/٢٤٧)، ومعجم البلدان (٢/٤٠٩ - ٤١١).

(٢) أخرج عبد الرزاق في مصنفه (٥/٣٥٩)، وأبو داود في سننه (٤/٣٠٠) من حديث كعب ابن مالك عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «أَجَمَعْتُ بنو النضير على الغدر فأرسلت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً، حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يجب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل أخوها سريعا حتى أدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فرجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكتائب، فحاصرهم وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخیل والكتائب وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة، والحلقة السلاح، فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها».

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴿٢٠﴾ [الحشر: ٢٠] إلى آخر الآيات، فهؤلاء هم بنو النضير
من اليهود انحازوا إلى إخوانهم في خيبر، وهي بلاد كثيرة الحصون، كثيرة
المزارع، كثيرة الثمار، وكان اليهود يستغلونها لمحاربة الإسلام، فلما صالح
النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين عام الحديبية أمره الله بغزو اليهود في خيبر،
وانتزاعها من أيديهم لتكون قوة للمسلمين ووعوًا لهم في الدعوة إلى الله
عَزَّجَلَّ، فغزاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحاصرهم، وطال الحصار، واشتد
الأمر بالمسلمين في الحصار من قلة ذات اليد، ومن طول الحصار.

وبينما هم كذلك بشرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنصر والفتح، وهذا
مما أطلعه الله عَزَّجَلَّ عليه، ومن معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَقَالَ: [«لَأَعْظِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»] الراية: هي العلم الذي يحمله الجند، من أجل
أن يهتدوا به، وَيَلْتَفُّوا حوله في القتال، وحمل العلم في الغزو من سنة النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان له رايات، وكان مكتوبًا في رايته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
محمد رسول الله.

﴿قوله: «رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ» وصف هذا
الرجل بهذه الصفات العظيمة: أنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله،
فهذا فيه منقبة لهذا الرجل العظيم، وشهادة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا

الرجل، وفيه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوصف بأنه يحب، وفيه أن المؤمنين يحبون الله؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

❁ قال: «يُفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ» هذه الميزة الثانية لهذا الرجل: أن الله عَزَّوَجَلَّ يفتح هذا البلد المستعصي على يد هذا الولي من أوليائه، وفي هذا علامة من علامات النبوة، حيث إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عما يحصل في المستقبل، وقد حصل كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فتساءل الصحابة - لحرصهم على الخير - من هذا الرجل الذي وصفه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الصفات العظيمة؟ وباتوا (يدوكون) يعني يخوضون كل الليل، من منهم يعطيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الراية؟ وكل واحد منهم يرجو أن يكون هو الذي يحمل هذه الراية، ويحصل على هذه الفضيلة التي أخبر عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا طمعاً في الدنيا، ولا طمعاً في الجاه، وإنما طمعاً فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما تمنيت الإمارة إلا هذه الليلة»^(١).

❁ قال: (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أي: ذهبوا إليه مبكرين، كل منهم يرجو أن يكون ذلك الرجل، وهذا من حرصهم على الخير، ومن شجاعتهم وإقدامهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كل واحد منهم مقدم نفسه لله عَزَّوَجَلَّ بشجاعة وإقدام، ورغبة فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرج عبد الرزاق في مصنفه (٢٢٦/١١) من طريق المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوفد ثقيف حين جاؤوا: «لتسلمن، أو لنبعثن رجلاً مني - أو قال: مثل نفسي - فليضربن أعناقكم، وليسين ذرايكم، وليأخذن أموالكم»، فقال عمر: فوالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ...

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» الآن تبين من هو هذا الرجل، وفي هذا تَفَقُّدٌ للجند، ما سكت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترك الذي لم يحضر، بل تَفَقُّده، فالإمام والقائد يَتَفَقَّدُ جنوده ورعيته، ولا يسمح لأحد أن يتخلف من غير عذر.

«فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ»، وذلك أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصابه رمد بعينه - وهو مرض من أمراض العيون معروف عند الأطباء - فلم يحضر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُروى أنه أصابه في المدينة، وأنه لم يخرج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب المرض، ولكن بعدما ذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأصحابه من المدينة، ضاقت عليه نفسه، وقال: كيف أتخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فخرج وهو مريض، ولحق بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما طابت نفسه أن يبقى بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قال: (فَارْزُلُوا إِلَيْهِ) فجاء به يُقَاد؛ لأنه لا يبصر من شدة الألم.

❁ قال: (بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ) يعني: نفث في عينيه من ريقه الطيب الطاهر، (فَبَرَأَ حَتَّى كَانَتْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ) ذهب الوجع الذي كان به في الحال، وهذا من معجزاته، ومن بركات ريقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ) دفعها إليه، فتعين حينئذ الرجل الذي أخبر عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فيه فضيلة لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث خصه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه البشرية وهذه المزية، وفضائله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرة من أعظمها هذه الفضيلة، وأما حبه لله ورسوله، وحب الله ورسوله له، فليس هذا خاصا به، (قال شيخ الإسلام: ليس هذا

الوصف مختصاً بعلي، ولا بالأئمة؛ فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله) فكل المؤمنين وكل إخوانه من الصحابة يحبون الله ورسوله، ويحبهم الله ورسوله.

❦ قال: (لكن هذا الحديث من أكثر ما يُحتج به على النواصب، الذين لا يتولونه، أو يكفرونه، أو يفسقونه كالخوارج) النواصب: هم الذين ينصبون علياً وأهل بيته العداوة، سموا بالنواصب لأنهم ينصبون العداوة لعلي وأهل بيته، والواجب محبتهم، لقرابتهم من رسول الله ﷺ، ومحبة أصحاب رسول الله ﷺ سواء كانوا من أهل البيت أو من غيرهم.

❦ قال: (لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة، الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم؛ فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، لكن هذا باطل) في هذا رد على الخوارج وعلى الروافض، فالروافض يغفلون في علي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَيُكْفَرُونَ غيره من الصحابة، ويقولون: فضائلهم التي جاءت في الكتاب والسنة هذه قبل أن يردوا، فيحكمون على الصحابة بالردة والعياذ بالله، والخوارج بالعكس: يُقَرِّطُونَ في حق علي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ وَيُكْفَرُونَ، ويقولون: ليس له فضائل، وما جاء في هذا الحديث إنما كان قبل أن يرتد، فهم يردون على الرافضة بمثل قولهم في الصحابة.

وكلا الطائفتين ضالة منحرفة عن الحق، والوسط: هو موالة أولياء الله، ومحبة أصحاب رسول الله ﷺ جميعاً، ومحبة الخلفاء الراشدين بالخصوص، ومحبة قرابة رسول الله ﷺ أيضاً بالخصوص، والصحابة

يتفاضلون ويتفاوتون في الفضائل، فيُعطى كُلُّ حقّه، ولا يُيخس من حقّه شيء، فلا غلو ولا تفريط.

❁ قال: (فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً) لا يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» والله عَزَّجَلَّ يعلم أنه يموت كافراً؛ كما تقوله الخوارج قبحهم الله.

ويستدل بهذا الحديث الرافضة والشيعة على أن عليّاً هو الأحق بالخلافة؛ لأنه اتصف بهذه الصفة، نقول: هذه ليست خاصة به، فإن أبا بكر يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، عمر يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، عثمان يحب الله ورسوله، وكل الصحابة كذلك، والنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خص عليّاً بهذه الخصيصة لا لأنه وحده هو الذي يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله، بل لأن هذا فضل من الله تفضل به عليه، وإلا فكل الصحابة يحبون الله ورسوله ويحبهم الله ورسوله.

❁ قال: (فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ) أي: دفعها إليه، ثم أرشده وأوصاه على عادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع قُوداه وأمرائه، حيث كان يوصي القُوداء والأمراء حينما يبعثهم. فهذا فيه دليل على أن وليّ الأمر يوصي قُوداه، ويخط لهم الخطط النافعة التي يسIRON عليها في مهمّتهم، ولا يتركهم لأنفسهم يذهبون بدون وصية، وبدون إرشاد، وبدون خطة يسIRON عليها.

﴿ فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ ﴾ يعني: اذهب بهدوء وسكينة، لا يكون فيه سخط ولا جلبلة ولا طيش، ولا سرعة في المشي أو ركض، هذا ليس من صفات المؤمنين، صفات المؤمنين السكينة والوقار، والثبات والهدوء؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [الأنفال: ٤٥]، أما الطيش والأصوات واللغط والعجلة فهذه من صفات الجبناء، أما الشجعان ولا سيما أهل الإيمان، فإنهم يثبتون في المعارك وفي لقاء العدو ولا يتزعزعون، ولا ينهزمون أمام عدوهم، ومهما بلغ بهم عدوهم من النكاية فإنهم يثبتون.

﴿ قوله: «حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ» أي: تقرب من حصنهم، وهذا من تمام الشجاعة، أن يقرب المجاهدون من العدو ولا يناوشوه من بعيد؛ لأجل أن يدب في قلوب أعداء الله الرعب والرهبة.

﴿ قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ» هذا فيه أن الدعوة إلى الله يُبدأ بها قبل القتال، وأنه لا يجوز البداءة بالقتال قبل الدعوة، لا بد من الدعوة إلى الله فمن استجاب فإنه يُقبل، ومن لم يستجب فإنه يقاتل، بعد أن تبلغه الدعوة وتقوم عليه الحجة، وهذا محل الشاهد من الحديث أن الدعوة إلى الله سابقة للقتال في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك يدل على أهميتها ومكانتها من الدين.

ثم لم يقتصر على قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ»، بل أمره أن يبين لهم ما هو الإسلام، فقال: «وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ»، وهذا هو الواجب على الداعية أن يشرح الإسلام ويبينه لهم حتى يعرفوه، أما أن يمدح لهم الإسلام ويدعوهم إليه، وهو لا يعرف الإسلام ولا يعرف

أحكامه، فهذا جهل لا يصح ممن يتصدر للدعوة إلى الله. وبعض الدعاة ممن ينتسبون إلى الدعوة اليوم لا يعرفون حقيقة الإسلام، ولا أركانه، ولا مكملاته، ومتطلباته، ونواقضه، وبعضهم لا يرغب في أن يُشرح الإسلام ويبيّن للناس، ويقولون: ادعوا إلى الإسلام، ويكفي أن يحمل العبد اسم الإسلام، ولا فرق عندهم بين القبوري، والمبتدع، والمنحرف.

ومثل هؤلاء نقول لهم: ليس هذا هو الإسلام، بل الإسلام يبيّن ويوضح للناس، ومن قبله وأراد النجاة لنفسه فالحمد لله، ومن رفضه فإنه قد بُلِّغَ، وقامت عليه الحجة، وبرئت منه الذمة، أما الدعوة المجملة فهي لا تسمن ولا تغني من جوع.

ولهذا يجب على الداعية أن يكون عالماً بما يدعو إليه بالتفصيل حتى يبين للناس المطلوب والمقصود، فيبين لهم حقيقة الإسلام، وأنه الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، ويبين لهم أنه يقوم على خمسة أركان، وأن بقية الأعمال الصالحة مكملات للإسلام، منها واجب ومنها مستحب، وأن المعاصي منقصات أو مناقضات للإسلام، منها ما هو ردة، ومنها ما هو دون ذلك، فيبين لهم هذا الأمر ويوضحه لهم؛ لأنه أمر مهم جداً في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم نقل المصنف رَحِمَهُ اللهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية أن الإسلام هو الاستسلام لله وحده، والخضوع له بعبادته وحده دونما سواه، أما الإيمان فهو تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: (وقوله: «وأخبرهم بما يجب

عليهم من حق الله عَزَّ وَجَلَّ فيه» مما أمر به وشرعه من حقوق لا إله إلا الله، مما يدل على أن الأعمال من الإييان، خلافاً للأشاعرة والمرجئة» ذلك أن المرجئة يقولون: إن الإييان هو التصديق بالقلب فقط، فصاحب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإييان، ويقولون: لا يضر مع الإييان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وسُمُّوا مرجئة؛ لأنهم أرجأوا - أي أخرأوا - الأعمال عن مسمى الإييان، وهم مع هذا أربع طوائف:

الأولى: مرجئة الفقهاء، من الكوفيين والأحناف الذين يقولون: إن الإييان هو قول باللسان واعتقاد بالقلب. ولا يدخلون فيه العمل.

الثانية: الأشاعرة ومن أخذ بمذهبهم، فيقولون: الإييان هو التصديق بالقلب ولو لم ينطق بلسانه، فمن صدق بقلبه فهو مؤمن حتى ولو لم يتكلم. وعلى هذا فالكفار مؤمنون؛ لأنهم يصدقون بقلوبهم لكن لا ينطقون بألستهم، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. هم يصدقون بقلوبهم ويعلمون أنه رسول الله، وأن القرآن كلام الله، وأن ما جاء به هو الحق، لكن يمنعهم - والعياذ بالله - موانع: إما الكبر والأنفة، أو الخوف على مناصبهم ورئاستهم، أو الحسد.

الثالثة: الكرامية، الذين يقولون: الإييان هو النطق باللسان ولو لم يعتقد بقلبه، إذا نطق بلسانه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولو لم يعتقد بقلبه فهو مؤمن، كذلك يقولون. وهذا باطل يلزم عليه أن المنافقين مؤمنون؛ لأنهم يقولون بألستهم ما ليس في قلوبهم، قال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) أَخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿[المنافقون: ١-٢]، شهادتهم للرسول جُنَّةً يستترون بها دون القتل، يريدون أن يعيشوا مع المسلمين وهم كفار في قرارة أنفسهم وقلوبهم، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، حكم الله أنهم في الدرك الأسفل من النار تحت عبدة الأصنام، والكرامية يقولون: إنهم مسلمون ومؤمنون!!

الرابعة: أخبرت فرق المرجئة وهم الجهمية الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة بالقلب ولو لم يصدق، إذا عرف بقلبه فهو مؤمن ولو لم يصدق، ولو لم ينطق، ولو لم يعمل، ما دام أنه عارف بقلبه فهو مؤمن. وهذا القول أخبرت مذاهب المرجئة.

فتبين من هذا أن معنى الإرجاء هو تأخير العمل عن الإيمان، وأن العمل لا يدخل في الإيمان، وأن الإنسان يكون مؤمناً ولو لم يعمل، ولو لم يُصَلِّ، ولم يَصُمْ، ولم يحج، ولم يعمل أي شيء، لو فعل ما فعل من المعاصي ومن الموبقات فهو مؤمن، والمعاصي لا تُنقص إيمانه، لو زنى وسرق فهو مؤمن كامل الإيمان عندهم، ما دام أنه مصدق بقلبه، والإيمان لا يتفاضل عندهم ولا يتفاوت، فإيمان أبي بكر أو جبريل مثل إيمان أفسق الناس عندهم.

والحق أن الإيمان يتفاوت: فالمؤمنون منهم من إيمانه كامل، ومنهم من إيمانه ناقص نقصاً كثيراً أو قليلاً، فالإيمان يتفاوت، ويزيد وينقص، يزيد

بالطاعة وينقص بالمعصية، والعمل داخل في حقيقة الإيمان، ومن ترك العمل تركًا نهائيًا بدون عذر ولم يعمل أبدًا فليس بمؤمن، أما إذا ترك بعض الأشياء وفعل بعض الأشياء فإنه مؤمن ناقص الإيمان.

❦ قوله: (وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء) كحال القبوريين الذين يتقربون إلى الأموات، ويعتقدون في بعض الأحياء أنه وصل إلى درجة يستطيع فيها أن ينصرهم وأن يعطيهم أشياء لا يقدر عليها إلا الله، بناءً على أَنَّ له كرامات، فيقولون: إن له كرامات وهذا دليل على أنه ينفع ويضر، وغالب ما عليه القبوريون مبني على هذا الوهم: الغلو في أصحاب الكرامات، فنحن نحب الصالحين، والذين تجري على أيديهم كرامات، نحبه ونجلهم ونقتدي بهم، ولكن لا نعطيهم شيئًا من العبادة كما يفعله الخرافيون، فلا نطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كإجراء الرزق وشفاء المريض وهبة الولد وغير ذلك، أما ما يقدرون عليه من أمور الدنيا فيُطلب منهم إذا كانوا أحياء، حتى ولو كان ليس لهم كرامات، فتطلب من الإنسان الغني أن يقرضك أو يتصدق عليك، وإذا وقعت في كربة تطلب من أخيك أن يساعدك في الخروج منها، وفي الحديث: «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، فيستغاث بال مخلوق الحي فيما يقدر عليه، أما الاستغاثة بالأموات فلا تجوز مطلقًا؛ لأن الأموات لا يقدرون على شيء، لا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره، هم في عالم

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأنت في عالم آخر، فلا تطلب من الأموات شيئاً بحجة أن لهم كرامات، وأنهم يقدرون، هذا باطل، فالملت لا يطلب منه شيء ولو كان من أفضل الناس.

ثم أقسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «فَوَاللَّهِ» وهذا فيه أن المفتي إذا كان متأكداً من صواب فتواه فإنه يحلف عليها، «لَأَنَّ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» وهذا فيه الترغيب في الدعوة، وأن هداية رجل واحد على يدك خير لك من أموال الدنيا ونفائسها؛ لأن «حُمْرُ النَّعَمِ» هي أنفس الأموال عند العرب، وهذا إذا اهتدى على يدك رجل واحد، فكيف إذا اهتدت على يدك أمة من الناس: أهل بلد، أو أهل إقليم، أو يهتدي على يدك أجيال متعاقبة من الناس؟ هذا كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(١)، فهذا فيه فضل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه بيان منهج الدعوة، وأن الدعوة تسبق القتال، وفيه فضيلة لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه معجزات عدة من معجزات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي تدل على صدقه، حيث أخبر عن أشياء مستقبلية ووقعت كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه التبرك بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبما انفصل من جسمه الشريف من ريق أو عرق أو شعر، وأن هذا خاص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما غيره فلا يُتبرك به ولو كان من أصلح الناس؛ كأبي بكر وعمر وعثمان، فهؤلاء لم يكن أحد من

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

الصحابة يتبرك بآثارهم، وإنما هذا خاص بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، فلا يُتبرك بقبره، ولا يتبرك بداره التي يُقال: إنه ولد فيها، أو الغار الذي جلس فيه، أو الأمكنة التي جلس فيها؛ لأنه بعد الموت انتهت هذه الآثار ما يبقى عرق ولا يبقى ريق، ولا يبقى شعر، وإن بقي الشعر فإنه لا يستمر، وليس ما يُروج له الكذابون والمشعوذون الآن فيأتون بأشياء وينسبونها إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذبًا وبهتانًا، ويقولون: هذا شعر الرسول، أو هذا نعل الرسول، وغير ذلك، وهذا كله من الكذب.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ طَرِيقٌ مِّنَ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
الثَّانِيَّةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا لَوْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْبَصِيرَةَ مِنَ الْفَرَائِضِ.
الرَّابِعَةُ: مِنْ دَلَائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ: أَنَّهُ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَنِ الْمَسَبَّةِ.
الخَامِسَةُ: أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةً لِلَّهِ.
السَّادِسَةُ - وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا - : إِبْعَادُ الْمُسْلِمِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَصِيرَ مِنْهُمْ، وَلَوْ لَمْ يُشْرِكْ.

السَّابِعَةُ: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.
الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يُبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلَاةُ.
التَّاسِعَةُ: أَنَّ مَعْنَى: «أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ» مَعْنَى شَهَادَةِ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.
الْعَاشِرَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا، أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّنْبِيهُ عَلَى التَّعْلِيمِ بِالتَّذْرِيجِ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الْبَدَاءَةُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَصْرَفُ الزَّكَاةِ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَشْفُ الْعَالَمِ الشُّبْهَةِ عَنِ الْمُتَعَلِّمِ.

الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: النَّهْيُ عَنِ كَرَائِمِ الْأَمْوَالِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: اتِّقَاءُ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لَا تُحْجَبُ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ: مَا جَرَى عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْجُوعِ وَالْوَبَاءِ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ...» إلخ، عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ. الْعِشْرُونَ: تَقْلُهُ فِي عَيْنَيْهِ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضًا. الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرُونَ: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرُونَ: فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوَكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلُهُمْ عَنْ بَشَارَةِ الْفَتْحِ.

الثَّلَاثَةَ وَالْعِشْرُونَ: الْإِيْمَانُ بِالْقَدَرِ، لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا، وَمَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى.

الرَّابِعَةَ وَالْعِشْرُونَ: الْأَدَبُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَى رَسَلِكَ». الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرُونَ: الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْقِتَالِ. السَّادِسَةَ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دَعَا قَبْلَ ذَلِكَ وَقُوتُوا. السَّابِعَةَ وَالْعِشْرُونَ: الدَّعْوَةُ بِالْحِكْمَةِ لِقَوْلِهِ: «وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

الثَّامِنَةَ وَالْعِشْرُونَ: الْمَعْرِفَةُ بِحَقِّ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ. التَّاسِعَةَ وَالْعِشْرُونَ: ثَوَابُ مَنْ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ. الثَّلَاثُونَ: الْحَلْفُ عَلَى الْفُتْيَا.



٥- بَابُ

تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قوله: ((بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))، قوله: [وشهادة أن لا إله إلا الله] من عطف الدال على المدلول؛ لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث؛ لما فيها من زيادة البيان، وكشف ما أشكل من ذلك، وإقامة الحجة على من غلط في معنى لا إله إلا الله من أهل الجهل والإلحاد.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب بعد باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن الذي يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله لابد أن يعرف معناها، فلا يكفي مجرد الدعاء إلى لفظها، دون فهم وتفسير لمعناها، ولا يكفي الدعاء إلى التوحيد دون معرفة معناها، ومعرفة ما يضاده من الشرك، فلا بد للذي يدعو إلى الله أن يعرف معنى التوحيد حتى يبلغه للناس، ويعرف ما هو الشرك حتى يحذر الناس منه، فلا يكفي أن يقول للناس: قولوا: لا إله إلا الله، واتركوا الشرك، أو ابتعدوا عن الشرك، بل لابد أن يشرح لهم معنى التوحيد، ومعنى

لا إله إلا الله، وأن يشرح لهم معنى الشرك ويبينه لهم، وهذا معنى البصيرة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ومعنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

فلا يمكن أن تكون هناك حكمة وموعظة وجدال بالتي هي أحسن إلا إذا اتصف الداعية إلى الله بالعلم، فعرف الحق ودعا إليه، وعرف الباطل ونهى عنه؛ ولأن كثيراً من المشركين قديماً وحديثاً يفسرون الشرك بأنه عبادة الأصنام فقط، وأما دعاء الأولياء والصالحين والملائكة والرسل فيقولون: هذا ليس من الشرك، إنما هو توسل إلى الله، وطلب للشفاعة، فيفسرون الشرك بغير اسمه، ويفسرون التوحيد بتوحيد الربوبية، ويقولون: يكفي أن تُقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وتعتقد أنه لا أحد يشارك الله في توحيد الربوبية. هذا هو التوحيد عندهم، وأما الشرك في الألوهية، ودعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، فلا يسمونه شركاً، ولا يدخل عندهم في التوحيد، وبنوا كتبهم على هذا، فأى كتاب تقرأه من كتب العقائد عندهم تجده يركز على توحيد الربوبية، ولا يأتي ذكر لتوحيد الألوهية أبداً.

وليس هذا هو المعنى الصحيح للتوحيد، فلو كان هذا هو التوحيد لصار المشركون موحدين؛ لأنهم يقرون به، ولصارَت دعوة الرسول لهم إلى التوحيد وقتاله لهم في غير محله، لأنهم كانوا يثبتون توحيد الربوبية.

فلأجل تلافي هذه الأخطاء، لابد أن يعرف الإنسان ما هو التوحيد المطلوب، وما هو الشرك المنهي عنه، حتى يكون على بصيرة من الأمر،



ولا يُلبس عليه أمثال هؤلاء، وهذا لا يكون إلا بتدبر الكتاب والسنة؛ لأن التوحيد لا يؤخذ إلا من الكتاب والسنة، والشرك أيضًا يؤخذ من الكتاب والسنة، ولا يؤخذ من اصطلاحات الناس، واعتباراتهم، فاصطلاحات الناس وتسمياتهم لا قيمة لها إلا ما وافق منها الكتاب والسنة.



قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك، ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله، من الملائكة والأنبياء والصالحين؛ كال مسيح، وأمه، والعزير، فهؤلاء دينهم التوحيد، وهو بخلاف من دعاهم من دون الله، ووصفهم بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له، وطاعته فيما أمر، وترك ما نهاهم عنه.

وأعظم القربات: التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله، وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه، وهذا الذي يقربهم إلى الله، أي: إلى عفوه ورضاه، ووصف ذلك بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فلا يرجون أحدا سواه، ولا يخافون غيره، وذلك هو توحيده؛ لأن ذلك يمنعهم من الشرك، ويوجب لهم الطمع في رحمة الله، والهرب من عقابه.

والداعي له - والحالة هذه - قد عكس الأمر، وطلب منهم ما كانوا يُنكرونه من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

وفيه الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام، وتبين بهذه الآية أن الله عَزَّجَلَّ أنكر على من دعا معه غيره؛ من الأنبياء، والصالحين، والملائكة ومن دونهم، وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع، أو دفع ضر من الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله، وأن ذلك يتنافى ما دلت عليه كلمة الإخلاص.

فَتَدَبَّرْ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ يَتَبَيَّنُ لَكَ التَّوْحِيدُ، وَمَا يَنَافِيهِ مِنَ الشَّرِكِ
وَالْتَّنِيدِ؛ فَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِيْمَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْمَسِيحَ، وَأَمَّهُ، وَالْعَزِيرَ، فَهَمُ
الْمَعْنِيُّونَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ
عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

ثُمَّ بَيْنَ عَزَّجَلَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ قَدْ خَالَفُوا مَنْ كَانُوا يَدْعُونَهُ فِي دِينِهِ،
فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.
وَقَدَّمَ الْمَعْمُولَ لِأَنَّهُ يَفِيدُ الْحَصْرَ، يَعْنِي: يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ لَا إِلَى غَيْرِهِ.
وَأَعْظَمَ الْوَسَائِلَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ: التَّوْحِيدَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ أَنْبِيََاءَهُ وَرَسُولَهُ،
وَخَلَقَ الْخَلْقَ لِأَجْلِهِ.

... — الشَّبَحُ — ...

جاء المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْبَابِ بآيَاتٍ أَرْبَعٍ، وَحَدِيثٍ؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرِ فِي
مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ وَمَعْرِفَةِ الشَّرِكِ هُوَ الْكِتَابُ وَالسَّنَةُ، وَلَيْسَ مِنْ قَوْلِ فُلَانٍ أَوْ
عِلَانٍ، أَوْ اصْطِلَاحِ الطَّائِفَةِ الْفُلَانِيَّةِ أَوْ الْفِرْقَةِ الْفُلَانِيَّةِ، فَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى كِتَابِ
اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَرَفْنَا التَّوْحِيدَ وَعَرَفْنَا الشَّرِكَ، بِدُونِ صَعُوبَاتٍ أَوْ تَعْقِيدَاتٍ
أَوْ تَطْوِيلٍ، فَهُوَ مَيْسَرٌ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

الْآيَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى
رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، هَذِهِ الْآيَةُ بَيَّنَتْ أَنَّ دَعَاءَ غَيْرِ اللَّهِ - مِنَ الْأَوْلِيَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةِ - شَرِكٌ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا الشَّرِكُ هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ

فقط، والملائكة والأنبياء والصالحون ليسوا أصنامًا. ومع هذا فإن الله عَزَّ وَجَلَّ سَمِيَ من تقرب إليهم بشيء من العبادة مشرَّكًا.

وهذه الآية بعد قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿[الإسراء: ٥٦-٥٧]، وهل الأصنام تتقرب إلى الله وتبتغي إليه الوسيلة، وهل هي تخاف عذاب الله وترجو رحمته؟ الأصنام جمادات، ولا يكون الخوف والرجاء إلا من العباد، فسمى دعاءهم وعبادتهم شرَّكًا.

❁ قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ زعمتهم أنهم شركاء لله عَزَّ وَجَلَّ وهذا باطل؛ لأن الزعم هو الكذب، ﴿مِنْ دُونِي﴾ أي: غير الله، والأمر هنا ﴿قُلِ ادْعُوا﴾ أمر تعجيز واستنكار، مثل قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فهو سبحانه لم يطلب منهم أن يدعوا غير الله، ولكنه من باب الاستنكار، والتعزير، وبيان بطلان هذا العمل.

❁ قول: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] إذا نزل بكم مرض فإن هذه المعبودات كلها لا تملك كشف الضر عنكم، سواء أكانت من الأحجار، أم من الأشجار، أم من الملائكة، أم من النبيين، أم من الصالحين، وإن الذي يملك كشف الضر بعد نزوله هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا أحد غيره يرفع الضر عن الناس.

❁ قوله: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ولا نقل المرض وتحويله من مكان إلى مكان، فلا أحد يستطيع نقل المرض من عضو إلى عضو أو من إنسان إلى

إنسان، أو من بلد إلى بلد، إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان كذلك فهذه المعبودات عاجزة، والعاجز لا يصلح للعبادة.

❁ قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الذين يدعون للمشركين، وفيه حذف تقديره: أولئك الذين يدعونهم، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء المدعوون هم عباد يتقربون إلى الله بالعبادة ويبتغون إلى ربهم الوسيلة. والوسيلة في الأصل معناها: السبب الذي يوصل إلى المقصود.

وأما معناها هنا: فهي الأعمال الصالحة التي تقرب من الله عَزَّجَلَّ، وليست الوسيلة ما يقوله عباد القبور: أن تجعل بينك وبين الله واسطة تتوسل به إلى الله. إنما الوسيلة التي أمر الله باتخاذها هي الأعمال الصالحة؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، يعني: القرب منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وذلك بعبادته، فلا يُقَرَّب إلى الله إلا بعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سُميت وسيلة لأنها تقرب إلى الله؛ ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يعني: يطلبون القرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ صاروا مشتركين، فدل على أنهم عباد مثلهم، محتاجون إلى الله عَزَّجَلَّ، فلا يصلحون للعبادة.

وهذه الآية عند الجمهور نزلت في قوم كانوا يعبدون الملائكة، والمسيح ابن مريم، وعزيراً^(١)، فالله أخبر أن الملائكة، والمسيح، وعزيراً كلهم عباد من

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/١٠٦)، وزاد المسير (٥/٤٩)، وتفسير ابن كثير (٣/٤٧)،

(٤٨)، وفتح القدير (٣/٢٣٩).

عباد الله ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ وما داموا كذلك فإنهم لا يصلحون للعبادة.

وقيل: نزلت في أناس كانوا يعبدون نفرًا من الجن فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم^(١)، فأخبر الله عنهم أنهم أصبحوا مسلمين، وأنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، فتبين بهذا أن عبادتهم لا تصلح؛ لأنهم أنفسهم عباد مثلهم محتاجون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ففي هذا إبطال عبادة الملائكة، وعبادة الأنبياء والصالحين، وأن الشرك ليس خاصًا بعبادة الأصنام - كما يقوله: الجاهل أو المعاندون - بل هو عام في كل ما عُبدَ من دون الله؛ من شجر، أو حجر، أو جن، أو إنس، أو ملائكة، أو رسل، أو أنبياء، أو أولياء، أو غير ذلك.

كما دلت الآية الكريمة على أن الخوف والرجاء من أعظم أنواع العبادة، وفي هذا رد على الصوفية الذين لا يعتبرون الخوف والرجاء، ويقولون: إن الذي يعبد الله رجاء لجنته وخوفًا من ناره، إنما يعبد عبادة التجار الذين يتاجرون مع الله، ولكن نحن نعبد من أجل أننا نحبه، لا طمعًا في جنته، ولا خوفًا من ناره. كذا يقولون، فصاروا بهذا أفضل من هؤلاء الأنبياء وهؤلاء الملائكة، الذين أخبر الله عَزَّجَلَّ أنهم يرجون رحمته، ويخافون عذابه.



(١) أخرجه البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن التوسل إليه: التوسل بأسمائه وصفاته؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وكما ورد في الأذكار الماثورة من التوسل بها في الدعوات؛ كقوله: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»^(١)، وقوله: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(٢)، وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التي لم يشبها شرك.

فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه، لا بما يكرهه ويأباه؛ من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣]، وقوله: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله في الإنكار على من اتخذ الشفعاء: ﴿قُلْ أَتَنْتُبُونَ لِلَّهِ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير؛ يأمر عباده بإخلاص العبادة له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، ويعظمه، ويعظم عقوبته؛ كما جرى على الأمم المكذبة للرسول فيما جاءوهم به من التوحيد والنهي عن الشرك، فلم يقبلوا، فأوقع الله عَزَّوَجَلَّ بهم ما أوقع؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، ونحوهم، فإنهم

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٢٥٤٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٦/١)، (٤٠٤/٤)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد في المسند (١٥٨/٣، ٢٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٤٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في الكبرى (٣٩٤/٤)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وأحمد في المسند (٣٤٩/٥، ٣٥٠)، والحاكم في المستدرک (٦٨٣/١) من حديث بريدة ابن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك، وقالوا لنوح: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا لهود: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الآيات [هود: ٥٣]، وقالوا للصالح: ﴿أَنَّهُنَّا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، وقالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧]. فتدبر ما قص الله عَزَّجَلَّ في كتابه مما دعت إليه الرسل، وما أوقع بمن عصاهم؛ فإن الله عَزَّجَلَّ أقام به الحجة على كل مشرك إلى يوم القيامة.

وأما ما ورد في معنى الآية عن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَاسٌ مِنَ الْجِنِّ كَانُوا يُعْبُدُونَ فَأَسْلَمُوا»^(١)، وفي رواية: «كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنِّ وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءُ بِدِينِهِمْ»^(٢).

قلت: وهذا لا يخالف ما تقدم؛ لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله ولياً من الأولين والآخرين؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة، أو من الجن، أو من البشر.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

❁ قوله: (ومن التوسل إليه: التوسل بأسمائه وصفاته)؛ وذلك لقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فتقول: يا رحمن

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠).

ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا رزاق ارزقني، يا تواب تب عليّ، إلى آخره، فتتوسل إلى الله عَزَّجَلَّ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

❁ قال: (وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التي لم يشبها شرك، فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه)، وكذلك التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، فتتوسل إلى الله بطاعته وعبادته؛ كما توسل أصحاب الغار لما انطبقت عليهم الصخرة، توسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة، هذا توسل ببره لوالديه، وهذا توسل بأداء الأمانة، وهذا توسل إلى الله بالعفة وإحصان فرجه، ففرج الله لهم^(١)، فالتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة من الوسيلة النافعة.

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «خَرَجَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ الْمَطَرُ، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَرْعَى، ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحْلُبُ فَأَجِيءُ بِالْحِلَابِ، فَآتِي بِهِ أَبَوَيَّ فَيَسْرَبَانِ، ثُمَّ أَسْقِي الصَّبِيَّةَ وَأَهْلِي وَأَمْرَأَتِي، فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً، فَحِثُّ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ، قَالَ: فَكَرِهْتُ أَنْ أُوْقِظَهُمَا، وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاعُونَ عِنْدَ رَجُلِي، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِي وَدَائِبُهُمَا، حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً تَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ، فَقَالَتْ: لَا تَنَالَ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهُمَا، فَلَمَّا فَعَدْتُ بَيْنَ رَجُلَيْهَا قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضُ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهُمَا، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً، قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمُ الثَّلَاثِينَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَحِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَّةٍ فَأَعْطَيْتُهُ، وَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ، فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيَهَا فَإِنَّهَا =

❖ قال: (لا بما يكرهه ويأباه من الشرك) لا بأن تتخذ بينك وبين الله واسطة من المخلوقات تتوسط بينك وبينه، هذا تنقص الله عَزَّوَجَلَّ وتشبيه له بملوك الدنيا، الذين لا يستجيبون إلا بواسطة الوزراء والشفعاء عندهم، أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يُتوسط عنده بأحد، وإنما يُدعى ويطلب منه مباشرة.

والله سبحانه لم يشرع لنا اتخاذ الوسائط من المخلوقات بيننا وبينه، فقال عَزَّوَجَلَّ منكرًا على من اتخذ الشفعاء: ﴿قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ، وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].



=لَكَ، فَقَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟ قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ وَلَكِنَّهَا لَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَأَفْرُجْ عَنَّا فَكُشِفَ عَنْهُمْ».

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ الآيات [الزخرف: ٢٦-٢٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ الكلمة: هي (لا إله إلا الله) بإجماع أهل العلم، وقد عبر عنها الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعناها الذي أريد بها ووضعت له، فعبر عن المنفي بها بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وعبر عما أثبتته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فَقَصَرَ العبادة على الله وحده، ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك. فما أحسن هذا التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه!

قال العماد ابن كثير في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي (لا إله إلا الله) جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك^(١)، وقتادة^(٢)،

(١) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم، ويقال: أبو محمد الخراساني، تابعي جليل، روى عن أنس وابن عمر وأبي هريرة، وجماعة من التابعين، كان إماماً في التفسير، قال الثوري: «خذوا التفسير عن أربعة: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك» اهـ، وقال الإمام أحمد: «هو ثقة» اهـ، توفي سنة اثنتين، وقيل: خمس ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٠٠)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٨)، والبداية والنهاية (٩/ ٢٢٣).

(٢) هو قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، أحد علماء التابعين والأئمة العاملين، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب، والبصري، وأبو العالية، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم، وحدث عنه جماعات من الكبار؛ كأيوب، وحماد ابن مسلمة، وحميد الطويل، وغيرهم، توفي سنة سبع عشرة ومائة في بواسط بالطاعون. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٢٢٩)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩)، والبداية والنهاية (٩/ ٣١٣)، وشذرات الذهب (١/ ١٥٣)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١١٥).

والسدي، وغيرهم^(١)، في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: (لا إله إلا الله) لا يزال في ذريته من يقولها^(٢).

... — الشَّبَحُ — ...

الآية الثانية: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] إبراهيم هو الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ اتخذه الله عزَّ وجلَّ خليلاً، وأثنى عليه في القرآن الكريم، وجعله إماماً للناس، أي: قُدوة يُقتدى به، وجعل النبوة في ذريته من بعده، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فأنبىء بني إسرائيل من ذرية إسحاق، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذرية إسماعيل، وكلهم من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا سُمِّي: أبا الأنبياء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ أول ما بدأ بأبيه، ﴿وَقَوْمِهِ﴾ الذين بعثهم الله إليهم، وهم الصابئة المشركون الذين كانوا يعبدون الكواكب، بدأ بأقرب الناس إليه، وهو أبوه، تبرأ منه ومن عبادته، وتبرأ من محبته وموالاته وهو أقرب الناس إليه ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: إنني بريء ومتبرئ منكم ومن معبوداتكم، وأصل البراءة البعد عن الشيء والانقطاع عنه.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٥/٦٣)، وتفسير الثوري (ص ٢٧٠)، والدعاء للطبراني (ص ٤٤٦)، وتفسير القرطبي (١٦/٧٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/١٢٧).

❦ قال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وهذه الآية فيها المقاطعة للمشركين، ولعبوداتهم، والابتعاد عنهم، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) تمامًا؛ لأن قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ فيه نفي مثل: (لا إله)، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيه إثبات مثل: (إلا الله)، فهي تفسر (لا إله إلا الله) وأن معناها البراءة من الشرك وأهله، وعبادة الله وحده لا شريك له، فهي اشتملت على النفي والإثبات وإخلاص العبادة لله، والبراءة من الشرك، وهذا هو تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، وليس معناها لا قادر على الاختراع ولا الخلق والرزق إلا الله - كما يقوله علماء الكلام - فإن هذا لا يزيد على توحيد الربوبية، وليس هو المطلوب.

وفي الآية البراءة من الشرك وأهله وأنه من معنى (لا إله إلا الله)، فالذي يعبد الله ويعبد معه غيره، فهذا لم يحقق (لا إله إلا الله)، وإن كان يتلفظ بها بلسانه، فالذي يقول: (لا إله إلا الله)، ثم يذهب إلى القبور، ويطلب منها الحوائج، ويتمسح بها، ويستغيث بها، ويطلب المدد منها، ويطوف بها، فهذا لم يتبرأ من الشرك، فلا تنفعه (لا إله إلا الله)، ولو قالها عدد الأنفاس، لأن (لا إله إلا الله) ليست مجرد لفظ يُقال باللسان، وإنما لها مقتضى ومدلول ومعنى لا بد أن يحقق، وهو: عبادة الله، والبراءة من الشرك والمشركين.

❦ قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ جعل (لا إله إلا الله) كلمة باقية، ﴿فِي عَقِيهِ﴾ في ذرية إبراهيم عليه السلام، فلا يزال فيها من يقول هذه الكلمة ويعمل بها إلى أن بُعث محمد صلى الله عليه وسلم بها، ودعا إليها، فلم تَحُلْ الأرض

من التّوحيد والله الحمد، ولا تخلو إلّا عند قيام الساعة، وإذا خلت الأرض من التّوحيد قامت الساعة؛ كما في الحديث: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ»^(١)؛ لأن الأرض لا تبقى إلّا مع التّوحيد، لأن (لا إله إلّا الله) بها قامت السموات والأرض، ونُصبت من أجلها الموازين، وأُسست المِلَّة، وفُرض الجهاد، فلن تخلو الأرض من أنصارها، لكنهم أحياناً يكثرون، وأحياناً يقلّون.

❁ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إليها، ويحققونها، وهذا حاصل والحمد لله، فإنه وإن حصل الشرك وكثر، فإن من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام من يرجع إلى التّوحيد الصحيح ويدعو إليه ويجدّده للناس.



(١) أخرجه مسلم (١٤٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ اَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ اَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العباد.

وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ، فقرأ عليه هذه الآية، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، قال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وحلّلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»، رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني من طرق^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

الآية الثالثة: قوله عزَّجَلَّ: ﴿ اَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ الأحبار: جمع حَبْر، أو حِبر، وهو العالم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد.

والأحبار والرهبان موجودون في اليهود والنصارى، فاليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، بأي شيء اتخذوهم أرباباً من دون الله؟ فسّر ذلك النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي؛ لما جاء إلى النبي ﷺ، وسمع منه قول الله عزَّجَلَّ: ﴿ اَتَّخِذُوا

(١) روي هذا الحديث بألفاظ متقاربة، بنحو هذا السياق، أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، الإمام أحمد في المسند (٢٥٧/٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٠٥٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٠٦/٧)، والطبراني في الكبير (٢١٨)، والبيهقي في الكبرى (١١٦/١٠).

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴿١﴾ استشكلها عدي، لأنه كان نصرانيًّا، فقال: يا رسول الله، لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. فقال: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قلت: بلى. قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ».

فمعنى ﴿١﴾ أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴿١﴾ أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ فدلَّ هذا على أن من أطاع مخلوقًا في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، فقد اتخذ ربه يعبد من دون الله، وهذا ما يسميه العلماء بشرك الطاعة.

والشاهد من الآية للباب: أنها دلَّت على أن من معنى (لا إله إلا الله): أن لا يُطاع إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن من أطاع أحدًا في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذ ربه من دون الله، لكن إذا كان يعتقد أن تحليل الحرام وتحريم الحلال أمر جائز، فهذا شرك أكبر يخرج من الملة، أما إذا لم يعتقد جواز هذا، بل يعتقد أن التحليل والتحريم حقُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه فعله من باب الهوى، أو من باب تحصيل بعض المصالح، فهذه معصية عظيمة، لكنها لا تصل إلى حد الشرك الأكبر، فطاعة المخلوقين في تحليل الحرام وتحريم الحلال لا تجوز أبدًا، لكن فيها تفصيل من حيث الكفر والشرك وعدم ذلك.

والحاصل من هذا كله: أن الآية الكريمة دلَّت على أن من تفسير التَّوْحِيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن لا يُطاع إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحلال

والحرام، وأن من أطاع مخلوقاً في التحليل والتحريم فقد اتخذهُ ربّاً من دون الله عَزَّ وَجَلَّ. ويشهد لهذه آيات أخر؛ كما في سورة الأنعام لما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أن المشركين يستبيحون الميتة، مع أن الله حرّمها ونهى عباده عنها، وأخبر أن المشركين سيجادلون المؤمنين في ذلك، ثم قال: ﴿أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ إن أطعتم المشركين في استباحة الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، يعني: شرعوا لهم من الحلال والحرام والعبادة ما لم يأذن به الله، فالتشريع حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يجوز أن يُطاع فيه أحد من المخلوقين غير الرسل، فمن أطاع أحداً من المخلوقين في التشريع؛ فإنه قد اتخذهُ شريكاً لله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا من معنى (لا إله إلا الله)، وهو أفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالطاعة في تحريم ما حرّمه وتحليل ما أحلّه.



قال السدي: استنصحووا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم^(١).

ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فصار ذلك عبادتهم، وصاروا به أرباباً من دون الله، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

قوله: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى (لا إله إلا الله)، وتبين له التوحيد الذي جحدته أكثر من يدعي العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هذه الأمة.

وقد عمت البلوى بالجهل به بعد القرون الثلاثة المفضلة، لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم، وبُنيت عليها المساجد، وبُنيت لهم المشاهد،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٥) من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية.

فاتسع الأمر، وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد، لما حدث الغلو في الأموات، وتعظيمهم بالعبادة.

فبهذه الأمور التي وقع فيها الأكثر عاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»^(١)، وفي رواية: «يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ»^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (استنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم) يعني: أخذوا بأقوال الرجال، ولم يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا لا يجوز؛ لأن التوحيد، والشرك، والعبادات، والحلال، والحرام، تؤخذ من كتاب الله ومن سنة رسوله، فلا تؤخذ من العادات والتقاليد، وما عليه الآباء والأجداد، فالذين يعاندون الرسل بما عليه آبائهم وأجدادهم إنما يتمردون على عبادة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يشمل كل من أخذ باجتهاد مجتهد

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده (٧٣ / ٤) من حديث عبد الرحمن بن سَنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي إسناده إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة. قال الحافظ: «هو واهٍ»، وقال البخاري: «حديثه ليس بقائم». انظر: تعجيل المنفعة (١ / ٨٠٠)، ومجمع الزوائد (٧ / ٢٨٧).

وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٨٦٧) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهو في صحيح مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

من الفقهاء بدون معرفة دليل، لا بد إنه يعرف المستند، وأشد من ذلك إذا عرف أن قول هذا الفقيه مخالف لكتاب الله ولسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه أخذ به لأنه يوافق هواه، أو يوافق رغبات الناس والعياذ بالله؛ كما هو حال بعض المغرورين الآن، حيث يلتمسون من الكتب الرخص وأقوال الفقهاء، ولو خالفت نصوص الكتاب والسنة، فهذا أمر يدخل في طاعة الأحبار والرهبان.



وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾
الأنداد: الأمثال والنظراء؛ كما قال العماد ابن كثير وغيره من المفسرين^(١).

فكل من صرف من العبادة شيئاً لغير الله رغبة إليه، أو رهبة منه، فقد اتخذته ندّاً؛ لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره.

... — الشَّبَحُ — ...

الآية الرابعة: قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ تنمة الآية: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: بعض الناس، يعني: المشركين.
☀ قوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: غير الله.

☀ قوله: ﴿أَنْدَادًا﴾ جمع نَدٍّ، والنَّدُّ معناه: الشبيه والنظير والمثيل، يُقال: فلان نَدُّ فلان، بمعنى: أنه يشبهه، وأنه نظيره، وأنه يساويه، فاتخاذ الأنداد من دون الله معناه اتخاذ الشركاء، سُمُوا أَنْدَادًا لأن المشركين سَوَّوهم بالله عَزَّجَلَّ، وشبَّهوهم بالله عَزَّجَلَّ وأحبوهم محبة عبادة وتذلل.

☀ قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الحب: عمل قلبي ضد البُغْض، فالمشركون اتخذوا من الأحجار والأشجار والأصنام شركاء لله؛ سَوَّوهم

(١) انظر: تفسير الطبري (١/١٦٣)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٥٠)، وفتح الباري (٨/١٦٣)، وفتح القدير (١/٥٠).

بالله في المحبة، يحبونهم كما يحبون الله عَزَّوَجَلَّ، فالمراد هنا محبة العبادة، فالمشركون يحبون أصنامهم كما يحبون الله عَزَّوَجَلَّ محبة عبادة وتذلل.

❖ قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من المشركين لله، فالمشركون يحبون الله، والمؤمنون يحبون الله، ولكن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره، أما المؤمنون فيحبون الله وحده، ولا يشركون معه غيره في المحبة، فلذلك صار المؤمنون أشد حُبًّا لله؛ لأن محبتهم خالصة، ومحبة المشركين مشتركة، فدلَّت الآية على أن المشركين يحبون الله، ولكنهم لما أحبوا معه غيره صاروا مشركين، وأن التَّوحيد لا يصح إلا بإخلاص المحبة لله عَزَّوَجَلَّ.

فدلَّت الآية الكريمة على: أن من تفسير (لا إله إلا الله) وتفسير التَّوحيد أفراد الله بالمحبة، وأن لا يُحِبُّ معه غيره محبة عبادة بل يُفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالمحبة، ولا يُحِبُّ معه غيره محبة العبادة.



قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: فتوحيد المحبوب: أن لا يعدد محبوبه، أي: مع الله بعبادته، وتوحيد الحب: أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب وإن سُمي عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه، وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن لا تكون محبته لغير الله، فلا يحب إلا الله؛ كما في الحديث الصحيح: «ثَلَاثَ مَنْ كُنَّ فِيهِ...»^(١) الحديث.

ومحبة رسول الله هي من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي مُنْقِصَةٌ لمحبة الله، مُضْعِفَةٌ لها.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا هو المقياس في الحب والبغض، فمحبة المرء تابعة لمحبة الله، فأنْتَ لا تحب منَ الأشخاص إلا من يحبه الله، ولا تحب منَ الأعمال إلا ما يحبه الله، ولا تبغض منَ الأشخاص إلا من يبغضه الله، ولا تبغض من الأعمال إلا ما يبغضه الله عَزَّ وَجَلَّ، فيكون حبك وبغضك تابعين لمحبة الله وبغضه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه الضوابط العظيمة زلت فيه كثيرٌ من الأقدام، وضلت فيه كثير من الأفهام، بسبب عدم الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وعدم الرجوع إلى أهل العلم الراسخين، فحصل ما حصل بسبب الإهمال والتفريط من الفريقين: فريق الغالين، وفريق المتساهلين.

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ.

وهذا أمر ينبغي أن نتفطن له غاية التفطن؛ لأن الحملة الآن شرسة ضد هذا الباب، يريدون أن يقتلعوا الولاء والبراء من الإسلام، وألا يكون بين الناس فرق أبداً، ويقولون: كلهم بنو آدم، وكلهم إخوان، وكل له دينه، ويقولون: اليهود يعبدون الله، والنصارى يعبدون الله، ونحن نعبد الله. وهذا معناه أن الأديان صارت سواء كلها عبادة لله.

ومثل هؤلاء نرد عليهم من وجوه:

الوجه الأول: أن اليهود لا يعبدون الله وحده ولا يؤمنون بجميع الرسل، فهم كفار مشركون، والنصارى كذلك يعبدون المسيح ويقولون: هو ثالث ثلاثة، أو ابن الله، أو هو الله. تعالى الله عما يقولون، فهم لا يعبدون الله، وليسوا على دين.

الوجه الثاني: أنه بعد مجيء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبق دين إلا دين الإسلام، وجميع الأديان نسخت وانتهت ببعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأوجب الله على جميع البشر أن يطيعوا هذا الرسول، فمن لم يطعه فإنه كافر من أي نوع كان ومن أي ملة كان، وإن زعم أنه يعبد الله، أو زعم أنه تابع لموسى أو لعيسى، ومن زعم منهم أنه تابع لعيسى أو موسى فقد كذب؛ لأن موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ نزل عليهما أنه إذا بُعث محمد فإنه يجب عليهما اتباعه؛ كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]، فأخذ الله الميثاق على كل نبي أنه لو بُعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو

حي فإنه يتبعه، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿الَّتِي الْأُمَمِ الَّذِي يَحْدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحْدِ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، هذا الموجود في التوراة والإنجيل، فهم كذبوا في قولهم: إنهم يتبعون موسى، أو يتبعون عيسى.

وهناك من يقول: نرجع إلى دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما نريد يهودية ولا نصرانية ولا إسلام، بل نرجع إلى دين إبراهيم.

فنقول له: هل دين إبراهيم غير دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الجواب: أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث بدين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والرسول قبله بُعثوا بدين إبراهيم، فكل الرسل الذين جاءوا بعد إبراهيم كانوا على دين إبراهيم.

فالحاصل: أن المسلمين الآن في مفترق طرق بين هذه الفئات من الكفار ومن المنافقين، ومن أهل الزيغ والضلال الذين يريدون أن يتلاعبوا بالدين، وأن يحولوا الناس إلى الكفر، وأن يزيلوا الفوارق بين المسلمين والكفار، ويسمون الولاء والبراء كراهية للآخر، ويصفون الولاء والبراء بالغلو والإرهاب والتطرف، وقد صرحوا بهذا في مقالاتهم، ولا يزال عفنهم يصدر الآن في الصحف والجرائد.

فيجب أن نتفطن لهذا الأمر، وأن يزيد حرصنا على الفهم، ولا يكون على مجرد الغيرة، بل على الفهم الصحيح لدين الله عَزَّجَلَّ لا إفراط ولا تفريط في هذا الباب وغيره، لكن في هذا الباب بالذات؛ لأنه الآن هو محل العراك بين المسلمين وبين المنافقين وبين الكفار، فالمنافقون انضموا إلى الكفار الآن، فقد كانوا متربصين يتحينون الفرصة، فلما تنفس الكفار انحاز إليهم المنافقون من أبناء المسلمين، وصاروا ينادون بأفكار الكفار ويؤيدونها، فعلينا أن نتنبه لهذا الأمر، وألا ننخدع بهذه الدعايات المضللة.



وَيُصَدِّقُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ بِأَن تَكُونَ كِرَاهَتَهُ لَأَبْغَضِ الْأَشْيَاءِ إِلَى مَحْبُوبِهِ - وَهُوَ الْكُفْرُ - بِمَنْزِلَةِ كِرَاهَتِهِ لِلِقَائِهِ فِي النَّارِ أَوْ أَشَدَّ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَحَبَّةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُقَدِّمُ عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِهِ شَيْئًا، فَإِذَا قَدَّمَ مَحَبَّةَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ، بَحِثْ لَوْ خُيِّرَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْقَائِهِ فِي النَّارِ، لَاخْتَارَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ وَلَا يَكْفُرُ، كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ. وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ فَوْقَ مَا يَجِدُهُ الْعِشَاقُ مِنْ مَحَبَّةِ مَحْبُوبِهِمْ، بَلْ لَانْظِيرْ لِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ؛ كَمَا لَا مِثْلَ لِمَنْ تَعَلَّقَتْ بِهِ، وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَقْتَضِي تَقْدِيمَ الْمَحْبُوبِ فِيهَا عَلَى النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَتَقْتَضِي كِمَالَ الذَّلِّ وَالْخُضُوعِ، وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالَ، وَالطَّاعَةَ وَالْانْقِيَادَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. وَهَذَا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي مَحَبَّةِ مَخْلُوقٍ وَلَوْ كَانَ الْمَخْلُوقُ مِنْ كَانَ، وَلِهَذَا مِنْ أَشْرَكٍ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْمَحَبَّةِ الْخَاصَّةِ كَانَ شَرَكًا لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَنْدَادِ لِأَنْدَادِهِمْ، كَمَا تَقْدِمُ أَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ لَا يَبَايِلُهَا مَحَبَّةُ مَخْلُوقٍ أَصْلًا، كَمَا لَا يَبَايِلُ مَحْبُوبَهُمْ غَيْرَهُ، وَكُلُّ أَذَى فِي مَحَبَّةِ غَيْرِهِ هُوَ نَعِيمٌ فِي مَحَبَّتِهِ، وَكُلُّ مَكْرُوهٍ فِي مَحَبَّتِهِ غَيْرُهُ فَهُوَ قَرَّةٌ عَيْنٍ فِي مَحَبَّتِهِ^(١). انْتَهَى.

قلت: وهو قول مجاهد^(٢).

(١) انظر: روضة المحبين (ص ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) انظر: تفسير مجاهد (١/ ٩٣)، وتفسير الطبري (٢/ ٦٦)، وفتح القدير (١/ ١٦٦).

قال في الكافية الشافية:

وحياة قلب العبد في شيئين مَنْ يُرْزَقُهُمَا يَحْيَى مَدَى الْأَزْمَانِ
 ذَكَرَ إِلَهَهُ وَحَبَهُ مِنْ غَيْرِ إِشْرَافٍ رَأَى بِهِ وَهْمًا فَمَمْتَنَعَانِ
 مِنْ صَاحِبِ التَّعْطِيلِ حَقًّا كَامِ تَنَاعَ الطَّائِرُ الْمَقْصُوصُ مِنْ طَيْرَانِ^(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ما معناه: فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة، أو تفريج كربة؛ لزم أن يكون محبًّا له، ومحبه هي الأصل في ذلك. انتهى لفظه.

قلت: فمن أحب مع الله غيره لم ينف ما نفته (لا إله إلا الله) من الشرك، ولم يثبت ما أثبتته من التوحيد، بل قد جعل مع الله شريكًا في إلهيته. وقد تبين أن الإلهية هي العبادة، فنفيها عما سوى الله وإثباتها لله وحده بجميع أنواعها؛ هو معنى (لا إله إلا الله)؛ كما تقدم بيانه.

... — الشَّيْخُ — ...

الحب والبغض يجب أن يكونا في الله، وليس من أجل الدنيا، فلو أنه ما أعطاك شيئًا، أو أخذ منك شيئًا هل تبغضه؟ الجواب: لا، لكن تحبه في الله أو تبغضه في الله؛ وليس لأجل الدنيا، وهذا أوثق عرى الإيمان. يقول عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من أحب في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنها تنال ولاية الله بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك»، وقال في ختام كلامه:

(١) انظر: التونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٧٢).

«وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا فذلك لا يجدي على أهله شيئاً»^(١).

فهذا الباب باب عظيم، وهو أوثق عرى الإيمان، والآيات في القرآن الكريم كثيرة في حب المؤمنين وبغض الكافرين، وموالة المؤمنين ومعاداة الكافرين.

وهذا من حقوق كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فكما أن (لا إله إلا الله) براءة من الشرك فهي أيضاً براءة من المشركين، وكما أنها محبة لله وعبادة لله فهي أيضاً محبة للمتقين والمؤمنين، فأنت تحب من يحبهم الله، وتعادى مَنْ عاداهم، والله عَزَّجَلَّ قال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، الله عَزَّجَلَّ لا يحب الكافرين لأنهم أعداؤه، فأنت كذلك لا تحبهم، بل تحب من يحبه الله، وتبغض من يبغضه الله.

وهنا يجب التفريق بين المحبة التي هي عبادة، والمحبة الطبيعية، فإذا كنت تحب غير الله عَزَّجَلَّ مثل محبة الله أو أعظم فهذا مخرج من الملة، وهو شرك أكبر، والمحبة التي يدخلها الشرك هي محبة العبادة؛ المحبة التي معها ذلة للمحبوب، وهذه لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا يُعرف كثير من العلماء العبادة بأنها غاية الحب مع غاية الذل، فهذه لا تكون إلا لله عَزَّجَلَّ، أما إذا أحببت شيئاً وأنت لا تذلل له، فهذه محبة طبيعية، مثل: محبة المال، والزوجة، والوالدين، والأولاد، هذه محبة طبيعة ليس معها ذل للمحبوب، وهي محبة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٤ / ٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٤٠٦ / ١)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩٣٥ / ٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠ / ٧).

مباحة، إلا إذا قُدِّمت على محبة الله، فالذي يُقبل على تجارته، أو لذته وشهوته، أو على أكله وشربه، ويترك صلاة الجماعة - مثلاً - هذا قدم المحبة الطبيعية على محبة العبادة، ويكون متوعدًا بالوعيد، ولكنه ليس بكافر.

فلا يجوز أن تقدم على محبة الله محبة أحد كائنًا من كان؛ لأنها عبادة، حتى لو كان المحبوب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمحبة الله خاصة به، لا يشاركه فيها أحد؛ لأنها أعظم أنواع العبادة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له محبة تليق به، وبرسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعظم المخلوقين محبة هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنها لا تساوي محبة الخالق عَزَّوَجَلَّ.



وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ»^(١).

قوله: [فِي الصَّحِيحِ] أي: صحيح مسلم: عن أبي مالك الأشجعي، عن أبيه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكره.

وأبو مالك: اسمه سعد بن طارق، كوفي ثقة، مات في حدود الأربعين ومائة، وأبو طارق بن أشيم - بالمعجمة والمثناة التحتية، وزن (أحمر) - ابن مسعود الأشجعي، صحابي له أحاديث.

قوله: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ»: اعلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علق عصمة المال والدم بأمرين في هذا الحديث: الأول: قول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) عن علم ويقين؛ كما هو قيد قولها في غير ما حديث.

والثاني: الكفر بما يُعبد من دُونِ اللَّهِ، لكن ذكر في هذا الحديث «وَكَفَرَ» تأكيداً لما دلت عليه؛ لأن المقام عظيم يقتضي التأكيد.

قوله: «حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ»: فيه دليل أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وكفر بما يُعبد من دُونِ اللَّهِ، فإن قالها ولم يكفر بما يُعبد من دُونِ اللَّهِ؛ فدمه وماله حلال، لكونه لم يُنكر الشرك ويكفر به، ولم ينفعه كما نفته (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فتأمل هذا الموضع فإنه عظيم النفع.

قال المصنف: وهذا من أعظم ما يُبين معنى (لا إله إلا الله)، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها ولفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه.

فيها لها من مسألة ما أجلها! ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع!. انتهى.

قوله: «وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ» أي: الله تعالى هو الذي يتولى حسابه، فإن كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقًا عذبه بالعذاب الأليم، وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر.

... — الشَّبَحُ — ...

❖ في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حُرِّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ» عُلِّقَ حُرْمَةُ الْمَالِ وَالدَّمِ عَلَى شَيْئَيْنِ:

الأول: أن ينطق بكلمة لا إله إلا الله.

الثاني: أن يكفر بما يُعبد من دون الله.

فإذا تحقق هذان الشيئان حرُم ماله ودمه، لأنه صار مسلمًا، والمسلم حرام الدم والمال.

❦ قوله: «وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ» إن كان صادقاً في قول هذه الكلمة فإنه يكون مسلماً حقاً، باطناً وظاهراً ويدخل الجنة، وإن كان قالها ظاهراً فقط فهذا هو النفاق، وذلك يُحقن دمه ويَحْرُم ماله، ولكنه في الآخرة من أهل النار، قال عَزَّجَلَّ: ❦ إِنَّ الْمُتَنَفِّعِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ❦ [النساء: ١٤٥].

فمن قال: (لا إله إلا الله) كَفَفْنَا عنه، وحقنا دمه، وحرّمنا ماله، أما دخوله الجنة، وكونه مؤمناً حقاً، فهذا عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يعلم ما في القلوب، ويجازي عليها، وحسابه على الله عَزَّجَلَّ، وإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حُكم عليه بالردة.

الحاصل: أن هذا الحديث يَبَيِّن معنى التّوحيد، ومعنى (لا إله إلا الله)، وأنه النطق بالشهادة مع الكفر بما يُعبد من دون الله عَزَّجَلَّ والبراءة منه، أما لو قال: (لا إله إلا الله)، وهو لا يكفر بما يُعبد من دون الله؛ بأن كان يعبد القبور، ويدعو الأولياء والأضرحة، فهذا لم يكفر بما يُعبد من دون الله، ولا يحْرُم دمه، ولا يحْرُم ماله؛ لأنه لم يأت بالأمرين، وإنما أتى بأمر واحد، وهو قول: (لا إله إلا الله)، ولكنه لم يكفر بما يُعبد من دون الله؛ لأنه يقول إن عبادة القبور ليست بشرك، فهو لم يكفر بما يُعبد من دون الله.

فهذا الحديث عظيم جدّاً، وهو حجة للموحّدين على أصحاب الشبه والمشرّكين، الذين يقولون: من قال: (لا إله إلا الله) فهو المسلم ظاهراً وباطناً، ولو فعل ما فعل؛ يعبد القبور، ويذبح للأولياء والصالحين، ويعمل السحر والشعوذة، ويعمل كل شيء، هو مسلم حقّاً ما دام يقول: لا إله إلا الله.

ولهذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (لم يجعل النطق بلا إله إلا الله، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله، بل ولا معرفة معنى هذه الكلمة، لم يجعل كل هذه الأمور عاصمة للدم والمال حتى يضيف إليها الكفر بما يُعبد من دون الله)، فالذي يقول: أنا لا أُكفر الذين يعبدون الحسن والحسين والبدوي؛ لأنهم يقولون: (لا إله إلا الله)؛ هم إخواننا، لكن أخطأوا. نقول له: أنت مشرك مثلهم؛ لأنك لم تكفر بما يُعبد من دون الله، والله عَزَّجَلَّ قدَّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا بد من الكفر بالطاغوت، ولا بد من الكفر بما يُعبد من دون الله عَزَّجَلَّ، واعتقاد بطلانه، والبراءة منه ومن أهله، وإلا فلا يصير الإنسان مسلماً؛ لأن هذا تلفيق بين الإسلام والكفر، ولا يجتمع الكفر والإسلام أبداً.

فهذا الحديث على اختصاره منهج عظيم، يبيِّن معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنها ليست مجرد لفظ يُقال باللسان، ويردّد في الأذكار والأوراد، وإنما هي حقيقة تقتضي منك أن تكفر بما يُعبد من دون الله، وأن تتبرأ من المشركين، ولو كان أقرب الناس إليك، كما تبرأ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ من أبيه وأقرب الناس إليه.



وَشَرَحَ هَذِهِ التَّرْجِمَةَ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ.

فِيهِ أَكْبَرُ الْمَسَائِلِ وَأَهْمُهَا: وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ، وَتَفْسِيرُ الشَّهَادَةِ، وَبَيْنَهَا بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ:

مِنْهَا: آيَةُ الْإِسْرَاءِ، بَيَّنَّ فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الصَّالِحِينَ، فَفِيهَا بَيَانٌ أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

وَمِنْهَا: آيَةُ بَرَاءَةٍ؛ بَيَّنَّ فِيهَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ، وَرُهبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا إِلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، مَعَ أَنَّ تَفْسِيرَهَا الَّذِي لَا إِشْكَالَ فِيهِ: طَاعَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبَادِ فِي الْمَعْصِيَةِ، لَا دُعَاؤُهُمْ إِيَّاهُمْ.

وَمِنْهَا: قَوْلُ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْكَفَّارِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، فَاسْتَشْنَى مِنَ الْمَعْبُودِينَ رَبَّهُ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْبَرَاءَةَ وَالْمُؤَالَاةَ هِيَ تَفْسِيرُ شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وَمِنْهَا: آيَةُ الْبَقَرَةِ فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿فَتَنَبَّرُوا مِنْهُمْ كَمَا تَنَبَّرُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧]، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ حُبًّا عَظِيمًا، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَكَيْفَ بِمَنْ أَحَبَّ النَّدَّ حُبًّا أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ اللَّهِ؟! فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يُحِبَّ إِلَّا النَّدَّ وَحْدَهُ وَلَمْ يُحِبَّ اللَّهَ؟!.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَمَ مَالُهُ وَدَمُّهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلَفُّظَ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالْمَالِ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةً مَعْنَاهَا، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةً مَعْنَاهَا، وَلَفْظُهَا، بَلْ وَلَا الْإِقْرَارَ بِذَلِكَ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَدْعُو إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ لَا يَحْرُمُ دَمُهُ وَمَالُهُ حَتَّى يُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ الْكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَرَدَّدَ لَمْ يَحْرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ.

فَيَا هَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَجَلَّهَا ! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَّهُ، وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازَعِ!

قوله: [وَشَرَحُ هَذِهِ التَّرْجِمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ]: فقد ذكر فيها رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ما يبيِّن التوحيد وما ينافيه، وما يقرب من الشرك، وما يوصل إليه من الوسائل، وبيان ما كان عليه السلف من بُعْدِهِمْ عن الشرك في العبادة، وشدة إنكارهم له، وجهادهم على ذلك.

وقد جمع هذا الكتاب، على اختصاره - من بيان التوحيد ما يُعذر أحد عن معرفته، وطلبه بإقبال وتدبر، وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك، واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع، فتدبره تجد ذلك بيّنًا، وسيأتي التنبيه على ذلك - إن شاء الله تعالى - فيما يأتي من الأبواب.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَشَرَحُ هَذِهِ التَّرْجِمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ) أي: أن



.....

الأبواب الآتية إلى آخر كتاب التوحيد، كلها تفسير لهذه الكلمة، مثل باب: النهي عن لبس الحلقة والخيط، والتبرك بالأشجار والأحجار، وباب السحر، وباب التنجيم، وباب ما جاء في الطيرة، وباب الرقى والتائم، إلى آخر ما في هذا الكتاب من الأبواب، كله يفسر التوحيد، ويفسر معنى: لا إله إلا الله.



٦- بَابُ

مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ
وَنَحْوَهُمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّ﴾ [الزمر: ٣٨].

قوله: [بَابُ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوَهُمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ] أي: لرفعه إذا نزل، ودفعه قبل أن ينزل، يعني: إذا كان هو القصد فتعلق قلبه به في دفع ضرر مما قد نزل وما لم ينزل، قد صرحت الأحاديث بأن هذا من الشرك بالله.

قوله: [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾]، قال مقاتل: فسألهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسكتوا؛ لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها.

قلت: فإذا كانت آلهتهم التي يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضرر أراده الله بعبده، أو تمسك رحمة أنزلها على عبده، فليلزم بذلك أن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ هو معبودهم وحده، لزومًا لا محيد عنه.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب: أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر في الباب الذي قبله بيان معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وتفسير التوحيد، وأن ذلك هو

عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه؛ ناسب أن يذكر في هذا الباب وما بعده أشياء من الشرك الأكبر أو الأصغر، الذي هو ضدّ التّوحيد، وضدّ شهادة أن لا إله إلا الله، أو منقص لهما.

❁ قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابٌ مِنَ الشُّرْكِ) أي: من أنواع الشرك، قد يكون من الشرك الأكبر، وقد يكون من الشرك الأصغر؛ كما يأتي، (لُبْسُ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوَهُمَا) الحلقة: هي ما يحيط بالشيء؛ الشيء المدور الذي يحيط بالعضو، كالإصبع، والعضد، والذراع، الشيء المستدير على الشيء، والخيط: معروف ربط الخيط على العضو، هذا معنى لبس الحلقة والخيط، أي وضعهما على الجسم، (لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ) لهذا الغرض، أما إذا كان لبس الحلقة أو لبس الخيط لغير هذا الاعتقاد فلا مانع منه، إنما إذا كان الغرض منه دفع البلاء الذي قد ينزل، أو رفعه إذا نزل؛ لأنه لا يدفع البلاء ولا يرفعه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمن اعتقد أن الخيط أو الحلقة أو غيرهما؛ من الخرز، والودع، والتمايم، والحروز، والحجب، ونحو ذلك، تنفع أو تضر، فقد أشرك بالله عَزَّجَلَّ؛ لأنه اعتقد في غير الله لدفع الضر أو جلب الخير، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨]، و(ما) هنا في قوله: ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ موصولة، وهي عامة من صيغ العموم، يعني: جميع ما تدعون من دون الله، ويدخل فيها الخيط، والحلقة، والودعة، والتميمة.

فهذه الآية أمر فيها الله عَزَّجَلَّ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسأل المشركين الذين يعبدون ويدعون غير الله عَزَّجَلَّ، أن يسألهم هل هذه الأشياء التي يدعونها تدفع عنهم الضر، أو تجلب لهم الخير، وهل هي تقدر على منع ما أراد الله لعباده من خير أو شر؟ سألهم هذا السؤال فلم يجيبوا؛ لعلمهم أن هذه الأشياء لا تنفع ولا تضر، وإلا لو كانوا يعتقدون فيها ذلك لأجابوا، فلم يجيبوا.

فالسؤال مطروح إلى يوم القيامة، أي مشرك من هؤلاء موجه له هذا السؤال أن يجيب عليه، ولم يجب أحد من هؤلاء المشركين قديماً ولا حديثاً، فدل على بطلان هذا العمل، وأنه شرك بالله عَزَّجَلَّ، ولهذا قال في ختام الآية: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيني عن هذه الأشياء، فلا حاجة لي بغير الله، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ المرء يعتمد على الله ولا يعتمد على غيره؛ من الخيوط، والحلقات، والخرز، والودع، والحجب، والخروز، والتائم، وغير ذلك، يعتمد على الله ويتوكل عليه؛ لأنه سبحانه هو النافع الضار.



وذكر عَزَّجَلَّ مثل هذا السؤال عن خليله إبراهيم لمن حاجه في الله، فقال:
﴿ قَالَ أَنَا أَحْيَى وَأُمِيتُ ﴾ قال إبراهيم: ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فأقام عَزَّجَلَّ الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره
به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك، وهذا في القرآن كثير؛ كقوله عَزَّجَلَّ:
﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ
مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ
أَوَّهَكَ الْبُيُوتَ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣]، وقال
عَزَّجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ
غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

... — الشَّبَحُ — ...

هذا النمروذ الملك الجبار لما قال له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ ﴾ قال له الجبار: ﴿ أَنَا أَحْيَى وَأُمِيتُ ﴾ زعم أنه إذا أتى إلى مستحق
للقتل فعفا عنه ولم يقتله فقد أحياه، وإذا أتى إلى آخر وقتله فقد أماته، فقال:
﴿ أَنَا أَحْيَى وَأُمِيتُ ﴾ وهذا من باب المكابرة، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أعرض عن

هذا ولم يرد عليه في هذا، لكن جاء له بشيء لا يستطيع التحايل فيه، فقال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ يعني: إذا كنت تحيي وتميت كما تزعم فأت بالشمس من المغرب. ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ واختزى أمام الناس ولم يستطع الجواب، مع أنه ملك جبار.

✽ قوله: (فأقام الله عَزَّجَلَّ الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك، وهذا في القرآن)؛ فالقرآن كله براهين وأدلة على التوحيد، وفيه الرد على الشرك والمشركين، لكن يحتاج إلى تدبر وتأمل.

✽ قوله: (كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَأَنصِتُ إِلَيْهِمْ إِنَّ ذَبَابًا مُّسَوِّغًا لَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ لَهُمْ يَسْأَلُهُمْ فِيهَا حَاقِلَهُمْ﴾) الله عجز أهتهم كلها، وتحداهم أن يخلقوا ذبابة، وهي أضعف المخلوقات، فلم يستطيعوا أن يخلقوا ذبابة، فدل على بطلان أهتهم؛ لأنها عاجزة، وهذا المثل الذي ضربه الله عَزَّجَلَّ باقٍ ومستمر إلى يوم القيامة لجميع الناس، يتحداهم الله عَزَّجَلَّ أن يخلقوا هذا الذباب الضعيف، فلم يستطع أحد أن يخلق وأن ينفخ الروح في هذه الأشياء؛ لأن هذا من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والناس الآن يصورون صورًا، وينمقونها، وينحتون التماثيل، فإذا رأيتها تظنها إنسانًا، متكاملة في ملامحها وفي صفاتها، لكن ليس فيها روح، فهم لا يستطيعون أن

ينفخوا فيها الروح، ولا يستطيعون أن يجعلوا فيها لحمًا ودماً وعروفاً، ولا أن يجعلوها تبصر وتسمع، إنما هي صورة فقط، فهذا تعجيز لهم.

❁ قال: (وقال عَزَّجَلَّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ الآية)؛ ذلك أن بيت العنكبوت لا يقي من الحر ولا من البرد، ولا يظلل من الشمس، فكذلك آلهة المشركين لا تنفع ولا تضر، فوجودها كعدمه سواء مثل بيت العنكبوت، أيضاً بيت العنكبوت ضعيف جداً أي شيء يمسه ينقضه، لا يستطيع البقاء والمجابهة، وكذلك هذه الآلهة ضعيفة جداً.

❁ قال: (وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الآية) لا يخلقون شيئاً، وهذه صفة يشترك فيها كل المخلوقات مهما أوتيت من القوة والقدرة، فالذين يخترعون الطائرات، والبوارج، والمراكب، والقاذفات، والصناعات الدقيقة، لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً، ولا ذرة، ولا نملة، فدل على عجزهم وضعفهم.



قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في هذه الآية، ما رواه ابن أبي حاتم عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس مرفوعاً: «اَحْفَظِ اللهَ يَحْفَظُكَ، اَحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، جَفَّتِ الصُّحُفُ، وَرُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).

... — الشَّبَحُ — ...

فالأمور كلها مرجعها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي يستحق أن يُعبد، وأن يُتوكل عليه، وأن يُدعى، ويُرجى، ويُخاف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما عداه فإنه خلق من خلق الله، مسخر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إن شاء سلَّطه عليك وإن شاء منعه عنك، ما في الأرض من الأشرار من بني آدم، ومن الشياطين من الجن والإنس، ومن الحيَّات والسباع، ومن سائر الأشياء الضارة، كلها بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إن شاء سلَّطها عليك، وإن شاء أمسكها عنك، فلا تخف من غير الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الخير بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فلا يملك أحد من الخلق أن يُعطيك شيئاً من الخير إلا

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (٢٩٣/١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٣٩٥)، وأبو يعلى في مسنده (٤٣٠/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٢١٧). وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٥).

إذا أَرَادَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَكَ، ويكون هذا المخلوق سبباً فقط أجرى الله على يده الخير لك، أو أجرى الله على يده الضرر عليك.

فما هي إلا أسباب، وإلا فما من شك أن النار تُحْرَقُ، وأن السَّبُعَ يفترس، وأن العدو يَفْتِكُ بعده، ولا شك أن الله خلق أشياء فيها ضرر، ولكن هذه الأشياء جنود من جنود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نواصيها بيده عَزَّجَلَّ: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، فإذا أَرَادَ اللهُ سَلَّطَ عليك هذه الجنود، أو حبسها عنك، فلا تعلق قلبك إذاً إِلَّا بالله عَزَّجَلَّ، ولا تتوكل إِلَّا عليه، ولا تُفَوِّضْ أمورك إِلَّا عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يمنع هذا من أن تتخذ الأسباب الجالبة للخير، والأسباب الواقية من الشر، ولكن الاعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلَقَةً مِنْ صُفْرٍ فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. قَالَ: «انْزِعْهَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَىكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رواه أحمد بسند لا بأس به^(١).

قوله: [عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ] أي: ابن عبيد بن خلف الخزاعي، أبو نجيد - بنون وجيم، مصغر - صحابي ابن صحابي، أسلم عام خيبر، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة.

قوله: [رَأَى رَجُلًا]، وفي رواية الحاكم^(٢): دخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: «ما هذه؟»... الحديث^(٣)، فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث. قوله: (ما هذه؟) الظاهر أنه للإنكار عليه.

قوله: (من الواهنة) قال أبو السعادات^(٤): الواهنة عرق يأخذ في المنكب

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٣١)، وأحمد (٤٤٥/٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٤٩/١٣)، والطبراني في الكبير (٤١٤).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم، الضبي، الطهماني، الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع، صاحب المستدرک وغيره من الكتب المشهورة، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وطلب العلم في صغره وأول سماعه سنة ثلاثين ورحل في طلب الحديث وسمع الكثير على شيوخ يزيدون على ألفين، توفي سنة خمس وأربعمائة. انظر: تاريخ بغداد (٤٧٣/٥)، ووفيات الأعيان (٢٨٠/٤)، وسير أعلام النبلاء (١٦٢/١٧)، وطبقات الشافعية (١٩٣/٢)، وطبقات الشافعية الكبرى (١٥٥/٤).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢١٦/٤)، والطبراني في الكبير (٣٤٨).

(٤) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، مجد الدين أبو السعادات =

وفي اليد كلها فيرقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العضد، وهي تأخذ الرجال دون النساء^(١).

وإنما نهاه عنها لكونه يظن أنها تمتنع عنه هذا الداء أو ترفعه، فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنزعها لذلك، وأخبر أنها لا تزيد إلا وهناً، فإن المسلم يُعامل بنقيض قصده؛ لأنه علّق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه. فإذا كان هذا في حلقة صفر، فما الظن فيما هو أطم وأعظم؟! كما وقع من عبادة القبور، والمشاهد، والطواغيت، وغيرها، كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: [فيه شاهد لكلام بعض الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر^(٢)، وأنه لم يعذر بالجهالة؛ لقوله: «فَإِنَّكَ لَوِ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»، والفلاح: هو الفوز والظفر والسعادة.

=الشياني الجزري، الشافعي، المعروف بابن الأثير، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير، وقرأ القرآن وأتقن علومه وحررها، وكان مقامه بالموصل، وقد جمع في سائر العلوم كتباً مفيدة، منها: «جامع الأصول الستة»، و«النهاية في غريب الحديث»، و«شرح مسند الشافعي»، و«التفسير» في أربع مجلدات، وغير ذلك في فنون شتى، توفي سنة ست وستمئة. انظر: طبقات الشافعية (٢/ ٦٠)، والعبر (٥/ ١٩)، والبداية والنهاية (١٣/ ٥٤)، وشذرات الذهب (٥/ ٢٢).

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ٢٣٣).

(٢) أخرج الطبري في تفسيره (٥/ ١٢٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «كُنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نَشْكُ فِي قَاتِلِ النَّفْسِ، وَآكِلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَشَاهِدِ الزُّورِ، وَقَاطِعِ الرَّحِمِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَأَمْسَكْنَا عَنِ الشَّهَادَةِ، وَقَدْ أَبَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ كُلَّ صَاحِبِ كِبِيرَةٍ فِيهِ مَشِيئَةُ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ مَا لَمْ تَكُنْ كِبِيرَةً شَرَكًا بِاللَّهِ» اهـ.

قوله: [رواه أحمد بسند لا بأس به]، هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي، إمام أهل عصره، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعًا ومتابعة للسنّة، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنّة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأبأها، والشبه فنفاها^(١).

روى عن الشافعي، ويزيد بن هارون^(٢)، وعبد الرحمن بن مهدي^(٣) ويحيى القطان^(٤)،

(١) هذا القول لأبي عمير عيسى بن محمد بن إسحاق بن النحاس الرملي، المتوفى سنة ست وخمسين ومائتين. انظر: تاريخ دمشق (٥/ ٢٩١)، والبداء والنهاية (١٠/ ٣٣٦)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٨).

(٢) هو يزيد بن هارون بن زاذي بن ثابت أبو خالد السلمي مولا هم، من أهل واسط، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، وتوفي سنة ست ومائتين، قال علي بن المديني: «ما رأيت رجلاً قط أحفظ من يزيد بن هارون»، وقال الذهبي: «كان رأساً في العلم والعمل، ثقة حجة كبير الشأن». انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٣١٤)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٣٣٧)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٣٥٨)، والعبر (١/ ٣٥٠)، وشذرات الذهب (٢/ ١٦).

(٣) هو الإمام الحجة القدوة عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن أبو سعيد العبدي، وقيل مولى الأزدي، صاحب اللؤلؤ، كان من الحفاظ المتقنين وأهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع وتفقه وصنف وحدث، وما كان يروي إلا عن الثقات، ولد سنة خمس وثلاثين ومائة وتوفي بالبصرة سنة ثمان وتسعين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٢٩٧)، وتاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٠)، وشذرات الذهب (١/ ٣٥٥)، وطبقات الحفاظ (ص ١٤٤).

(٤) هو يحيى بن سعيد بن فروخ أبو سعيد القطان الأحول، يُقال: مولى بني تميم من أهل البصرة، كان من سادات أهل زمانه حفظاً وورعاً وعقلاً وفهماً وفضلاً ودينًا وعلماً، وهو الذي مهد لأهل العراق رسم الحديث، وأمعن في البحث عن النقل، وترك الضعفاء، ومنه تعلم علم الحديث أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، ولد سنة عشرين ومائة، وتوفي سنة ثمان وتسعين ومائة، قال عنه الإمام أحمد: «ما رأيت بعيني مثله»، انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ١٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ١٧٥)، وشذرات الذهب (١/ ٣٥٥).

وابن عيينة^(١)، وعبد الرزاق^(٢)، وخلق لا يحصون، مات سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٣).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه - هو وأبوه من أفاضل الصحابة رضوان الله عليهم.

❦ قوله: (أَنَّ النَّبِيَّ رَأَى رَجُلًا) لم يُسَمَّ هذا الرجل، لكن جاء في بعض الروايات الأخرى أن هذا الرجل هو عمران نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❦ قال: «فِي يَدِهِ حَلَقَةٌ» الحلقة: الشيء المستدير الذي يُدار على العضد، أو على الذراع، أو على الأصبع. فالشيء المستدير يسمى حلقة، ومنه تحلق القوم إذا استداروا في الجلوس.

❦ قال: «من صُفْرٍ» أي: من مادة الصفر، وهو نوع من الحديد معروف.

(١) هو الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، الكوفي ثم المكي، مولده سنة سبع ومائة في نصف شعبان، ووفاته سنة ثمان وتسعين ومائة، طلب الحديث وهو غلام، وكان إمامًا عالمًا ثبتًا حجة زاهدًا ورعًا مجتمعا على صحة حديثه وروايته. انظر: الطبقات الكبرى (٤٩٧/٥)، والوافي بالوفيات (١٧٥/١٥)، ووفيات الأعيان (٣٩١/٢).

(٢) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع، أبو بكر الحميري، مولا هم الصنعاني، ولد سنة ست وعشرين ومائة، وتوفي باليمن سنة إحدى عشرة ومائتين، قال الإمام أحمد: «أُتِيَنَاهُ قَبْلَ الْمَائَتَيْنِ وَهُوَ صَحِيحُ الْبَصَرِ، وَمَنْ سَمِعَ مِنْهُ بَعْدَ مَا ذَهَبَ بَصَرُهُ فَهُوَ ضَعِيفُ السَّمْعِ» اهـ. انظر: الطبقات الكبرى (٥٤٨/٥)، ووفيات الأعيان (٢١٦/٣)، وسير أعلام النبلاء (٥٦٤/٩)، والوافي بالوفيات (٢٤٤/١٨)، وطبقات الحفاظ (ص ١٥٩).

(٣) راجع ترجمة الإمام أحمد (ص ١٥٦).

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا هَذِهِ؟» الظاهر أنه سؤال إنكار، وقيل: إنه سؤال استفهام، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله عن قصده في هذه الحلقة. ففيه دليل على وجوب إنكار المنكر، وفيه دليل على أن الإنسان لا ينكر شيئاً حتى يعرف مقصود صاحبه إذا كان الشيء محتملاً، فإن كان مقصود صاحبه شراً فإنه ينكره.

❦ قال: «من الوَاهِنَةِ» نوع من المرض، أي: أنها تقيني من مرض الواهنة، على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، هذا اعتقادهم أن من لبسها لم يصبه هذا المرض، فالرجل يَبِّن الغرض من لبس هذه الحلقة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْزِعْهَا» النزع: الرفع بشدة، أي: ارفعها مسرعاً بنزعها ونشيطاً في رفعها لا تتوان في تركها على جسمك، انزعها نزعاً حسيّاً، ونزعاً معنوياً، فلا تعتقد فيها، ثم علَّل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك بقوله: «فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا» والوهن: الضعف والمرض، أي: تزيدك ضعفاً في الجسم وضعفاً في العقيدة، وتبقى دائماً في وهن وفي ضعف، تتوقع كل مكروه؛ لأنك لم تعتمد على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم تتوكل عليه.

فالذي يُبْتلى بهذا الاعتقاد تجده دائماً خائفاً وجلاً من كل شيء، يتوقع الشر من كل شيء، فهو في قلق وضعف وخوف دائم، أما الذي يتوكل على الله فإنه يعتقد ويؤمن أنه لا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، فيكون قوياً ثابتاً شجاعاً، مرتاح النفس والعقيدة.

ثم إن هذه ليست من الأسباب العلاجية أو الطبية حتى يُقال: إنها من باب العلاج، فالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لم يجعل لبس الحلقة أو عقد الخيط على الذراع

أو الساق أو الإصبع أو العنق سبباً من أسباب الشفاء، ولا جعله دواءً، وإنما هذا من تزيين الشياطين لإغواء بني آدم.

❦ فقوله: «انزعها» فيه أمر بإزالة المنكر، وبين السبب بقوله: «فإنها لا تزيدك إلا وهناً» هذا في الدنيا، وأشد من ذلك في الآخرة: «فإنك لو مت وهي علىك ما أفلحت أبداً»، فمن مات على الشرك فإنه لا يفلح في الآخرة أبداً والعياذ بالله؛ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وكما في حديث جابر رضي الله عنه الذي سبق: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(١).

فالذي يعلّق هذه الأشياء، ويعتقد فيها أنها تدفع الضرر وتجلب النفع بنفسها، فهذا شرك أكبر، وإن كان يعتقد أن النافع والضرار هو الله، ولكن جعل هذه المعلقات من باب الأسباب، فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل هذه أسباباً للعلاج، إنما الأسباب النافعة معروفة، مثل: الرقية بالقرآن، والأدوية المباحة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»^(٢). فهي شرك على كل حال، إما شرك أكبر، أو أصغر.

❦ قوله: (قال المصنف رحمه الله تعالى: فيه شاهد لكلام بعض الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر. وأنه لم يعذر بالجهالة)؛ ذلك لأن الله عز وجل

(١) سبق تخريجه (ص ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أقام الحجة على جميع خلقه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فلم يبق لهم حجة حتى يقولوا: ما بلغنا من شيء.

وكثير من المتعالمين الآن يلتمسون الأعذار لهؤلاء المشركين وعباد القبور، ويقولون: يُعذرون بالجهل!. لكن إلى متى يُعذر العبد بالجهل؟ الجهل كان قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد البعثة فقد زال الجهل والحمد لله، ولم يبق على العبد إلا أن يسعى لطلب العلم، وسؤال أهل العلم، وهؤلاء يسمعون القرآن والأحاديث، ويسمعون كلام أهل العلم في الدعوة إلى التوحيد، ويرفضون هذا، ويبقون على عاداتهم وعادات آبائهم، فهل هؤلاء جهال؟!

❁ قال: «رواه أحمد»، هو: الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الإمام الجليل، أحد الأئمة الأربعة، شيخ المحدثين رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو الإمام الذي امتحن وصبر، امتحن في العقيدة على يد المأمون، والمعتصم، والواثق، من خلفاء بني العباس؛ لأن المأمون تأثر بالمعتزلة، فأدخلوا عليه أشياء مستنكرة، منها: القول بخلق القرآن -والعياذ بالله- ومنها: تعريب الكتب الرُّومية وكتب الأمم الكافرة، التي لما عُرِّبَت دخل على عقائد المسلمين منها الشر الكثير، وهذا كله بسبب المعتزلة، لأنهم غرّروا بهذا الخليفة.

ففي هذا خطر الفرق الضالة، وخطر مصاحبتها والقرب منها؛ ولهذا كان السلف يُحذِّرون من مصاحبة المبتدعة ومن مجالستهم؛ لأنهم يُؤثِّرون على من يصاحبهم، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

بِطَانَةٍ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ
وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨].

فهؤلاء لما صاحبوا هذا الخليفة استمالوه معهم، فصار ضد أهل السنة، ووقف الإمام أحمد في وجهه، وأبى أن يقول بخلق القرآن، حتى ضرب وسُجن وعُذِّب، ولكنه صبر رَحِمَهُ اللَّهُ وصابر، وتعاقب عليه ثلاثة خلفاء، كلهم ضده: المأمون، والمعتصم، والواثق، ولكنه وقف بحزم وثبات، ولم يُخضع لهم، وصبر على الضرب والحبس والإهانة حتى نصره الله عَزَّجَلَّ، وجاء المتوكل ورفع عنه المحنة، وناصره، وصارت العاقبة للمتقين والحمد لله، وأخزى الله المعتزلة ومن تابعهم.

فهذا الإمام يجب أن نعرف موقفه من أجل أن نقتدي به، وأن نعرف أيضاً موقفنا من الفرق الضالة والفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة حتى لا نتساهل معها، ولا نقول كما يقول بعض السذج: علينا أن نجتمع الناس ولا نفرقهم!!

بل يجب أن نفرق بين أهل الحق وأهل الباطل، ونحن دائماً مع أهل الحق وإن قلُّوا، ولسنا مع أهل الباطل وإن كثروا، هذا هو الموقف الصحيح، فالإمام أحمد وقف وحده في وجه أمة، ونصره الله عليهم، ولا بد أن الإنسان يناله أذى في مقابل موقفه وصبره وثباته، لكن ما دام على الحق لا يهمله ذلك، وهذا في موازينه وفي حسناته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»^(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٢).

قوله: [وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»]، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٣). عقبة بن عامر: صحابي مشهور، فقيه فاضل، ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريباً من الستين.

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله: (وَلَهُ) أي: للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، (عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا) أي: من حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس من كلام الصحابي.

❖ قوله: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً» أي: من تعلق قلبه بتيممة وعلقها على جسمه، والتيممة: هي ما يُعَلَّقُ من الحروز والحجب، المكتوب فيها كتابات، يظنون أنها تدفع العين، أو تشفي من المرض، فهي مثل تعليق الحلقة والخيط، إلا أن الحلقة والخيط ليس فيهما كتابة، هذه هي التيممة، وسيأتي في الباب الذي بعده مزيد تفسير لها وبيان حكمها على التفصيل.

❖ قوله: «فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ» هذا دعاء من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: لا أتم الله له مراده، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستجاب الدعوة، دعا عليه بأن

(١) أخرجه أحمد (٤/١٥٤)، وأبو يعلى في مسنده (٣/٢٩٥)، وابن حبان (١٣/٤٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٥٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/١٥٦).

يعامله الله عَزَّوَجَلَّ بنقيض قصده، فهذه الدعوة تنال كل من علّق على نفسه أو على غيره شيئاً من الحُجُب والحُرُوز والتَّائم يريد بها كَفَّ الشر عنه إلى يوم القيامة، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فمن تاب تاب الله عليه، ومن لم يتب «فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ»، يعني: لا أتم الله له أمره ومقصوده، بل أصابه بعكس ما يريد من الضرر والشر والخوف والقلق.

ولهذا فَإِنَّ الذي يُعلّق الحجب والتَّائم والحُرُوز، يريد بها أنها تشفيه من المرض، أو تدفع عنه العين، يعامله الله عَزَّوَجَلَّ بنقيض قصده، فيصاب بالأمراض، ويصاب بالعين، وحتى لو ما أصابه أمراض ولا أصابه عين في جسمه، فإنه يصاب بالألم في قلبه، والخوف والرعب والهلع والجزع والانزعاج من كل شيء، بخلاف الذي يتوكل على الله ويعتمد عليه، فإنه يكون مطمئن القلب، مرتاح البال، قوي العزيمة، شجاعاً لا يهاب؛ لأنه يعلم أنه لا يصيبه شيء إلا بقضاء الله وقدره، فيكون تعلقه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا يدل على تحريم التَّائم مطلقاً، من غير استثناء، ويأتي في الباب الذي بعده التفصيل والحكم على أنواع التَّائم.

❁ قوله: «وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً» الودع: شيء يُستخرج من البحر، يشبه الصّدف، يعلقونه على صدورهم، أو على أعناقهم، أو على أولادهم، أو على دوابهم، يتقون به العين.

❁ قال: «فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ» أي: لا تركه في دعة وراحة بال، بل يسلط عليه الهموم والوساوس والانزعاج والخوف من كل شيء؛ لأنه فتح على

نفسه باب الخوف من المخلوقات. فهذا أيضًا دعاء من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من تعلق الودع واعتقد فيها أنها تدفع الشر، أن لا يتركه الله عَزَّجَلَّ في دعة، وعيش هنيء، وراحة بال، وهذا ظاهر في كل من يتعاطون هذه الأشياء، نجدهم من أشد الناس قلقًا وهَمًّا وخوفًا وتوقُّعًا للمكروه في كل لحظة ومن كل شخص.

❦ قال: (وَفِي رِوَايَةٍ) يعني: للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ» هذه فيها زيادة على دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه بأنه قد أشرك، فمن تعلق التميمة على جسمه، أو على ولده، أو على دابته، أو على سيارته، أو على بيته، أو على متجره، فهذا تصيبه مصيبتان: الأولى: دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه.

الثانية: مصيبته في عقيدته، وهي أنه قد أشرك بالله عَزَّجَلَّ باتخاذ هذا الشيء.



وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التهايم شرك؛ لما يقصده من علقها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه، وهذا أيضًا ينافي كمال الإخلاص الذي هو معنى (لا إله إلا الله)؛ لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك، وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم، فإذا كان هذا قد خفي على بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عهد النبوة، فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب بعد ما حدث من البدع والشرك؟ كما في الأحاديث الصحيحة، وتقدمت الإشارة إلى ذلك.

وهذا مما يبين معنى (لا إله إلا الله) أيضًا؛ فإنها نفت كل الشرك قليله وكثيره، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

... — الشَّبَحُ — ...

هذا هو الشاهد من الحديث للباب؛ لأن الباب: (بَابُ مِنَ الشُّرْكِ لُبْسُ الْحُلُقَةِ وَالْحَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ)، فإن قلت: ما نوع هذا الشرك؟ هل هو الشرك الأكبر؟ نقول: هذا فيه تفصيل، فإن كان يرى أنها تقيه من دون الله فقد أشرك شركًا أكبر، وإن كان يعتقد أنها سبب فقط والواقى هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل هذه الأشياء سببًا.

وحتى إن كان شركاً أصغر فلا يُتْهَونُ به، ولا يُقال: هذا شرك أصغر؛ لأن الشرك الأصغر لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ، وصاحبه لا بد أن يُعاقب؛ لأنه داخل في عموم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لكنه لا يخلد في النار كما يخلد صاحب الشرك الأكبر.

❁ قوله: (فإذا كان هذا قد خفي على بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عهد النبوة، فكيف لا يخفى على من هو دونهم؟) أي: إذا كان حكم تعليق التائب والخيوط والودع خفي على بعض الصحابة، فكيف لا يخفى على من بعدهم؟ وهل الناس في هذه العصور المتأخرة أفهم من الصحابة الذين خفي عليهم بعض الأمور، فبينها لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

❁ قال: (وهذا مما يبين معنى «لا إله إلا الله» أيضاً؛ فإنها نفت كل الشرك قليله وكثيره)، وقال في الباب السابق: (وَشَرَحُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ)، فهذا من تفسير (لا إله إلا الله) أن معناها نفي الشرك بجميع أنواعه، حتى لبس الحلقة، والخيوط، والودعة، والتميمة، وغير ذلك، هذا لا يتناسب مع (لا إله إلا الله).



وَلَا بَنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَى فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾» [يوسف: ١٠٦] (١).

ابن أبي حاتم: هو ابن اليمان، واسم اليمان حُسَيْل بمهملتين مصغرًا، ويقال: حِسْل بكسر ثم سكون، العبسي بالموحدة، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، ويقال له: صاحب السر، وأبوه صحابي أيضًا. مات حذيفة في أول خلافة عليّ سنة ست وثلاثين.

قوله: [رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَى فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾] فيه دليل على أن هذا شرك، وأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يستدلون بالآيات التي نزلت في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر؛ لدخوله في عموم الشرك المنهي عنه في الآيات والأحاديث عمومًا وخصوصًا، لما قد عرفت أنه ينافي كمال الإخلاص.

إذا كان مثل هذا، وقد خافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة، كما تقدم قوله: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى كُمْ الشَّرُّكَ الْأَصْغَرَ» (٢)، فإذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضلة، فكيف يُؤْمَنُ أن يقع ما هو أعظم منه؟

لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية، مما قد تقدم التنبيه عليه، حتى إن كثيرًا من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر، فصاروا هم والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٠٨/٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٨٦).

طرفي نقيض، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك، وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر، ويجعلون النهي عن هذا الشرك الأكبر بدعة وضلالة! وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بعثوا به من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإخلاص العبادة له وحده، والنهي عن الشرك به.

وقد بعث الله عَزَّوَجَلَّ خاتم رسله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك؛ كما بعث من قبله، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشركي العرب وغيرهم، فنَصَرَ هؤلاء ما نهى عنه من الشرك غاية النصر، وأنكروا التوحيد الذي بُعِثَ به غاية الإنكار، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال لقريش: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»^(١)، عرفوا معناها الذي وُضِعَتْ له وأريد منها، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَحِيدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰئِلِشَاعِي تَجْنُونُ ﴿[الصفات: ٣٥-٣٦].

وفي صحيح البخاري وغيره في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ»^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صحابي جليل، صاحب سر رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) سبق تخريجه (ص ٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قال: «أنه رأى رجلاً في يده خيطٌ من الحمى» يعني: اتخذهُ أن يقيه من الحمى، والحمى: ارتفاع الحرارة في الجسم. فالرجل ربط الخيط من أجل أن يتقي الحمى، فحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قطع هذا الخيط من هذا الرجل، فهذا فيه إنكار المنكر باليد لمن يقدر على ذلك، أما من لا يقدر على إنكار المنكر باليد فإنه ينكره باللسان؛ بأن يبين وينصح ويحذر ويعظ الناس ويذكرهم، فإن لم يستطع بلسانه فبقلبه^(١)؛ بأن يكره وينافر ويتعد عن أهل الشر، ويبغض عملهم ويبغضهم، ولا يجتمع معهم إلا مناصحاً ومحذراً.

❁ قوله: «فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾» قيل: معناه أنهم لا يؤمنون بالربوبية إلا وهم مشركون في الألوهية؛ لأن المشركين كلهم يقرُّون بالربوبية، ولكنهم يشركون في الألوهية، إما الشرك الأكبر وإما الشرك الأصغر، وربط الخيط حسب ما فصلنا من أنه إذا كان يرى أن النفع والضرر بيد الله، وإنما الخيط سبب؛ فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل ربط الخيط سبباً من الأسباب الواقية، أما إذا كان يعتمد على هذا الخيط من دون الله في دفع الضرر؛ فهذا شرك أكبر.

❁ قوله: (فيه دليل على أن هذا شرك، وأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يستدلون بالآيات التي نزلت في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر)؛ لأن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استدل بالآية الكريمة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فجعل ربط الخيط من الشرك، وقد أشكلت هذه الآية على بعض العلماء،

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم (٤٩).

فقالوا: كيف يجتمع الإيمان والشرك؟ وأذكر ممن أشكلت عليه شيخنا الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره، والآية لا إشكال فيها في الحقيقة؛ لأنها نازلة في عباد الأصنام الذين يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فهم يؤمنون بتوحيد الربوبية ويشركون بتوحيد الألوهية، فعندهم إيمان بتوحيد الربوبية، لكن عندهم شرك في توحيد الألوهية، وعلى هذا جميع المشركين من العرب، عندهم إيمان بالله لكنه مخلوط بالشرك، إيمان بتوحيد الربوبية وشرك في توحيد الألوهية، فالآية ليس فيها إشكال والحمد لله.

ودلت هذه الآية على ما دل عليه الحديث السابق: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»، والصحابة قد يستدلون بالآية النازلة في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر؛ لأنه كله شرك، مثلما استدل ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: «وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي. وَيَقُولَ: لَوْ لَا كَلْبُهُ هَذَا لَأَتَانَا اللَّصُوصُ، وَلَوْ لَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللَّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْ لَا اللهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلُ فِيهَا فُلَانًا، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ»^(١)، فسرها بالشرك الأصغر؛ لأن الآية شاملة للشرك الأكبر والشرك الأصغر، فهو استدلال بها على بعض ما دلت عليه، كذلك حذيفة استدل بهذه الآية على بعض ما دلت عليه؛ لأنها تشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٩) من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وبعض المسلمين يؤمنون بالله في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ولكن يصدر منهم بعض الشرك الأصغر الذي لا ينافي الإيمان، فدلّ على الحذر من الشرك، وأنه إذا كان هذا يحصل من بعض المؤمنين، فإن الإنسان لا يأمنه على نفسه، ويستعيذ بالله من الشرك الأكبر والأصغر ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»^(١)، وفي الدعاء المشهور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ، وَمِنْ سَيِّئِ الْأَخْلَاقِ»^(٢)، فالمسلم يخاف على نفسه، ويدعو الله عَزَّوَجَلَّ بالعافية من هذه الأمور، ولا يزكي نفسه، ولا يأمن على نفسه.

❦ قوله: (فإذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضلة، فكيف يُؤْمَنُ أن يقع ما هو أعظم منه؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية)، لما أهملوا تعلم التوحيد وتعلم الشرك، ومعرفة المراد من التوحيد والمراد من الشرك، والتفتوا إلى تعلم علم الكلام وقواعد المنطق، وبنوا عقائدهم على ذلك، وانشغلوا بإثبات وجود الله، وهذا الذي يدندنون حوله، يقولون: وجود الله يحتاج إلى أدلة لإثباته، وكل عقائدهم مبنية على هذا، وهذا شيء تحصيل حاصل؛ لأنه مركوز في الفطر والعقول، وشواهد الكون والمخلوقات كلها تدل على الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١/٦٠، ٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١/٢٥٠)، وأبو

نعيم في الحلية (٧/١١٢) من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/٤٥٣) وفي المجتبى (٨/٢٦٤) من

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهم لم يعيروا اهتمامًا بتوحيد الألوهية أبدًا، ولا يأتي لهم على ذكر ولا على بال، وهذا هو الجهل العظيم ممن يظنون أنهم علماء، وهم يجهلون توحيد الألوهية الذي بعث به الرسل، ونزلت به الكتب، فإذا كان العلماء يجهلون فكيف بغيرهم ممن هو دونهم؟ فلا بد من نشر التوحيد وتعليمه، وتعلمه، والدعوة إليه، دائمًا وأبدًا، والعجيب أن دعاة التوحيد ساكتون وخاملون، ودعاة الشرك والبدع جادون الليل والنهار، ويهبون الأموال ولا يأسون ولا يتعبون، وأما دعاة التوحيد فهم قلة خاملون ومتخاذلون أيضًا فيما بينهم، فجاءت المصيبة من هذا النوع.

ولا شك أن الناس إذا أهملوا الشيء فإنهم يقعون فيه، فإذا ما عرفت الخطر ولا عرفت مكان الهلاك، فحري بك أن تقع فيه، فإذا الناس نسوا الكلام في الشرك وتفصيله ومعرفته وقعوا فيه، لاسيما والدعاة إليه نشطون، والشرك موجود ويُشجع من قبل أهله ومن قبل الكفار، الكفار الآن يدعمون الفرق الضالة وفرق الشرك والبدع دعمًا هائلًا، كل هذا من أجل اجتثاث الإسلام من أصله؛ لأنه إذا ذهب التوحيد ما بقي إسلام، لو تصلي الليل والنهار، وتصوم، وتحج، وتعتمر، وتبذل الأموال، وأنت على غير توحيد ما أفادك ذلك شيئًا، فهذا من مكائد الكفار بنا الآن، يدعمون دعاة الشرك وفرق الضلالة، والذي يدعو إلى التوحيد يسمونه إرهابيًا، أو متطرفًا، أو أصوليًا، والذين يتبعون الإسلام يسمونه خارجيًا من الخوارج، إلى غير ذلك من الألقاب للتفجير من دعاة التوحيد ودعاة العقيدة.

❁ قوله: (حتى إن كثيراً من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر، فصاروا هم والصحابة رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي طَرَفِي نَقِيضِ) هذا كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في القرن الثالث عشر، في وقت اشتد نكير من يسمون بالعلماء على دعاة التوحيد، يسمونهم بالخوارج، ويضللون دعاة التوحيد، فهذا موجود في كتبهم إلى الآن.

وهذه لفظة طيبة من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يشير فيها إلى الذين يقولون: إن الناس الآن تجاوزوا مرحلة السذاجة وتعلموا وتقفوا، وليس عليهم خوف من الشرك، فلا تشغلهم بتعلم التوحيد والنهي عن الشرك؛ لأن هذه الأشياء مفهومة، والناس الآن ليسوا بحاجة إلى تعلمها!. وهذا من الغرور والعياذ بالله، فهم ليسوا أفضل من الصحابة وقد خفي على بعضهم هذه الأشياء حتى بينها لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فالمسلم بحاجة إلى تعلم التوحيد دائماً؛ لأنه تخفى عليه بعض الأمور، لاسيما والعادات والتقاليد ودعاة الضلال يُلبسون على الناس، فالمسلم بحاجة إلى من يُبين له تفاصيل التوحيد، وتفاصيل الشرك والابتعاد عنها.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: التَّغْلِيْظُ فِي لُبْسِ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا مِثْلُ ذَلِكَ.
- الثَّانِيَةُ: أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ مَا أَفْلَحَ. فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ الصَّحَابَةِ أَنَّ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الْكِبَائِرِ.
- الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالْجَهَالَةِ.
- الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَا تَنْفَعُ فِي الْعَاجِلَةِ بَلْ تَضُرُّ؛ لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا».
- الخَامِسَةُ: الْإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيْظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.
- السَّادِسَةُ: التَّضْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِلَيْهِ.
- السَّابِعَةُ: التَّضْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ.
- الثَّامِنَةُ: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْخَيْطِ مِنَ الْحُمَى مِنْ ذَلِكَ.
- التَّاسِعَةُ: تِلَاوَةُ حَذِيفَةَ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدِلُّونَ بِالْآيَاتِ الَّتِي فِي الشُّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَى الْأَصْغَرِ، كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ.
- الْعَاشِرَةُ: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْوَدَعِ عَنِ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.
- الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً أَنَّ اللَّهَ لَا يُثِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ، أَيْ: تَرَكَ اللَّهُ لَهُ.



٧- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةً إِلَّا قُطِعَتْ»^(١).

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ]، أي: من النهي عما لا يجوز من ذلك.

قوله: [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةً إِلَّا قُطِعَتْ»]، هذا الحديث في الصحيحين.

واسم أبي بشير: قيس بن عبيد، قاله ابن سعد^(٢)، وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح^(٣).

وهو صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين، ويقال: إنه جاوز المائة^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٤٢٣/٨).

(٣) انظر: الاستيعاب (١٦١٠/٤).

(٤) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٤١/٧).

قوله: [فَأَرْسَلَ رَسُولًا] هو زيد بن حارثة، روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده، قاله الحافظ^(١).

قوله: [أَنْ لَا يَبْقَيْنَ] بفتح الياء والقاف، ويحتمل أن يكون بضم الياء المثناة وكسر القاف، والوَتْرُ بفتحتيْن: واحد أوتار القوس.

وكان أهل الجاهلية إذا اخْلَوُتْ الوَتْرُ أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب، اعتقاداً منهم بهذا أنه يدفع عن الدابة العين. ولهذا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع الأوتار التي عُلِّقَتْ على الإبل لما كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك فيها.

قوله: [أَوْ قِلَادَةً إِلَّا قُطِعَتْ] يحتمل أن ذلك شك من الراوي، ولأبي داود: «وَلَا قِلَادَةً»^(٢) بغير شك، فعلى هذه الرواية تكون أو بمعنى الواو.

قال البغوي^(٣) في شرح السنة: تأول مالك أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع القلائد على أنه من أجل العين، وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمايم والقلائد، ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات، فنهاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها، وأعلمهم أن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً^(٤).

(١) انظر: مقدمة فتح الباري (ص ٢٩١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٥٢).

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان، الإمام الحافظ الحجة، أبو القاسم، البغوي الأصل، البغدادي الدار والمولد، ولد سنة أربع عشرة ومائتين، وطلب الحديث على جده كتابة وهو ابن عشر سنين، فأدرك الأسانيد العالية، وحدثه جماعة عن صغار التابعين، له من التصانيف: «شرح السنة»، و«معالم التنزيل»، و«فضائل الصحابة»، و«المصابيح»، وغيرها، توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة. انظر: تاريخ بغداد (١٠ / ١١١)، والوافي بالوفيات (١٧ / ٢٥٩)، وسير أعلام النبلاء (١٤ / ٤٤١).

(٤) انظر: شرح السنة (١١ / ٢٧).

قال أبو عبيد^(١): كانوا يقلدون الإبل أوتارًا لثلا تصيها العين، فأمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإزالتها، إعلامًا لهم بأن الأوتار لا ترد شيئًا^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّهَامِ]، أي: ما جاء من الأدلة على تحريم استعمال التَّهَامِ، أما الرقى ففيها التفصيل الذي سيذكره؛ ولذلك لم يجزم رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة بالتحريم؛ لما في ذلك من التفصيل، فقال: (مَا جَاءَ فِي الرُّقَى)، ولم يقل: «في تحريم الرقى»، وهذا من دقة فقهه ومعرفته رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه إذا كان الحكم واضحًا منصوصًا عليه في الحديث ذكره في الترجمة، وإذا كان الحكم فيه تفصيل، أو فيه احتمال، فإنه لا يجزم في الترجمة، وإنما يورد الأدلة في الباب، ويُؤخذ منها الحكم مفصلاً.

فهذا من دقة فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ وشدة تورّعه عن إطلاق الأحكام، مما يُرِيّ في طلبة العلم هذه الخصلة الطيبة، فيتورّعون في إطلاق الأحكام ويتثبتون فيها؛

(١) هو الإمام اللغوي صاحب التصانيف أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، اشتغل بالحديث والأدب والفقه، وولي قضاء طرطوس، وفسر غريب الحديث، وله كتاب فيه، وكتابه «الأموال» مشهور، وثقه أبو داود وابن معين وأحمد وغير واحد، وقال عنه ابن راهويه: «أبو عبيد أوسعنا علمًا، وأكثرنا أدبًا، وأكثرنا جمعًا، إنا نحتاج إلى أبي عبيدة وأبو عبيدة لا يحتاج إلينا» اهـ. ولد سنة سبع وخمسين ومائة، وتوفي بمكة سنة أربع وعشرين ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (١٢/٤٠٣)، والوافي بالوفيات (٩١/٢٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/٤٩٠)، وطبقات الحفاظ (ص ١٨٢، ١٨٣).

(٢) انظر: غريب الحديث لابن سلام (٢/٢).

لأن الأمر خطير جداً، وسيأتي -إن شاء الله- في أثناء الباب تفصيل الرقى، والتائم، والتولة، في كلام المصنف.

وهذا الباب مكمل للباب الذي قبله؛ لأن الباب الذي قبله: (بَابُ مِنَ الشَّرِكِ لُبْسُ الْحُلَقَةِ وَالْحَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ)، وهذا الباب فيما يعلق من التائم أو الرقى أو غير ذلك على الأبدان أو الدواب أو غير ذلك، لدفع البلاء عن المعلق عليه؛ لما في ذلك من الاعتماد على غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعلق القلب بغير الله، فهذا إما مُنْقَصٌ للتوحيد، إن كان من الشرك الأصغر وإما أنه منافٍ للتوحيد إذا كان من الشرك الأكبر.

❁ قوله: (عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هكذا كان مشهوراً بكُنْيَتِهِ، ولم يُعرف له اسم؛ كما قال ابن عبد البر.

❁ قال: («أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ») لم يُعَيَّن هذا السفر، قال الحافظ: لم أقف على تعيينه^(١).

❁ قال: (فَأَرْسَلَ رَسُولًا) أي: مندوبًا.

❁ قال: («أَنَّ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ»)، لما كان من عادة الجاهلية أنهم يقلدون الإبل بالقلائد لدفع العين عنها، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن ينهى عن هذه العادة الجاهلية المنافية للتوحيد؛ لأن المسلم يجب عليه أن يتوكل على الله، وأن يُعَلِّقَ قلبه بالله، وأن لا يستعمل

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ١٤١).

من الأدوية إلا ما أباحه الشرع، لا مانع من استعمال الأدوية واتخاذ الوقاية لكن في حدود ما أباحه الشرع.

❦ قوله: «لَا يَبْقَى»: (لا) هذه ناهية، و(يُبقَى): فعل مجزوم بلا الناهية، وأصل الفعل (لا يبقى) بالألف المقصورة، ومن المعلوم أن الفعل يُجْزَم بحذف حرف العلة، لكن منع من ذلك اتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهذه النون يؤتى بها لتأكيد النهي، ولذلك سميت: نون التوكيد، فاجتمع عندنا مؤكدان: (لا) الناهية، ونون التوكيد الثقيلة.

❦ قوله: «قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ»، القِلَادَةُ: ما يحيط بالعنق سواء كان من الحيوان أو من الإنسان، والوتر: هو ما يُجعل في القوس لأجل الرمي؛ لأن الآلة التي يرمون بها في ذلك الوقت هي القوس، والقوس عبارة عن عصا لينة، ويشد به سير من طرفيه، فإذا أرادوا رمي النبل وضعوا مؤخرته في وسط الوتر، ثم يُشد الوتر والنبل معاً، ثم يُترك لينطلق النبل ويصيب الهدف.

❦ قال الشيخ رحمه الله: (وكان أهل الجاهلية إذا اخلَوْقَ الْوَتَرِ أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب، اعتقاداً منهم بهذا أنه يدفع عن الدابة العين) يزعمون أنه يقي من العين، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ» لأن هذه عادتهم، وإلا فلا يقتصر على قِلَادَةٍ مِنْ وَتَرٍ دون غيرها، لكن هذا بناء على الغالب.

❦ قال: (أَوْ قِلَادَةٌ) هذا شك من الراوي، هل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ»، أو قال: «قِلَادَةٌ» مطلقة، وهذا من دقة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي

الرواية، وعلى كل حال هذا الحديث فيه دليل على منع هذا الشيء من أي نوع كان، سواء كان من وَتَرٍ أو من غيره، ما دام أن المقصود منه عقيدة فاسدة، حتى ولو كان من السُّيُور، أو الخيوط، أو الخرز، أو غير ذلك، كل قلادة يُقصد بها هذا المقصد الشركي فهي ممنوعة.

❦ فقلوه: (أَوْ قِلَادَةً) شك من الراوي، أو قد يكون من باب التنويع، فتكون (أو) بمعنى الواو؛ كما في رواية أبي داود التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَا قِلَادَةً» بغير شك، فيكون المعنى: لا يبقين قلادة من وتر أو قلادة من أي نوع من القلائد، سواء كانت من الوتر أو غيره

❦ قوله: «إِلَّا قُطِعَتْ» هذا فيه إزالة المنكر، لاسيما إذا كان هذا المنكر في العقيدة، وفيه أن السلطان وولي الأمر يزيل المنكر بيده أو بيد وكيله، وإنكار المنكر - كما هو معلوم - على درجات:

* إما باليد لصاحب السلطة.

* وإما باللسان لمن ليس له سلطة.

* وإما بالقلب لمن لا يقدر على الثنتين.

فهذا الحديث فيه إنكار المنكر وأنه يكون باليد لمن يقدر على ذلك.

أما إذا كانت القلادة ليس فيها اعتقاد، فلا مانع منها؛ كأن يقلد البعير لأجل أن يُعرف مثلاً، خصوصاً قلائد الهدى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا أَسْهُرَ الْحَرَامِ وَلَا أَهْدَى وَلَا أَلْقَائِدَ﴾ [المائدة: ٢٠]، والقلائد من عادة الحجاج والمعتمرين الذين يهدون البدن لتذبح عبادة الله عَزَّوَجَلَّ في الحرم؛

كانوا يقلدونها يعني يجعلون عليها قلائد حتى يعرف من رآها أنها هدي فلا يتعرض لها، فإذا كانت القلادة لقصد صحيح وهدف مباح فلا بأس، أما إذا كانت القلادة لقصد شركي أو لاعتقاد شركي فهذه هي التي تمنع.

❁ قال: (قوله: «فَأَرْسَلَ رَسُولًا» هو زيد بن حارثة)، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث مولاه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلبغ هذا النداء، ففيه أن السلطان قد يرسل الرسول لتبليغ الناس، وقد يعلن هذا في مجامع الناس بالكتابة التي تُقرأ على الناس، أو الرسائل التي يكتبها، والآن الإذاعات والصحف كلها وسائل لتبليغ الأوامر، ووسائل للدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، كلها وسائل تستخدم للدعوة وإبلاغ الناس الخير ونهيهم عن الشر.

❁ قال: (قوله: «أَنْ لَا يَبْقَيْنَ» بفتح الياء والقاف، ويحتمل أن يكون بضم الياء المثناة وكسر القاف)، يَبْقَيْنَ: مبني للمعلوم، وَيُثَقِّينَ مبني للمجهول، والمعنى واحد، فإن كان (يَبْقَيْنَ) بياء مفتوحة تكون (قلادة) مرفوع على أنه فاعل، وإن كان مبنيًا للمجهول (يُثَقِّينَ) تكون (قلادة) نائب فاعل.

❁ قال: (وكان أهل الجاهلية إذا اخْلَوَلَقَ الوترَ أبدلوه بغيره)، اخْلَوَلَقَ: يعني رثَّ من كثرة الاستعمال وبلي.

❁ قال: (اعتقادًا منهم بهذا أنه يدفع عن الدابة العين) إذا كانت القلادة يعتقد فيها أنها تدفع العين، فهذا شرك، وهذا ممنوع يجب إزالته من الدواب ومن غيرها.



وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ^(١).

قوله: [وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»]. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، ولفظ أبي داود: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَأَى فِي عُنْقِي خَيْطًا، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقُلْتُ: خَيْطُ رُقِي لِي فِيهِ قَالَتْ: فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتُمْ آلَ عَبْدِ اللَّهِ لِأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ».

... — الشَّبَحُ — ...

هذا حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابي الجليل، من أئمة العلم المعروفين في الصحابة، ومن أشهر القراء لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي أُعْجِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقراءته، وأمره أَنْ يقرأ عليه، «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: اقْرَأْ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»^(٢).

فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له فضيلة بين صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان من أَوْعِيَةِ العلم، وله أحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من مشاهير المفتين من الصحابة، وكان يقال له: صاحب السَّوَادِ؛ لأنه كان يحمل نعلي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفضائله كثيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان من السابقين الأولين.

وسبب ذكر عبد الله بن مسعود لهذا الحديث: أنه رأى على امرأته خَيْطًا فِي عُنْقِهَا فَقَطَعَهُ، وقال: لَأَنْتُمْ يَا آلَ عَبْدِ اللَّهِ أَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكَ، سَمِعْتُ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»، قالت: لم تقول هذا؟ والله لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيني، فإذا رقاني سكنت، فقال ابن مسعود: إنما ذاك عمل الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبُّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(١).

فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قطع هذا الخيط، وأنكر على زوجته هذا الفعل؛ ذكر الدليل من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»، فهذا دليل على ما فعله ابن مسعود من إنكاره لهذه الرقية التي استعملتها زوجته.

فلا شك أن لزوج المرأة سلطة يقدر بها على إزالة المنكر باليد، وكذلك كل من له سلطة من ولي الأمر، أو نائب ولي الأمر، أو صاحب البيت، أو ولي المرأة، فإنه يزيل المنكر بيده.



(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

والمقصود: بيان أن هذه الأمور الشركية - وإن خفيت - فقد نهى عنها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ لكمال علمهم بما دلت عليه (لا إله إلا الله) من نفي الشرك قليله وكثيره؛ لتعلق القلب بغير الله في دفع ضرر أو جلب نفع.

وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة في هذين البابين؛ عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه.

وفيه ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التحذير من الشرك، والتغليظ في إنكاره، وإن كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر، وقد تقدم دليله في الباب الذي قبل هذا.

... — الشَّبَحُ — ...

في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ» دليل على تحريم تعليق الرقى مطلقاً، سواء أكانت من القرآن، أم من غير القرآن، أما من غير القرآن فهذا محل إجماع، لكن إذا كان المعلق من القرآن - يعني: كانت التميمة مكتوب فيها آيات من القرآن - لِيُسْتَشْفَى به، فهذا موضع خلاف بين العلماء على قولين:

القول الأول: أنه ممنوع، ومن قال بهذا: ابن مسعود راوي الحديث، وتلاميذه من التابعين؛ كعبدة السلماني^(١)، وعلقمة^(٢)، وإبراهيم النخعي^(٣)، كلهم يرون تحريم تعليق الرقى مطلقاً سواء أكانت من القرآن أم من غير القرآن، لعموم هذا الحديث.

والقول الثاني - وهو رواية عن أحمد وجماعة من العلماء -: أنه لا بأس إذا كان المعلق من القرآن؛ لأن القرآن جعله الله شفاء، وليس في تعليقه محذور؛ لأنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يكتب الآيات ويعلقها على أولاده، فدل هذا على الجواز عند هؤلاء.

(١) هو عبدة بن عمرو السلماني المرادي الهمداني، أحد أعلام التابعين، أسلم قبل وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بستين، ولا صحبة له، وأخذ عن علي وابن مسعود وغيرهما، وبرع في الفقه، وكان ثبناً في الحديث، روى عنه إبراهيم النخعي، والشعبي، ومحمد بن سيرين، وعبد الله ابن سلمة المرادي، وأبو إسحاق، ومسلم أبو حسان الأعرج، وآخرون، قال الشعبي: «وكان عبدة يوازي شريحاً في القضاء»، وقال ابن سيرين: «ما رأيت رجلاً كان أشد توقياً من عبدة»، توفي سنة أربع وستين. انظر: تاريخ بغداد (١١/ ١١٧)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٢٨).

(٢) هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، أبو شبل النخعي الكوفي، روى عن عمر، وعثمان، وعلي، وجماعة من الصحابة، وكان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم، وكان يشبه بابن مسعود في هديه ودله وسمته، توفي سنة اثنتين وستين. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٨٦)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٩٦)، والبداية والنهاية (٨/ ٢١٧).

(٣) هو إبراهيم بن يزيد بن الأسود أبو عمران النخعي، تابعي رأى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولم يثبت له منها سماع، كان إماماً في الفقه يعظمه الأكابر، وكان سعيد بن جبير يقول: «أستفتوني وفيكم إبراهيم؟»، توفي سنة ست، وقيل خمس وتسعين للهجرة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٢٧٠)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٥)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٧٠).

ولكن الصحيح القول الأول: أنه لا يجوز تعليق الرقى سواء من القرآن أو من غير القرآن، وهذا ما أخذ به علماء هذه البلاد من عهد الشيخ محمد ابن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللهُ، فكانوا يمنعون من تعليق الحروز والحجب، وذلك لعموم النهي، وعدم ورود ما يخص ذلك النهي، ولأن التساهل في تعليق التائم من القرآن يفتح الباب لتعليق غيرها، وأن في تعليقها على الصبية والحيض وغيرهم امتهان للقرآن، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك القول في آخر هذا الباب إن شاء الله عَزَّجَلَّ.

والذين أجازوا - وهم أصحاب القول الثاني - اشترطوا ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن تكون التَمِيمَة من القرآن.

الشرط الثاني: أن تكون مكتوبة باللفظ العربي، فلا تُكتب بلفظ أعجمي أو بخط لا يُقرأ.

الشرط الثالث: أن يعتقد أن الشفاء من الله لا من هذه التَمِيمَة، وإنما هذه التَمِيمَة سبب فقط.

❦ قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: (والمقصود بيان أن هذه الأمور الشركية وإن خفيت فقد نهى عنها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ لكمال علمهم بما دلت عليه «لا إله إلا الله» من نفي الشرك قليله وكثيره)؛ لأن في اتخاذ التائم تعلق بها، وتوكل على غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا مما تنفيه (لا إله إلا الله)؛ ولهذا قال المصنف في باب سبق: (وَشَرَحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ)، وهذا من شرح (لا إله إلا الله): أنها تمنع من تعليق التائم.

❁ قال: (وقد عمت البلوى) أي: في زمان الشارح رَحِمَهُ اللهُ (بها هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة)، ومن ذلك عبادة القبور، والذبح لها، والنذر لها، واتخاذها أوثانا، فإذا كان الصحابة أنكروا تعليق الخيوط، فكيف بمن يعبد القبور، أو يذبح لها، وينذر لها، والعجيب أن نجد من يقول: هذا هو الإسلام، وهذا هو محبة الأولياء والصالحين!!

والواجب عدم التساهل مع مثل هذه الأمور، فلا نقول كما يقول بعض المتعالمين: هذا شرك أصغر، سهل!! فليس الشرك سهلاً أبداً، ولو كان أصغر، بل الشرك الأصغر أعظم من الكبائر، لا يتساهل به، ذلك لأنه يجر إلى الشرك الأكبر، والصحابة ما كانوا يتساهلون مع الشرك الأصغر، بل كانوا ينكرونه ويبادرون بإزالته.



وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِ بِهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ^(١).

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلِّقُونَهُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ، لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمَعْلُوقُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَرْخُصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالرَّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشُّرُكِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَيْنِ، وَالْحَمَّةِ.

وَالتَّوَلَّى: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُجَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

قوله: [وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِ بِهِ»]. رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ: [وعبد الله بن عكيم بضم المهملة مصغر، ويكنى أبا معبد الجهني الكوفي. قال الخطيب^(٢):

سكن الكوفة، وقدم المدائن في حياة حذيفة، وكان ثقة^(٣)].

(١) أخرجه أحمد (٤/٣١٠)، والتِّرْمِذِيُّ (٢٠٧٢)، والحاكم (٤/٢١٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/٣٨٥).

(٢) هو أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي أبو بكر الخطيب البغدادي، أحد مشاهير الحفاظ، وصاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات العديدة المفيدة، منها: كتاب الكفاية، والجامع، وشرف أصحاب الحديث، واقتضاء العلم للعمل، والفقيه والمتفقه، وغير ذلك، ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وتوفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة. انظر: تاريخ دمشق (٥/٣١)، والبداية والنهاية (١٢/١٠١)، وطبقات الشافعية الكبرى (٤/٢٩)، وشذرات الذهب (٣/٣١١).

(٣) انظر: تاريخ بغداد (١٠/٣).

التعلق يكون بالقلب، وينشأ عنه القول والفعل، وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه، كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله، وهو ينافي قوله عز وجل: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

فإن كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد، وإن كان من الشرك الأكبر؛ كعبادة أرباب القبور، والمشاهد، والطواغيت، ونحو ذلك، فهو كفر بالله، وخروج من دين الإسلام، ولا يصح معه قول ولا عمل.

قوله: (وَكُلِّ إِلَهٍ) أي وكله الله إليه، إلى ما علق قلبه به من دون الله ومن وكله الله إلى غيره ضل وهلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن قاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت له: حدثني بحديث أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَام: «يا داود، أما وعزتي وعظمتي، لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من بينهن فرجاً ومخرجاً، أما وعزتي وعظمتي، لا يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي واد هلك»^(١).

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٥، ٢٦) موقوفاً على وهب بن منبه، وأخرجه تمام الرازي في فوائده (١/ ٢٤٤)، والدليلمي في الفردوس (١/ ١٤٠) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم أقف عليه في كتاب الزهد ولا المسند للإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وشاهد هذا في القرآن؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]
فتدبر!.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قال: (وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ) عبد الله بن عُكَيْمٍ أدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه لم يثبت له سماع من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيكون تحديثه عن الرسول من باب المرسل، ولهذا قال الشيخ: (مَرْفُوعًا).

✽ قال: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا». سواء أكان قلادة، أم تيممة، أم حِرْزًا من الحُرُوز، أم خيطًا، أم حلقة، وكلمة (شَيْئًا) تعم كل شيء يعلّق الإنسان قلبه به من دون الله عَزَّجَلَّ؛ من بشر، أو حجر، أو شجر، أو قبر، أو حلقة، أو خيط، أو تيممة، أو جن، أو إنس، أو غير ذلك.

✽ قال: «وُكِّلَ إِلَيْهِ»، أي: وَكَّلَهُ اللهُ إلى ما تعلق به. وهذه عقوبة وإهانة له من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الذي توكل على الله عَزَّجَلَّ وحده، فإن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يتولى أمره، أما من اعتقد بغيره فإنه يتخلّى عنه، فيكبله إلى حلقة من صُفْرٍ، أو خيط، أو إلى تيممة، أو إلى وليٍّ من الأولياء، أو قبر من القبور، أو ضريح من الأضرحة، أي: يَكبله إلى من اعتقد فيه.

فهذا فيه خطر عظيم، وفيه حث على أن يعلّق الإنسان قلبه بالله عَزَّجَلَّ، وأن يعتقد أنه لا ينفع إلّا الله، ولا يضر إلّا الله، ولا يشفي إلّا الله، ولا يرزق إلّا الله، ولا يُعطي ولا يمنع إلّا الله، فيتوكل على الله، مع أخذه بالأسباب

المباحة التي جعلها الله أسباباً؛ كالدواء المباح، وغير ذلك من الأسباب المباحة، مع تعلق القلب بالله.

❦ قوله: (وهو ينافي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾) إسلام الوجه: يعني الإخلاص لله عَزَّجَلَّ، وترك الشرك الأكبر والأصغر، والوجه هنا المراد به القصد والنية والعزم، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أي: توجهه وقصده ونيته إلى الله عَزَّجَلَّ، وذلك بإخلاص التوحيد، وتجنب الشرك، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيسلم من البدع والمحدثات، فإسلام الوجه لله يَسْلَمُ به العبد من الشرك، والإحسان يَسْلَمُ به العبد من البدع والخرافات والمحدثات، فلا بد من هذين الشرطين: السلامة من الشرك، والإخلاص في المتابعة.

ثم ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أثر وهب بن منبه، وهو تابعي جليل من أكابر علماء اليمن، وهذا الأثر مصداقه قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] قال: (وشاهد هذا في القرآن؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]؛ لأن التوحيد صعود وعلو وارتفاع، والشرك هبوط وسكون والعياذ بالله، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾

أي: سقط من مرتفع بعيد، والذي يسقط من السماء لا يدري أين يقع، هل يقع في بحر، أو بر، أو بين سباع، أو غير ذلك؟ كذلك المشرك -والعياذ بالله- ليس له قرار، ولا يدري أين يصير؟ بخلاف الموحّد فإنه يكون في ارتفاع وصعود وطمأنينة وعزة.



وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مِنْ عَقَدَ لِحَيْتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًّا، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ، أَوْ عَظْمٍ، فَإِنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيءٌ مِنْهُ»^(١).

قوله: [وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مِنْ عَقَدَ لِحَيْتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًّا، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ، أَوْ عَظْمٍ، فَإِنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيءٌ مِنْهُ»]، رُوَيْفِعُ: هو ابن ثابت بن السكن بن عدي بن حارثة الأنصاري، نزل مصر، وولي برقة، له ثمانية أحاديث. قال عبد الغني^(٢): ولي طرابلس، فافتتح أفريقية سنة سبع وأربعين. وقال ابن يونس^(٣): توفي ببرقة سنة ست وخمسين^(٤).

قوله: «لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ»: فقد طالت حياته رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦)، وأحمد في المسند (٤/ ١٠٨، ١٠٩)، والنسائي في الكبرى (٤١٤/٥).

(٢) هو أبو محمد عبد الغني بن سعيد بن علي الأزدي المصري السمرقندي، صاحب التصانيف، كان ثقة، صاحب سنة، حافظًا، علامة، من تأليفه: كتاب «المؤتلف والمختلف»، و«مشتبه النسبة»، كان مولده سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي سنة تسع وأربعمائة. انظر: تاريخ دمشق (٣٦/ ٣٩٥)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٢٣)، وطبقات الحفاظ (ص ٤١٢).

(٣) هو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصديقي، المصري، المؤرخ، كان حافظًا مكثرًا، خبيرًا بأيام الناس وتواريخهم، له تاريخ مفيد جدًا لأهل مصر ومن ورد إليها، كان مولده سنة أربعين ومائتين، وتوفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة. انظر: الوافي بالوفيات (١٨/ ٦٥)، والعبر (٢/ ٢٨٢)، والبداية والنهاية (١١/ ٢٣٣).

(٤) انظر: معجم الصحابة (١/ ٢١٦)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦)، والإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٥٠١).

قوله: «فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مِنْ عَقَدَ لِحَيْتِهِ»: قال الخطابي^(١): أما نهيهِ عن عقد اللحية فيفسر على وجهين:

أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحروب؛ كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زي بعض الأعاجم يقتلونهم ويعقدونها، قال أبو السعادات: تكبراً وعجباً. ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجدد. انتهى^(٢).

قلت: ويشبه هذا ما يفعله كثير؛ من قتل أطراف الشارب، فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه. وفي حديث زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ، فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣). رواه أحمد والنسائي والترمذي، وقال: صحيح. وفي الصحيح: «خالفوا المشركين؛ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللَّحَى»^(٤). وذلك يدل على الوجوب، وذكر ابن حزم^(٥) الإجماع على أنه فرض فيتعين النهي عن ذلك.

(١) هو أبو سليمان الخطابي حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الفقيه الأديب، صاحب معالم السنن، وغريب الحديث، والغنية عن الكلام، وشرح الأسماء الحسنی، وغير ذلك، توفي ببست في ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة. انظر: الوافي بالوفيات (٢٠٧/٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/١٧)، وشذرات الذهب (١٢٧/٣).

(٢) انظر: غريب الحديث للخطابي (٤٢٣/١)، وفتح الباري (٣٥١/١٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٦١)، والنسائي في الكبرى (٦٦/١)، وأحمد في المسند (٣٦٦/٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٠/١٢)، والطبراني في الكبير (٥٠٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٩٢، ٥٨٩٣)، ومسلم (٢٥٩) واللفظ له، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) هو الإمام الحافظ العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الفارسي الأصل، الأندلسي، القرطبي، الظاهري، ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وتوفي سنة ست وخمسين وأربعمائة، كان إليه المنتهى في الحفظ والذكاء وكثرة العلم، وكان شافعي المذهب، =

قوله: «أَوْ تَقْلَدَ وَتَرًّا»: فيه -مع ما تقدم-: أنه شرك؛ لما كانوا يقصدونه بتعليقه على الدواب وغيرها.

قوله: «أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ، أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيءٌ مِنْهُ»: هذا دليل على أن هذا والذي قبله من الكبائر؛ لأن قوله: «فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيءٌ مِنْهُ» يدل على ذلك، وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي بريء من فعله^(١).

فهذا التأويل بعيد؛ لعود الضمير إلى (من).

وقد ورد النهي عن الاستنجاء بالروث والعظام في أحاديث صحيحة كما لا يخفى، منها: ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا زَادَا إِخْوَانَكُمْ مِنَ الْجَنِّ»^(٢)، ولما رواه ابن خزيمة والدارقطني^(٣) عن أبي هريرة مرفوعاً: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ

= ثم انتقل إلى القول بنفي القياس والقول بالظاهر، قال عنه الذهبي: «كان ينهض بعلم جمة، ويحيد النقل، ويحسن النظم والنثر، وفيه دين وخير ومقاصده جميلة، ومصنفاته مفيدة، وقد زهد في الرئاسة ولزم منزله مكباً على العلم، فلا تغلو فيه ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار» اهـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥)، والوافي بالوفيات (٩٣/ ٢٠)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤)، والبداية والنهاية (٩١/ ١٢)، وطبقات الحفاظ (ص ٤٣٥).

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١١١/ ٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٠) (٤٥٠).

(٣) هو الإمام أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي المعروف بالدارقطني، سمع من أبي القاسم البغوي وخلق كثير ببغداد والكوفة والبصرة وواسط، ورحل في كهولته إلى الشام ومصر فسمع القاضي أبا الطاهر الذهلي وطبقته، وروى عنه أبو حامد الإسفرايني، وأبو عبد الله الحاكم، وكان عالماً حافظاً فقيهاً على مذهب الشافعي، انفرد بالإمامة في علم الحديث في دهره، وأسماء الرجال، وصناعة التعليل، والجرح والتعديل، وحسن التصنيف =

يُسْتَنْجَى بِعَظْمٍ، أَوْ رَوْثٍ. وَقَالَ: إِنَّهُمَا لَا يُطَهَّرَانِ»^(١). وعنه: أنه لا يجزئ الاستنجاء بهما؛ كما هو ظاهر مذهب أحمد^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قال: (وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ)، رُوَيْفِعٌ: هو ابن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تولى إمارة بُرْقة في عهد الخلفاء، وهي بلدة من بلاد شمالي أفريقيا، وتوفي هناك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ»، وهذا من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه أخبر أن رُوَيْفِعًا تطول به الحياة، وقد طالت به الحياة وعُمُرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففيه: عِلْمٌ من أعلام النبوة، وهو الإخبار عن شيء مستقبل، ويقع كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا مما أطلعه الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

❖ قال: «فَأَخْبَرَ النَّاسَ» هذا فيه دليل على تبليغ العلم، ونشر العقيدة، والدعوة إليها، وإنكار الشرك، وأن الإنسان محمّل هذه الأمانة، لا يتخلى عنها، ويترك الناس يقعون في الشرك وفساد العقيدة، وهو ساكت، ثم يقول: اتركوا الناس مجتمعين، لا تفرقوا بين الناس، حاربوا الشيوعية وحاربوا المذاهب الهدّامة، واتركوا الشرك!!

=والتأليف، توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. انظر: تاريخ دمشق (٩٣/٤٣)، وطبقات الشافعية (١٦١/٢)، ووفيات الأعيان (٢٩٧/٣)، والبداية والنهاية (٣١٧/١١)، وشذرات الذهب (١١٦/٣).

(١) أخرجه الدارقطني (٥٦/١)، وقال: «إسناد صحيح». وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٤٣/١، ٤٤)، ولفظه: «... ولا يستنجي بدون ثلاثة أحجار ليس فيها روث ولا رمة».

(٢) انظر: المغني (١٠٤/١)، والمبدع (٩٢/١)، وكشاف القناع (٦٩/١).

وهل هناك أشد من الشرك؟ الشرك هو أكبر المذاهب الهدامة، وهذا القول يدسه علينا الأعداء إما من اليهود والماسونية أو غيرهم، ويأخذه بعض المغرورين من شبابنا على أنه صحيح، وإنما حقيقته والمقصود منه هدم الإسلام، وهدم العقيدة؛ لأن الشرك إذا تُرك فسدت العقيدة.

❁ قوله: «أَنَّ مِنْ عَقَدَ لِحِيَّتَهُ» عقد اللحية اختلف فيه العلماء على أقوال:

القول الأول: نقله الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن الخطابي، قال: (كانوا يفعلونه في الحروب؛ كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها)، أي: كانوا عند الحروب يعقدون لحاهم تكبراً وعجباً، ونحن قد هُيننا عن التشبه بالكفار.

القول الثاني: أن المراد بعقد اللحية ما يفعله أهل الترف من تجعيد لحاهم وتحسينها وكدها، حتى تتجعد، يقصدون بها الجمال، فهذا يكون من الترف، نعم لا بأس أن تصلح اللحية وتُنظَّف وتُكْرَم، لكن لا ينبغي أن يصل هذا إلى حد الإسراف.

وهناك قول ثالث: وهو أن المقصود بعقد اللحية عقدها في الصلاة، وهذا مكروه؛ لأنه يدل على عدم الخشوع، وهو من الحركة والعبث في الصلاة.

❁ قال: (قلت: ويشبه هذا ما يفعله كثير من قتل أطراف الشارب، فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه) أما تغليظ الشارب فهذا محرم؛ لأن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بإحفاف الشوارب، وقص الشوارب، أما تطويل الشوارب، وجعل السبالات هذا من فعل الجهال، وهو مخالف للسنة، فينبغي على المسلم ألا يترك شاربه يطول، بل يتعاهد بالقص والحف، عملاً بسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واستدل الشيخ رحمه الله بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ، فَلَيْسَ مِنَّا»، وقوله: «فَلَيْسَ مِنَّا» يدل على أن ترك الشارب يطول ويصير سبالات، كبيرة.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الآخر: «خالفوا المشركين؛ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ» يعني: لا تتركوها تطول، «وَأَعْفُوا اللَّحَى» يعني: اتركوها ولا تتعرضوا لها بتنف أو قص أو حلق، بل تترك اللحية وتعفى، وفي رواية: «وَقُرُّوا اللَّحَى»^(١)، وفي رواية: «أَرْخُوا اللَّحَى»^(٢)، وفي رواية: «أَرْجُوا اللَّحَى»^(٣) بالجيم، إلى غير ذلك، ففي ذلك الأمر بإعفاء اللحى، وتركها، وإرسالها، وإرخائها، وإكramها، وتوفيرها، لكن حدث الآن العكس من كثير من الناس، فتجدهم يعتنون بالشوارب ويحلقون اللحى، أو يقصونها، ويحصرونها من جميع الجوانب وهذا خلاف السنة الثابتة عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه البخاري (٥٨٩٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) قال السيوطي في شرحه لسنن النسائي (١٢٩/٨): «قال القرطبي: وقع لابن ماهان: (أرجوا اللحى) بالجيم، فكأنه تصحيف، وتخريجه على أنه أراد أرجئوا من الإرجاء».

والأمر هنا للوجوب، قال رَحِمَهُ اللهُ: (وذكر ابن حزم الإجماع على أنه فرض، فيتعين النهي عن ذلك)، فدل على أن الأمرين واجبان: إحياء الشوارب، وإعفاء اللحى.

❁ قال: «أَوْ تَقْلُدْ وَتَرًا» يعني: جعل الوتر قلادة عليه، أو على دابته، أو على ولده من أجل أن يتقي به العين والضرر، كما كانت الجاهلية تفعل، وهذا هو محل الشاهد من الحديث.

❁ قوله: (فهذا التأويل بعيد) يعني تفسير النووي: (أي: بريء من فعله)، والظاهر هو التفسير الأول: أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبرأ من الشخص نفسه، وليس القصد التبرؤ من فعله؛ لأن الضمير في قوله: «مَنْ عَقَدَ بِحَيْثُهُ أَوْ اسْتَنْجَى» عائد إلى (من)، ولم يعد إلى الفعل.

❁ قوله: (وقد ورد النهي عن الاستنجاء بالروث والعظام في أحاديث صحيحة) وهذا مذكور في باب آداب قضاء الحاجة من كتب الحديث ومن كتب الفقه، أنه لا يجوز الاستجمار بهاتين المادتين: الروث لأنه زاد لدوابهم، والعظام لأنها زاد للمسلمين من الجن، يجعل الله عليها اللحم فيأكلونه.

والاستنجاء: هو إزالة الخارج من السبيلين، والواجب على المسلم إذا قضى حاجته أن ينقي المخرج إما بماء، أو باستجمار بالحجارة، والجمع بينهما أفضل.

❁ وفي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه الدارقطني: (إِنَّهُمَا لَا يُطَهَّرَانِ) علة أخرى في النهي عن الاستجمار بالروث أو العظم، فبالإضافة

إلى أنها زاد إخواننا المسلمين من الجن فهما أيضًا لا يطهران، أي: لا ينقيان
 المخرج، فمن استجمر بهما فإن النجاسة باقية عليه، بخلاف من استجمر
 بالحجر أو ما يقوم مقامه فإنه يزيل النجاسة.



وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً عَنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ^(١).

قوله: [وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً عَنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ»]. رَوَاهُ وَكِيعٌ، هذا عند أهل العلم له حكم الرفع؛ لأن مثل ذلك لا يُقال بالرأي، فيكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيداً تابعي، فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التهام، والترغيب في قطعها، وأن ذلك مما يجب.

وفيه - مع ما تقدم - أنه شرك، وبيان حال السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من تعظيم الشرك قليله وكثيره، والنهي عنه. فلما اشتدت غربة الإسلام في أواخر هذه الأمة، صار إنكار هذا وما أعظم منه أعظم المنكرات، حتى عند من ينتسب إلى العلم كما لا يخفى.

ووكيع: هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي، ثقة إمام صاحب تصانيف، منها: «الجامع» وغيره، روى عنه الإمام أحمد وطبقته، مات سنة سبع وتسعين ومائة^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا أثر سعيد بن جبيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أئمة التابعين، وهو من تلاميذ عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً عَنْ إِنْسَانٍ»، والتميمة عرفناها،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٥ / ٧) من طريق حفص عن ليث عن سعيد بن جبيرة.
(٢) هو الإمام العلم أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي، الرؤاسي الكوفي، قال أحمد: «ما رأيت أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع» اهـ. وقال ابن سعد في الطبقات: «كان ثقة مأموناً عالماً رفيحاً كثير الحديث حجة» اهـ. انظر: الطبقات الكبرى (٦ / ٣٩٤)، وتاريخ بغداد (١٣ / ٤٩٦، ٤٩٧)، وتاريخ دمشق (٦٣ / ٥٨)، وشذرات الذهب (١ / ٣٤٩).

هي: ما يعلق على الرقبة، أو على غيرها من الحروز والحجب، هذه يسميها العوام الآن الصكوك، التي تكتب وتعلق على المريض رجاء شفاؤه. كل هذا محرم في نظر ابن مسعود وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هو الصحيح؛ لعموم الحديث.

❦ قوله: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً عَنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعَبْدٍ رَقَبَةٍ» أي: كان كمن أعتق رقبة من الرق، وجه المشابهة: أن إعتاق العبد في إعتاق من الرق، وقطع التميمة من إنسان فيه إعتاق من الشرك، فهذا إنقاذ من العبودية بالعتق، وهذا إنقاذ من الشرك بالتوحيد؛ لأن المشرك استبدل رِقَّهُ للرحمن برِقِّه للشيطان، ورحم الله الإمام ابن القيم حيث يقول:

هربوا من الرِّقِّ الذي خَلَقُوا لَهُ فَبُلُُّوا بَرَقَ النَفْسِ وَالشَّيْطَانِ^(١)

يعني: هم أرقاء لله، عبيد لله، لكن لما أشركوا به صاروا عبيداً للشيطان، وعبيداً للنفس والهوى، فالإنسان خُلِقَ لعبادة الله، فإذا تركها صار عبداً للشيطان، فهو عبد ولا بد.

فسعيد بن جبیر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعتبر الشرك رِقًّا، من أزاله فكأنها أعتق هذا العبد من هذا الرِّقِّ الدَّلِيلِ المَهِينِ، وجعله حُرًّا من عبادة المخلوق، عبداً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ؛ لأن عبادة الله عَزَّجَلَّ هي الحرية الصحيحة، وليست الحرية أن الإنسان يشرك ويكفر ويعتقد ما شاء، كما يقولون: الناس أحرار في اعتقادهم!! بل الناس خلقوا لعبادة الله، وعبادة الله ليست من باب الذل والمهانة، وإنما هي من الإكرام، والرَّفْعَةِ، وهي شرف للبعد، أما العبودية لغيره فهي مذلة ومهانة، وعاقبتها الحسرة والندامة.

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٤٦٦/٢).

❁ قوله: «كَانَ كَعْدِلِ رَقَبَةٍ» هذا لا يقوله الإنسان باجتهاده، وإنما هذا يتوقف على نص من الشارع، ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (مثل ذلك لا يُقال بالرأي، فيكون هذا مرسلاً) أي: من مراسيل التابعي، (فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التهمائم، والترغيب في قطعها)؛ لأن السلف لم يتساهلوا في الشرك الأصغر، بل كانوا يبادرون بإنكاره والنهي عنه.

❁ قال: (فلما اشتدت غربة الإسلام في أواخر هذه الأمة، صار إنكار هذا وما أعظم منه أعظم المنكرات) صاروا ينكرون على من ينكر هذه الأمور، ويقولون: هذا من الخوارج، وهذا حنبلي متشدد، إلى غير ذلك من الألقاب؛ لأن الإسلام عندهم هو ما عليه الصوفية وعباد القبور، ومن أنكره فإنه يكون منكراً للإسلام، تغيرت الأمور فصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً عندهم، وفيهم علماء، وفيهم فقهاء، لكن ليس عندهم علم بالتوحيد، عندهم علم بالفقه وقد يكون عندهم علم بالحديث، ولكن ليس لهم عناية بالتوحيد وأمور التوحيد، وإنما يمشون في العقيدة على ما يمشي عليه الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»^(١).

قوله: [وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»]، إبراهيم: هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يُكنى أبا عمران، ثقةٌ من كبار الفقهاء، مات سنة ست وتسعين وله خمسون سنة أو نحوها^(٢).

وقوله: «كَانُوا يَكْرَهُونَ»: أراد أصحاب عبد الله بن مسعود؛ كعلقمة، والأسود^(٣)، وأبي وائل^(٤)، والحارث بن سويد^(٥)، وعبيدة السلماني،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٤ / ٧).

(٢) راجع ترجمته (ص ٤٢٥).

(٣) هو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي، أبو عمرو، ويقال: أبو عبد الرحمن، روى عن عمر، وعلي، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وحديثه عن كبار الصحابة في الصحيحين وغيرهما، روي عن بعض أصحابه أنه كان يصوم في اليوم الشديد الحر الذي يرنح فيه الجمل الجلد الأحمر من شدة الحر، وقيل: كان يصوم حتى يسود لسانه من الحر. توفي سنة أربع، وقيل: خمس وسبعين. انظر: الطبقات الكبرى (٧٠ / ٦)، وسير أعلام النبلاء (٥٠ / ٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (١٩٩ / ١)، والبداية والنهاية (١٢ / ٩).

(٤) هو شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل، أدرك النبي ﷺ، ولم يلقه، وروى عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وحذيفة، وابن مسعود، وخباب، وغيرهم، وروى عنه الأعمش، ومنصور، وعاصم، وعمر بن مرة، وأبو حصين، وآخرون، قال الذهبي: «قال محمد بن عثمان بن أبي شيبة: مات في زمن الحجاج بعد الجماجم، وقال خليفة: مات بعد الجماجم سنة اثنتين وثمانين». انظر: الطبقات الكبرى (٩٦ / ٦)، وتاريخ بغداد (٢٦٨ / ٩)، وسير أعلام النبلاء (١٦٥ / ٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٣٨٦ / ٣).

(٥) هو الحارث بن سويد التميمي، أبو عائشة، يُقال: أدرك الجاهلية، ونزل الكوفة، وروى عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وروى عنه إبراهيم التيمي، وأشعث بن أبي الشعثاء، قال عبد الله بن أحمد: «ذكره أبي فعظم شأنه» اهـ، وقال ابن عيينة: «كان من عليّة أصحاب =

ومسروق^(١)، والربيع بن خيثم^(٢)، وسويد ابن غفلة^(٣)، وغيرهم، وهم من سادات التابعين في زمانهم، كانوا يطلقون الكراهة على المحرم. وهذا القول الصحيح؛ لأن ما كان من غير القرآن قد تقدم النهي عنه بلاريب، وأما إذا كان من القرآن فيتعين النهي عنه لأمر ثلاثة:

منها دخوله في عموم المنهي عنه.

= ابن مسعود» اهـ. توفي في أواخر خلافة عبد الله بن الزبير سنة اثنتين وسبعين. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ١٦٧)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٦)، والإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ١٥٧).

(١) هو أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ثم الوادعي، سُرق وهو صغير ثم وجد فسمي مسروقاً، وأسلم أبوه الأجدع فسمي عبد الرحمن، قال الشعبي: «ما علمت أحداً كان أطلب للعلم منه»، توفي سنة ثلاث وستين. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٧٦)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٢)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٦٣)، وطبقات الحفاظ (ص ٢١).

(٢) هو أبو زيد الربيع بن خيثم الثوري، الكوفي، أدرك زمان النبي ﷺ وأرسل عنه، وروى عن عبد الله بن مسعود، وأبي أيوب الأنصاري، وعمر بن ميمون، قال الذهبي: «وهو قليل الرواية إلا أنه كبير الشأن» اهـ، حدث عنه الشعبي، وإبراهيم النخعي، وهلال بن يساف، ومنذر الثوري، وهبيرة بن خزيمة، وآخرون، قال له عبد الله بن مسعود: «ما رأيتك قط إلا ذكرت المختبين، ولورأك رسول الله ﷺ لأحبك»، وكان ابن مسعود يحله كثيراً، توفي سنة اثنتين وستين. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٨)، والبداية والنهاية (٨/ ٢١٧).

(٣) هو سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر، أبو أمية، الجعفي، الكوفي، شهد اليرموك، وحدث عن جماعة من الصحابة، قيل: كان مولده عام ولد النبي ﷺ، وقيل: ولد بعده بستين، قال الحافظ ابن حجر: «يقال أنه صلى مع النبي ﷺ، ولا يصح، والأصح أنه قدم المدينة حين نفضت الأيدي من دفنه ﷺ» اهـ، عاش مائة وعشرين سنة، توفي سنة إحدى وثمانين، وقيل: سنة اثنتين وثمانين. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٦٨)، والإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٢٧٠)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٦٩)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٧).

ومنها كونه ذريعة إلى تعليق ما ليس من القرآن فيفضي إلى عدم إنكارها.

الثالث: أن تعليق القرآن يكون سبباً في امتهانه؛ فإنه من علقه فلا بد أن يدخل به الخلاء ونحوه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: والرقى هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العين والحمة^(١). والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يجب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

قال الحافظ: التولة - بكسر المثناة، وفتح الواو واللام، مخففاً - شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر^(٢). والله أعلم.

... — الشَّبَحُ — ...

❦ قوله: (كانوا يطلقون الكراهة على المحرم)؛ لأن الكراهة عند السلف معناها التحريم، وإنما صارت تُطلق على التنزيه عند المتأخرين فقط، أما عند القدامي إذا قالوا: يُكره هذا الشيء، فمعناه أنه يجرم؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، وقد ذكر سبحانه الشرك، وقتل النفس، والزنا، والخيلاء في المشي، وعقوق الوالدين، وغير ذلك من الكبائر، وقال في ختامها: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ يعني: محرماً.

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الذي أخرجه البخاري (٥٧٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٩٣) قالت: «رَخَّصَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ كُلِّ ذِي هَمَّةٍ».

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/١٩٦).

❁ قال: (وهذا القول الصحيح)؛ لأن ما كان من التمايم من غير القرآن قد تقدم النهي عنه، ولا أحد يخالف في منعه، وإنما الخلاف فيما كان من القرآن كما سبق، والصحيح أنه لا يجوز أيضًا، فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يرجح القول الذي ذهب إليه ابن مسعود وأصحابه، وهو عدم جواز تعليق التمايم من القرآن أو غيره، وذلك لأمر:

الأمر الأول: عموم النهي في الحديث: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»، ولم يرد ما يدل على التخصيص.

الأمر الثاني: أن في السماح بتعليق شيء من القرآن وسيلة إلى تعليق غيره؛ لأن الناس إذا فتح لهم الباب لا يقتصرون على المباح، فلا يقتصرون على ما كان من القرآن، فيُمنع ذلك من باب سد الوسيلة المفضية إلى الشرك.

الأمر الثالث: أن في الإذن بتعليق القرآن وسيلة إلى امتنانه؛ لأنه يعلق على الصبيان، وعلى الحِيص، وعلى من يدخل به الخلاء، وعلى الجهال الذين لا يحترمونه كما ينبغي، ولا ينتبهون لذلك، وما كان سببًا لامتهان القرآن فهو محرم. فمن هذه الوجوه صار الصحيح: أنه لا يجوز تعليق شيء لا من القرآن ولا من غير القرآن، وإنما الرقية المباحة المتفق عليها هي: أن يقرأ على المريض وينفث عليه مباشرة، هذه هي الرقية المشروعة، أما الذي يُكتب ويعلق، فهذا الصحيح إنه لا يجوز، رخص فيه بعض السلف وليس هو محل إجماع.

❁ قال: (وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ)، الرُّقَى: جمع رقية، والرُّقِيَّة: القراءة على المريض، ويسميتها العوام العزيمة.

❁ قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشَّرِكِ) أي: استثناءه من التحريم، فهناك أدلة تفصّل بأنه إن كانت الرُقِيّة من القرآن أو من الأدعية المباحة فإنها ليست بشرك، بدليل أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَخَّصَ في الرُقِيّة من العين ومن الحُمّة؛ كما جاء في حديث بُريدة بن الحُصَيْن الذي سبق في «باب من حقق التّوحيد»، وكذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقَى المَرَضَى^(١)، وَرَقَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رَقَاه جَبْرِيل^(٢)، وكذلك لما جاءوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه قالوا: كنا في الجاهلية لنا رُقَى نرقي بها وأدوية نتداوى بها، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اغْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»^(٣).

❁ وقوله: (فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَيْنِ، وَالْحُمّةِ)، الرُّخْصَة عند الأصوليين: ما ثبت على خلاف دليل شرعي لمعارض راجح^(٤)؛ لأن الأحكام على قسمين: رُخْصَة، وعزيمة.

فالشيء المستثنى من الممنوع بدليل يسمى: رُخْصَة، مثل: الأكل من الميتة، وقصر الصلاة للمسافر، والإفطار في نهار رمضان، كل هذه رُخْص، رَخَّصَ فيها الشارع من أشياء كانت في الأصل ممنوعة، وذلك من أجل

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الذي أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١) «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَرْقِي بِهَذِهِ الرُقِيّةِ أَذْهَبَ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ».

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: روضة الناظر (ص ٦٠)، والمجموع (٩/٣)، والقواعد والفوائد الأصولية (ص ١١٥).

الرَّحْمَةُ بِالْخَلْقِ، وكذلك الرقية في القرآن استثنيت من الرقى الممنوعة بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»، فهي رخصة.

❖ قال: (وَالتَّوَلَةُ: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ)، التَّوَلَةُ: بكسر التاء وفتح الواو، (يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ)، الزعم: الكذب، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ [النساء: ٦٠]، يعني: يكذبون في قولهم أنهم آمنوا.

❖ قوله: (يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ) هذا يسمونه: الصِّرف والعطف، وهو سحر، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو سحر يفرِّق ويجمع، حيث يعمل أشياء تنفِّر الإنسان من الإنسان، أو الرجل من زوجته، أو الزوجة من زوجها، وهو من عمل الشياطين.

فالسحرة لما تقرَّبوا من الشياطين وخدموهم وأشركوا بالله، ساعدتهم الشياطين في هذه الأمور في مقابل شرَّكهم، وهذا كثير في الناس، خصوصًا في البلاد التي لا يُعتنى فيها بأمر العقيدة حيث يضعف الإيمان، فإن السحر يُتخذ حِرْفَةً ومهنة في بعض البلاد، ولكن من نعمة الله على هذه البلاد أن هذا الشيء لا يوجد فيها إِلَّا خَفِيَّةً، لكنه يُطارَد، وأهله -والحمد لله- أَذِلَّاء.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: تَفْسِيرُ الرُّقَى وَالتَّهَائِمِ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ التَّوَلَّى.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ كُلُّهَا مِنَ الشَّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الرُّقِيَّةَ بِالْكَلامِ الْحَقِّ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَمَّةِ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلْ هِيَ

مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

السَّادِسَةُ: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْأَوْتَارِ عَلَى الدَّوَابِّ عَنِ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

السَّابِعَةُ: الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ وَتَرَّا.

الثَّامِنَةُ: فَضْلُ ثَوَابٍ مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ النَّحْيِيِّ لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْاِخْتِلَافِ؛

لِأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



٨- بَابُ

مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ نَحْوِهِمَا

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ ۖ﴾ (١٩) وَمَنَوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿[النجم: ١٩ - ٢٣].

قوله: [بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ نَحْوِهِمَا]؛ كبقعة، وقبر، ومشهد، ونحو ذلك، و(مَنْ) اسم شرط، والجواب محذوف؛ تقديره: فقد أشرك بالله.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب مثل الأبواب التي قبله، فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ جعل لكل شيء باباً خاصاً، من أجل التفصيل في هذا، ومن أجل التخفيف على طالب العلم بأن يأخذ العلم على مراحل شيئاً فشيئاً، ولا يأخذه دفعة واحدة.

﴿ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ نَحْوِهِمَا] يعني فقد أشرك وإن لم يصرح المؤلف بذلك؛ لأنه اكتفى رَحِمَهُ اللَّهُ بما تفيده الأحاديث والآيات التي ساقها، حيث يُؤخذ منها أن ذلك شرك، ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ من عادته إذا كان الحكم منصوباً عليه فإنه يذكره في الترجمة، وإذا لم يكن منصوباً عليه، وإنما يفهم ويُستفاد من الأدلة؛ فإنه لا يذكره في الترجمة، بل

يتركه للنصوص وما يفهم منها، وهذا من عظيم فقهه رَحِمَهُ اللهُ، ومن تحفظه من الجزم بالأحكام إلا بنص صريح.

والفرق بين هذا الباب والذي قبله أن الباب الذي قبله في لبس الحلقة والخيطة لرفع البلاء أو دفعه، فهو في بيان حكم استعمال هذه الأشياء لدفع الضرر، وأما هذا الباب فهو لبيان حكم استعمالها لجلب الخير والبركة، فالباب الذي قبله في دفع الضرر، وهذا الباب في جلب الخير والنفع، وأن ذلك كله مرجعه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي ينفع ويضر، وأما غيره فلا ينفع ولا يضر إلا بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ وقوله: (بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ)، التبرك معناه: طلب البركة، والبركة: هي ثبوت الخير والنفع ودوامه، والتبرك إنما يكون بأسماء الله وصفاته سبحانه، وبالقرآن الكريم؛ لأن الله جعله مباركاً وشفاءً للناس، وهو كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك يُتَبَرَّكُ بأسمائه وصفاته لأنها مباركة، فإذا قلت: بسم الله، فمعناه أتبرك باسم الله واستعين باسم الله، وهذا مشروع، ومنه ما جاء في دعاء الاستفتاح: «تَبَارَكَ اسْمُكَ»^(١)، أي البركة تنال بذكرك، وجاء أيضًا هذا

(١) أخرجه مسلم (٣٩٩) موقوفًا على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي في الكبرى (٣١٣/١)، وابن ماجه (٨٠٤)، وأحمد في المسند (٥٠/٣)، والدارمي في سننه (١٢٣٩)، والدارقطني في سننه (٢٩٨/١)، والبيهقي في الكبرى (٣٤/٢)، وقال: «وأصح ما روي فيه الأثر الموقوف على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، وقال أبو عيسى الترمذي: (وفي الباب عن علي، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وجابر، وجير بن مطعم، وابن عمر، وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب... وهكذا روي عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من التابعين وغيرهم، =

مسندًا إلى الله عَزَّجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

❁ قوله: (بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ) أي: طلب البركة من حَجَرٍ أَوْ مِنْ شَجَرٍ، أو اعتقد أنها سبب للبركة، وهي لم يجعلها الله أسبابًا لها، فقد أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الحجر والشجر لا يخلق البركة ولا يوجد لها، ولا هو مسبب في حصولها، وإنما الذي يوجد لها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو مسبب الأسباب.

نعم قد يجعل الله بعض الأشياء مباركة، مثل: ماء زمزم، ومثل: الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومثل: الكعبة المشرفة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، فالله عَزَّجَلَّ هو الذي جعل الكعبة مباركة، أما الكعبة فليست هي التي تُوجَد البركة، أو تخلقها.

وقد يجعل الله عَزَّجَلَّ بعض الأشياء مباركة، كما قد جعل بعضها شريرة، فقد جعل الشياطين شريرة، وجعل بعض الدواب شريرة، فالاعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل الأمور، وإنما نتخذ الأسباب ولا نعطلها؛ لأن الله أمرنا باتخاذها، وأما النتائج فهي عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعطيل الأسباب عجز، وتعطيل للمنافع التي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الأشياء؛ كما قال بعض العلماء: (الاعتماد على السبب شرك، وترك السبب قدح في الشرع)^(١)؛ لأن

=وقد نُكَلِّم في إسناد حديث أبي سعيد، كان يحيى بن سعيد يتكلم في علي بن علي الرفاعي، وقال أحمد: لا يصح هذا الحديث). اهـ.

(١) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٥٢٠)، ومنهاج السنة النبوية (٥/ ٣٦٦).

الشرع أمرك باتخاذ الأسباب، والاعتماد على الأسباب شرك لأنه اعتماد على غير الله.

فهذه مسألة يجب على طالب العلم أن يفقهها، وأن يعرفها ويتأملها جيداً، وأن يوضحها للمسلمين؛ لإزاحة الشُّبُهَات، وإزاحة التضليل الذي يَروُج عند بعض الناس بسبب الجهل، أو بسبب سوء القصد. فالتبرك بالآثار والأشجار والأحجار كل ذلك محرم، وهو شرك؛ لأنه طلب للبركة من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يجوز أيضاً التبرك بالأنبياء والأولياء والصالحين، فلا يُتبرك بالآثار التي تُنسب إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من الأشياء التي استعملها، أو الأمكنة التي جلس فيها أو صلى فيها؛ لأن هذا من البدع، ولم يرد عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه شرع لأمته أن يتبركوا بحجرتها، ولا أن يتبركوا بغار حراء، ولا بغار ثور، ولا بالأمكنة التي جلس فيها ونزل عليه الوحي فيها، ولا بدار المولد، إذا ثبت أنه ولد في هذا المكان، فلا يُتبرك بهذه الأشياء؛ لأن هذا لم يفعله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلم الأمة بما يجوز وما لا يجوز، ولا فعله صحابته الكرام، ولا فعله السلف الصالح من القرون المفضلة، وإنما يتعلق بهذه الآثار - كما يسمونها - الجهلة والمخرفون الذين لا يهمهم الدليل، وإنما يهمهم ما قاله فلان وعلان، وما تهواه أنفسهم.

❁ وقوله: (أَوْ نَحْوَهُمَا) يشمل كل ما ذكرنا: الشجر، والحجر، والقبور، والآثار التي تنسب إلى الأنبياء أو الأولياء والصالحين، كلها لا يجوز التبرك بها، إنما يُتبرك بما دلت الأدلة على جواز التبرك به؛ كالتبرك بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ

وصفاته، والتبرك بالقرآن، والتبرك بما انفصل من جسد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته؛ لأنه بعد موته لم يبق شيء مما انفصل منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ انقطع هذا بموته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورحيله عن هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى.

❁ قوله: (كبقعة وقبر ومشهد ونحو ذلك)، يعني: بقعة من الأرض يتبركون بها ويذهبون إليها، وليس في الأرض بقعة تقصد للبركة والعبادة فيها إلا المساجد الثلاثة؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(١)، أي: لا يسافر لأجل العبادة في مكان إلا في هذه المساجد الثلاثة؛ لأن الله شرع العبادة فيها وجعلها من شعائر دينه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما عداها من بقاع الأرض فليس لها ميزة على غيرها أبداً تُقصد من أجلها؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ»^(٢)، كل الأرض تصلح للصلاة، وليس هناك حاجة للذهاب إلى مكان معين للصلاة فيه، فإذا حضرت الصلاة صل في المكان الذي أنت فيه إلا إذا كنت تستطيع الذهاب إلى مسجد تقام فيه الجماعة تذهب لأجل الصلاة مع الجماعة، وإلا فإنك تصلي في المكان الذي أنت فيه؛ لأن الأرض كلها مسجد وليس لبعضها ميزة على غيره.

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله

.....

فالذين يذهبون إلى المشاهد وقبور الأولياء والصالحين، ويقولون: إنهم
يشفعون لنا، ونرجو منهم النفع ودفع الضرر؛ كمن يذهب إلى قبر البدوي،
أو قبر فلان، أو فلان، هذا كله باطل ومن عبادة غير الله عَزَّجَلَّ.



قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ (النجم: ١٩ - ٢٣)].

هذه الأوثان الثلاثة هي أعظم أوثان أهل الجاهلية من أهل الحجاز، فاللات لأهل الطائف ومن حولهم من العرب، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال، وقال ابن هشام^(١): كانت لهذيل وخزاعة^(٢).

واللات بتخفيف التاء في قراءة الجمهور، وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وحמיד^(٣)، وأبو صالح^(٤)،

(١) هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، وقيل: الذهلي، أبو محمد البصري النحوي، نزيل مصر، مهذب السيرة النبوية، سمعها من زياد بن عبد الله البكائي صاحب ابن إسحاق، ونقحها، وحذف جملة من أشعارها، وروى فيها مواضع عن عبد الوارث التنوري وغيره، وثقه أبو سعيد ابن يونس، توفي سنة ثمان عشرة ومائتين، وقيل سنة ثلاث عشرة. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٧٧)، والوفاء بالوفيات (١٩/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٨)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٨١).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣١٠)، (٥/ ١٠٣).

(٣) هو أبو صفوان حميد بن قيس الأعرج، كان قارئ أهل مكة، وكان ثقة كثير الحديث، قال ابن سعد: «قال سفيان بن عيينة: كان حميد الأعرج أفرضهم وأحسبهم - يعني: أهل مكة - وكانوا لا يجتمعون إلا على قراءته» اهـ، وقال ابن عيينة: «لم يكن بمكة أحد أقرأ من حميد بن قيس، وعبد الله بن كثير» اهـ، توفي سنة ثلاثين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٤٨٦)، وتاريخ دمشق (١٥/ ٢٩١)، والوفاء بالوفيات (١٣/ ١١٩)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٩٧).

(٤) هو عبد الحميد بن صالح البرجمي، الكوفي، المقرئ، قرأ على أبي بكر بن عياش، ثم على أبي يوسف الأعشى، قال أبو حاتم: «صدوق»، توفي سنة ثلاثين ومائتين. انظر: الوفاء بالوفيات (١٨/ ٤٣)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٢٠٢).

ورويس^(١) عن يعقوب^(٢) بتشديد التاء^(٣). فعلى الأولى قال الأعمش^(٤):
سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز.

وقال ابن كثير: اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت
بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف
ومن تبعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قریش^(٥).

(١) هو محمد بن المتوكل أبو عبد الله اللؤلؤي رويس المقرئ، قرأ على يعقوب بن إسحاق،
وتصدر للإقراء، وقرأ عليه محمد بن هارون التمار، وأبو عبد الله الزبيري، توفي بالبصرة
سنة ثمان وثلاثين ومائتين. انظر: معرفة القراء الكبار (١/٢١٦)، ونزهة الألباب في
الألقاب (١/٣٣١).

(٢) هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قارئ أهل البصرة في عصره، قرأ على أبي
المنذر سلام بن سليم، وأبي الأشهب العطاردي، ومهدي بن ميمون، وشهاب بن شرفقة،
وقرأ عليه روح بن عبد المؤمن، ورويس، والوليد بن حسان التوزي، وأحمد بن عبد الخالق
المكفوف، وأبو حاتم السجستاني، وأبو عمر الدوري، وخلق سواهم، توفي سنة خمس
ومائتين، وقيل: سنة إحدى عشرة ومائتين. انظر: الطبقات الكبرى (٧/٣٠٤)، ومعرفة
القراء الكبار (١/١٥٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧/٥٨)، وزاد المسير (٨/٧١، ٧٢)، وتفسير القرطبي (١٧/١٠٠)،
وفتح الباري (٨/٦١٢)، وفتح القدير (٥/١٠٨)، والحجة في القراءات العشر (ص ٣٦٦).

(٤) هو سليمان بن مهران الأعمش، الإمام العلم أبو محمد، الأسدي، الكاهلي، مولاهم،
الكوفي أصله من أعمال الري، قرأ القرآن على يحيى بن وثاب، وورد أيضاً أنه قرأ على زيد
ابن وهب، وزر بن حبيش، وعرض القرآن على أبي العالية الرياحي، ومجاهد، وعاصم
ابن بهدلة، وأقرأ الناس، ونشر العلم دهرًا طويلاً، كان مولده سنة إحدى وستين، قال ابن
عينة: «كان الأعمش أقرأهم لكتاب الله، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض» اهـ،
توفي سنة ثمان وأربعين ومائة. انظر: الوافي بالوفيات (١٥/٢٦١)، ومعرفة القراء الكبار
(١/٩٤)، وطبقات الحفاظ (ص ٧٤).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٢٥٤).

قاله ابن هشام^(١).

وعلى الثانية قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلْتُ سَوِيْقَ الْحَاجِّ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ»، ذكره البخاري^(٢).

قلت: ولا منافاة بين ما ذكره البخاري وغيره من عبادتهم الصخرة التي كان يلت السويق عليها باسمه، وعبادة قبره لما مات.

وأما العزى فقال ابن جرير: كانت صخرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها^(٣)؛ كما قال أبو سفيان يوم أحد: «لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(٤).

ومناسبة هذه الآية للترجمة: أن عبادة المشركين للعزى، والصخرة ومناة، إنما كان بالتفات القلوب رغبة إليها في حصول ما يرجونه ببركتها من نفع أو دفع ضرر، فصارت أوثاناً تُعبد من دون الله، وذلك من شدة ضلال أهل الشرك وفساد عقولهم؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]،

(١) قال ابن هشام: «قال ابن إسحاق: ... واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة - وقال أيضاً: كانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجاجها بنو معتب من ثقيف» اهـ. انظر: السيرة النبوية (١/١٦٦، ٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٩) دون قوله: «فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧/٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فصارت عبادة القبور وعبادة الشجر والحجر هو شرك المشركين، وقد جرى ذلك وما هو أعظم منه في أواخر هذه الأمة.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قال: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾)، قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ﴾ هذا استفهام إنكار، أف رأيتم هذه الأصنام هل نفعت أو ضرت حتى تتعلقوا بها، وتبركوا بها؟ هل نفعتكم؟ هل ضرتكم؟ هل نفعت نفسها؟ هل امتنعت لما هُدمت ودافعت عن نفسها؟ لو كانت آلهة تنفع وتضر لدافعت عن نفسها، وهل نصرتكم لما سلط الله المسلمين عليكم؟ وهل أغاثتكم عند الشدائد؟ فلا يستطيعون الجواب بأنها تضر أو تنفع، لم تنفعهم في بدر وغيرها من الغزوات، ولم تدفع عنهم ما أوقع الله بهم من الهزائم، ما أجابوا عن هذا السؤال العظيم، فدلّ على انقطاع حجتهم، وهكذا في كل أسئلة القرآن الكريم التي هي من باب التحدي والتعجيز، لم يصدر لها جواب من قبل المشركين، ولن يصدر لها جواب إلى أن تقوم الساعة.

فهذا توبيخ من الله عَزَّجَلَّ لهؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى ومناة ويتبركون بها، وغيرها من باب أولى، لكن هذه كانت أكبر الأصنام وهي المشهورة عند العرب:

(اللات): صنم في الطائف لبني ثقيف، وفي تفسيرها قولان لأهل

العلم:

القول الأول: أنها بالتخفيف، وهو اسم حجر كبير أملس عليه نقوش، كانوا يتبركون به، ويطلبون منه قضاء حاجتهم، وتفريج كرباتهم.

القول الثاني: أنه بالتشديد؛ اسم فاعل من لَتَّ يَلْتُ: وهو في الأصل رجل صالح كان يَلْتُ السويق للحجاج، وكان يُطعم الحجاج من هذا الطعام تقرباً إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلما مات عَكُفُوا على قبره يتبركون به؛ كما حصل لقوم نوح لما غَلُوا في الصالحين.

فَالْغُلُو في الصالحين قديم، ولا يزال مستمراً، وهو سنة جاهلية من قديم الزمان؛ من عهد قوم نوح، ولا تزال.

فعلى التفسير الأول هو: تبرك بالأحجار، وعلى التفسير الثاني هو: تبرك بالقبور. وكلا التفسيرين حق، فالآية تدل على منع التبرك بالأحجار، ومنع التبرك بالقبور، وما زال هذا الصنم يُعبد من دون الله إلى أن فتح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في السنة الثامنة من الهجرة، فأرسل المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب إلى اللات فهدماها في الطائف^(١).

و(العزى): كانت صنماً لأهل مكة، عبارة عن شجرات ثلاث بوادي نخلة لا يزال بهذا الاسم إلى الآن بين مكة والطائف على طريق السيل، سُمِّر عليها صور، وعندها بَيْتَةٌ عليها أستار، وكانت قريش وأهل مكة يتبركون بها ويعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد بعد أن انتهت المعركة: «لَنَا الْعَزَى وَلَا عَزَى لَكُمْ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) انظر: السيرة النبوية (٢٢٦/٥)، وتفسير ابن كثير (٢٥٥/٤).

«أَلَا تُجِيبُوهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(١). هذا هو الرد الشافي، وفي هذا دليل على وجوب الرد على المشركين وعلى الأقوال الباطلة، وأنه لا يُسكت عنها، فقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأول ساكتاً، لما قال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لأصحابه: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟»، فلما قال: «لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ»، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟»، فهذا فيه دليل على وجوب رد الباطل وعدم السكوت عنه، فلا يجوز السكوت على من يمدح القبور والأضرحة ويهون من شأن التوحيد؛ لأن هذا يلبس على الناس دينهم.

والشاهد من هذا: أن العُزَّى كانت لأهل مكة، فلما فتح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة أرسل إليها خالد بن الوليد فهدمها وقطع الأشجار، ثم رجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال له: «هل رأيت شيئاً؟» قال: لا، قال: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئاً»، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتْهَا، أَمَعْنُوا فِي الْجَبَلِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عَزَّى يَا عَزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِزُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُزَّى»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٧٤/٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٩٦/٢) من طريق ابن جميع عن أبي الطفيل، وعبد الرزاق في مصنفه (١٧٣/٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣١/١٦) من طريق معمر عن قتادة.

والواقع أن المشركين ليست عبادتهم لهذه الأصنام، وإنما عبادتهم للشياطين، فالشياطين هي التي تُغريهم، وتدعوهم إلى عبادتها، وهي التي تكلمهم أحياناً، ويظنون أن الصنم هو الذي يتكلم، أو أن الميث هو الذي يتكلم.

أما (مناة): فهي صنم يقع شمالي مكة عند جبل يقال له: «قديد» بين مكة والمدينة، كانوا يتبركون به في الجاهلية، ويحرمون من عنده بالحج والعمرة، ولما فتح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في السنة الثامنة من الهجرة أرسل علي بن أبي طالب إلى مناة فهدمها^(١)، وبذلك انتهت هذه الأصنام، وانتهى دورها، ولم تنصر نفسها، ولم تنصر أصحابها، ولو كانت آلهة تنفع أو تضر لما حصل عليها ما حصل من العجز والتدمير.

والشاهد من الآية الكريمة: بطلان التبرك بالأشجار والأحجار؛ لأن هذه أشجار وأحجار، ولم تدفع عن نفسها فضلاً عن أن تدفع عن غيرها.

ففي هذا: بطلان التبرك بالأحجار والأشجار، وفيه: أن من تبرك بقبر أو حجر أو شجر يعتقد فيه أنه ينفع ويضر من دون الله، أو أنه سبب لحصول البركة، أو تقرب إليه بشيء من العبادة؛ فهو مثل من عبد اللات والعزى سواء، ولا فرق، بل من غلا في قبر من القبور فهو كمن عبد اللات؛ لأن اللات - على أحد التفسيرين - هو رجل صالح غلوا في قبره بعد موته،

(١) انظر: السيرة النبوية (١/ ٢١٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٥).

.....

فالذين يعبدون القبور اليوم مثل الذين يعبدون اللات سواء بسواء، والقرآن واضح في هذا، لكن يحتاج إلى تدبر، ونبذ للتقاليد والعادات والبيئات الفاسدة، والتحرر من الخرافات والأباطيل، ورجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما الشفاء للقلوب.



وَعَنْ أَبِي وَقِيدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنْوُطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ.

قوله: [عَنْ أَبِي وَقِيدٍ]: هو صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين، وله خمس وثمانون سنة^(١).

قوله: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: يشير إلى أهل مكة ممن إسلامه قريب إذ ذاك.

قوله: «إِلَى حُنَيْنٍ»: هو اسم وادٍ شرقي مكة معروف، قاتل فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هوازن؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

والوقعة مشهورة عند أهل المغازي والسير وغيرهم، وما جرى فيها من النصر، وأخذ أموالهم، وسبي ذراريهم ونسائهم؛ كما في الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

(١) مختلف في اسمه؛ قيل: الحارث بن مالك، وقيل: ابن عوف، وقيل: عوف بن الحارث ابن أسيد بن جابر بن عبد مناة، قال البخاري، وابن حبان، والباوردي، والحاكم: شهد بدراً، وقال ابن سعد: «أسلم قديماً»، وكان يحمل لواء بني ليث وضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح، وحنين، وفي غزوة تبوك يستنفر بني ليث، وكان خرج إلى مكة فجاور بها سنة فمات اهـ. انظر: معجم الصحابة (١/ ١٧٢)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٤٥٥).

قوله: «وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»: يشير إلى أهل مكة الذين أسلموا قريباً إذ ذلك، فلذلك خفي عليهم هذا الشرك المذكور في الحديث، بخلاف من تقدم إسلامه.

قوله: «وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يُعْكُفُونَ عَنْهَا»: عبادة لها، وتعظيماً وتبركاً؛ لما كانوا يعتقدونه فيها من البركة.

قوله: «يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ»: هو برفع التاء كما لا يخفى.

قوله: «وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ» أي: يعلقونها.

... — الشَّجْخ — ...

هذا حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ممن أسلم عام الفتح؛ ولذلك قال: «وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»؛ لأن إسلامهم تأخر إلى عام الفتح.

❦ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ» يعني: إلى غزوة حنين، وحنين اسم وادٍ من أودية مكة دون الشرائع مما يلي مكة خارج الحرم، وقد جرت فيه الواقعة، فسميت وقعة حنين ويوم حنين، وذلك أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة، وسقطت دولة المشركين في مكة، خافت قبيلة هوازن في أن يصلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن فرغ من أهل مكة، فتجمعوا لحرب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا في الطائف وما حولها، فبلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، فخرج إليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شوال بجيش عظيم ممن جاءوا معه من المدينة، ومن أسلموا في مكة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، خرج بجيش عظيم ليقاتل هوازن، وكانت هوازن قد تحصنت في

الجبال، وفي جنبات الوادي فدخل المسلمون ولما دخلوا في الوادي انقض عليهم المشركون من الجبال، فحصل في المسلمين نكبة وفر من فر منهم، ثم ناداهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتجمعوا عليه، وشدوا على المشركين فنصرهم الله عَزَّوَجَلَّ، وغنم المسلمون أموالهم، وسبوا ونساءهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿[التوبة: ٢٥-٢٦] فنصر الله المسلمين في النهاية، وإن كان حصل عليهم شدة في أول القتال، لكن النهاية صارت لهم.

ثم إن هوازن أسلموا، وطلبوا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد وزع المغانم، فطلب من الصحابة من طابت نفسه أن يردها، فطابت أنفسهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم، وردوا ما عندهم على هوازن، هذه غزوة حنين في هذا الوادي، وهذه نتيجتها، النصر للإسلام والمسلمين، والذلة للكفار، وفي النهاية تاب الله على من تاب منهم ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٧].

❦ قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر» يعني: أن إسلامهم كان جديداً متأخراً، وهو يريد بذلك بيان العذر مما وقع منهم، أنهم كانوا جُهَّالاً، لم يتفقهوا كما كان الصحابة الذين مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقهاء، عرفوا

العقيدة ودرسوها، لكن هؤلاء أسلموا قريباً، ولم يتمكنوا من التفقه في العقيدة، وكانوا ألفين لأشياء من دين الجاهلية، لم يتخلّصوا منها بعد.

فهذا فيه دليل على مدح العلم وذم الجهل، وأن الجهل يوقع صاحبه في الخطأ ولا سيما الجهل بالتوحيد؛ فإن الجهل بالتوحيد يوقع صاحبه في الشرك والعياذ بالله، وبعض الناس في زمانهم هذا هانت عليهم العقيدة - خصوصاً من بعض الدعاة - فلا يهتمون بها، ويقولون: الناس كلهم يعرفون التوحيد، وليس لهم حاجة إلى تعلم العقيدة!! وهذا من جهلهم وسفهمهم، فهؤلاء القوم من الصحابة ما وقعوا فيما وقعوا فيه من الخطأ العظيم إلا بسبب الجهل.

ففي هذا الحث على تعلم العقيدة والتبصر فيها، وفيه الرد على من يهون في هذا الزمان من شأن العقيدة وتعلمها، ويلوم المسلمين إذا قرروا كتب التوحيد واعتنوا بها ودعوا إليها.

❁ قال: «وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ» يعني: شجرة، «يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا» العُكُوف هو: البقاء في المكان، يُقال: اعتكف في المكان إذا أطل الجلوس فيه، واعتكف في المسجد يعني: جلس في المسجد للعبادة، فهم يقيمون عندها للتبرك، «وَيَنْوُطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ» النُّوط: هو التعليق، يعني: يعلقون بها أسلحتهم للتبرك، فليس هو مجرد تعليق، إنما حاجاتهم بهذه الشجرة أنهم يتبركون بها.



قال: فَمَرَرْنَا بِسُدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ^(١).

قوله: «فَمَرَرْنَا بِسُدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ» أي: للمشركين «ذَاتُ أَنْوَاطٍ»؛ ظنوا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو جعل لهم ذلك لجاز اتخاذها؛ لحصول البركة لمن اعتقدها فيها. وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سُمي به المنوط^(٢).

قوله: (فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ»): تعظيماً لله عَزَّجَلَّ عن أن يُجعل له شريك في عبادته التي هي حقه على عباده؛ كالترك بالأحجار والأشجار ونحوها؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]، وهو الإخلاص، والشرك ينافي ذلك، وتقدم معنى «الحنيف».

وتضمنت هاتان الآيتان -وما في معناهما- التوحيد الذي دلت عليه (لا إله إلا الله) نفيًا وإثباتًا؛ كما تقدم بيانه، فمن التفت قلبه إلى غير الله لطلب نفع أو دفع ضرر فقد أشرك، والقرآن كله في تقدير هذا الأصل العظيم؛ الذي هو أصل دين الإسلام، وهو الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠).

(٢) انظر: النهاية في غريب الأثر (١٢٧/٥)، لسان العرب (٤٢٠/٧).

قوله: «السُّنَنُ» بضم السين، أي: الطرق، يشير إلى الطرق التي تخالف دينه الذي شرعه عَزَّوَجَلَّ لعباده.

قوله: «قُلْتُمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيده-»: حلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك تأكيداً لهذا الخبر، وتعظيماً له، «كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾»: أخبر أن التبرك بالأشجار يجعلها آلهة، وإن لم يسموها آلهة؛ ولذلك شبه قولهم هذا بقول بني إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ فظهر بهذا الحديث أن التعلق على الأشجار والأحجار وغيرها لطلب البركة بها: شرك في العبادة كشرك عباد الأصنام.

قوله: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» أي: اليهود والنصارى، وقد وقع كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الأمة، فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكرنا، كما هو في الأحاديث الصحيحة؛ كحديث: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذُو الْقَدَةِ بِالْقَدَةِ، حَتَّى تَوَدَّخُلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»^(١)، وهو في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي رواية: «وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟»^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

قال: «: فَمَرَرْنَا بِالسُّدْرَةِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» وهذا من جهلهم، أعجبهم عمل المشركين، فظنوا أنه

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عمل سائع، وهم يحرصون على تحصيل البركة، فطلبوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعل لهم شجرة يَعْكُفُونَ عندها، وَيَتَوَطَّأُونَ بها أسلحتهم طلباً للبركة، ولكن انظروا إلى أدب الصحابة مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث لم يقدموا إلى هذا الأمر من عند أنفسهم، بل رجعوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالمسلم إذا أعجبه شيء ويظن أنه خير فلا يستعجل حتى يعرضه على الكتاب والسنة، ويسأل عنه أهل العلم الثقات.

فهذا فيه دليل على وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة في أمور العبادة، وأن الإنسان لا يعمل باستحسناته، أو استحسانات غيره، دون أن يرجع إلى الكتاب والسنة، وهذا يدل على أن العبادات توقيفية.

وهذه فائدة عظيمة جداً في هذا الحديث، أننا لا نعتمد على استحساناتنا، ونقول: نيتنا طيبة ولنا قصد طيب، ونفعل أشياء دون أن نرجع إلى الدين وإلى الشرع وإلى العلماء؛ لأن هذا هو عين الهلاك، إذا صار الناس يفعلون ما يريدون، ولا يرجعون إلى أهل العلم فهذه مصيبة، أو يصفون أهل العلم بأنهم لا يفهمون، وأنهم يعوقون التقدم، ويعوقون الحضارة، فيهنونون من شأن العلماء وآرائهم، هنا تحصل المصيبة بالأمة؛ لأن أمور الدين لا يصلح فيها إلا الرجوع إلى الشرع، وإلى العلماء حملة الشريعة، هذا هو الواجب.

وهذا الحديث يدل أيضاً على خطورة التشبه بالكفار، فالتشبه بهم لا يقتصر على التشبه بالعادات وإنما يترقى إلى التشبه بهم في الشرك؛ كما حصل من البناء على القبور، فالبناء على القبور حصل في الإسلام بعد

القرون المفضلة تشبها باليهود والنصارى؛ لأن اليهود والنصارى يبنون على قبور أنبيائهم وصالحهم، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١)، وقال: «أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، حذرنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تقليد المشركين لاسيما في أمور الدين وأمر العقيدة.

والمشركون الآن يعظمون الآثار، ويجعلون لها أبهة، ويجعلون لها زيارات، وقد قلدهم بعض المسلمين في ذلك، وصاروا الآن يعتنون بالآثار، ويعظمونها وينفخون فيها، وربما يؤول أمرهم إلى عبادتها كما يفعل الكفار، وذلك حين يقل العلماء وتضعف العقيدة، فهذا أمر لا يتساهل فيه أبداً.

❁ فقولهم: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا هُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» من باب التشبه، فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ» هذا تعظيم لشأن الله عَزَّوَجَلَّ من هذا الفعل، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استنكر شيئاً أو استحسّن شيئاً كَبَّرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن يصفق كما يفعل مقلدة الغرب الآن، إذا استحسّنوا شيئاً يصفقون، بل كان يُكَبِّرُ؛ لأن هذا الشيء الحسن من صنع الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا الشيء الكريه يُنَزِّه الله عَزَّوَجَلَّ عنه وَيُعْظِمُ، فقوله: «اللَّهُ أَكْبَرُ» هذا من باب التنزيه لله والتعظيم لله من هذا الشرك.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

❁ قال: «اللَّهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ» أي: الطرق؛ لأن (سنن) جمع سنة وهي الطريقة، يعني: هذا التقليد للكفار هو سنن الجاهلية يقلد بعضهم بعضاً، ولا يرجعون للشرع ولا للأنبياء، ولا يرجعون إلى العلماء، وإنما يأخذون من عادات الناس وحضارات الناس.

❁ قال: «قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» هذا خبر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقسم عليه من باب التأكيد، وإلا فهو الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه من باب التأكيد والاهتمام بهذا الأمر؛ لأنه أمر عظيم، وخطر كبير. وفي هذا جواز الحلف على الفتوى، فالمفتي إذا كان متأكداً من صواب فتواه له أن يحلف عليها من أجل أن يقنع المستفتي ويقنع السامع.

❁ قال: «قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» ❁ بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم أن هذه عادة قديمة في العالم، وأنها حصلت على عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَام؛ وذلك أن الله لما نَجَّى بني إسرائيل من فرعون، وأغرق فرعون وقومه، وبني إسرائيل ينظرون، ثم تجاوزوا البحر، أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم.

❁ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ❁ طلبوا منه أن يجعل لهم صنماً يعبدونه كما أن هؤلاء لهم صنم يعبدونه، ❁ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ❁ السبب الذي أوقعكم في هذا هو الجهل بالتوحيد، وهذا - كما سبق أن بينا - يُوجب على المسلمين أن يتعلموا العقيدة، ولا يكتفوا بقولهم: نحن مسلمون،

نعيش في بلاد إسلام، وبيئة إسلامية؛ كما يقوله الجاهل أو الذين يُثبِّطون عن تعلّم العقيدة.

ففيه بيان خطورة الجهل، وأنه قد يوقع في الكفر بالله عَزَّجَلَّ، وهذه خطورة عظيمة، ولا يُنْجِي من هذا الجهل إِلَّا تعلّم العقيدة الصحيحة، والتأكّد منها، وتدريسها، وتكرارها على الناس، ونشرها بكل وسيلة في المساجد، والمدارس، والمجالس، والبيوت، وفي وسائل الإعلام.

وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: عمل هؤلاء زائل وتالف ﴿وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه شرك بالله عَزَّجَلَّ، ﴿قَالَ أَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٠]، أي: أنا لا أشرع لكم الشرك، وهل هذا جزاء النعمة أن الله فضلكم على العالمين؟ يعني: فضلهم على عالم زمانهم، أما بعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأفضل العالمين هم أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالحاصل: أن التبرّك بالأشجار والأحجار هو من سنة المشركين، ومن سنة الجاهلية، ومن فعله فهو متشبه بالكفار، وهو كافر مثلهم، لافرق بين من يعبد القبر ومن يعبد اللات والعزّى، أو الذي يطلب البركة من الشجرة والذي يطلبها من الصنم، لا فرق بينهما.

فدل هذا على بُطلان التبرّك بالأشجار والأحجار، وأنه شرك؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿قَالَ أَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا﴾ فمن تبرّك بشجر أو حجر فقد اتخذ إلهًا، وهذا هو الشرك، واختلاف اللفظ لا يؤثر مع اتفاق

المعنى، هؤلاء قالوا: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»، وبنوا إسرائيل قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل هذا مثل هذا، وإن اختلف اللفظ.

والآن عبدة القبور يقولون: هذا ليس بشرك، هذا توسل، وهذا محبة للأولياء والصالحين.

نقول لهم: إن أولياء الله الصالحين لا يرضون بهذا العمل، ولا يرضون أن تُجعل قبورهم أوثاناً تُعبد من دون الله، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١)، فدلّ على أن تعظيم القبور والتبرك بها يجعلها أوثاناً تُعبد من دون الله.

ثم قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» أي: اليهود والنصارى؛ كما في الحديث الصحيح الذي ساقه المصنف: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذُو الْقَذَةِ بِالْقَذَةِ، حَتَّى تَوْدَّخُلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، فهذا خبر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معناه النهي والتحذير، وقد وقع كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث عظم التشبه بالكفار حتى في العبادات والعقائد، فبنيت المشاهد على القبور والأضرحة، ووضعت عليها الأستار، وصرفت لها النذور، والذبائح، والاستغاثة، وصارت تضاهي المشاعر المقدسة والبيت الحرام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٨٥).

بل زاد شرك هؤلاء المتأخرين عن شرك الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون الله في الشدة، أما هؤلاء المشركون في هذه الأزمنة فشرکهم دائم في الرخاء وفي الشدة، بل إذا وقعوا في الشدة زاد شرکهم ومناداتهم لمعبودهم من دون الله عَزَّجَلَّ، ويزعمون أنه لا يُخلصهم من الشدائد إلا أصحاب القبور، ويزين لهم شياطين الإنس والجن هذا الشيء، ويقولون لهم: نحن نخلصكم، فإذا وقعتم في شيء من الشدائد نادونا ونحن حاضرون، ويقول أحدهم: إذا مت لا يصدقكم عني ذراع من التراب، نادوني فأني قريب لكم. والعياذ بالله.

فإذا كان هذا في اتباع اليهود والنصارى وهم أصحاب ديانة ومن أتباع الرسل، فكيف بغيرهم من المشركين الوثنيين والدهريين، الذين لا دين لهم ولا يؤمنون بالله ورسله ولا بشيء من كتبه؟!

فلا يجوز تقليد الكفار مطلقاً، لا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم، فلا يكون من ضل قدوة ولو كان عالماً، فاليهود عندهم علم، وعندهم أخبار، ولكنهم علماء ضلال والعياذ بالله، فلا يُقال: فلان عالم، وهو أدرى، وهو أخبر، بل نقول: أهل الضلال وإن كانوا علماء لا يُطاعون؛ لأن الله حذرنا من ذلك وأمرنا بتجنب طريقهم: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧٠﴾ [الفاتحة: ٦-٧] فعلماء الضلال مغضوب عليهم؛ لأنهم تركوا الحق عن علم وعن معرفة، فغضب الله عليهم، أما ﴿الضَّالِّينَ﴾ فهم الذين ليس عندهم علم، إنما يعبدون بالجهل والضلال

-وهم النصارى ومن شابههم- هؤلاء أيضًا لا يجوز مشابهتم وتقليدهم في ضلالهم.

فالحاصل: أن هذا الباب باب عظيم، ويفسر معنى (لا إله إلا الله)، وأن معناها: ألا يُعبد ولا يُتبرك إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يُرجى لدفع الخير وجلب الضر إلا الله، فمن عدل عن ذلك فقد اتخذ آلهة غير الله، ولو لم يسمها آلهة، ولو سماها وسائل، أو وسائط، أو شفعاء، أو غير ذلك؛ لأن العبرة في المعاني لا في الألفاظ، فاختلاف الألفاظ لا يؤثر، وإن سموه توسلاً، أو سموه إظهاراً لشرف الصالحين، أو وفاءً بحقهم علينا -كما يقولون- وهذا هو الشرك سواء بسواء، فالذي يتبرك بالحجر أو بالشجر أو بالقبر فقد اتخذها إلهًا، وإن كان يزعم أنه ليس بإله، فالأسماء لا تغير الحقائق.

وفيه -أيضًا- مسألة مهمة: وهي أن حُسن المقاصد لا يُغير من الحكم الشرعي شيئاً؛ لأن هؤلاء لهم مقصد حسن، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعتبر مقاصدهم، بل أنكر هذا؛ لأن الوسائل التي تُفضي إلى المحاذير ممنوعة، فقد جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالتهُم مثل مقالة بني إسرائيل، فدَلَّ على أن المقاصد الحسنة لا تبرّر الغايات السيئة والمنكرة.

وفيه -أيضًا- التحذير من التَّشَبُّه بالمشرِّكين والكفار في أفعالهم وعاداتهم الخاصة وتقليدهم وطقوسهم، أما الأمور المباحة فلا بأس بالأخذ بها، فنأخذ منهم الخِبرات المفيدة، ونشتري منهم البضائع والأسلحة؛ لأن هذه أمور كانت في الأصل لنا، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿[الأعراف: ٣٢]﴾، هذه المنافع في الأصل للمسلمين، ولكن لما تكاسل المسلمون أخذها أعداؤهم، فلا مانع أن ينتفع المسلمون بهذه الأشياء المفيدة، وليس هذا من التشبه، إنما لَتَشَبُّهُ هو تقليدهم في الأمور التي لا فائدة منها ولا قيمة لها، أو الأمور التي تدخل في العبادة والعقيدة والدين.

وهنا مسألة مهمة: قد يقول قائل: أنتم تحرمون التبرك بالأشجار والأحجار والقبور، في حين أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتبركون بريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشعره ووضوئه، أليس هذا تبركا بمخلوق؟

فالجواب عن ذلك أن نقول: هذا خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما انفصل من جسده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه مبارك، فما انفصل من جسده من ريق، أو عرق، أو شعر، أو وضوء، فإنه يُتَبَرَّكُ به، أما التبرك بغير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا لم يرد حتى مع أفضل الأمة؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والعشرة المبشرين بالجنة، وأصحاب بدر، وأصحاب بيعة الرضوان، لم يُذكر أن المسلمين كانوا يتبركون بهؤلاء؛ لا بريقهم، ولا بعرقهم، ولا بشعورهم.

فالتبرك لا يجوز؛ لا بالأشجار، ولا بالأحجار، ولا بالأشخاص، ولا بالحجارة النبوية، ولا بقبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كل هذا لا يجوز؛ لأن هذه أمور لم تكن منفصلة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست من جسده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا بد من معرفة الجواب عن هذه الشبهة التي يُدْلَوْنَ بها.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّجْمِ.

الثَّانِيَّةُ: مَعْرِفَةُ صُورَةِ الْأَمْرِ الَّذِي طَلَبُوا.

الثَّالِثَةُ: كَوْنُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

الرَّابِعَةُ: كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ مُجِيبُهُ.

الخَامِسَةُ: أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا فَعَيَّرُوا أَوَّلَى بِالْجَهْلِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

السَّابِعَةُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْذُرْهُمْ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ

أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿أَجْعَلْ

لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لَتَرَكِبْنَ سَنَنَ مِنْ

كَانَ قَبْلَكُمْ»، فَغَلَّظَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ.

الثَّامِنَةُ: الْأَمْرُ الْكَبِيرُ - وَهُوَ الْمَقْصُودُ: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلِبَتَهُمْ كَطَلْبَةِ بَنِي

إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا لِمُوسَى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ﴾.

التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ نَفَى هَذَا مِنْ مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَى

أَوَّلِكَ.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الْفُتْيَا، وَهُوَ لَا يَخْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.

الْحَادِيَّةُ عَشْرَةَ: أَنَّ الشُّرْكَ فِيهِ أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهَذَا.

الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: قَوْلُهُمْ: «وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ» فِيهِ: أَنَّ غَيْرَهُمْ

لَا يَجْهَلُ ذَلِكَ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُ التَّكْبِيرِ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، خِلَافًا لِمَنْ كَرِهَهُ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: سُدُّ الذَّرَائِعِ.

الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: النَّهْيُ عَنِ التَّشْبِيهِ بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الْغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيمِ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْقَاعِدَةُ الْكُلِّيَّةُ لِقَوْلِهِ: «إِنَّهَا السُّنَنُ».

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ هَذَا عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ كُلَّ مَا دَمَّ اللَّهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَنَا.

الْعِشْرُونَ: أَنَّهُ مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الْأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ

التَّنْبِيهُ عَلَى مَسَائِلِ الْقَبْرِ. أَمَّا «مَنْ رَبُّكَ؟» فَوَاضِحٌ، وَأَمَّا «مَنْ نَبِيِّكَ؟» فَمِنْ

إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ، وَأَمَّا «مَا دِينُكَ؟» فَمِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ

إِلَٰهَةٌ﴾ [الْحَجَّ].

الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسُنَّةِ الْمُشْرِكِينَ.

الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ الْمُتَّقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لَا يُؤْمِنُ أَنَّ

يَكُونُ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ؛ لِقَوْلِهِمْ: «وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ».



٩- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 (١١٣) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. وقوله:
 ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْصِرْ﴾ [الكوثر: ٢].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١١٣) لَا شَرِيكَ لَهُ،﴾ الآية].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: يأمره عَزَّجَلَّ أَنْ يَجْهَرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ
 غَيْرَ اللَّهِ وَيَذْبَحُونَ لَهُ: أَنَّهُ أَخْلَصَ لِلَّهِ صَلَاتَهُ وَذَبِيحَتَهُ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ
 الْأَصْنَامَ وَيَذْبَحُونَ لَهَا، فَأَمَرَهُ عَزَّجَلَّ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَالانْحِرَافَ عَمَّا هُمْ فِيهِ،
 وَالِإِقْبَالَ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالْعِزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ^(١). انتهى.

فالصلوات الخمس هي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين.

قوله: ﴿صَلَاتِي﴾ يشمل الفرائض والنوافل، والصلوات كلها عبادة.
 وقد اشتملت على نوعي الدعاء: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فما كان فيها
 من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة، وما كان فيها من الحمد، والثناء،
 والتسبيح، والركوع، والسجود، وغير ذلك من الأركان والواجبات؛ فهو
 دعاء عبادة، وهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة؛ لأنها اشتملت على نوعي

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٩).

الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعاً. قرره شيخ الإسلام، وابن القيم، رحمهما الله عَزَّ وَجَلَّ^(١).

قوله: ﴿وَسُكِّي﴾: قال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ﴿وَسُكِّي﴾ ذبحي^(٢)، وكذلك قال الضحاك^(٣).

قوله: ﴿وَحَيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ أي: ما آتية في حياتي، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصاً لوجهه، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة، وهذا قول أئمة التفسير^(٤). والمقصود: أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يُصرف منها شيء لغير الله كائناً من كان، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فقد وقع فيما نفاه عَزَّ وَجَلَّ من الشرك بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في عبادته وبيانه، ونفي الشرك والبراءة منه.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

هذا الباب -باب ما جاء في الذبح لغير الله- هو من جملة الأبواب التي تشرح معنى (لا إله إلا الله)، والتي أشار إليها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر تفسير

(١) انظر: دقائق التفسير (٢/٣٥٩)، وبيان تلبيس الجهمية (٢/٤٥٣)، وجلاء الأفهام (١٥٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٢٣)، والطبري في تفسيره (٨/١١٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/١١٢) من طريق جوير عن الضحاك.

(٤) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٢/٢٢٣)، وتفسير الطبري (٨/١١٢)، وتفسير ابن

أبي حاتم (٥/١٤٣٥)، وتفسير ابن كثير (٢/١٩٩)، والدر المنثور (٣/٤١٠).

(لا إله إلا الله)، فقال: (وَشَرَحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ)، ومن جملة هذا الباب، في أن معنى لا إله إلا الله: أنه لا يُذبح إلا لله، وأن من ذبح لغيره فقد أشرك، وخالف معنى لا إله إلا الله.

فهذا الباب كالأبواب التي قبله في بيان أنواع من الشرك التي يمارسها بعض الناس في مختلف الأزمان، من عهد الجاهلية، ولا تزال مستمرة، وذلك من أجل أن يتميز الخبيث من الطيب، والله الحكمة سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في بقاء هذا الشرك والكفر؛ من أجل أن يتميز الخبيث من الطيب، والموحد من المشرك، والمهتدي من الضال، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ﴾ [الرعد: ٣١]، ولكن لو هداهم جميعاً لم تكن هناك مِيزة لأحد على أحد، ولكن اقْتَضَتْ حكمته سبحانه أن يُجري الامتحان من أجل أن يتميز الخبيث من الطيب.

❁ وقوله: (بَابُ مَا جَاءَ) يعني: من الأدلة من الكتاب والسنة في حكم الذبح لغير الله، وأنه شرك؛ كما يتضح ذلك مما ساقه رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب وفي غيره، فقضية الذبح لغير الله قضية عظيمة زلَّ فيها كثيرٌ من بني آدم؛ لأغراض مختلفة تزينها لهم الشيطان.

❁ قال: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١١٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿الآية﴾ هذا الدليل الأول، أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول للناس: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١١٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَإِزْرُهُ وَزَرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٤].

✽ فقولهُ عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْلَنَ لِلنَّاسِ، لَيْسَ لِنَاسٍ وَقْتُهُ فَقَطْ، بَلْ لِلنَّاسِ جَمِيعًا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَلَيْسَ لِنَاسٍ بَلَدُهُ، بَلْ لَجَمِيعِ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

✽ وقولهُ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ الصَّلَاةُ فِي الشَّرْعِ يُرَادُ بِهَا: الْعِبَادَةُ الْمُبْتَدِئَةُ بِالتَّكْبِيرِ الْمُخْتَمَةُ بِالتَّسْلِيمِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى:

عِبَادَاتٌ قَلْبِيَّةٌ: كَالْخُشُوعِ، وَالْحَشْيَةِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
وعِبَادَاتٌ قَوْلِيَّةٌ: كَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، وَمَنَاجَاةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وعِبَادَاتٌ عَمَلِيَّةٌ: كَالْقِيَامِ، وَالرُّكُوعِ، وَالسُّجُودِ، وَالْجُلُوسِ.
فَالصَّلَاةُ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ يَجْتَمِعُ فِيهَا مَا لَا يَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا اللَّهُ عَمُودَ الْإِسْلَامِ، وَجَعَلَهَا الرُّكْنَ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ.

✽ قولهُ: ﴿وَنُسْكِي﴾ النَّسْكُ الْمُرَادُ بِهِ: مَا يَذْبَحُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ عَلَى وَجْهِ التَّقَرُّبِ وَالْعِبَادَةِ، كَهَذِي التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ، وَهَذِي التَّطَوُّعِ، وَهَذِي الْجُبُرَانِ، وَالْأَضَاحِي، وَالْعَقِيقَةُ، هَذِهِ كُلُّهَا تُسَمَّى نُسْكًا، فَمَا ذُبِحَ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ عَلَى وَجْهِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِذَبْحِهِ، فَهُوَ النَّسْكُ.

وَكَانَ الذَّبْحُ عَلَى وَجْهِ التَّقَرُّبِ مَوْجُودًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَدْ كَانُوا يَذْبَحُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَيَذْبَحُونَ لِلْأَصْنَامِ، وَالْجَنِّ، وَالْكَوَكِبِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ النَّابِغَةُ فِي قَصِيدَتِهِ^(١):

(١) من شعر النابغة الذبياني، أبو أمانة زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع، =

فلا ورب الذي قد زرتَه حججا وما هريق على الأنصاب من جسد

(ما هريق) يعني: ما سُفِكَ من الدماء، (على الأنصاب) يعني: على الأصنام، (من جسد) يعني: من ذبيحة.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَّ أن دينه مخالف لدين المشركين، فالمشركون يذبحون لغير الله، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ اتبعه يذبحون لله وحده لا شريك له، كما أنهم لا يصلُّون إِلَّا لله فكذلك لا يذبحون إِلَّا لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَرْنَ النُّسْكَ بالصلاة يدلُّ على أنه عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله، والنسك قد تساهل فيه كثير من الناس فصاروا يذبحون للجن طاعة للمُشْعُوزِينَ من أجل العلاج بزعمهم.

❁ قوله: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ أي: ما أحيأ عليه في هذه الدنيا، فيجب على الإنسان أن يحيا على التوحيد في جميع عمره من حين يبلغ سن التكليف إلى أن يحضره الأجل، فيصرف جميع أعماله لله عَزَّجَلَّ في جميع أمره.

❁ قوله: ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أموت عليه، فيموت على التوحيد وإخلاص العبادة لله عَزَّجَلَّ.

فمعنى الآية: أنه يجب على المسلم أن يخلص لله في حياته وفي حال صحته، وكذلك عند موته وفي حال حضور الأجل؛ ليختم له بالتوحيد، وهذا فيه تنبيه على أهمية حسن الخاتمة، والغالب أن من استقام على

=أحد شعراء الجاهلية المشهورين، ومن أعيان فحولهم. انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي (ص ١٦)، وغريب الحديث للحري (٢/ ٧٩٤).

دين الله في عمره وحياته أنه يوفق لحسن الخاتمة، والذي ضيَّع عمره في الشرك والمخالفات فحري به أن يُصَرَّف عن حسن الخاتمة، وتسوء خاتمته، إلا أن يتداركه الله عَزَّجَلَّ فيَمُنَّ عليه بالتوبة قبل الموت.

❁ قوله: ﴿صَلَاتِي وَنُصْرِي﴾ الجار والمجرور خبر (إن)، واسم (إن):
 ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرب: هو المالك، والعالمين: جمع عالم، وهو ما سوى الله عَزَّجَلَّ من المخلوقات، فهو سبحانه مالك كل شيء بيده، فلا يليق بالعبد أن يشرك بالله الذي هو ربه وخالقه ورازقه ومدبر شؤونه،
 ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ وهذا نفى للشرك في الصلاة والذبح وغيرهما من العبادات؛ لأن (لا) نافية للجنس، و(شريك) نكره في سياق النفي يفيد العموم، فلا يصلح أن يشرك مع الله أحد؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي من الأولياء، ولا صالح من الصالحين؛ لأن كلمة (شريك) تنفي جميع الشركاء.

❁ قوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الذي يأمر وينهى ويشرع هو الله عَزَّجَلَّ، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغ عن الله، وهو أول من يمثل أمر ربه؛ لأنه عبد الله ورسوله، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أول المتقادين لأمر الله المستسلمين له بالتوحيد والطاعة؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القدوة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فهذا فيه دليل على أنه لا أحد يبلغ مرتبة الربوبية أو مرتبة الألوهية، لا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره، بل هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد من عباد الله، وهو أكرم عباد الله، فلا يُتخذ إلهًا أو ربًّا مع الله عَزَّجَلَّ.

❦ وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة، لا من أول الخليقة، فليس هو أول المسلمين من الخليقة؛ لأنه سبقه مسلمون من الرسل وأتباعهم، ولكنه أول المسلمين من هذه الأمة المحمدية، فالأولية هنا نسبية، وإلا فالرسل والمؤمنون من قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم مسلمون، بمعنى أنهم مخلصون العبادة لله عَزَّجَلَّ.

فهذه الآية شاهدا للترجمة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْرُ أَلَا يُذْبَحُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ، ودل قوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ على أن الذبح لغير الله شرك يُنْزَهُ الله عَزَّجَلَّ عنه، ودلت أيضًا على أنه لا يُسْتَنَى أَحَدٌ من الخلق معها بلغت رتبته، فلا أحد يصل إلى مرتبة الألوهية والربوبية، ولا أحد يستحق شيئاً من العبادة، إنما العبادة حق لله عَزَّجَلَّ.

كما دلت الآية أيضًا على أن العبادات مبناهما على التوقيف؛ لقوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ فالعبادات لا تكون إلا بدليل من الكتاب والسنة، ولا تكون بالاستحسان، أو التقليد، وغير ذلك؛ لأن هذا من البدع؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).



وَقَوْلُهُ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢].

قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾: قال شيخ الإسلام: أمره أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما: الصلاة، والنسك؛ الدالتان على: القرب، والتواضع، والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عدته، عكس أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله؛ الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر؛ ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ الآية. انتهى^(١).

وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ الآية [المائدة: ٣].

... — الشَّبَحُ — ...

هذه الآية الثانية من الآيات التي استدل بها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ هذه الآية مثل آية الأنعام، قرن فيها النحر مع الصلاة: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أي: لا تصل لغيره، وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ أي: اذبح له ولا تنحر لغيره، والنحر في الغالب يكون للإبل، والذبح يكون للبقر والغنم^(٢)، ومن شابهها، وكل من الذبح والنحر يُتَعَبَّدُ به لله عَزَّجَلَّ، فمن ذبح أو نحر لغير الله فقد أشرك، سواء ذبح للأشجار أو الأحجار أو القبور

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٦ / ٥٣١).

(٢) قال إبراهيم بن إسحاق الحربي في غريب الحديث (٢ / ٤٤٣): «الإبل تُنَحَّر ولا تذبح، والبقر تذبح وتنحر، والغنم تذبح» اهـ، وقال الخليل بن أحمد في العين (٣ / ٢٠٢): «الذبح قطع الحلقوم من باطن عند النصيل، وموضعه المذبح» اهـ. وانظر: لسان العرب (٢ / ٤٣٦).

والأضرحة؛ كما كانوا يذبحون للآلات والعزى ومناة وغيرها، أو ذُبِحَ للجن اتقاء لشركهم، أو من باب التداوي؛ لأن بعض المشعوذين يأمر المرضى بأن يذبحوا للجن، فيطيعونهم في ذلك، فيذبحون لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

فالذبح على سبيل التعبد والتقرب لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ عد من المحرمات من بهيمة الأنعام ما أُهْلَ به لغير الله، أي: ما ذُبِحَ باسم صنم، أو نبي مقرب، أو ولي، أو جني، وما شابه ذلك، يعني: نودي به عند الذبح لغير الله؛ كأن يقول: باسم المسيح، باسم السيد فلان، فهذا أُهْلَ به لغير الله، وهو حرام يحرم أكله، وهو شرٌّ من الميتة، لأنه ذبيحة شركية.

وكذلك ما سُمي عليه اسم الله لكن القصد منه غير الله؛ كأن يقول: باسم الله على الذبيحة، وهو يقصد أنه للقبر، أو الولي، أو للجن، ذلك لأن العبرة بالقصد وما في القلب، فما أُهْلَ به لغير الله يشمل النوعين:

* ما لم يُذكر اسم الله عليه، فذُبِحَ لصنم، أو شجر، أو حجر، أو نبي، أو ولي، ونحو ذلك.

* ما ذُبِحَ ويُقصد به غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولو سمي عليه اسم الله.

فهذا الذبح محرم بنوعيه، ويكون من الشرك الأكبر، والغالب أن الذي يذبح لغير الله لا يذكر عليه اسم الله؛ ولذلك يوصي المشعوذون المرضى بأن لا يسموا على الذبيحة، أي: لا يقولون باسم الله.

فهذه الآية فيها أمر من الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُخلص الصلاة والذبح لله عَزَّوَجَلَّ، ذلك أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لما أعطاه الكوثر أمره أن يشكره

على هذه النعمة العظيمة، بأن يصليّ ويدبح لله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا ربط بما قبله بفاء السببية.

والكوثر: نهر في الجنة، وقيل: هو الخير الكثير، فهذا من باب الشكر لله سُبحَّانَهُ وَتَعَالَى على هذه النعمة، على إعطائه الكوثر.

❁ قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] أي: مبغضك هو الأبتَر، مقطوع الصلاة، مقطوع الذكر؛ ذلك أن الكفار كانوا يذمّون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولون: إنه أبتَر، ليس له ذرية، وليس له مال، وإنه إذا مات سينتهي ذكره. فرد عليهم الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: لست أنت الأبتَر، وسيستمر ذكرك، وسيستمر عملك، وتستمر دعوتك إلى يوم القيامة. وصدق الله العظيم، أين ذكر أبي جهل؟، وأين ذكر أبي لهب؟ وأين ذكر صناديد الكفار؟ انقطع، ولا يذكرون إلّا بالذم والعياذ بالله، أما رسول الله فإنه يُذكر بالخير والثناء، ويُذكر بكل فضيلة، ودعوته باقية، ودينه باق -ولله الحمد- على مرّ الزمان، بينما تتهاوى المذاهب الأخرى وتتساقط، وإن قويت شوكتها في بعض الأحيان، إلّا أنها تتهاوى، ودين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتجدّد.

فهذه الشيوعية في وقتنا الحاضر بلغت ما بلغت من القوة والإرهاب وإخافة العالم، وفي فترة وجيزة ذابت كما يذوب الملح في الماء، أين هي الآن؟ لكن دين الإسلام ولو ضعف أهله في فترة من الفترات، إلّا أنه لا يزال -ولله الحمد- يظهر ويتجدّد على مرّ الزمان والمكان.



الشاهد من الآية - مثل الآية التي قبلها - : أن الذبح عبادة لا يجوز
 صرفها لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قرنه بالصلاة، وأمر بأن يذبح وينحر له
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يذبح لغيره.



عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قوله: [عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، وعلي بن أبي طالب هو الإمام أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كان من أسبق السابقين الأولين، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قتله ابن ملجم^(٢) الخارجي في رمضان سنة أربعين.

قال أبو السعادات: أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله^(٣).

قوله: «مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»، قال شيخ الإسلام: قوله: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ظاهره أنه ما ذبح لغير الله، مثل أن يُقال: هذا ذبيحة لكذا. وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم، وقال فيه: باسم المسيح ونحوه؛ كما أن ما ذبحناه

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

(٢) هو عبد الرحمن بن ملجم، رأس من رؤوس الخوارج، كان قارئاً للقرآن عابداً صالحاً تقياً في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكتب عمر إلى عامله في مصر عمرو بن العاص: إني مرسل إليك برجل أثرتك به على نفسي، اجعل له داراً يعلم الناس فيها القرآن، فاكثرى له داراً، وجعله يعلم الناس، فكان من أكثر الناس عبادة وصلاً، حتى دخلته الفتنة بالقيام على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسار مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم آل به الأمر إلى أن قتل أفضل مَنْ على الأرض في زمانه، فاقتص منه الحسن بن علي، فقتله بعد أيام من موت علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: الطبقات الكبرى (٣/٣٣-٤٠)، ولسان الميزان (٣/٤٣٩)، والوافي بالوفيات (١٨/١٧١، ١٧٢)، والأنساب (١/٤٥١).

(٣) انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/٢٥٥).

متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فإذا حُرِّم ما قيل فيه باسم المسيح والزهرة، فلأنَّ يَحْرُم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، فعلى هذا لو ذبح لغير الله متقربًا إليه يحرم، وإن قال فيه: بسم الله؛ كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال.. إلخ، ومن ذلك الذبح للجن^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

بعد أن ذكر المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ الدليل من القرآن على تحريم الذبح لغير الله ذكر الدليل من السنة، فقال: «عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ» الكلمة عند اللغويين تُطلق ويراد بها النطق ولو كانت حرفًا واحدًا، أما عند النحويين فالكلمة يُراد بها الجملة^(٢)، ولهذا يقول الناظم:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحدة كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم^(٣)

فقد يُراد بالكلمة الجملة؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٥٩).

(٢) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (١/ ١٢).

(٣) انظر: ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل (١/ ١٣).

وَرَأَيْهِمْ بَرَزَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، فالجملة هنا سماها الله عَزَّجَلَّ كلمة.

فالمراد بقوله: «حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ» أي: أربع جمل.

❁ قوله: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ» اللعن معناها الطرد والإبعاد من رحمة الله عَزَّجَلَّ، ولا يكون إلا على كبيرة من كبائر الذنوب، فمن ضوابط الكبيرة أن يلعن من ارتكبها، فإذا لعن الله عَزَّجَلَّ على شيء، أو لعن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شيء، دل ذلك اللعن على أن هذا الشيء محرم، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب.

❁ قوله: «مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ» أي: تقرب بالذبح لغير الله؛ من الأصنام، والأضرحة، والأشجار، والأحجار، والجن، وغير ذلك، فكل من تقرب بالذبح إلى غير الله ملعون من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يدل على شدة هذه الجريمة، فإن الله عَزَّجَلَّ لا يلعن إلا على جريمة خطيرة، فدل على شدة جريمة من ذبح لغير الله، أيًا كان هذا الذبح، كثيرًا أو قليلًا، جليلًا أو حقيرًا. وذلك بأن يذكر على الذبيحة غير اسم الله، أو يكون في نيته وقلبه واعتقاده أنه يتقرب بهذه الذبيحة إلى غير الله، أو يريد بهذه الذبيحة دفع شر هذا المذبح له، فيذبح للجن من أجل دفع شرهم، وخوفًا منهم، أو يذبح للصنم معتقدًا أنه يجلب له الخير، كما يفعل بعض الجهال؛ إذا تأخر المطر ذهبوا بثور أو غيره من الحيوان، وذبحوه عند قبر أو في مكان معين، يريدون نزول المطر، وقد

ينزل المطر، وتحصل لهم حاجتهم ابتلاءً وامتحاناً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا لا يدل على جواز ما فعلوه، من الشرك والتقرب لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمن فعل ذلك فقد أشرك وهو ملعون، سواء تلفظ وقال: هذه الذبيحة للقبْر، أو للبدوي، أو للحسين، أو لفلان، أو لفلان، أو ونوى بقلبه فقط. وهذه الذبيحة حرام؛ لأنها تدخل في قوله: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، فما أهلك به لغير الله يشمل ما ذُبح باسم غير الله، ويشمل ما ذُبح باسم الله ويُتَوى به الصنم أو الجن أو العفاريت.

والمُسْعُوذُونَ الآن إذا جاءهم المرضى يأمرُونهم بالذبح لغير الله؛ لأجل أن يشفوا من مرضهم.

ويدخل في الذبح لغير الله أصناف، منها:

* ما ذُبح لغير الله على وجه التقرب، ولو قيل عليه: بسم الله، وهذا حرام بإجماع المسلمين، وهو شرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

* ما ذُبح عند انحباس المطر في مكان معين أو عند قبر لأجل نزول المطر.

* ما ذُبح للحم وسمي عليه بغير اسم الله.

* ما ذُبح من أجل التحية والتعظيم، مثل: ما يُذبح للملوك والرؤساء عند قدومهم إذا نزل من الطائرة، أو من السيارة، أو من الدابة.

* ما يُذبح عند ابتداء المشروع، فبعض الجهّال، أو بعض الذين لا يُبالون، إذا أنشؤوا مشروعاً - مصنّعاً أو غير ذلك - ذبحوا قبل تحريك الآلات.

* ما يُذبح عند أول نزول البيت خوفاً من الجن، وهذا شرك؛ لأنه مما ذُبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

أما إذا ذُبح ذبيحة عند نزول البيت من باب الفرح والسرور، ودعوة الجيران والأقارب، فهذا لا بأس به.

وقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن الذبح لغير الله على الجمل الأخرى لأهمية هذا الأمر، ولأن الشرك أعظم المحرمات وأعظم المنهيات، فالتوحيد أعظم ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به التوحيد، والشرك أعظم ما نهى عنه؛ ولذلك قدمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث مطلقاً، ولم يستثن شيئاً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً، أو شجراً أو حجراً، أو جنّاً أو إنساً، أو غير ذلك، فهو ملعون قد لعنه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله.

وهذا هو محل الشاهد من الحديث أن من ذبح لغير الله ملعون؛ لأن الذبح عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ.



قوله: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» يعني: أباه وأمه وإن علوا، وفي الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ انْكَبَّرَ شَتَمَ الرَّجُلَ وَالِدَيْهِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»؛ ذلك لأن الله عَزَّجَلَّ جعل حق الوالدين بعد حقه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿وَلِذَٰلِكَ قَالَ لِقَمْنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُمُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴿[لقمان: ١٣-١٤]، فدائماً يأتي حق الوالدين بعد حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فحقهما: البر، والإحسان، ورد الجميل، والتواضع، وخفض الجناح لهما، وعدم إثارة ما يغضبهما بالكلام أو بالفعل، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمُؤْمَرٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ❁

[الإسراء: ٢٣-٢٤].

(١) أخرجه مسلم (٩٠) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والعقوق من أكبر الكبائر، ومن الموبقات، وطاعة الوالد تأتي بعد طاعة الله عَزَّوَجَلَّ عَالِي لَكِن بِالْمَعْرُوفِ، والوالد وغيره من المخلوقين لا يُطَاع إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ، فَلَا يُطَاعُ فِي الْمَعْصِيَةِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥] فَلَا تَطْعُمَاهُمَا فِي الشَّرْكِ، وَلَكِنْ يَبْقَى حَقُّهُمَا مِنَ الْإِكْرَامِ وَالْإِحْسَانِ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ فَالَّذِي يَغْيِرُ هَذَا الْحُكْمَ الْإِلَهِي فِي حَقِّ الْوَالِدَيْنِ، وَيُقَابِلُهُمَا بِالْعُقُوقِ وَالْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَأَفْحَشُ الْكَلَامِ وَأَقْبَحُهُ: اللَّعْنُ، فَإِذَا لَعِنَ وَالِدِيهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَقَدْ لَعَنَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنَ جِنْسِ الْعَمَلِ.

وَالْوَالِدَانِ يَشْمَلُ: الْآبَاءُ، وَالْأَجْدَادُ، وَالْجَدَّاتُ، وَإِنْ عَلُوا، كُلُّهُمْ يُقَالُ لَهُمُ وَالِدَانِ، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَلْعَنَ وَالِدِيهِ، أَوْ يَتَسَبَّبَ فِي لَعْنِ وَالِدِيهِ؛ كَأَنْ يَسِبَ أَبَا أَحَدٍ أَوْ أُمَّهُ، فَيَسِبُ أَبَاهُ بِالْمُقَابِلِ، فَيَكُونُ الْإِثْمُ عَلَى الْبَادِيِ وَالْمَتَسَبِّبِ وَهُوَ الْوَلَدُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ أَبَاهُ؟ قَالَ: «يَسِبُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسِبُ أَبَاهُ، وَيَسِبُ أُمَّهُ فَيَسِبُ أُمَّهُ»، فَهُوَ لَمْ يَلْعَنِ وَالِدِيهِ مُبَاشَرَةً، وَلَكِنَّهُ تَسَبَّبَ فِي لَعْنِهِمَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ اللَّعْنَةَ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالْمُسْلِمُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا، وَلَا سَبَّابًا، وَلَا بَذِيئًا، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُؤَدِّبًا، وَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَلْنِكَ وَيَنْتَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ [فصلت: ٣٤]، هكذا ينبغي للمسلم أنه يحفظ لسانه عن القول البذيء، ولا سيما إذا كان هذا القول من أقبح الكلام كاللعن والسب والشتم، حتى البهائم والدواب والدُّور والمساكن لا يجوز لعنها.



قوله: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا»، وهو بفتح الهمزة ممدودة، أي: ضمه إليه وحماه، وأما «مُحَدِّثًا» فقال أبو السعادات: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول^(١).

فمعنى الكسر: من نصر جانبيًا وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتص منه، والفتح: هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والنصر؛ فإنه إذا ارتضى بالبدعة، وأقر فاعلها، ولم ينكر عليه، فقد آواه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم^(٢).

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا»، آواه يعني: ضمه إليه، ودافع عنه، وحماه، والمحدث: هو الذي فعل فعلًا يوجب عليه إقامة الحد؛ كالسارق والزاني، وشارب الخمر، وقاطع الطريق، فلا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين إقامة الحد عليه، فمن حال بين إقامة الحد بشفاعته أو بسلطته فإنه ملعون؛ ولهذا جاء في الحديث: «تَعَاَفَوْا الْحُدُودَ بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»^(٣). ولقي الزبير بن العوام رجلاً قد أخذ سارقاً، يريد أن يذهب به إلى

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٥١).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٧٦)، والنسائي في الكبرى (٣٣٠/ ٤)، والحاكم في المستدرک (٤/ ٤٢٤)، والبيهقي في الكبرى (٣٣١/ ٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، =

السلطان، فشفع له الزبير ليرسله، فقال الرجل: لا حتى أبلغ به السلطان، فقال الزبير: «إِذَا بَلَغْتَ بِهِ السُّلْطَانَ، فَلَعَنَ اللَّهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفِّعَ؛ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

وسرقت امرأة من قريش من بني مخزوم، فتقرر قطع يدها، فأراد

أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهَا، فغضب منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مع أنه يحب أسامة أشد الحب - وقال له: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(٢)، وهو الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا يجوز لأحد أن يحول دون إقامة الحد على من تقرر عليه، سواء كان حد قصاص، أو حد سرقة، أو حد زنا، أو شرب خمر، أو غير ذلك من الحدود، بل لابد من تنفيذ الحد إذا ثبت وتقرر، ومن تدخل لإسقاطه فإنه يكون مضاداً لحكم الله عَزَّ وَجَلَّ، ويكون معلوماً.

= قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٨٧): «صححه الحاكم، وسنده إلى عمرو بن شعيب صحيح» اهـ.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٢٥)، والطبراني في الأوسط (٣٨٠/ ٢)، والصغير (١١١/ ١)، والدارقطني (٢٠٥/ ٣)، قال الحافظ في الفتح (٨٧/ ١٢): «وهو منقطع مع وقفة، وهو عند ابن أبي شيبة بسند حسن عن الزبير موقوفاً، وبسند آخر حسن عن علي نحوه» اهـ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

❁ قوله: «لعن الله من آوى محدثاً» المحدث: من أحدث في الدين من بدع وخرافات، ويُرَوَّى (محدثاً) بفتح الدال، والمحدث: البدعة، فلا يجوز للمسلم أن يروي البدع، ولا أن يناصرها أو يدافع عنها، فالذي يدافع عن البدع، ويدعو إليها، ويحسنها للناس ملعون على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم: أولئك الذين يؤلفون الكتب في مناصرة البدع، وصبغها بصبغة التشريع، ويلقون المحاضرات والندوات والخطب، وينكرون على أهل السنة والجماعة الذين يردون البدع ويحذرون منها، ويعيرونهم، هؤلاء يدخلون في هذا الحديث؛ لأنهم آووا المحدث وهو البدعة والعياذ بالله.

والواجب على المسلم إنكار البدع والتحذير منها، والأمر بلزوم السنة والاعتماد عليها، هذا هو الواجب على المسلمين، وما أكثر من يناصرون البدع! وما أكثر من يناصرون المجرمين ويدافعون عنهم، ويحولون دون إقامة حدود الله في الأرض، نسأل الله العافية والسلامة، لكنهم ملعونون على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليفعلوا ما شاءوا فإنهم لن يفلتوا من حكم الله عَزَّوَجَلَّ.



قوله: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ» - بفتح الميم -: علامات حدودها، وهي التي توضع لتمييز حق الشركاء إذا اقتسموا ما بينهم في الأرض والدور. قال في النهاية: أي معالمها وحدودها^(١).

قلت: وذلك بأن يرفع ما جعل علامة على تمييز حقه من حق شريكه فيأخذ من حق شريكه بعضه فهذا ظلم عظيم، وفي الحديث: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ، طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فما أجهل أكثر الخلق حتى وقعوا بجهلهم وظلمهم فيما يضرهم في دنياهم وأخراهم، وذلك لضعف الإيمان بالمعاد، والحساب على الأعمال، والجنة والنار، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»، هذه الكلمة الرابعة، والمنار: العلامات؛ لأنها تنير للناس الحق، وتبين للناس الصواب من الخطأ، قال بعض المفسرين: وهذا محمول على المراسيم والحدود التي تكون بين أملاك الناس، فيأتي من يقدمها أو يؤخرها عن وضعها؛ لأجل أن يغضب شيئاً من أرض جاره، فهذا ملعون أيضاً على لسان النبي ﷺ.

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ، طَوَّقَهُ فِي سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فالمسألة ليست سهلة، فليست

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٣٦٨/٤)، (١٢٦/٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

هي أرض أخذتها وانتهى الأمر، بل هناك حساب وراءه عقوبة ومسؤولية أمام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فلو تركت أرضك كلها كان أسلم لك من أن تأخذ شبرًا من أرض شريكك أو أرض جارك، نسأل الله العافية والسلامة.

وقيل: المراد بمنار الأرض أنصاب الحرم التي وضعت على حدود الحرم المكي أو الحرم المدني، فلا يجوز تغيير هذه الحدود؛ لئلا يدخل في الحرم شيءٌ ليس منه أو يخرج منه شيء من الحرم.

وقيل: المراد بمنار الأرض العلامات التي على الطرق؛ لأنها تهدي المسافرين، وإذا أزيلت وغيرت ضل المسافرون، وربما يحصل بسبب ذلك هلاك، ومن هذه المنارات التي على الطرق: اللوحات التي تبين للمسافرين الاتجاهات والمسافات بين المدن، وهي مفيدة جدًا، فلا يجوز تغييرها؛ لأن هذا يضر بالناس.

والحقيقة أن كل هذه الأمور داخلية في منار الأرض؛ فيدخل فيها المراسيم، ويدخل فيها أنصاب الحرم، ويدخل فيها علامات ولوحات الطريق، ولكن النوع الأول - المراسيم - أكدها، واقتصر عليه بعض الشراح لأنه المتأكد عندهم، ولأنه يفصل بين الحقوق، ويمنع الظالم أن يتعدى على حقوق غيره.



وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ». قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرَّبَ لَهُ شَيْئًا، قَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقَرِّبُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا: لِلْآخِرِ قَرِّبْ، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ^(١).

قوله: [عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ]: البجلي الأحمسي، أبو عبد الله. قال أبو داود: رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يسمع منه شيئاً^(٢).

قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو صحابي، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه: مرسل صحابي، وهو مقبول على الراجح^(٣). وكانت وفاته على ما جزم به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين^(٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: حدثنا أبو معاوية الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ...» الحديث^(٥).
قوله: «فِي ذُبَابٍ» أي: من أجله.

(١) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد (ص ١٥) من طريق سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن سلمان الفارسي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، موقوفاً عليه.

(٢) قاله أبو داود عقب روايته لحديث (١٠٦٧): «الجمعة حق واجب على كل مسلم...».

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٥١٠).

(٤) انظر: الثقات (٣/ ٢٠١).

(٥) انظر: الجواب الكافي (ص ٢١)، ولم أقف عليه مرفوعاً.

قوله: «قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟!» كأنهم - والله أعلم - تقالوا هذا العمل وتقريب الذباب للصنم، فبين لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هذا وما هو أعظم منه وجبت له النار.

قوله: «قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرَّبَ لَهُ شَيْئًا، قَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقَرِّبُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارُ؛» لأنه قصد غير الله بقلبه، أو انقاد بعمله فوجبت له النار، ففيه معنى حديث مسلم الذي تقدم في باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعًا: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(١).

فإذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذبابًا، فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبد من دون الله؛ من ميت، أو غائب، أو طاغوت، أو مشهد، أو شجر، أو حجر، أو غير ذلك؟

وكان هؤلاء المشركون في أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شرعت فيه، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحي؛ لشدة رغبته، وتعظيمه، ورجائه لمن كان يعبد من دون الله، وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه.

قوله: «وَقَالُوا: لِأَخَرٍ: قَرِّبْ، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»، ففيه معرفة قدر الشرك في قلوب

(١) سبق تخريجه (ص ٢٩٣).

أهل الإيمان، ونفرتهم عنه، وصلابتهم في الإخلاص؛ كما في حديث أنس الذي في البخاري وغيره الآتي إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»، وفيه: «وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(١).

وفيه تفاوت الناس في الإيمان؛ لأن هذا الرجل الذي قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم؛ كما هو ظاهر الحديث، والله أعلم.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث رواه طارق بن شهاب البجلي الأحمسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من صغار الصحابة، وقيل: إنه لم يرو عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً لصغره، فيكون قد رواه عن غيره من الصحابة، وهذا لا يضر، لأنه مرسل صحابي، والصحابي لا يرسل إلا عن صحابي مثله، فلا تضر جهالة الصحابي لأن الصحابة كلهم عدول رضي الله تعالى عنهم.

❁ وقوله: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ» أي: بسبب ذباب، قالوا: «وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟!»، لأن هذا محل عجب، كيف دخل النار في ذباب؟

فهذا الحديث فيه خبر الأولين، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقصص على أصحابه من أخبار الأولين لأجل العبرة والعظة، وهذا من معجزاته

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث يخبر عن أشياء لم يكن أدركها ولا شاهدها، وإنما أوحى بها الله عزَّجَلَّ إليه وأعلمه بها، وهذا دليل على صدق رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❖ قال: «قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ»، أي: يعبدونه من دون الله؛ لأن الصنم: هو ما يعبد من دون الله، لكن يُطلق على ما كان على صورة حيوان، وأما الوثن: فيشمل ما كان على صورة، وما لم يكن على صورة مما عبد من دون الله؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»^(١)، فالوثن أعم من الصنم؛ لأنه يشمل كل ما عبد من دون الله على أي شكل كان.

❖ قال: «لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ» يعني: لا يمر من عنده أحد «حتى يقرب له شيئاً» يعني: يذبح أو يتقرب له بشيء من العبادة، حيث كانوا يلزمون من يمر من الناس عند صنمهم بأن يعبد هذا الصنم، فإذا خضع لهذا الصنم وقرب له شيئاً من أنواع العبادة سمحوا له بالمرور؛ كأنهم شرطة الجوازات التي تكون عند منافذ البلاد، لا يسمحون لأحد يمر إلا معه جواز، وهؤلاء الجواز عندهم هو الشرك بالله عزَّجَلَّ.

وهذا دليل على حرص المشركين على عبادة غير الله، ولذلك يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل حماية الشرك والعياذ بالله؛ قاتلوا الرسل وقاتلوا المسلمين من أول الخليقة إلى الآن، حماية للشرك، وغيره على الشرك، نسأل الله العافية، فهم لا يخلون بين المسلمين ودينهم.

والآن نسمع دعاة الضلالة يقولون: دعوا الناس وشأنهم، كلُّ يتبع ما يراه دينًا، ولا تصادموا حرياتهم. ويقصدون بذلك محاربة الدعوة إلى دين الله، وفي نفس الوقت تجدد المشركين لا يخلون بين المسلمين ودينهم، فإن سكنت عنهم المسلمون لم يسكتوا هم عنهم، أليسوا الآن يقاتلون المسلمين؟ أليسوا يجلبونهم من ديارهم لا لشيء إلا أن يقولوا: ربنا الله؟ فهم يفعلون ذلك ثم يخرجون علينا بدعاياتهم وشعاراتهم البراقة، ويقولون: دعوا الناس أحرارًا، كلُّ على دينه، ويسمون ذلك: التعايش السلمي. كيف نحسن الظن بهم، ونقبل دعاياتهم في التعايش - كما يقولون - وهم لا يتركون المسلمين على دينهم أبدًا، بل يلزمونهم بالشرك، ويحاربونهم في دينهم؟!

❁ قال: «لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرَّبَ لَهُ شَيْئًا»، شيئًا يعني أدنى شيء؛ لأن مقصودهم الخضوع والانقياد والشرك بالله، وليس مقصودهم النوع الذي يقرب، فهم يقبلون أي شيء سواء كان قليلًا أو كثيرًا، المهم أن يوافقهم على كفرهم وشركهم والعياذ بالله.

❁ قال: «قَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ» أي: قرب لهذا الصنم، «قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقْرَبُ» لم يقل: هذا شرك ولا يجوز، وأنا مسلم لا أقرب لغير الله، بل قال: «قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقْرَبُ» يعني: لو كان عنده شيء لقربه! «قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا»؛ لأنهم لا يقصدون نوع الذي يُقرب، ولكن مقصودهم الطاعة والخضوع، وقولهم: «قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا» يعني: اذبح لهذا الصنم ولو ذبابًا، فذبح الرجل ذبابة تقريبًا إلى الصنم ليسمحوا له بالمرور.

❁ قال: «فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ» لما وافقهم وذبح لغير الله سمحوا له أن يذهب، ولكن إلى النار، وهذه عاقبة الشرك والعياذ بالله.

❁ قال: «وَقَالُوا: لِلْآخِرِ قَرَبٌ»، فماذا قال لهم؟ «قَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ» لم يقل لهم: ليس عندي شيء أقرب، بل صرّح بعقيدته، واعتز بدينه، ولم يذل، ولم يستكن، وهكذا المؤمن يجب أن يعتز بدينه وعقيدته، ولا يساوم عليها، ولا يستحي من ذكرها والمصارحة بها. فقوله: «مَا كُنْتُ لِأَقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ» يعني: أنه لو كان عنده أزواج من الإبل ومن الغنم، فلن يذبح منها شيئاً لغير الله؛ لأنه لا يذبح إلا لله، اعتز بدينه وعقيدته.

❁ قال: «فَضَرَبُوا عُقَّةَهُ» أي: قتلوه، لكن أين ذهب؟ قال: «فَدَخَلَ الْجَنَّةَ» ذهب إلى الجنة، والموت حاصل حاصل، حتى ولو سمحوا له بالمرور كان سيموت إذا أتى أجله، وفرق بين موت بعده الجنة وموت بعده النار، فتمسك ذلك الرجل الصالح بدينه، واعتز بعقيدته، ولم يساوم عليها، ولو آل أمره إلى القتل؛ لأنه سيقتل في سبيل الله، والمسلم يعتز بذلك، ويفرح بالشهادة.

فهذا الحديث واضح في أن الذبح لغير الله شرك ولو كان المذبوح قليلاً، ولو كان ذبائياً؛ لأن العبرة ليست بالمذبوح، إنما العبرة بما في القلب، فالذي سمح بأنه يذبح لغير الله دخل النار، والذي لم يسمح دخل الجنة، هذا هو مفترق الطرق بين الموحدين والمشركين.

فهذا الحديث حديث عظيم، فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: هذا الحديث فيه جواز الإخبار عن الأمم السابقة،

والتحدّث عنها بما ثبت لأجل العظة والعبرة.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على تحريم الذبح لغير الله، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك؛ لأن هذا الرجل الذي ذبح الذباب دخل النار، وحتى لو كان المذبح شيئاً تافهًا، والرجل الثاني عظم الشك وتجنبه، ولو كان شيئاً حقيراً، فدخل الجنة.

المسألة الثالثة - كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في مسائله -: (فيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر)، فالمدار على أعمال القلوب، وإن كان الشيء الظاهر تافهًا.

المسألة الرابعة: فيه دليل على قرب الجنة والنار من الإنسان؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١)، هذا ضربوا عنقه فدخل الجنة، وذاك خلو سبيله فدخل النار.

المسألة الخامسة: أن هذا الرجل الذي ذبح الذباب كان مؤمنًا، فدخل النار بذبحه الذباب؛ لأنه لو كان كافرًا لدخل النار بكفره لا بذبح الذباب، فدلّ على أنه كان مؤمنًا، وهذه مسألة خطيرة جدًّا، فأين الذين يذبحون للقبور، والجن، والشياطين، والعفاريت، والسحرة؟ فدلّ ذلك على أن الشرك الأكبر يخرج من الملة ولو كان شيئًا يسيرًا، وأن أمور التوحيد والعقيدة لا يُتسامح فيها.



(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾.

الثَّالِثَةُ: الْبُدْءُ بِالْعَنَةِ مِنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الرَّابِعَةُ: لَعْنُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدِي الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ
وَالِدَيْكَ.

الخَامِسَةُ: لَعْنُ مَنْ أَوَى مُحَدِّثًا، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ شَيْئًا يَحِبُّ فِيهِ حَقُّ
لِلَّهِ، فَيَلْتَجِئُ إِلَى مَنْ يُحِبُّهُ مِنْ ذَلِكَ.

السَّادِسَةُ: لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْمَرَاسِيمُ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ
حَقِّكَ مِنَ الْأَرْضِ وَحَقِّ جَارِكَ، فَتُغَيِّرُهَا بِتَقْدِيمٍ أَوْ بِتَأْخِيرٍ.

السَّابِعَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ الْمُعَيَّنِ، وَلَعْنِ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ.
الثَّامِنَةُ: هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

التَّاسِعَةُ: كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ
تَخَلُّصًا مِنْ شَرِّهِمْ.

الْعَاشِرَةُ: مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشُّرْكِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، كَيْفَ صَبَرَ ذَلِكَ عَلَى
الْقَتْلِ، وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى طَلِبَتِهِمْ، مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا مِنْهُ إِلَّا الْعَمَلَ الظَّاهِرَ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الَّذِي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمًا، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِرًا لَمْ يَقُلْ:
«دَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُّبَابٍ».

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ
مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١).

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ الْقَلْبِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ حَتَّى عِنْدَ
عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ.



(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٨).

١٠- بَابُ

لَا يُذْبِحُ بِمَكَانٍ يُذْبِحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾
 أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿[التوبة: ١٠٨].

قوله: [بَابُ لَا يُذْبِحُ بِمَكَانٍ يُذْبِحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ] أشار رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا كَانَ النَّاسُ يَفْعَلُونَهُ فِي نَجْدٍ وَغَيْرِهَا قَبْلَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ؛ مِنْ ذَبْحِهِمْ لِلْجِنِّ لَطَلَبِ الشِّفَاءِ مِنْهُمْ لِمَرْضَاهُمْ، وَيتَخَذُونَ لِلذَّبْحِ لَهُمْ مَكَانًا مَخْصُوصًا فِي دَوْرِهِمْ، فَنفى الله سبحانه الشُّرْكَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. فَللهِ الْحَمْدُ عَلَى زَوَالِ الشُّرْكِ وَالْبَدْعِ وَالْفُسَادِ، بِطَلْعَةِ الدَّاعِي إِلَى تَوْحِيدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

هَذَا الْبَابُ تَابِعٌ لِلْبَابِ الَّذِي قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الْبَابَ الَّذِي قَبْلَهُ: (مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ) يَعْنِي: أَنَّ الذَّبْحَ لِغَيْرِ اللَّهِ مُحَرَّمٌ وَأَنَّهُ شُرْكَ، وَهَذَا الْبَابُ فِيهِ سُدُّ الذَّرَائِعِ الْمُفْضِيَةِ وَالْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ.

❁ وقوله: (بَابُ لَا يُذْبِحُ) بِضَمِّ (الْحَاءِ) عَلَى أَنَّ (لَا) نَافِيَةٌ، وَيُصْلَحُ: (لَا يُذْبِحُ) بِإِسْكَانِهَا عَلَى أَنَّ (لَا) نَاهِيَةٌ، وَحَتَّى لَوْ أَخَذْنَاهَا عَلَى أَنَّهَا نَافِيَةٌ فَالْنَفْيُ هُنَا مَعْنَاهُ: النَّهْيُ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنَى النَّهْيِ، بَلْ إِذَا جَاءَ النَّهْيُ بِصِيغَةِ النَّفْيِ كَانَ أَبْلَغَ، مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ

مَسَاجِدَ»^(١)، فهذا نفْيٌ معناه النهي، ومثله قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، هذا أيضًا نفْيٌ معناه النهي عن هذه الأمور.

❁ وقوله: (لَا يُذْبَحُ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ)؛ لأن الذبح في هذا المكان وسيلة إلى الشرك، وإن كان الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك في الذبح في هذا المكان تعظيم له ومشابهة للمشركين، وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوسائل المُفْضِيَةِ إلى الشرك، مثل: نهيهِ عن الصلاة إلى القُبُورِ^(٢)، وإن كان المصلي لا يصلي إلاَّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن هذا المكان لا يصلح لتعبُد الله فيه، لأنه وسيلةٌ إلى الشرك، وكذلك نهى عن الصلاة عند شروق الشمس وغروبها^(٣)؛ لأنه وسيلة إلى عبادتها، ولأن المشركين كانوا يسجدون لها عند الشروق وعند الغروب. فكل موطن وكلُّ زمان قد اتخذته المشركون لعبادتهم فإننا نهينا أن نُشاركهم فيه، وأمرنا أن نبتعد عنه، من باب سدِّ الذرائع، ومن باب قطع المشابهة للمشركين، ممَّا يعطي دينَ الإسلام استقلالية تامَّة عن كلِّ ما سواه في النحل الباطلة.

❁ قوله: (أشار رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى إلى ما كان الناس يفعلونه في نجد وغيرها قبل دعوتهم إلى التوحيد) ذلك أن الناس في نجد كانوا يذبحون في الغيران،

(١) سبق تحريجه (ص ٤٥٥).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٢)، ومسلم (٨٢٨) واللفظ له، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحَرَّوْا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا؛ إِنَّهَا تَطْلُعُ بِقَرْنَيِ الشَّيْطَانِ».

وعند الأشجار والأحجار، ويتعلقون بها، ويطلبون الشفاعة، وكانت المرأة تأتي إلى هذه الأماكن تطلب الحمل وغير ذلك، حتى جاء الله بدعوة التوحيد على يد الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فأزال الله عن المسلمين وعن بلاد المسلمين هذا الشرك، بسبب الصدق في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد كان الذبح للأشجار والأحجار والغيران موروث من مواريث الجاهلية، وكانوا يذبحون للجن طلباً للشفاء، وهذا يفعله المشعوذون الآن، إذا جاءهم المريض يبحث عن الشفاء، قالوا له: اذبح كذا ولا تسمِ عليها الله، تقربا إلى الجن. وهذا من الشرك والعياذ بالله، حتى لو قال: بسم الله، فهو شرك، ما دام يقصد به التقرب إلى الجن؛ لأن العبرة بالمقصد والنية.

فجاءت هذه الدعوة تابعة لدعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحارب هذه البدع والخرافات والشركيات التي كان عليها أهل نجد وغيرهم، وهي دعوة تجديد، وأصل الدعوة: دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله عَزَّوَجَلَّ يبعث بين حين وآخر العلماء مجددين، فالحمد لله على هذه النعمة العظيمة، التي نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يديمها على هذه البلاد، ولكن الآن أعداء الإسلام يحاولون أن يزيلوا هذه الدعوة من هذه البلاد، فصاروا يلقون الشبه ويأتون بحجج باطلة، ويزهدون في هذه الدعوة، ويقولون: الناس كلهم مسلمون. ويقصدون بالناس عباد القبور والمبتدعة، هذا قصدهم، يريدون ألا يكون هناك فرق بين أهل السنة والجماعة وأهل الضلال؛ من قبورية أو صوفية،



وغيرهم، يقولون: كلهم مسلمون، والشيخ ابن عبد الوهاب لم يأت بشيء، إنما هو ظلم الناس واتهمهم بالكفر والشرك.

يكتبون هذا الآن ويقولونه، ويرفعون شعارات براءة مثل: حرية الرأي، وحرية القول، وحرية العقيدة، وكل يبدي ما عنده. ويقصدون بذلك ألا يُنكر الشرك؛ ليقْتلَعوا هذه الدعوة المباركة من أرض التوحيد ومنبت الرسالة، فإذا قلعت الدعوة من بلاد التوحيد ومن أرض الحرمين الشريفين، فبقية العالم أمره سهل.



قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (الآية) أي: مسجد الضرار المذكور في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧)] لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴿[التوبة: ١٠٧-١٠٨]، وهو مسجد قباء، فقد أسس على التقوى من أول يوم قدم فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة مهاجرًا، وكان أهل مسجد الضرار قد بنوه قبل خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى غزوة تبوك، فأتوه فسألوه أن يصلي فيه، وذكروا له أنهم بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشتائية، فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»^(١)، فلما قفل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعًا إلى المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه، نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه وهدمه قبل قدومه إلى المدينة صلوات الله وسلامه عليه، وأنزل الله فيه هذه الآيات.

ووجه مطابقة الآية للترجمة: أن هذا المسجد لما أسس على معصية الله والكفر به صار محل غضب، فنهى الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقوم فيه؛ لوجود العلة المانعة، وخرج مخرج الخصوص والنهي عام.

وما كان مثله من الأمكنة فإنه يُعطى حكمه؛ لأن المعصية صيرته محلًا خبيثًا، وأثرت فيه بالنهي عن العبادة فيه، ويُقابل ذلك المساجد وهي أشرف

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/١١) من طريق ابن إسحاق عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، وذكره ابن هشام في السيرة (٥/٢١١) عن ابن إسحاق لم يتجاوز به. انظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٢/١٠٠).

بقاع الأرض، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦) رِجَالٌ ﴿ [النور: ٣٦-٣٧]. فما أحسن هذا القياس! ويأتي تقريره في الحديث في الباب إن شاء الله عَزَّجَلَّ.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: (وقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا ﴾) نهى عَزَّجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة في هذا المسجد -مسجد الضرار- وقصته: أن أبا عامر الفاسق كان قد قرأ الكتب السابقة في الجاهلية، وتعبّد حتى صار يُقال له: «أبو عامر الراهب»، وعظّمه الناس في الجاهلية لما ظهر عليه من الدين، فلما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة حسده وكفر به وأبغضه، وسماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبي عامر الفاسق»^(١)؛ لأنه خرج عن طاعة الله، وكفر برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم ذهب هذا الكافر إلى الشام يؤلّب النصارى على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠]، فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين، فبنوا هذا المسجد في الصورة الظاهرة، وباطنه دار حرب، ومقر لمن يفد من عند أبي عامر الفاسق -قبحه الله- ومجمع لمن هو على طريقتهم

(١) ذكر ذلك ابن هشام في السيرة النبوية (٤/ ١٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٥٩)، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٨٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٢٠٤)، وابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٩٦).

من المنافقين؛ ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِرِصَادَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧]، ولكنهم قالوا: بنيانه من أجل الضعيف والمريض والليلة المطيرة أو الليلة الشاتية، وطلبوا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَصَلِّيَ فِيهِ، يريدون بذلك التغطية والخديعة، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِيَحْلُقَنَّ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أي: إنما أردنا بنيانه الخير.

فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما رجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك ولم يبق على وصوله إلى المدينة إِلَّا ليلة أو ليلتان أتاه الوحي من السماء، قال الله عَزَّ وَجَلَّ لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ فنهاه عن القيام فيه؛ لئلا يقرر أمره، ويبين سبحانه مقاصدهم الخبيثة في هذا البناء، فبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مسجد الضرار من يهدمه ويحرقه قبل قدومه إلى المدينة، فدل هذا على وجوب هدم كل مسجد يثبت أنه ضرار، والنهي عام عن كل مكان اتخذ للكفر والشرك بالله، فلا يجوز للمسلم أن يتعبد لله به وإن كانت نيته صالحة؛ لأن هذا من وسائل الشرك، ولأن أهل الهوى يحتاجون بهذا، ويقولون: صلى فيه فلان، ويأتيه العالم الفلاني، يحتاجون بهذا ويلبسون على الناس.

فهذا يشمل كل من بيّت نية خبيثة وأظهرها بمظهر النية الطيبة، كمن يعمل مشروعاً من المشاريع، يُظهر منه أنه لصالح المسلمين، وهو في الحقيقة للكيد بالإسلام والمسلمين، فهذا لا يُصدق، ولا يُساعد، ولا يُعان على شره،

فلا يختص النهي بمسجد الضرار، بل يعم كل ما اتخذ مكرًا وخداعًا وحيلة للإضرار بالإسلام والمسلمين، ولو كان ظاهره الخير.

فهذه الآيات تدل على أن النيات تؤثر في الأمكنة والمباني، النيات الخبيثة تؤثر في الأمكنة والبِقاع خبيثًا، والنيات الصالحة تؤثر فيها بركة وخيرًا.

ففيها: الحث على إصلاح المقاصد، وفيها: دليل على أن الاعتبار بالمقاصد لا بالمظاهر، فهؤلاء بنوا مسجدًا في الظاهر، ولم يكن مقصودهم المسجد، فدلّ على أنه ليس كل من أظهر الصلاح يُقبل منه حتى تُعرف حقيقته.

وفيه: التنبيه على خِدَاعِ المخادعين، وأن يحذر المؤمنون دائمًا من المشبوهين ومن تضليلهم، فقد يتظاهرون بالصلاح، ويتظاهرون بالمشاريع الخيرية، ولكن ما دامت سوابقهم وتصرفاتهم تشهد بكذبهم فإنه لا يُقبل منهم، ولا ننخدع بالمظاهر دون نظر إلى المقاصد، وإلى ما يترتب -ولو على المدى البعيد- على هذه المظاهر، ففيه: تنبيه المسلمين إلى الحذر في كل زمان ومكان من تضليل المشبوهين، وأن كل من تظاهر بالخير والصلاح والمشاريع الخيرية لا يكون صالحًا، إلّا من لم يكن له سوابق في الإجرام، ولم يُعرف عنه إلّا الخير؛ فهذا يُقبل منه، لكن من كان معروفًا بالسوابق السيئة والمكائد الخبيثة، أو يظهر عليه أو على فلتات لسانه أو على كلامه شيء؛ فإننا نأخذ الحذر منه ولا ننخدع؛ لأن الله عَزَّجَلَّ نهي رسوله أن يصلي في مكان أُعِدَّ للمعصية.

فدلّ هذا على أنه لا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله؛ كما لا يصلي لله في مكان أُعِدَّ للمعصية والكفر.

❦ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ ❦ هو مسجد قباء لصلاح نية أهله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفي هذا دليلٌ على فضيلة مسجد قباء، وفضل أهله رضوان الله عليهم، وأن هذا المسجد بقيَ له الفضل في الإسلام إلى أن تقوم الساعة، ويقصد للصلاة فيه مَنْ كان في المدينة اقتداءً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقيل: المراد به مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصحيح أنه يعم المسجدين، كل منهما أُسس على التقوى، فيقام في مسجد الرسول وهو أحد المساجد الثلاثة، ويقام في مسجد قباء ويصلى فيه؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخرج إليه راكباً وماشياً ويصلي فيه؛ لأنه كان في طريق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومسجد قباء يُقال له أيضاً: مسجد بني الأشهل من الأنصار؛ لأن المكان أو الحارة التي بني فيها تسمى قباء، فبقي لهذا المسجد ولله الحمد الذكر الطيب، وصار مباركاً، ويصلى فيه لأن نية أصحابه الذين أسسوه نية طيبة.



عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْتَحِرَ بِبَوَانَةٍ فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا.

قوله: [عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ] أي: ابن خليفة الأشهلي، صحابي مشهور، روى عنه أبو قلابة وغيره، مات سنة أربع وستين^(١).
قوله: «بِبَوَانَةٍ» بضم الباء، وقيل بفتحها. قال البغوي: موضع في أسفل مكة دون يلملم. قال أبو السعادات: هضبة من وراء ينبع^(٢).
قوله: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ولو بعد زواله. قاله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وهو شاهد الترجمة.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: «نَذَرَ رَجُلٌ» النذر في اللغة هو التزام الشيء، يقال: نَذَرْتُ وَأَنْذَرْتُ نَذْرًا إِذَا أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ شَيْئًا تَبَرُّعًا؛ من عبادة، أو غيرها، فالنذر في اللغة هو الالتزام^(٣).

أما النذر في الشرع فهو التزام عبادة لم تكن واجبة في أصل الشرع، من صدقة، أو صلاة، أو صيام، أو حج، أو عمرة^(٤).

(١) انظر: الجرح والتعديل (٢/٤٥٣)، والثقات (٣/٤٤)، وحلية الأولياء (١/٣٥١)، والإصابة في تمييز الصحابة (١/٣٩٠).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/١٦٤)، ومعجم ما استعجم (١/٢٨٣)، ومعجم البلدان (١/٥٠٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٣٨)، ولسان العرب (٥/٢٠١).

(٤) انظر: المبدع (٩/٣٢٤)، وكشاف القناع (٦/٢٧٣).

❖ قال: «نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْحَرَ بِبُؤَانَةٍ» النحر للإبل، والذبح للبقر والغنم، و(بؤانة) اسم موضع بين مكة والمدينة، فجاء الرجل قبل أن يفى بنذره يستفتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الفعل؟ وهكذا ينبغي للمسلم أن يسأل أهل العلم عما أشكل عليه، ولا يعمل برأيه، فربما يكون مخطئاً، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبادر بالفتوى بل استفسر فقال: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»، والوثن: هو ما عبد من دون الله من قبر أو شجر أو حجر أو صنم، وأما الصنم: فهو خاص بما كان على صورة إنسان أو حيوان.

❖ و(الجاهلية) نسبة إلى الجهل وهو عدم العلم، وهي تُطلق على ما قبل الإسلام، وهذه الجاهلية انتهت ببعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد يبقى منها شيء في بعض الناس أو في بعض القبائل، لكن الجاهلية العامة - والله الحمد - انتهت ببعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز أن يُقال للناس في جاهلية، أو هذا وقت الجاهلية، لكن أن يُقال: فلان فيه جاهلية، أو أهل البلد الفلاني عندهم شيء من الجاهلية. أما أن يُقال: الناس الآن في جاهلية، وهذا الوقت وقت الجاهلية، وقد يبالغ بعضهم فيقول: الناس في جاهلية أشد من الجاهلية الأولى. فهذا كلام باطل؛ لأنه ليس بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاهلية عامة.



قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفَ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرِّطِهَا^(١).

قوله: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»: قال شيخ الإسلام: (العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد، إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر ونحوه، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية، فالعيد يجمع أمورًا منها: يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماع فيه، ومنها: أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات، وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقًا، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيدًا، فالزمان كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم الجمعة: «إِنَّ هَذَا يَوْمٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ عِيدًا»^(٢)، وللإجماع والأعمال كقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «شَهِدْتُ الْعِيدَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»^(٣)، والمكان كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَتَّخِذُوا قُبُورِي عِيدًا»^(٤).

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قال: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» والعيد: اسم لما يتكرر ويعود في الأسبوع أو الشهر أو السنة، أو بعد مائة عام، أو بعد ألف عام، كل

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٩٨)، والطبراني في الأوسط (٢٣٠ / ٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٩٦٢) واللفظ له، ومسلم (٨٨٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد في المسند (٣٦٧ / ٢)، والطبراني في الأوسط (٨١ / ٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩١ / ٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما يعود ويتكرر يسمى عيداً، سواء كان عيداً شرعياً أو عيداً جاهلياً، فمن الأعياد الشرعية ما يتكرر سنوياً مثل: عيد الفطر وعيد الأضحى، ومنها ما يتكرر أسبوعياً مثل: يوم الجمعة، ومن الأعياد ما هو خاص بمكان يجتمع فيه الناس للعبادة في وقت محدد مثل: الاجتماع في منى وعرفة في موسم الحج، والاجتماع في المسجد الحرام للصلاة والعبادة، هذه أعياد مكانية شرعية.

وأما الأعياد غير الشرعية فهي ما كان من أمور الشرك والكفر؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً»، يعني: مكاناً للعبادة تجتمعون عنده؛ لأن العبادة لا تجوز العبادة عند القبور، لا عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا غيره؛ لأن هذا وسيلة للشرك بالله عَزَّجَلَّ، فلا تجوز العبادة عند القبور بصلاة أو دعاء أو ذكر؛ ذلك لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»^(١)، وقوله: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»^(٢)، وقوله: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ»^(٣).

فإذا تُرك الناس يتعبدون الله عند القبور آل ذلك إلى عبادة القبور والغلو فيها، ولذلك لا يجوز التجمع عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أشرف الخلق، بل القادم من سفر يمر ويسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر ويمضي، وإذا أراد أن يدعو أو يصلي يذهب إلى أي

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٨٩).

(٣) سبق تخريجه (ص ٥٢٥).

مكان في المسجد النبوي ويصلي، ولا يتحرى بصلاته القبر، ولا يدعو عند القبر؛ لأن هذا يبعث على الشرك والغلو، وإذا فعل ذلك رجل ذا شأن في قومه ورآه الناس والجهال؛ فإنهم يتخذون هذا عبادة، وربما يطلبون من الرسول ويستغيثون به كما هو واقع، ولولا أن الله قيد لقبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يحميه لرأيتم العجب العجائب، لكن الحمد لله، لا يزال القبر مصوناً ومحفوظاً بحفظ الله، ثم بجهد ولادة الأمور الذين يعتنون بحفظ القبر من الغلو ومن الاجتماع عنده. وهذا من تيسير الله عَزَّجَلَّ، وإجابة لدعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي	قد ضمه وثنًا من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه	وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه	في عزة وحماية وصيان ^(١)

فما زال القبر مصوناً ومحفوظاً، ولا يُمكن أحد من الجلوس عنده أو الوقوف طويلاً أكثر من وقوف السلام.



وقد يكون لفظ العيد اسمًا لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب؛
 كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا»^(١). انتهى^(٢).

وقد أحدث هؤلاء المشركون أعيادًا عند القبور التي تعبد من دون الله
 ويسمونها عيدًا؛ كمولد البدوي بمصر وغيره، بل هي أعظم؛ لما يوجد فيها
 من الشرك والمعاصي العظيمة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وفيه استفصال المفتي، والمنع من الوفاء بالنذر
 بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله.

قلت: وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة؛ لكونها صارت
 محلاً لما حرم الله من الشرك والمعاصي، والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل
 ما كان عبادة لله، فلا تُفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلاً لما يسخط
 الله عَزَّ وَجَلَّ.

فبهذا الحديث شاهد للترجمة، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لم يرد التخصيص
 بالذبح، وإنما ذكر الذبح كالمثال.

وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجدًا.

والجواب - والله أعلم - : أنه لو تُرك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى
 أن تفتتن به قلوب الجهال، فيرجع إلى جعله وثناً كما كان مسجدًا والحالة هذه
 يُنسى ما كان يُفعل فيه، ويذهب به أثر الشرك بالكلية، فاختصر هذا المحل
 لهذه العلة وهي قوة المعارض والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٩٨٧)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٨٩، ١٩٠).

قوله: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ» وذلك لعدم المانع.

قوله: «فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ» فالحديث دل على أن اتخاذ أماكن الشرك والمعاصي لا يجوز أن يُعبد الله فيها، ونذر ذلك معصية لا يجوز الوفاء به.

قوله: «وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»: قال في شرح المصابيح: يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه، بأن قال: إن شفى الله مريضاً فله على أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك، فأما إذا التزم في الذمة بأن قال: إن شفى الله مريضاً فله على أن أعتق رقبة، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإذا شفى الله مريضه ثبت ذلك في ذمته^(١).

قوله: [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرِّهِمَا] أي: البخاري ومسلم. وأبو داود اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني، صاحب الإمام أحمد بن حنبل، ومصنف السنن والمراسيل وغيرها، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء، مات سنة خمس وسبعين ومائتين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا» دل على مشروعية الفرح واليسير في يوم العيد إذا كان خالياً من المنكرات، فهذه جوار

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٠١).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٩/٥٥)، ووفيات الأعيان (٢/٤٠٤)، والبداية والنهاية (١١/٥٤)، وشذرات الذهب (٢/١٦٧).

صغيرة يتغنين بشيء يسير ليس فيه خدش للحياء ولا كلاماً من الغزل المحرم، وليس فيه محذور، ولا فيه شرك، هذا لا بأس به ومن التوسع في يوم العيد، أما الذين يجعلون يوم العيد حفلات، وعروضات، وطبول، ومناسبة تختلط فيها النساء بالرجال، ويستباح فيها المحرمات، فهذا محرم لا يجوز.

❦ قوله: (وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيداً؛ كمولد البدوي في مصر وغيرها) لما حكم الشيعة الفاطميون - وهم باطنية قبحهم الله - مصر والمغرب أحدثوا فيها الأعياد الجاهلية؛ كمولد البدوي، ومولد الإمام فلان، ومولد فلان، وبنوا المشاهد على القبور، ويزعمون في بعضها أنه قبر الحسين، وقبر الست نفيسة، وقبر السيدة زينب، وغير ذلك على ما يسمونه، وهذه الموالد والأعياد الشركية من مخلفات الشيعة الفاطمية، وما زالت - مع الأسف - يُحتفل بها إلى الآن؛ لأنها لم يقيد لها من الدعاة إلى الله ومن الولاة ما حصل في هذه البلاد؛ من تعاضد الدعاة والولاة على إزالة هذه الشراكيات، فبقيت في مصر إلى الآن، وهي من مخلفات الشيعة الباطنية الإسماعيلية، والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يدفن في مصر، وهذا كذب، فالحسين قتل في كربلاء، ودفن في كربلاء، ويُقال: إن رأسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نُقل إلى الشام؛ لأن محل الخلافة كان في الشام، أما أن يقال: إن رأسه دُفنت في مصر. فهذا ليس بصحيح، فليس في مصر من بدن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيء.

ويقال: إن هذا القبر المنسوب للحسين مدفون فيه نصراني.

وسواء كان نصرانياً أو غيره، أو كان للحسين نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه لا يجوز بناء مسجد عليه، واتخاذ قبره عيداً؛ للنصوص الدالة على عدم جواز ذلك.

وكذلك مولد البدوي الذي في مصر، هذا البدوي يزعمون أنه ولي من أولياء الله، ولما مات دفن في هذا المكان، فاجتمع الصوفية على اتخاذ قبره عيداً؛ كما هو ديدنهم مع الأولياء، حيث يتخذونهم أرباباً من دون الله ويغفلون فيهم، مع أن البدوي هذا قيل فيه ما قيل من الفجور والشر؛ كما هو مذكور في ترجمته.

❁ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» ذلك أن العيد المكاني قد يكون شرعياً، وقد يكون بدعياً وشركياً، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن العيد البدعي الشركي الذي هو من أعياد الجاهلية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يشرع الاجتماع فيه للعبادة، وإنما الجاهلية هي التي شرعته، فلما اتضح وتبين أنه لا محذور في هذا المكان، فليس فيه وثن، وليس هو من أعياد الجاهلية، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ» للخروج من المحذور.

فهذا فيه دليل على أن المفتي يتثبت قبل أن يصدر الفتوى، ولا يستعجل بالفتوى حتى يستفصل من السائل ويتبين له مقصده، ثم يصدر الفتوى بعد ذلك، أما إذا استعجل فحري أن يجيب بجواب خطأ، وتُتخذ فتواه فتحاً لباب الشر - والعياذ بالله - ولو لم يقصد؛ لأن زلة العالم أشد على الناس من غيرها، فلا ينبغي للعالم أن يستعجل في فتواه؛ لئلا يزل والعياذ بالله، حتى

ولو لم يقصد، فكيف إذا قصد الخطأ، وقصد الشر بالناس، وقصد الهوى؟! هذا أشد، فالفتوى خطرهما عظيم، وليست بالأمر السهل أو الأمر المباح، والكل يفتي والكل يتكلم، هذه من المصائب التي إذا تساهل فيها الكثير، فظهر الشر في الأمة بسبب التسرع في الفتوى، فلا بد من الانضباط، ولا بد من التحري والتدقيق في أمر الفتوى.

ولهذا يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفئته، وتدارك الفارط، ومداواة الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه؛ فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل)^(١)، فكما أن الطبيب لا يصرف الدواء إلا في محله، ولا يزيد في الدواء عن القدر المطلوب؛ لأنه إذا صرف الدواء في غير محله يقتل، وإذا صرفه أكثر من الحاجة يقتل أيضًا، فكذلك المفتي تكون فتواه مثل الدواء، يضعها في محلها بقدرها المناسب، ولا يتوسع فيها.

❁ وقوله: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ» فيه دليل على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة، ولهذا قال: «فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ»؛ لأن هذا المكان لو كان فيه وثن، أو فيه عيد من أعياد الكفار، صار النذر فيه معصية لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يجوز الوفاء به، أما لما كان خاليًا من ذلك صار نذر طاعة؛ لأن أصل الذبح عبادة لله عَزَّوَجَلَّ فهو طاعة.

❁ قال: «فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»، فإن نذر شخص أن يعتق عبد فلان وهو لا يملكه، فهذا نذر ليس بصحيح؛

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/١٧٧).

لأنه لا يملك هذا العبد، وإذا نذر أن يتصدق بمبلغ من المال وهو فقير ليس عنده شيء، فهذا نذر ليس بصحيح؛ لأنه لا يملك هذا المال.

والشاهد من هذا الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منع من الذبح في مكان يُذبح فيه لغير الله، وإن كان الذابح لا يقصد إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن هذا فيه تشبه بالمشركين، ومن الوسائل المفضية إلى الشرك.

❁ قوله: (وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجداً، والجواب -والله أعلم-: أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال، فيرجع إلى جعله وثناً كما كان يفعل فيه أولاً، فجعله مسجداً والحالة هذه ينسي ما كان يفعل فيه، ويذهب به أثر الشرك بالكلية) هذا ليس بصحيح، لم يُجعل محل اللات بالطائف مسجداً، إنما هذا حكاية في بعض كتب التاريخ، يقولون: مسجد العباس منارته على محل اللات. وهو ليس صحيحاً، ولا دليل عليه، والمسلمون ما كانوا يبنون مسجداً في محل الصنم أبداً، هذا إنما هو حكاية ليس لها أصل.

وفي بعض كتب التاريخ يقولون: إن محل اللات بعيد عن المسجد وليس بجواره. وهذا هو الصحيح؛ لأنه لم يثبت أن مسجد العباس بني محل اللات وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ» دليل على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة؛ لأن الإنسان إذا أوجب على نفسه شيئاً مما هو مشروع؛ كالصلاة، والصيام، والذبح، والحج، والعمرة، يجب عليه ذلك.

أما من نذر شيئاً ليس بملكه، وإنما هو بملك غيره، فهذا لا يلزمه، ولا ينعقد نذره، وهناك فرق بين نذر المعين الذي لا يملكه، ونذر غير المعين الذي لا يملكه في النذر، فنذر المعين هذا لا يلزم، وأما نذر غير المعين فهو يلزم وإن كان لا يملكه وقت النذر، ويكون ديناً في ذمته.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا﴾. سبق أن المراد به مسجد الضرار الذي بناه المنافقون لمعصية الله، فنهى الله نبيه أن يصلي فيه، فدل على أنه ما كان من البقاع أو من المساجد أو من المباني لمعصية الله لا يجوز للمسلم أن يعبد الله فيه، ويدخل في ذلك الذبح، فإذا كان المكان يُذبح فيه لغير الله فلا يجوز للمسلم أن يذبح فيه لله، لما في ذلك من التشبه بالمشركين،
- الثانية: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ قَدْ تَوَثَّرَتْ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ.
- الثالثة: رَدُّ الْمَسْأَلَةِ الْمُشْكَلَةِ إِلَى الْمَسْأَلَةِ الْبَيِّنَةِ لِيُزَوَلَ الْإِشْكَالُ.
- الرابعة: اسْتِفْصَالُ الْمُفْتَيِّ إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ.
- الخامسة: أَنَّ تَخْصِيصَ الْبُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لَا بَأْسَ بِهِ إِذَا خَلَا مِنَ الْمَوَانِعِ.
- السادسة: الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.
- السابعة: الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.
- الثامنة: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ؛ لِأَنَّهُ نَذَرُ مَعْصِيَةٍ.
- التاسعة: الْحَذَرُ مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيَادِهِمْ وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ.
- العاشرة: لَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةٍ.
- الحادية عشرة: لَا نَذَرَ لِابْنِ آدَمَ فِيهَا لَا يَمْلِكُ.

... — الشَّرْحُ — ...

✽ (الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا﴾): سبق أن المراد به مسجد الضرار الذي بناه المنافقون لمعصية الله، فنهى الله نبيه أن يصلي فيه، فدل على أنه ما كان من البقاع أو من المساجد أو من المباني لمعصية الله لا يجوز للمسلم أن يعبد الله فيه، ويدخل في ذلك الذبح، فإذا كان المكان يُذبح فيه لغير الله فلا يجوز للمسلم أن يذبح فيه لله، لما في ذلك من التشبه بالمشركين،

ولما فيه من تعظيم المكان، وإن كان المسلم لا يقصد إلا الله عزَّ وجلَّ، فيؤخذ من عموم الآية أنه لا يجوز الذبح في مكان يذبح فيه غير الله.

❖ (الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ قَدْ تَوَثَّرَ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ)؛ كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، فأصله مباح، لكن لما كانت نية أصحابه خبيثة أثرت في المكان، وصار مكاناً مهجوراً لا يجوز التعبد فيه؛ كما أن النية الصالحة تؤثر في المكان، فنية الذين بنوا مسجد قباء أثرت فيه، وصار مكاناً طيباً.

❖ (الثَّالِثَةُ: رَدُّ الْمَسْأَلَةِ الْمُشْكَلَةِ إِلَى الْمَسْأَلَةِ الْبَيِّنَةِ لِيُزَوَلَ الْإِشْكَالُ)؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أشكل عليه نية هذا الرجل استفهم منه واستفصل حتى زال الإشكال.

❖ (الرَّابِعَةُ: اسْتِفْصَالُ الْمُفْتِي إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ): المفتي إذا سُئِلَ عن شيء لا يتسرع بالإجابة حتى يستفصل؛ لئلا يكون جوابه خطأ.

❖ (الْحَامِسَةُ: أَنَّ تَخْصِيصَ الْبُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لَا بَأْسَ بِهِ إِذَا خَلَا مِنَ الْمَوَانِعِ) يعني: مباح لكنه لا يتعين، فلو أتى واحد من الرياض -مثلاً- ونذر أن يصلي في الجامع الكبير، نقول له: هذا لا يتعين عليك، إن شئت صل فيه، وإلا صل في أي مسجد، فالصلاة تجب عليك لأنها من النذر المباح، لكن لا يتعين عليك أن تصليها في الجامع الكبير، وإن صليتها في الجامع الكبير هذا مباح، لأنه ليس فيه معصية، إلا إذا كان يحتاج إلى سفر حتى يصل إلى المسجد الكبير، فلو أتى واحد من القصيم ونذر أن يصلي بالجامع الكبير في الرياض، نقول

له: لا يجوز لك أن تسافر لأجل الصلاة في المسجد الكبير؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(١)، فلك أن تصلي في أي مسجد من مساجد المسلمين والحمد لله، ولا تسافر لأجل الصلاة في مسجد ليس له خاصية على غيره من المساجد.

❁ (السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله) هذا واضح؛ لأنه بعد فتح مكة ما بقي - والله الحمد - من الأوثان شيء، هدمها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتلفها، لكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل عن الماضي: هل كان فيها كذا وكذا؟ فدل هذا على أنه ولو كان الصنم قد هُدم وأزيل فإنه لا يجوز العبادة في هذا المكان، ولو ما بقي منه شيء، فكيف إذا كان الوثن أو الصنم موجوداً؟ هذا أخطر وأشد.

❁ (السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله)؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استفصل عن الأمرين، فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟» قال: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا.

❁ (الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية.

❁ (التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده): هذه مهمة جداً؛ لأنه غلب على كثير من المسلمين التشبه بما يفعله الكفار،

(١) سبق تخريجه (ص ٤٥٥).

الكفار يحيون الآثار فيحيون الآثار مثلهم، الكفار يجعلون أعيادًا، فيجعلون أعيادًا مثلهم، وهذا كله من التشبه الباطل.

﴿الْعَاشِرَةُ: لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ.

﴿الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: لَا نَذْرَ لِابْنِ آدَمَ فِيْمَا لَا يَمْلِكُ﴾ يعني: في الشيء المعين،

أما الشيء المنصوص في الذمة فهذا ينعقد وإن كان لا يملكه وقت النذر.



١١- بَابُ

مِنَ الشُّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قوله: [بَابُ مِنَ الشُّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ الآية]. قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَيُّ يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا أَوْجِبَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ، وَمَا أَوْجِبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقِ النَّذْرِ».

قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ قال ابن كثير: (يُخْبِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُونَ مِنَ النِّفَقَاتِ وَالْمَنْذُورَاتِ، وَتُضْمِنُ ذَلِكَ مَجَازَاتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجُزْءِ لِلْعَامِلِينَ بِهِ ابْتِغَاءً وَجْهَهُ).

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مِنَ الشُّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ)، أَيُّ: مِنْ أَنْوَاعِ الشُّرْكِ: النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَالنَّذْرُ فِي اللُّغَةِ: التَّزَامُ فِعْلُ الشَّيْءِ، يُقَالُ: نَذَرْتُ الشَّيْءَ إِذَا التَّزَمْتُ فِعْلَهُ، نَذَرَ كَذَا، يَعْنِي: التَّزَمَ بِهِ.

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ: النَّذْرُ هُوَ التَّزَامُ الْمُسْلِمِ عِبَادَةِ لَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَيْهِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ؛ كَأَن يَنْذِرَ أَنْ يَتَصَدَّقَ، وَالصَّدَقَةُ مُسْتَحَبَّةٌ فِي الْأَصْلِ، لَكِنْ إِذَا نَذَرَهَا

صارت واجبة، كذلك الصلاة النافلة مستحبة، فإذا نذر أن يصلي الضحى أو يصلي بالليل -مثلاً- فإنه يجب عليه أن يصلي في الوقت الذي نذر الصلاة فيه، فيلزمه الوفاء بما نذر وإن كان في الأصل مستحباً؛ لأنه تحول من مستحب إلى واجب بسبب النذر.

والنذر عبادة، فلا يجوز أن ينذر لغير الله، فمن نذر لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر، فلو نذر أن يضع درهماً فيما يسمونها صناديق النذور، الموجودة عند الأضرحة التي يعظمها الصوفية وعباد القبور -والعياذ بالله- أو نذر أن يذبح أو يصلي عند القبر، فإن كل هذا شرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه نذر لغير الله لا يجوز له الوفاء به.

والدليل على أن الوفاء بنذر الطاعة عبادة: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِ
وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] ذكر أن من صفات الأبرار أنهم يوفون
بالنذر، فدل على أنه عبادة، وأمر بالوفاء به بقوله: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾
[الحج: ٢٩]، فدل على أن النذر عبادة، وقرن النذر بالنفقة في قوله: ﴿وَمَا
أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فدل على أن النذر
عبادة؛ لأن النفقة في سبيل الله عبادة، وأخبر سبحانه أنه يعلمه، وهذا فيه
وعد بالجزاء، فليس من شك في أن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم كل شيء، حتى الأعمال
الخبیثة والأعمال السيئة يعلمها؛ لأن علم الله شامل لكل شيء، لكن المقصود
بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي: يعلمه ويثيب عليه، فالعبد لا يخاف

أن يعمل لله شيئاً فيضيع عند الله، فهو سبحانه يعلم أعماله ومقاصده ونياته، فمن لازم هذه الآية أن الله يثيب على الوفاء بالنذر، وليس القصد الإخبار بأن الله يعلم؛ لأنه معروف أن الله يعلم كل شيء من الطاعات والمعاصي.

وما دام أن النذر عبادة فلا يجوز أن يُنذر لغير الله عَزَّجَلَّ، ومن نذر لغير الله فقد أشرك، فمن نذر لقبر البدوي، أو قبر الحسين، أو لأي قبر، فقد أشرك شركاً أكبر يخرج من الملة.

ونذر الطاعة وإن كان الوفاء به واجباً، إلا أنه في الأصل منهي عنه؛ لما فيه من إحراج الإنسان لنفسه، وتحميلها شيئاً قد يشق عليها، وكان قبل أن ينذر في سعة من أمره، إن شاء فعل هذه الطاعة المستحبة، وإن شاء لم يفعلها، فلما نذر فعلها لزمته.

وكثيراً ما يأتي أناسٌ يسألون عن نذور لا يستطيعون الوفاء بها، فمنهم من نذر أن يصوم الدهر كله، ثم أشكل عليه أنه لا يستطيع أن يصوم سنة اثنا عشر شهراً، وقد كان في عافية وسعة قبل أن ينذر، وكان له أن يصوم إذا استطاع ويترك إذا أراد، لكنه حين نذر ورَّط نفسه. ومنهم من نذر إذا نجح أن يتصدق بنصف راتبه دائماً، فلما نجح وتوظف لم يستطع أن يخرج نصف راتبه في كل شهر؛ لأنه يحتاج إلى المال لينفقه على عائلته، فورَّط نفسه المسكين، وهو قبل أن ينذر كان في سعة، إن صار عنده زيادة من الراتب تصدق، وإن لم يكن عنده زيادة لم تلزمه الصدقة.

فلذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ»^(١)، وفي رواية: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»^(٢)، فهذا البخيل الذي لا يؤدي العبادة ولا يتصدق ولا ينفق من البخل، إذا نذر اضطر إلى النفقة والصدقة، أما غير البخيل فإنه يفعل الخير، وينفق، ويتبرع، ويتصدق، طاعة ورغبة فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولو لم ينذره. فدل هذا على أن الدخول في النذر مكروه، لكن إذا دخل فيه وجب عليه ولزمه.



(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٢)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وأما النذر لغير الله؛ كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو شرك.

وقال - فيمن نذر للقبور ونحوها دهنا لتنور به، ويقول: إنها تقبل النذر! كما يقوله بعض المشركين-: فهذا النذر معصية باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالا للسدنة، أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة؛ فإن فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند العزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية، وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها. انتهى^(١).

وذلك لأن الناذر لله وحده علق رغبته به وحده؛ لعلمه بأنه عَزَّجَلَّ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله.

والعبادة إذا صُرفت لغير الله صار ذلك شركاً بالله؛ لالتفاتة إلى غيره عَزَّجَلَّ فيما يرغب فيه أو يرهب، فقد جعله شريكاً لله في العبادة، فيكون قد أثبت ما نفته (لا إله إلا الله) من إلهية غير الله، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص.

وكل هذه الأبواب التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفته (لا إله إلا الله)، فعكس

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣١٥).

مدلولها، فأثبت ما نفته، ونفى ما أثبتته من التوحيد، وهذا معنى قول شيخنا: [وَشَرَحُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ].

فكل شرك وقع -أو قد يقع- فهو ينافي كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد.

... — الشَّيْخُ — ...

كان الناس في وقت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ينورون القبور بالزيت، حيث يضعون زيتاً في قارورة أو ما شابه ذلك، ويجعلون فيها فتيلًا أو خرقة، ثم يوقدون النار فيها، فيمتص الفتيل من هذا الزيت فيضيء، وكانوا يستعملون الودك^(١) -أيضاً- ويسرجون به، ثم لما ظهر النفط ومشتقاته صاروا يسرجون من (الجاز). فإذا نذر الإنسان زيتاً أو ودكاً أو (جازاً)، أو في الوقت الحاضر نذر مصابيح كهرباء تُركب في المسجد، أو نذر أن يدخل للمسجد تياراً كهربائياً، هذا نذر طاعة يجب عليه الوفاء به، أما لو نذر هذه الأشياء لقبرٍ أو ضريحٍ، فهذا حرام لا يجوز الوفاء به، وإذا كان بالمسجد قبر فإنه يخرج عن كونه مسجداً، ويكون مشهداً، فلا يجوز له الوفاء بنذره.

❁ قال شيخ الإسلام: (فهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مآلاً للسدنة، أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة). السدنة: الذين يتولون حفظها ويتولون فتحها للناس، فإذا نذر أن يعطيهم من ماله شيئاً يستعينون به على السدانة، فهذا حرام معصية؛ لأن هذا من

(١) الْوَدَكُ: هو دَسَمُ اللحم ودُهْنه الذي يستخرج منه. انظر: لسان العرب (١٠/٥٠٩).

التعاون على الإثم والعدوان. أو نذر مألًا أو طعامًا وما شابه ذلك للذين يجتمعون في هذا المكان معتقداً أنهم عباد وناس طيبون، فهذا نذر معصية؛ لأنه إعانة على معصية الله عَزَّجَلَّ. لكن لو نذر للصائمين إبطارًا أو عشاءً، أو نذر لهم ملابس أو كسوة، فهذا نذر صحيح، وهو نذر طاعة، لكن لا يجعل تجمع الصائمين على الطعام داخل هذه المشاهد، إنما يكون ذلك في المساجد أو في الخلاء، أو في أي مكان يخلو من مظاهر الشرك.

❁ قال: (فإن فيهم شبهًا من السدنة التي كانت عند العزى ومناة؛ يأكلون أموال الناس بالباطل)، فليس هناك فرق بين الأضرحة وبين اللات والعزى؛ لأن المقصود واحد، وهو: عبادة غير الله عَزَّجَلَّ، كلها مثل اللات والعزى.

❁ قال: (فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾) فالذين يعتكفون عند القبور ويجلسون عندها يشبهون هؤلاء الذين يقيمون عند القبور تقريبًا إليها، ليس هناك فرق بين هذا وهذا، كله شرك.

❁ قال: (وفيه شبه من النذر لسدنة الصليبان والمجاورين عندها)، ذلك أن النصراني يزعمون أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قُتِلَ وصلب على الخشبة، فيجعلون صورة لرجل مصلوب على صليب، ويتخذونه رمزًا لما يزعمونه، ثم يعكفون عند هذه الصورة وعند هذا الصليب، فالذين يعكفون عند القبور مثلهم سواء.

ثم يبين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ نذر الطاعة عبادة، وأنه يجب على الناذر الوفاء بنذره، وأن من صرف هذه العبادة لغير الله فقد جعل لله شريكاً في العبادة، وأنه بهذا (يكون قد أثبت ما نفته لا إله إلا الله من إلهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص).

❦ ثم قال: (وهذا معنى قول شيخنا: وَشَرَحْ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ؛) لأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ قال ذلك بعدما ذكر تفسير (لا إله إلا الله)، فهذا من الأبواب التي تفسر (لا إله إلا الله)، وأن من معنى (لا إله إلا الله): أَنْ لَا يُنْذَرُ إِلَّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن نذر لغير الله فقد أثبت ما نفته لا إله إلا الله. وكثيرٌ من الناس لا يفقهون معنى (لا إله إلا الله)، فيظنون أن كلمة التوحيد مجرد قول يُقال باللسان، ولا يفقهون ما تدل عليه وما تطلبه، فلذلك يشركون ويعبدون غير الله، ويذبحون للقبور والأضرحة والأصنام، وهم يقولون: لا إله إلا الله. لأنهم لم يفهموا (لا إله إلا الله).

❦ قال: (فكل شرك وقع أو قد يقع فهو ينافي كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد) فليس ذلك خاص بالذبح لغير الله، بل كل شرك فإنه ينافي معنى (لا إله إلا الله)؛ لأنها أثبتت التوحيد ونفت الشرك بجميع أنواعه؛ أثبتت جميع العبادات لله، ونفت جميع أنواع الشرك عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي كلمة عظيمة، ولذلك تُسمى: (كلمة الإخلاص)، وتُسمى: (العروة الوثقى)، وتُسمى: (كلمة التوحيد)، وتُسمى: (كلمة التقوى)، قال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّفْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وهي: (لا إله إلا الله)، وقال عَزَّجَلَّ لِنَبِيِّهِ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فدل أن هذه الكلمة تحتاج إلى علم ومعرفة وفقه بمدلولها، وليست مجرد لفظ يُقال باللسان.



قال الأذرعي^(١) في شرح المنهاج^(٢): (وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم مَنْ حَلَّهَا من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك تعظيم البقعة أو المشهد أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد؛ فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يدفع به البلاء، ويُستجلب به النعماء، ويُستشفى بالنذر لهما من الأدواء، حتى إنهم لينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح! وينذرون لبعض القبور الشَّج والشمع والزيت ويقولون: القبر الفلاني - أو المكان الفلاني - يقبل النذر!

يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول؛ من شفاء مريض، أو قدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة.

فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً، ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة

(١) هو أحمد بن حمدان بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد الغني، الإمام العلامة المطلع شهاب الدين أبو العباس الأذرعي الشافعي، مولده سنة ثمان وقيل سنة سبع وسبعمائة بأذرعات، قرأ على الحافظين المزي والذهبي، وأجاز له جمع من دمشق ومصر والإسكندرية، أقبل على الاشتغال والتصنيف والفتوى والتدريس وجمع الكتب حتى اجتمع عنده منها ما لم يحصل لأهل عصره، توفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة بحلب. انظر: الدرر الكامنة (١/ ١٤٥)، وطبقات الشافعية (٣/ ١٤١)، والنجوم الزاهرة (١١/ ٢١٦).

(٢) هو: «قوت المحتاج شرح المنهاج» كتاب في الفقه الشافعي غير مطبوع، وهو مخطوط في مكتبة الأزهر برقم عام (٨٦٩٨)، ورقم خاص (١٠٠٥).

وغيرها لقبر إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء؛ فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركاً وتعظيماً، ظاناً أن ذلك قرينة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به منتفع أم لا). وقال الشيخ قاسم الحنفي^(١) في شرح درر البحار: (النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد؛ كأن يكون لإنسان غائب، أو مريض، أو له حاجة، فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سُتْرَة، ويقول: يا سيدي فلان! إن رد الله غائبي، أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا. فهذا النذر باطل بالإجماع؛ لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك شيئاً.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله عَزَّوَجَلَّ، واعتقاد ذلك كفر.

(١) هو زين الدين قاسم بن قطلوبغا بن عبد الله الجمال المصري، نزيل الأشرفية، الحنفي، ولد سنة اثنتين وثمانمائة تقريباً بالقاهرة، ونشأ بها، وحفظ القرآن العظيم، ثم أخذ في الجد حتى شاع ذكره، وانتشر صيته، وأثنى عليه مشايخه، وصنف التصانيف المفيدة، منها: «شرح درر البحار»، و«تخريج أحاديث الاختيار»، و«رجال شرح معاني الآثار للطحاوي»، وغير ذلك كثير، أخذ عن ابن الهمام وغيره من علماء عصره، وأخذ عنه من لا يُحصى كثرة، توفي سنة تسع وسبعين وثمانمائة. انظر: الضوء اللامع (٦/ ١٨٤)، والبدر الطالع (٢/ ٤٥)، وطبقات المفسرين للدوادبي (ص ٣٤٤)، وشذرات الذهب (٧/ ٣٢٦).

إلى أن قال: إذا علمت هذا، فما يُؤخذ من الدراهم والشمع والزيت، ويُنقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم، فحرام بإجماع المسلمين).

نقله عنه ابن نجيم^(١) في «البحر الرائق»^(٢)، ونقله المرشدي^(٣) في «تذكرته»، وغيرهما عنه، وزاد: (وقد ابتلي الناس بهذا، لاسيما في مولد البدوي).

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي^(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: (فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير

(١) هو زين الدين بن إبراهيم بن محمد الشهير بابن نجيم، فقيه أصولي حنفي، كان عالماً محققاً ومكثرًا من التصنيف، أخذ عن شرف الدين البلقيني، وشهاب الدين الشلبي، وغيرهما، أجاز بالإفتاء والتدريس، له من التصانيف: «البحر الرائق»، و«الفوائد الزينية في فقه الحنفية»، و«الأشباه والنظائر»، و«شرح المنار»، وغير ذلك، توفي سنة سبعين وتسعمائة. انظر: الأعلام (٣/ ١٠٤)، ومعجم المؤلفين (٤/ ١٩٢)، وشذرات الذهب (٨/ ٣٥٨). (٢) انظر: البحر الرائق (٢/ ٣٢٠).

(٣) هو عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد أبو الوجاهة العمري، المعروف بالمرشدي الحنفي، مفتي الحرم المكي، وعالم قطر الحجاز، ولد بمكة سنة خمس وسبعين وتسعمائة، ودرس على: عبد الرحيم بن حسان، وعلي بن جار الله بن ظهيرة، وغيرهما، وسمع الحديث على: الشمس الرملي، وحيد السندي، وأحمد الشربيني، والشمس النحراوي، وولي إمامة المسجد الحرام وخطابته، وفوّض إليه النظر في قضاء مكة وأعماله. له من التصانيف: «الترصيف في فن التصريف»، و«الوافي في شرح الكافي في علم العروض والقوافي»، و«الفتح القدسي في تفسير آية الكرسي»، وغير ذلك، توفي في السجن مخنوقاً سنة سبع وثلاثين وألف. انظر: خلاصة الأثر (٢/ ٣٦٩)، والأعلام (٣/ ٣٢١)، ومعجم المؤلفين (٥/ ١٦٤).

(٤) هو صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي، وقد جاء رده المشار إليه في كتابه: «سيف الله على من كذب على أولياء الله»، طبعته دار الوطن للطباعة والنشر والإعلام سنة ١٤١٩ هـ، بتحقيق علي الرضا، وقد قدم لهذا الكتاب الشارح - حفظه الله - بقوله: «... كتاب مفيد في موضوعه، وهو الرد على المخرفين الذين يعبدون الأولياء من دون الله، =

الله عَزَّجَلَّ فيكون باطلا، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٣-١٦٢]. والنذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره). انتهى.

... — الشَّيْخُ — ...

أراد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ ينقل كلام أهل العلم من المذاهب الأربعة على تحريم النذر لغير الله، فذكر كلام الأذرعي - فيما سبق - وهو من الشافعية، ثم ذكر كلام الشيخ قاسم الحنفي من الحنفية، بأن من نذر للأضرحة فإن نذره حرام؛ لأنه نذر معصية، ولأن النذر عبادة، والعبادة لا تجوز إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن فعل العبادة لغير الله فإنه يكون مشركاً شركاً أكبر، وأيضاً هذا النذر حتى ولو كان لحي فإنه لا يجوز؛ لأنه يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله؛ كشفاء المريض، وإعطاء الولد، فمثل هذا لا يقدر عليه إلا الله، لا يقدر عليه لا الأحياء ولا الأموات، فكيف إذا كان النذر لميت؟! والأموات لا يجوز أن يُطلب منهم شيء؛ لأنهم ليس عندهم قدرة على إجابة من دعاهم،

=أسوة بمن قبلهم من المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فتسلسل هذا في القبوريين الذين ينتسبون إلى الإسلام اليوم، فالعمل هو العمل، والحجة هي الحجة. فقيض الله للحق أنصاراً يردون عنه شبه المشبهين، وانتحال المبطلين، ومن هؤلاء: مؤلف هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وكان مفقوداً لا نعلم عنه شيئاً، إلا ما نجده من النقول عنه في كتب التوحيد، حتى أتاح الله لإخراجه وتحقيقه فضيلة الشيخ: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا...».

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ولأن الميت قد انتقل من هذه الدنيا، وصار من أهل الآخرة، فهو لا يسمع من دعاءه، ولا من طلب منه، ولو سمعه ما قدر أن يجيبه لأنه ميت. فهذا النذر معصية.

أيضاً المال الذي يُؤخذ بموجب هذا النذر حرام، لأنه نذر في معصية فما نتج عنه فإنه حرام، فالنذور التي تُنذر للقبور والأضرحة كلها من هذا الباب.

❁ ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ أَنْ ابن نجيم الحنفي، والمرشدي، ومن جاء بعدهم نقلوا كلام الشيخ قاسم الحنفي، وقال: (وزاد: وقد ابتلي الناس بهذا لاسيما في مولد البدوي)، فما يُفعل عند قبر البدوي في يوم مولده المزعوم قد زاد البلاء فيه وتنوع. فهؤلاء القبوريون يعملون الموالد للأموات، ويفعلون في هذه الموالد المنكرات والشركيات.

وهذه النقول ساقها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ليبين اتفاق علماء المذاهب الأربعة على أن النذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره، فالذي يذبح للقبور ذبيحته ميتة لا يحل أكلها، وفعله شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك النذر، سواء نذر مالا أو غيره، فإن هذا النذر يكون شركاً؛ لأن النذر عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ.



وبهذه الأقوال من الأئمة غير الحنابلة ظهر فساد القول بأن هذه الأقوال في النذر لغير الله من مذهب الحنابلة أو مذهب الوهابية. وهذا من المغالطة؛ لأن الحنابلة لم ينفردوا بهذا القول، بل هو موجود في كتب الحنفية، والشافعية، والمالكية، ومن تتبع كتب المذاهب الأربعة وجد فيها هذه الأقوال، وعلم أن الحنابلة لم ينفردوا بها.



وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»^(١).

قوله: [وَفِي الصَّحِيحِ] أي: صحيح البخاري.

قوله: [عَنْ عَائِشَةَ]: هي أم المؤمنين زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابنة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأعلم النساء بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي بنت سبع، ودخل بها وهي ابنة تسع، وأفضل أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا خديجة ففيها خلاف، بل لا يُقال خديجة أفضل ولا عائشة أفضل.

والتحقيق: أن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة؛ من سبقها إلى الإيمان بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأيده في تلك الحال التي بُدِيَءَ بالوحي فيها؛ كما في صحيح البخاري^(٢) وغيره، ما زالت كذلك حتى توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل الهجرة.

ولعائشة من العلم بالأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة؛ لعلمها بأحوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزول القرآن، وبيان الحلال والحرام، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحديثه. صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عن أصحابه وأزواجه. توفيت سنة سبع وخمسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٥٣، ٣)، ومسلم (١٦٠).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث يدل على أن النذر ينقسم إلى قسمين: نذر طاعة، ونذر معصية، وأن نذر الطاعة يجب الوفاء به، وأن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به. فلو نذر العبد أن يتصدق ويصوم ويحج ويعتمر ويصلي من الليل ويصلي الضحى، يصلي بعد الظهر، ويصلي في غير أوقات النهي، يلزمه ذلك؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ». أما من نذر أن يعصي الله؛ كأن نذر أن يشرب الخمر، أو نذر أن يزني أو يسرق، أو يفعل شيئاً من المعاصي، فإن هذا النذر حرام لا يجوز له الوفاء به.

كما دل هذا الحديث على أن النذر عبادة؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ» فسماه طاعة، وسماه معصية، مما يدل على أن النذر عبادة، وإذا كان عبادة فلا يجوز أن يُنذر لغير الله، كمن ينذر للقبر الفلاني، أو للشجرة الفلانية، وما شابه ذلك، أو ينذر مبلغاً من المال يوضع في صندوق نذور قبر الحسين، أو ينذر أن يذبح عشرة من الإبل عند قبر الحسين، كل هذا نذر معصية وشرك لا يجوز الوفاء به، أو ينذر أن يسرج ضريح فلان، أو يتكفل بتكاليف إضاءة الضريح، هذا أيضاً نذر معصية؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن زوارات القبور والمتخذين عليها مساجد^(١)، وأيضاً لا يجوز إضاءة القبور؛

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي في الكبرى (٦٥٧/١) وفي المجتبى (٩٤/٤)، وأحمد في المسند (٢٢٩/١)، وابن حبان في صحيحه (٤٥٢/٧)، والطبراني في الكبير (١٢٧٢٥)، والحاكم في المستدرک (٥٣٠/١)، والبيهقي في الكبرى (٧٨/٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لأن هذا يبعث على الغلو فيها. وكذلك لو نذر بخورًا للقبر الفلاني، هذا حرام لا يجوز، وما أكثر من يندرون هذه النذور الشيطانية الباطلة! لكن لو نذر البخور للمسجد، فهذا طيب، ويجب الوفاء به لأنه طاعة.

❁ قوله: (تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي بنت سبع، ودخل بها وهي ابنة تسع) هذا فيه دليل على جواز تزويج الصغيرة وإن لم يكن لها إذن؛ لأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت في سن السابعة ليسن لها إذن، ولكن وليّها يقوم مقامها إذا رأى المصلحة أن يزوّجها وهي صغيرة؛ كأن يزوجه من رجل صالح، أو من عالم تقي، لأن لها مصلحة في ذلك، كما زوج الصديق رسول الله عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي في سن السابعة.

كما أن فيه دليلاً على تزوج الكبير بالشابة، والآن ينادون ويحذرون منه، ويشنعون على تزويج الكبير، ويعتبرونه جريمة، ووحشية، وينددون بمن فعله في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام، بل ربما في الخطب والمحاضرات، وهذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيّد الخلق تزوّج عائشة وهو في سن الخمسين تقريباً، وهي في سن السابعة، فدلّ على أنه لا بأس به، بل يُرغَّب في تزويج الكبير من الشابة إذا كانت المصلحة في ذلك، وأن هذه سنة نبوية، فمن أنكر تزويج الكبير من الشابة فإنه يُنكر سنة نبوية، هذا إذا كانت المصلحة في ذلك.

أما إذا لم يكن هناك مصلحة، وإنما هو استغلال من وليّ هذه الطفلة من أجل أن يأكل مهرها، ومن أجل أن يستغل تزويجها، وهي ليس لها مصلحة؛

فهذا لا يجوز. إنما نقول: إذا كانت المصلحة في ذلك فلا حرج في تزويج الكبير من الشابة، إذا كان في ذلك مصلحة وخير، وأن هذا من سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❦ قوله: (وأفضل أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا خديجة ففيها خلاف) فعائشة لها خصائص من بين أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منها: أنه لم يتزوج بكراً غيرها، وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحبها ويحب أباهها زيادة محبة على غيرها، ومنها: أنها اختصت برواية الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين النساء، وكان الصحابة يرجعون إليها في الأحاديث، ومنها: أنها كانت مفتية، فهي من جملة المفتين من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مَرَضَ مَرَضَ الموت استأذن نساءه أن يمرض في بيتها، فأذن له، فمرض في بيتها، ومات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرتها ورأسه في حجرها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومنها: أنه دُفِنَ في حجرتها، فلها فضائل كثيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لكن اختلف العلماء: هل هي أفضل من خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم خديجة أفضل منها؟

والصواب: أن لكل من خديجة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فضائل لا تشاركها فيها الأخرى، فلا شك أن خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لها فضائل مناصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول البعثة، ومواقفها مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشهورة، وأن أولاده كلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، ومنها: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان يحبها حباً شديداً، وكان بعد وفاتها يُكرم صديقاتها، وكان يذبح الذبيحة
فيتصدق عنها من لحمها بعد وفاتها؛ وفاء لحقها ومكانتها.

فالصحيح: أنه لا تفاضل بين عائشة وخديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، كل منهما لها
فضائل لا تشاركها فيها الأخرى.



قوله: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ»؛ لأنه نذره لله خالصاً، فوجب عليه الوفاء به، فصار عبادة.

وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه؛ كإن شفى الله مريضاً فعلي أن أتصدق بكذا، ونحو ذلك، وجب عليه إن حصل له ما علّق نذره على حصوله. إلا أن أبا حنيفة قال: لا يلزمه الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع؛ كالصوم ونحوه، وأما ما ليس كذلك فلا يُوجِبُ عليه الوفاء به. قوله: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»: زاد الطحاوي^(١): «وَلْيَكْضُرْ عَنْ يَمِينِهِ»^(٢).

وقد أجمع العلماء أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية، واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد: إحداهما: تجب، وهو المذهب، وروي عن ابن مسعود، وابن عباس. وبه قال أبو حنيفة وأصحابه.

(١) هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك أبو جعفر الطحاوي، نسبة إلى طحا قرية بصعيد مصر، الفقيه الحنفي صاحب المصنفات المفيدة والفوائد الغزيرة، ولد سنة تسع وعشرين ومائتين، كان شافعياً تفقه على المزني رحمه الله تلميذ الشافعي، ثم انتقل في الفروع من مذهب الشافعية إلى مذهب الحنفية، إلا أنه لا يتعصب لقول أبي حنيفة، ولا يقلده؛ كما هو صنيع العلماء المحققين، فكان يتابعه فيما ظهر فيه الدليل، ويأخذ بالدليل إذا خالف قول الإمام، توفي سنة إحدى وخمسين ومائتين، قال عنه ابن كثير: «هو أحد الثقات الأثبات والحفاظ الجهابذة» اهـ. انظر: تاريخ دمشق (٥/ ٣٦٧)، ووفيات الأعيان (١/ ٧١)، ولسان الميزان (١/ ٢٧٤ - ٢٨٢)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧)، والبداية والنهاية (١١/ ١٧٤).

(٢) أخرجه الطحاوي في بيان مشكل الآثار (٥/ ١٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

❦ الشَّيْخ ❦

نذر الطاعة على قسمين:

الأول: نذر منجز، يعني: غير مُعلّق بشرط؛ كأن يقول: لله عليّ أن أتصدق أو أن أصوم أو أن أصلي. فهذا يجب عليه المبادرة بالوفاء به.

الثاني: نوع مُعلّق على شرط، فهذا لا يلزم الوفاء به إلا إذا حصل الشرط؛ كأن يقول: لله عليّ إن شفى مريضى أن أتصدق بكذا وكذا، أو إن نجحت في الاختبارات لأصومن عشرة أيام، أو ما أشبه ذلك، فهذا إذا حصل الشرط الذي علّق عليه النذر، فإنه يجب على الناذر الوفاء بنذره، لأنه نذر طاعة وقد حصل الشرط الذي علّقه عليه.

وقد ذم الله المنافقين؛ لأنهم لا يوفون بالعهد الذي عاهدوا الله عَزَّجَلَّ عليه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥-٧٧]﴾، أما إذا لم يحصل الشرط فإن النذر لا يجب.

❦ قوله: (إلا أن أبا حنيفة قال: لا يلزمه الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع؛ كالصوم ونحوه) أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ يُفَرِّقُ بين النذر الذي جنسه واجب بالشرع - كالصلاة والصيام والحج والعمرة - فيقول: هذا يلزم الوفاء

به، أما ما كان جنسه مستحباً، فإنه لا يلزم بالنذر وإنما يبقى مستحباً. لكن الجمهور على خلاف هذا؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ»، وهذا شامل لما كان واجباً بأصل الشرع، ولما كان مستحباً بأصل الشرع.

❦ قال: (وأما ما ليس كذلك فلا يوجب عليه الوفاء به)، هذا بالإجماع أنه يحرم الوفاء بنذر المعصية، لكن هل يكون عليه كفارة يمين؟ على قولين: الأول: من العلماء من يرى أن عليه كفارة يمين؛ لأنه جاء في بعض الروايات: «وليكفر عن يمينه» كما في رواية الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ. الثاني: ومن العلماء من يرى أنه ليس عليه كفارة؛ لأنه في هذا الحديث الصحيح قال: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»، ولم يذكر الكفارة.

وعلى كل حال تبين لنا من خلال هذه الآيات الكريمة وهذا الحديث أن النذر عبادة، وإذا كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

فما يفعله عبَاد القبور، والمتصوِّفة، والمخرِّفون، من هذه النذور التي تُقدَّم للقبور، أو تقدَّم للجن والشياطين، أو حتى للأولياء والصالحين، كلها عبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجوز عملها، ويجب منعها، والتحذير منها؛ لأنها نذور باطلة لا يجوز له الوفاء بها، فإن وَفَّى بها ونفَّذها صار مشركاً بالله الشرك الأكبر، فيجب عليه أن يتوب من الشرك ويدخل في الإسلام من جديد. وهذا في النذر الواحد، فكيف بالذي أفنى عمره بالنذور، وضع ماله بالنذور، كلما أحسَّ بشيء، أو خاف من شيء صار يَنْذُرُ للأولياء والصالحين؟!.

فالمسألة خطيرة جدًّا، ولكن مهما عمل الإنسان من الشرك والكفر ثم تاب توبة صحيحة تاب الله عليه، قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فلو أن هؤلاء القبوريين تابوا إلى الله لتاب الله عليهم.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ.

الثانية: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً لِلَّهِ فَصَرَفُهُ إِلَى غَيْرِهِ شَرْكَ.

الثالثة: أَنَّ نَذَرَ الْمُعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ.

... — الشَّبَحُ — ...

❦ قوله: (فِيهِ مَسَائِلُ: الأولى: وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ)؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ» هذا أمرٌ يفيد الوجوب.

❦ (الثانية: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً لِلَّهِ فَصَرَفُهُ إِلَى غَيْرِهِ شَرْكَ)، وهذه الفائدة هي التي ساق المؤلف الحديث من أجلها: أن النذر عبادة، بدليل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سباه طاعة، قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ» والطاعة عبادة، وأيضاً في وصف الله عَزَّجَلَّ الأبرار بأنهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] فدل على أنه من أفضل العبادات، وقرنه بالصدقة في قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٧٠] والصدقة عبادة فكذلك النذر.

❦ (الثالثة: أَنَّ نَذَرَ الْمُعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ)؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»؛ لأن معصية الله لا تجوز ابتداءً، ولا إذا نذرهما، ولا يلزم النذر في هذا.



١٢- بَابُ

مِنَ الشَّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَأَوَدُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قوله: [بَابُ مِنَ الشَّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ]، الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام، فalcائد قد هرب إلى ربه، والتجأ إليه مما يخافه عموماً وخصوصاً.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (وما يقوم بالقلب من الالتجاء والاعتصام به، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل له: أمر لا تحيط به العبارة)^(١) انتهى.

وقد أمر الله عباده في كتابه بالاستعاذة به في مواضع؛ كقوله: ﴿وَإِذَا يَزْغَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَالْخَيْلِ وَالْإِبَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا زِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، وفي المعوذتين وغير ذلك، فهو عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله؛ كغيرها من أنواع العبادة.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا كالأبواب التي قبله فيه بيان أنواع الشرك التي يارسها بعض الناس في مختلف الأزمان، ولا تزال تُمارس عند كثير من الناس.

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٤٢٧).

والاستعاذة معناها: الاعتصام والالتجاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي دَفْعِ
المكروه والشرور.

وهو نوع من أنواع العبادة؛ لأن دفع الضرر، ودفع الشرور لا يقدر عليه
إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكل ما لا يقدر عليه إلا الله فإنه لا يطلب إلا من الله، فإن
طُلب من غيره كان ذلك شركاً، هذا وجه كون الاستعاذة بغير الله من الشرك؛
لأن الاستعاذة عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. لماذا كانت عبادة؟

الجواب: لأن فيها طلب دفع الضرر الذي لا يقدر على دفعه إلا الله،
وطلب ما لا يقدر عليه إلا الله من غير الله شرك، ولأن الله عَزَّجَلَّ أمر بالاستعاذة
به دون غيره؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال عَزَّجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ
أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾
[الناس: ١]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾
[النحل: ٩٨].

كما أنه سبحانه يبين أن الاستعاذة بغيره من الشرك وذلك في سورة الجن:
﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وفي سورة
الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعُشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ
أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجَاءَ الَّذِي أَجَلَّتْ لَنَا قَالِ

النَّارُ مَثَوْنُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨]،
 ففي هذه الآيات وأمثالها ما يبين أن الله أمر بالاستعاذة به وحده، ومنع من
 الاستعاذة بغيره، فدلّ على أن الاستعاذة عبادة، لا يجوز أن تُصرف لغير الله
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾]: قال أبو جعفر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في تفسيره هذه الآية: (عن ابن عباس رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِمَا قَالَ: كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ بِالْوَادِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِعَزِيزِ هَذَا الْوَادِي، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ إِثْمًا)^(١).

وقال بعضهم: فزاد الإنس الجن - باستعاذتهم بالجن، باستعاذتهم بعزیزهم - جرأة عليهم، وازدادوا هم بذلك إثمًا^(٢). وقال مجاهد: فازداد الكفار طغيانًا^(٣). وقال ابن زيد: وزادهم الجن خوفًا^(٤). وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال ملا علي قاري الحنفي^(٥) رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك - وذكر الآية - وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٢٨]. فاستمتع الإنسي

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٨/٢٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٩/٢٩).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٩/٢٩).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٩/٢٩).

(٥) هو نور الدين علي بن سلطان محمد القاري الهروي الحنفي، نزيل مكة، وأحد صدور العلم، اشتهر ذكره، وطار صيته، وألف التأليف الكثيرة اللطيفة، منها: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح»، و«شرح كتاب الفقه الأكبر»، و«شرح مسند أبي حنيفة»، و«مصطلحات أهل الأثر على شرح نخبة الفكر»، وغير ذلك، توفي سنة أربع عشرة وألف. انظر: خلاصة الأثر (٣/١٨٥)، والبدر الطالع (١/٣٥٥ - ٤٤٦)، وكشف الظنون (١/٤٥٤، ٦٧١)، (١٩٣٦، ١٨٣١/٢).

بالجني: في قضاء حوائجه، وامثال أوامره، وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجنى بالإنسي: تعظيمه إياه، واستعاذته به، وخضوعه له). انتهى ملخصاً.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا دليل على أن الاستعاذة لا تجوز بغير الله؛ لأن الجن لما أسلموا أنكروا ما كان يفعله قومهم في الجاهلية، وما كان يفعله الإنس معهم، كما في سورة الجن لما ذكر الله عَزَّجَلَّ أن الجن استمعوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ القرآن، فأعجبهم هذا القرآن، وعلموا أنه من عند الله، فأسلموا وذهبوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك ودعوهم إلى الله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ﴾ (٣٠) يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِر لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿ [الأحقاف: ٢٩، ٣٠]، وهذا في مرجعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الطائف لما ذهب إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله، فردوا عليه ردًّا قبيحًا، وأغروا عبيدهم وسفهاءهم ليرجموه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحجارة، وكان قد خرج من مكة على حالة شديدة، حيث مات عمه الذي كان يدافع عنه، وماتت زوجته خديجة التي كانت تُؤنسُه، وكانت له نِعَمُ المعين على دعوته، ثم لما خرج إلى الطائف أُصيب بهذا الرد القبيح، واشتدت به الحال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدًّا، فرجع إلى مكة. وفي طريقه إلى مكة قام

يصلي الفجر في مكان يقال له: وادي نخلة، يُسمى الآن بنخلة اليمانية على جانب الطريق، يسر الله له من الجن من استمع القرآن، فلما سمعوه أعجبهم وقالوا هذه المقالة؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ١-٦].

وهذا من باب الاستنكار على هؤلاء الإنس الذي يستعيذون بالجن، أنكروا عليهم هذا، وأنكروا على الجن أنهم يرضون بهذه الاستعاذة، فدل على أن الاستعاذة لا تجوز إلا لله عَزَّجَلَّ، وأنها عبادة لله عَزَّجَلَّ.

وفي هذه الآية فرج وتسلية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ، وأن الله يقيض له من يتبعه ويؤمن به، لأنه مبعوث إلى الإنس والجن.

❁ قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ﴾ أي: من بني آدم.

❁ قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ الجن: عالم من عالم الغيب، يعيشون معنا في هذه الأرض، وهم مكلفون، مأمورون بطاعة الله، ومنهين عن معصية الله، مثل الإنس، لكننا لا نراهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ﴾ يعني: إبليس ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ يعني: جماعته من الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهم يروننا ونحن لا نراهم، وقد يتصوِّرون بصور متشكِّلة، فيتصوِّرون بصور حيَّات، أو بصور حيوانات، أو بصور آدميين؛ لأن الله عَزَّجَلَّ أعطاهم

الْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ. وَهُمْ عَالَمٌ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وَالْإِنْسُ خُلِقُوا مِنَ الطِّينِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ﴾ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿[الرحن: ١٤-١٥]، يَعْنِي: مِنَ الطِّينِ، وَالْجَانُّ: جَمْعُ جَنِّيٍّ، سُمُّوا بِالْجِنِّ لِاجْتِنَانِهِمْ، أَيُّ: اسْتَارَهُمْ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْجَنُّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ لِأَنَّهُ لَا يُرَى، فَهُوَ مُجْتَنٍّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَمِنْهُ الْمَجْنُ الَّذِي يَتَّخِذُ فِي الْحَرْبِ يَتَوَقَّى بِهِ الْمُقَاتِلُ سَهَامَ الْعَدُوِّ، سُمِّيَ مَجْنًّا لِأَنَّهُ يُجْنَى مِنْ السَّهَامِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَصُومُ جُنَّةٌ» (١)، بِمَعْنَى: أَنَّهُ سَاتِرٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْمَعَاصِي، يَسْتَرُ بِهِ مِنَ الْمَعَاصِي، وَمِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَلِيلٌ رَأَى الْكُوكِبَا﴾ [الأنعام: ٧٦]، ﴿جَنَّ عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي: غَطَّاهُ ظِلَامُ اللَّيْلِ.

فَالْحَاصِلُ؛ أَنَّ الْجِنَّ عَالَمٌ خَفِيٍّ، لَا نَرَاهُمْ، وَهُمْ يَعِيشُونَ مَعَنَا، وَهُمْ مَكْلُفُونَ كَمَا كُلفْنَا بِالْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي. وَالْإِيمَانُ بِوُجُودِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَلْبِ، تَصَدِيقًا لِّخَبَرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَخَبَرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوُجُودُ الْجِنِّ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، وَمِنْ جَحْدِ وَجُودِ الْجِنِّ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مَكْذُوبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَلْ كُلُّ مَا لَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ يُنْكَرُ؟!!

وَقَدْ ظَهَرَتْ طَائِفَةٌ مِنْ جَهْلَةِ الْأَطْبَاءِ -كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ (٢)-

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦١٦)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكَبَرِيِّ (٤٢٨/٦)، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٩٧٣)، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٢٣١/٥)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ فِي مُصَنَّفِهِ (١٩٤/١١)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ (٣٢٠/٥)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١١٦)، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤٤٧/٢)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (٣٩/٣) مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ (٤٧١/٢): «-وهذه الفرقة- أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى =

وكذلك من بعض المفكرين والكتّاب المنتسبين للإسلام، ينكرون وجود الجن؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بما تقرّه عقولهم، وعقولهم لا تتسع للتصديق بهذه المغيّبات.

وكذلك الجن يمسّون الإنس ويخالطونهم ويصرعونهم، وهذا شيء ثابت، لكن من جهالة الناس من يُنكر صرْع الجن للإنس، وهذا لا يُكفر؛ لأن هذه مسألة خفيّة، ولكنه يُخطأ، فالذي يُنكر مسّ الجن للإنس لا يُكفر، ولكن يضلّ، لأنه يُكذّب بشيء ثابت، أما الذي يُنكر وجودهم أصلاً فهذا كافر.

فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: يلتجئون إليهم ليدفعوا عنهم الشرور ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ زاد الجن الإنس ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفاً، فالجن تسلّطوا على الإنس لما رأوهم يعوذون بهم، وزادوهم خوفاً وقلقا، وأعجبوا بأنفسهم.

وسبب نزول هذه الآية: أن العرب كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قال أحدهم: أعوذ ببيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان

=النفس وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم. وهؤلاء يقولون: إن ما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهي من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها، بغير واسطة شيطان منفصل. وابن سينا وأتباعه على هذا القول، حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب، ويقولون: إنها هي من تأثيرات النفس في هيولى العالم، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل، وليسوا من أتباع الرسل جملة».

رجالٌ من الإنس يبيت أحدهم في الوادي في الجاهلية، فيقول: أعوذ بعزير هذا الوادي. فزادهم ذلك إثمًا»، وقال غيره: «فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بعزيرهم جراءة عليهم، وازدادوا هم بذلك إثمًا»، وقال مجاهد: «فازداد الكفار طغيانًا»، وقال ابن زيد: «وزادهم الجن خوفًا».

وهذه الأقوال لا تناقض بينها، فكلها تشملها الآية الكريمة، والمفسرون حينما يختلفون فإن كل واحد منهم يأخذ بمعنى مما تحتمله الآية، والآية تشمل الجميع، ولذلك فإن اختلافهم هذا يُسمى: اختلاف تنوع، وليس هو اختلاف تضاد.

❁ قال رَحِمَهُ اللهُ: (وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله) بعد أن ساق المصنف رَحِمَهُ اللهُ الأدلة من الكتاب والسنة، أراد أن يأتي بالأدلة من الإجماع على عدم جواز الاستعاذة بغير الله، وهو رَحِمَهُ اللهُ حينما يأتي بأقوال أهل العلم لا يقتصر على أقوال الحنابلة؛ ليرد بذلك على من ادعى أن هذا مما انفرد به الحنابلة، أو مما يقول به الوهابية دون غيرهم، كما يزعم بعضهم .



قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: [وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك].

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

بعض الناس يقول: فلان من الناس استعان بالجن وحصلت له فائدة، أو فلان دعا عند القبر الفلاني وحصلت له فائدة، أو شُفي من المرض، أو جاءه ولد. فيتخذون هذا دليلاً على جواز فعله، وهذا غرور والعياذ بالله؛ لأن حصول المطلوب لا يدل على جواز الشيء، والحلال والحرام إنما يستدل عليهما بالكتاب والسنة، أما حصول المطلوب فهو يحتمل أحد أمرين:

* إما أن يكون ذلك استدراجاً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

* أو يكون قد صادف قضاء الله وقدره؛ كأن يقدر الله عَزَّجَلَّ أن يحصل له مقصوده في هذه اللحظة، أو في هذه الحالة، فيظن - الجاهل - أن حصول المقصود كان بسبب استعاذته بالجن، أو بسبب دعائه عند القبر، أو بسبب نذره للमित، وهو ليس كذلك، بل هو بقضاء الله وقدره.

فالحاصل: أن حصول الحاجة لا يدل على الجواز.



وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

[خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ]: ابن أمية السُّلَمِيَّةُ، يُقال لها: أم شريك، ويُقال: إنها هي الواهبة، وكانت قبلُ تحت عثمان بن مظعون. قال ابن عبد البر: (وكانت صالحة فاضلة)^(٢).

قوله: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ»: شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به، لا كما يفعل أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله عَزَّجَلَّ للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته.

قال القرطبي^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (قيل: معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر، وقيل: معناه الكافية الشافية، وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فإن الله أخبر عنه أنه هدى وشفاء، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يُدفع به الأذى، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله عَزَّجَلَّ وبأسمائه

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) انظر: الاستيعاب (٤/١٨٣٢). وانظر أيضًا: تهذيب الكمال (٣٥/١٦٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٧/٦٢١).

(٣) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه المحدث المدرس بالإسكندرية، كان يُعرف في بلاده بابن المزين، ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع الكثير هناك، واختصر الصحيحين، وشرح صحيح مسلم المسمى بالمفهم، توفي سنة ست وخمسين وستمائة. انظر: البداية والنهاية (١٣/٢١٣)، والوافي بالوفيات (٧/١٧٣)، ونفع الطيب (٢/٦١٥)، وشذرات الذهب (٥/٢٧٣).

وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمن فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه^(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وقد نص الأئمة - كأحمد وغيره - على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله ليس بمخلوق، قالوا: لأنه ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويز التي لا يُعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك)^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ومن ذبح للشيطان، ودعاه، واستعاذ به، وتقرّب إليه بما يُحب، فقد عبده، وإن لم يُسم ذلك عبادة، بل يسميه استخدامًا ما، وصدق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، ولذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به)^(٣).

قوله: «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»: قال ابن القيم: (من شر كل ذي شر، في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسيًّا أو جنّيًّا أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة، أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة)^(٤).

(١) انظر: المفهم لما أشكل على صحيح مسلم (٣٦/٧).

(٢) انظر: الرد على البكري (٥٤٤/٢).

(٣) انظر: بدائع الفوائد (٤٦١/٢).

(٤) انظر: بدائع الفوائد (٤٤١/٢).

و(ما) هاهنا موصولة ليس إلا، وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييدي الوصفي، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر لا من شر كل ما خلقه الله، فإن الجنة والأنبياء والملائكة ليس فيهم شر، والشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث خولة بنت حكيم» وهي زوج عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من سادات المهاجرين، توفي في أول الهجرة، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبه حبًّا شديدًا، فحين تُوفي قبله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبكى ووضع على قبره حجرًا ليعرفه إذا أراد أن يزوره ويسلم عليه ويدعو له.

قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا»، يعني: سواء أكان هذا المنزل في البلد، أم كان في البر، وسواء أكان هذا المنزل مؤقتًا، أم كان غير مؤقت. «ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَامَاتِ» أي: ألتجئ إلى الله بكلماته التي هي صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيث يجوز الاستعاذة بالله عَزَّجَلَّ أو بصفة من صفاته، و«كَلِمَاتِ اللَّهِ» تشمل: كلمات الوحي، ومنها: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وتشمل: الكلمات الكونية التي يأمر بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وينهى بها، ويدبر بها الكون.

❁ قال: «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ» إذا قال العبد هذه الكلمة لم يضره شيء، لا من الجن، ولا من الإنس «حَتَّى يَزْتَحِلَّ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»، فهذا فيه أمان لبني آدم إذا نزلوا منزلًا أن يبادروا بقول هذه الكلمة.

❁ وقوله: «الْتِمَامَاتِ» أي: الكاملات الوافيات التي لا يتطرق إليها نقص؛ لأن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَامِلٌ، لأن الله عَزَّوَجَلَّ كامل وصفاته كاملة، وكلامه كامل لا يتطرق إليه النقص، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فكلمات الله تامة، لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولذلك كان القرآن الكريم كاملاً، لا يتطرق إليه نقص، وافيًا بحوائج الناس، والحكم فيما بينهم، وإزالة الشكوك والشرك والكفر والإلحاد، وبيان الأحكام والعدل بين الناس، كل هذا في القرآن؛ لأنه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَفَضَّلَ كلام الله على كلام غيره كفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على خلقه.

❁ قوله: «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»: (ما) هنا موصولة، أي: من شر الذي خلق؛ لأن الخلق على قسمين:

* خلق فيهم خير.

* وخلق فيهم شر.

فالملائكة والأنبياء والمؤمنون فيهم خير، وأما الجن والشياطين والكفرة والفسقة والمنافقين هم خلق فيهم شر، فأنت تستعيز بالله من شرهم سواء أكانوا من الجن أم من الإنس أو الدواب أو الحشرات، أو الحيات والعقارب والسباع والكلاب، فتستعيز بالله من شر الشياطين، ومن شر الجن، ومن شر

الإنس؛ لأن هذه كلمة عامة «من شر ما خلق» لأن (ما) اسم موصول، وهي من صيغ العموم عند الأصوليين، فأنت تستعيز بالله من شر كل ذي شر. وفي القرآن الكريم قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿[الفلق: ١-٢]﴾، يعني: أعوذ بالذي خلق المخلوقات من كل مخلوق فيه شر، ولا يدفع هذا الشر إلا الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو سلطه على العبد ما استطاع أحد أن ينفعه، فمن استعاذ بكلمات الله التامات عند نزوله المنزل حصل له الأمان، فلا يضره شيء حتى يرحل من منزله.

فإذا أردت التأمين -كما يقولون- على سيارتك أو على مالك أو على نفسك، فلا تذهب إلى شركات التأمين وتدفع لهم المال بالباطل، بل التأمين الصحيح: أن تستعين بالله عَزَّجَلَّ وتوكل عليه، وتدعو الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا هو التأمين الصحيح الذي يحفظ نفسك، ويحفظ مالك، ويحفظ أولادك ودينك وعقيدتك.

أما الذي يذهب إلى شركات الميسر والربا والباطل، طالباً بذلك التأمين على حياته، أو على أولاده، أو على سيارته، وما شابه ذلك، فهذا من الاستعانة بالحرام، وهو معصية لله عَزَّجَلَّ، وقد بين لنا الله عَزَّجَلَّ الطريق الصحيح الذي نأمن فيه على أنفسنا وأموالنا وأولادنا، ذلك بأن نتوكل عليه، وأن ندعوه وحده، وأن نلج عليه في الدعاء، وأن نستعيز به من شر كل ذي شر من الإنس والجن والمخلوقات.

وقد شرع لنا الله عَزَّجَلَّ أَنْ نستعيد بكلماته، لا أَنْ نكتبها في تمائم وتعويدات ونعلقها على الصبيان والمنازل والدواب والسيارات، وما شابه ذلك، وقد نهى العلماء عن الحروز والعزائم التي تكتب في الأوراق وتعلق على الأولاد أو على المرضى خشية أَنْ يدخلها شيء من الاستعاذة بغير الله، لاسيما وأن الذين يكتبونها إما أَنْ يكونوا جهالاً، لا يعرفون الجائز من غيره، وإما أَنْ يكونوا كفرة وزنادقة يريدون إضلال الناس وترويج الشرك بينهم، وإما أَنْ يكونوا طامعين في المال ولا تهمهم العقيدة، وهذا هو الغالب على هؤلاء الذين يتعاطون الرقية أنهم يطمعون بالأموال، ولذلك يأتون بأمور عجائب في رقيتهم، ويستعينون بالجن ويقولون: هؤلاء إخواننا!! وقد يقرأ الواحد منهم على خزان ماء كبير جداً، أو يقرأ في التليفون على المصاب من مسافة أشهر، أو يجمع الناس في صالة وينفخ عليهم جميعاً، أو يقرأ عليهم بالميكروفون، وهذه أعاجيب!

والذي يحملهم على ذلك: الطمع بالمال.

وهذا الحديث فيه دليل على مسائل:

المسألة الأولى: مشروعية الاستعاذة بالله عَزَّجَلَّ عند نزول المنزل، سواء أكان في السفر أم في الحضر، وأن يبادر الإنسان بالاستعاذة بالله أول ما ينزل. بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية، حيث كانوا إذا نزلوا منزلاً يقولون: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه. فهؤلاء يستعيذون بالجن والشياطين، والمؤمن لا يستعيذ بقبر ولا بجني ولا بإنسي، إنما يستعيذ بالله عَزَّجَلَّ.

المسألة الثانية: عدم مشروعية ما يفعله كثير من الجاهل ويقلدهم والمشركون وبعض الجهلة، من أنهم إذا نزلوا منزلاً، أو افتتحوا مصنعاً من المصانع، يذبحون ذبيحة يتقون بها شر الجن، ويتقون بها شر العين بزعمهم، فيذبحون الذبيحة عند نزول المنزل، ويلطخون الجدران أو العتبة بدم الذبيحة، أو يلطخون الماكينة عندما تدور وتتحرك في المصنع بدم الذبيحة، ويزعمون أن هذا يكفيهم شر العين، ويكفيهم شر الشياطين والجن، وما هذا إلا شرك بالله عَزَّجَلَّ؛ لأنه ذبح لغير الله، واستعاذة بغير الله عَزَّجَلَّ.

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على أن القرآن كلام الله؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرع الاستعاذة به، والاستعاذة لا تجوز بالمخلوق، فلو كان القرآن مخلوقاً - كما تقوله الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم - ما جازت الاستعاذة به، فدل على أن القرآن صفة من صفات الله عَزَّجَلَّ، وكلام الله عموماً صفة من صفاته.

ويلحق بهذا مسألة كثر السؤال عنها الآن، وهي: أن الذين يقرءون على المرضى ويسمونهم أهل الرقية، يقولون: نحن نستعين بمسلمي الجن في كشف المرض، أو بالإخبار عن العاين الذي أصاب هذا الشخص، ولا نستعين بالكفار من الجن!

هذه المقالة فشت الآن، وهي مقالة باطلة، فلا يجوز الاستعانة بالجن مطلقاً؛ لقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] هذا من الاستعاذة بالجن، ولم يفصل بين مسلمهم وكافرهم، وفي قوله عَزَّجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ أَسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، فالله عَزَّوَجَلَّ أنكر على الجن والإنس ما يحصل بينهم من الاستعانة والاستعاذة، ولم يفصل بين مؤمنهم وكافرهم، بل توعدهم بالنار ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

واستمتاع الجن بالإنس: أن الإنس يتقربون إليهم ويعظمونهم، واستمتاع الإنس بالجن: أن الجن يحققون لهم أغراضهم التي يطلبونها منهم؛ لأن الجن عندهم مقدرة ليست عند الإنس، فإذا استعانوا بهم خدموهم في تحقيق مطالبهم، لكن ذلك في مقابل الشرك والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فالجني لا يخدم الإنسي إلا بمقابل. فهذا باب لا يجوز فتحه، ومن يدرينا أنهم مسلمون كما يدعي هؤلاء؟ فقد يكذب الجني ويقول: أنا من المسلمين. لأجل أن يخدع هذا المسكين.

والحاصل: أن هذا يفعله هؤلاء الذين يدعون الرقية من باب الاستغلال واستنزاف أموال الناس، فلا يجوز أن يُفتى بالجواز في هذه المسألة؛ لأن هذا يفتح الباب للشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. ومن الذي يضبطه، ومن الذي يعلم أن هؤلاء مسلمون كما يُقال؟! وحتى لو ثبت أنهم مسلمون فالله لم يشرع لنا الاستعانة بالجن ولو كانوا مسلمين؛ لعدم وجود الدليل على الاستعانة بالجن في الكتاب والسنة، وإنما الأدلة متوافرة على عدم جواز الاستعانة بغير الله،

ومنهم الأموات والغائبين، والجن من عالم الغيب الذي لا نراه، فلا يجوز أن نستعين بهم.

وأيضًا هم لا يُؤْمَنُونَ على تضليل بني آدم وإغوائهم؛ لأن أباهم الشيطان الأكبر تعهد أن يُضل بني آدم، وأن يتسبب في إدخالهم معه في النار إذا أجابوه؛ كما في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال عَزَّجَلَّ حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، فمن الذي يُؤْمِنُ المسلمين من بني آدم من شر الجن والشياطين، حتى يقولوا: هذا مسلم وهذا كافر، ويستعينون به؟! والمشكل أن بعض الناس يصدقونهم في هذا، وبعضهم أفتى بالجواز، وهذا غلط وخلل في العقيدة يجب التنبه له.

فالواجب على الإنس: أن يتوبوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ مِمَارَسَةِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ مع الجن.

والواجب على الجن: أن يتوبوا إلى الله من إضلال الإنس وإغوائهم؛ لأن الكل عباد من عباد الله، يجب عليهم مخافة الله، وخشيته، والرغبة إليه، وطاعته، وطاعة رسله، وترك ما حرّم الله.

وقد تلاعب بعض الأشرار من الإنس بعقائد الناس، بشعوذته عليهم، وأكله لأموالهم، ولاسيما عند البوادي والقرى البعيدة عن حضور مجالس الذكر، فإن هذا يكثر كلما كثر الجهل، وحقيقة هذا أنه عَمِيلٌ للجن، وأنه مشرك

بالله عَزَّجَلَّ، ولا يقتصر شره على نفسه، بل يضلُّ الناس، ويُفسد عقائدهم، حيث يأتي إليه الناس ويسألونه، ويُخبرهم ببعض المغيِّبات مما أطلعه عليه الجن، أو يأمرهم بالذبح لغير الله، أو غير ذلك من أنواع الشرك.

فهذه مسألة خطيرة، يجب على أهل العلم وعلى الدعاة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَبَيِّنُوا للناس، وأن يتجولوا في القرى والبوادي، ويوضِّحوا هذا الأمر للناس، ويؤدوا الأمانة التي في أعناقهم، هذا هو المطلوب.

أما أن يأتي الداعية ويترك الناس على شركهم، ثم يتكلَّم عن قضايا السياسة ونحوها، فهذه أمور لا فائدة من ورائها للبدو في الصحراء، أو الناس في القرية؟ خاصة وهم واقعون في الشرك، أو يجهلون قراءة الفاتحة التي هي ركن من أركان الصلاة.

فيجب علينا أن نتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن نعلم أن منهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعوة، وتعليم، وإرشاد، وتوجيه فيما ينفع الناس، وأيضًا معالجة ما وقع فيه الناس في بلدهم وفي أنفسهم، أما أن نجلب لهم مشاكل من بعيد، ونريد منهم أن يعالجوا قضايا السياسة الدولية والإقليمية، وهم مساكين ليس بأيديهم شيء، وأيضًا هم واقعون فيما هو أخطر من ذلك وهو الجهل وفساد العقيدة، فهذا ليس هو الطريق الصحيح في الدعوة إلى الله.

وأنا ليس غرضي بهذا الكلام أن أتقصَّ أحدًا، ولكن غرضي أن أبين الطريقة الصحيحة للدعوة التي يتنفع بها العباد، فإن هذه الأبواب من أبواب «كتاب التَّوْحِيد» تُعالج واقع الناس، فلماذا لا نشرحها للناس، ونبيِّنها لهم

ونوضحها، ونحفظهم هذه الآيات وهذه الأحاديث، ونشرحها لهم، ولو شرحاً وجيزاً على قدر أفهامهم، حتى ينتفعوا بها؟

هذه هي الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو العلم النافع.

أما أن نجلب للناس مشاكل الخارج ونشغلهم بها؛ فهذه ليست بدعوة إلى الله، وإنما هي اشتغال بأمور لا تفيد الناس، ولا تحل مشاكلهم، ولا تُصلح فسادهم، وإنما تُحْبِط أفهامهم، وقد تسبَّب سوء الظن بالمسلمين وببؤلة الأمور، وتفرَّق الكلمة.

فالواجب علينا أن نتنبه لهذا، وما أقول ذلك من أجل الغمط من أحد، لا والله، ولكني أتأسف من واقع بعض الدعاة الذي تردى إلى هذا المستوى. ونسأل الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا وأيديهم إلى الصلاح والفلاح والاستقامة، والسير على منهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما ينفعنا وفيما ينفع الناس؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، هذا هو منهج الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْجَنِّ.

الثَّانِيَّةُ: كَوْنُهُ مِنَ الشَّرْكِ.

الثَّالِثَةُ: الاسْتِدْلَالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ اسْتَدْلَوْا بِهِ عَلَى أَنَّ
كَلِمَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، قَالُوا: لِأَنَّ الاسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ.

الرَّابِعَةُ: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَصْلَحَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مِنْ كَفِّ شَرٍّ، أَوْ
جَلْبِ نَفْعٍ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشَّرْكِ.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (فِيهِ مَسَائِلُ: الأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْجَنِّ) فقد فسر ما جاء في قوله
عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ بأنهم كانوا إذا نزلوا
بمنزل يقول: أحدهم أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه.

❁ (الثَّانِيَّةُ: كَوْنُهُ مِنَ الشَّرْكِ) الاستعاذة بغير الله من الشرك؛ لأن
الاستعاذة عبادة، وإذا كانت الاستعاذة عبادة فصرفها لغير الله شرك.

❁ (الثَّالِثَةُ: الاسْتِدْلَالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ اسْتَدْلَوْا بِهِ عَلَى
أَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، قَالُوا: لِأَنَّ الاسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ) الاستعاذة
بكلمات الله يدل على أن كلمات الله ليست مخلوقة؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق
شرك.

❁ (الرَّابِعَةُ: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ) فمن دعا بهذا الدعاء «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَاكَ»، وهذه فضيلة عظيمة مع اختصار هذا الدعاء، فهو كلمات يسيرة يترب عليها خير كثير وأمان عظيم من شر المخلوقات، فلا يحتاج إلى أن تقرأ كل الليل أو تأتي بالقراء - كما يفعل بعض الناس يحضرهم في المنزل يقرؤون - أو تأتي بكتاب مملوء بالدعوات وتقعّد تقرأه كل الليل، بل هذا الدعاء اليسير الذي علمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه، والذي يستطيعه المتعلم والعامي وكل أحد، ميسر والله الحمد مختصر وليس فيه مشقة.

❁ (الْحَامِسَةُ: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَصْلَحَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مِنْ كَفِّ شَرٍّ، أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشَّرِّ) وهذه قاعدة: أن حصول المقصود لا يدل على جواز الفعل، ذلك أن بعض الجهال يقولون: فلان استعاذ بالجن فنفعه ذلك، أو فلان طلب من الميت كذا وحصل له مقصوده، ويقولون: القبر هذا مجرب ما زاره أحد ودعا عنده إلا وينجح، أو ما أشبه ذلك من الكلام الباطل.

فحصول المقصود لا يدل على جواز الفعل؛ لأن المقصود قد يحصل من باب الاستدراج، وقد يحصل من باب القضاء والقدر، وليس هو من باب تأثير المخلوق.



١٣- بَابُ

مَنْ الشُّرْكَ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ

قوله: [بَابُ مَنْ الشُّرْكَ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (الاستغاثة هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة؛ كالاستنصار: طلب النصر، والاستعانة: طلب العون) ^(١). انتهى.

قلت: فبين الاستغاثة والدعاء عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو دعاء المستغيث، وينفرد الدعاء -الذي هو مطلق الطلب أو السؤال- من غير المستغيث، وقد نهى عَزَّجَلَّ عن دعاء غيره الأخص والأعم في كتابه، كما يأتي بيانه.

قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [البن: ١٨].

فكل ما قُصِدَ به غير الله، مما لا يقدر عليه إلا الله، كدعوة الأموات والغائبين، فهو من الشرك الذي لا يغفره الله، والأدلة على ذلك من القرآن والسنة أكثر من أن تحصر.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَنْ الشُّرْكَ) أي من أنواع الشرك الأكبر (أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ) فيما لا يقدر عليه إلا الله، والاستغاثة: طلب الغوث، ولا تكون إلا في وقت الشدة والكربة (أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ) هذا من عطف العام

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/١٠٣).

على الخاص؛ لأن الاستغاثة نوع من الدعاء، والدعاء أعم، فيكون في وقت الشدة وفي غيرها، أما الاستغاثة فلا تكون إلا في وقت الشدة والضيق، وكلا النوعين إذا صُرف لغير الله - بأن يُدعى غير الله، أو يُستغاث بغير الله - فإنه يكون شركاً أكبر يخرج من الملة؛ لأنه عبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا واقع في كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام في القرون المتأخرة أنهم يستغيثون بالأموات، ويستغيثون بالأضرحة، ويدعون غير الله من الأولياء والصالحين، فيقعون في هذا الشرك مع أنهم يدعون الإسلام، وينطقون بالشهادتين، ويقرؤون القرآن والأحاديث، ولكنه التقليد الأعمى، وقد روج دعاة الضلال هذه الفتنة وزينوها للناس، وقالوا: إن حوائجكم لا تُقضى، ولا تنفرج شدتكم، إلا إذا دعوتهم هؤلاء؛ لأن هؤلاء لهم جاه عند الله، والتوجه بالدعاء إليهم، والاستغاثة بهم أمور مجربة. فزينوا لهم هذه الأمور، حتى وقعوا في هذا الشرك الأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، مع أنهم قد بلغتهم الدعوة ويقرؤون القرآن والأحاديث، ويسمعون كلام أهل العلم، ولكن ظنوا ما هم عليه لا تعنيه هذه الآيات ولا تعنيه الأحاديث الصحيحة، واستمروا عليه.

فكان لابد من النظر في هذا الأمر، وبيان خطورة الشرك للناس، لأنه لا يسع العلماء أن يسكتوا عن تلك الأمور الشركية، وما أهلك الناس إلا سكوت بعض الدعاة على ما الناس عليه، وكأنه شيء لا يضر، أو ليس له أهمية، سكتوا عنه وهم يسمعون ويعلمون، والدعاة يتكلمون في أمور

بعيدة عن حاجة الناس، ولا يتناولون هذه المواضيع، يدورون على القرى والبوادي، ويرون هذا الشرك ولا يعالجونه ولا ينكرونه عليهم، وهذه مصيبة عظيمة.

الذي يجب أن توجه الدعوة إلى الله العقيدة أولاً، وإلى تحسس ما عليه المدعوون من الشرك والجهل بالتوحيد، يركز على هذا أولاً وقبل كل شيء، فإن كان الناس ليس عندهم شيء من هذه الكفریات والشركیات فإنهم يحذرون من الوقوع فيها، وإن كان عندهم شيء منها فإنهم يؤمرون بتركه، حتى تصبح العقيدة واضحة، وحتى يزول هذا الخطر الذي غزا المسلمين في ديارهم، نتيجة للسكوت عنه، وعدم الالتفات إليه، وانشغال الدعاة إما بأمور الدنيا، وإما بفروع العلم، أو بالبحث في أمور لا تنفع إلا بعد تحقيق التوحيد، هي تنفع لكنها لا تنفع إلا بعد تحقيق التوحيد، فالحث على العبادة، والحث على الزهد، والحث على التقوى وتجنب المعاصي هذه أمور تنفع، لكن يتوقف نفعها والاستفادة منها على معرفة التوحيد والعمل به.

فلو كان الإنسان عنده معاصي كبيرة؛ من أكل الربا، وفعل الفواحش، لكن ليس عنده شيء من الشرك، فهذا تُرْجى له المغفرة، وإصلاحه سهل، لكن لو كان عنده صلاح واستقامة وورع، لكن ليس عنده شيء من التوحيد، فلا فائدة من تعب، ولا فائدة من عبادته وورعه؛ لأن الشرك لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ، وصاحبه محروم من الجنة، بخلاف الموحد الذي عنده مخالقات دون الشرك، فهذا تُرْجى له المغفرة، ومآله إلى الجنة ولو عذب. فهناك شيء أخطر

من شيء، وشيء أهم من شيء، والواجب العناية بالأساس أولاً، ثم العناية بعد ذلك بما دونه.

❦ قال: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾) المساجد: معروفة، وهي محل الصلوات، لا يُدعى فيها إلا الله، فلا تبنى المساجد على القبور، ولا يُدعى فيها غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويجب أن تُنزه من الشرك، ومن البدع والخرافات؛ لتكون محلاً لعبادة الله وحده لا شريك له، فهذا فيه وجوب العناية بالمساجد وتطهيرها من الشرك والبدع.

وقيل: المراد بالمساجد: السجود في الصلاة، فلا تدعوا مع الله أحداً، لا في الصلاة، ولا في غيرها.



وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[يونس: ١٠٦-١٠٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ففي هذه الآية النهي عن أن يدعى أحد من دونه عَزَّ وَجَلَّ، وأخبر عَزَّ وَجَلَّ أن غيره لا يضر ولا ينفع.

وقوله: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: والظلم في هذه الآية هو الشرك، كما قال عَزَّ وَجَلَّ عن لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾: هذا في حق المستغيث، أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يكشف ضرَّه إلا الله وحده دون ما سواه مطلقاً.

وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾: وهذا في حق كل طالب وراغب، أخبر عَزَّ وَجَلَّ أنه هو الذي يتفضل على من سألَه، ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئاً من فضل الله عليه، فهو المعطي والمانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

وفي هذا المعنى ما في حديث ابن عباس، وفيه: «وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(١).

فمن تدبر هذه الآية وما في معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم، والشرك الذي لا يغفر، وأنهم قد أثبتوا ما نفته (لا إله إلا الله) من الشرك في الإلهية، ونفوا ما أثبتته من الإخلاص؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٣]، والدين: هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه، ونهى عنه وحرمه.

وأعظم ما أمر به: التوحيد والإخلاص، وأن لا يقصد العبدُ بشيء من عمله سوى الله عَزَّجَلَّ الذي خلقه لعبادته، وأرسل بذلك رسله، وأنزل به كتبه ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وأعظم ما نهى عنه: الشرك به في ربوبيته وإلهيته.

... — الشَّبَحُ — ...

هاتان الآيتان من آخر سورة يونس، يقول الله عَزَّجَلَّ فيهما لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا نهى من الله لنبيه عن دعاء غير الله، والخطاب الموجه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجه إلى أمته، إلا إذا دلّ دليل على اختصاصه به، فهذا النداء عام للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمرته، ولأنه إذا نُهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فغيره من باب أولى.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (٢٩٣/١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٣٩٥)، وأبو يعلى في مسنده (٤/٤٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٢١٧).

❖ قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ لأن النفع والضرر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا أحد ينفعك أو يضرك من الخلق إلا بإذن الله، إن شاء الله سلط الخلق عليك فضروك، وإن شاء الله سخر الخلق فنفعوك، فالأمور بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الأشياء لا تملك نفعاً ولا ضرراً بذاتها، إنما هي مسخرة ومأمورة، فعليك بالتعلق بالله عَزَّجَلَّ، فلا تدع غير الله في جميع الأحوال، لا تدع الأضرحة والقبور والأولياء والصالحين أو الأشجار أو الأحجار أو الأصنام، ولا تدع الملائكة ولا الأنبياء.

❖ وقوله: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أي دعوت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا من باب الافتراض، وإلا محال أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيفعل ذلك، ولكن لو قُدِّرَ أنه فعله وهو أكرم الخلق، فإنه يكون من الظالمين، فكيف بغيره إذا دعا غير الله؟!

والمراد بالظلم في هذه الآية: الشرك؛ لأن الشرك هو أعظم الظلم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو فعل ذلك كان من المشركين، فكيف بغيره لو فعل هذا؟! يكون من الظالمين -أي: من المشركين- من باب أولى، ولا ينفعه ورعه وزهده وتعبد، وصارت أعماله كلها هباءً منثوراً.

❖ وقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: يصيبك بضرر؛ من مرض، أو فقر، أو جوع، أو فاقة، أو حاجة، أو غير ذلك من أنواع الضرر ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ لا يكشف الضر بعد نزوله إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

لو تدعو أي مخلوق على أن يشفيك من مرض، أو يغنيك من فقر، أو ينقذك من شدة، ما استطاع أن يكشف ما أنزل الله.

❁ قوله: ﴿وَإِنْ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ❁ إذا قدر الله لك خيراً فلا أحد يستطيع منعه، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يمنعوا ما أَرَادَهُ الله لك من الخير ما استطاعوا أبداً، إذاً لماذا تخاف المخلوقين؟ ولماذا تدعو المخلوقين وهم ليس بأيديهم نفع ولا ضرر، ولا يكشفون الضر عن دعاهم؟!

❁ قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ❁ الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يصيب بالخير والشر، والنفع والضرر، من يشاء، فلا أحد يُعَقِّبُ على الله أو يمنع ما أَرَادَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو سبحانه يخص من يشاء بتدبيره، وهذا التخصيص يدل على قدرته سبحانه، وعلى أنه لا نافع ولا ضار إلا هو.

❁ قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ❁ لما حذّر من دعوة غير الله، وبيّن أن غير الله لا ينفع ولا يضر، ولا يكشف الضر، ولا يمنع الخير، فتح باب المغفرة والرجاء لعباده، فهو سبحانه يغفر لمن تاب، ويرحم من التجأ إليه ودعاه، وهذا ترغيب للعباد برحمة الله وبمغفرته، وألا ييأسوا ولا يقنطوا، وأن من وقع في شيء من الشرك ولو كان شركاً غليظاً فإنه إذا تاب تاب الله عليه وغفر له.

فلا يَقْنُطُ الإنسان من رحمة الله، ولا يَقْنُطُ النَّاسُ من رحمة الله، ولو فعلوا ما فعلوا من الذنوب، بل يحثهم على التوبة والاستغفار، ويفتح لهم باب الطمع في مغفرة الله عَزَّ وَجَلَّ لعلهم يتوبون، وهذا من كمال رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

ولطفه بعباده، أنه لا يعاجلهم بالعقوبة، ولا يقنطهم من رحمته، فبابه مفتوح للتائبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ما ذكره الله عن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعا قومه إلى عبادة الله، ونهاهم عن الشرك، حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِنَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وهذا مثل الآيتين السابقتين من سورة يونس.

❁ قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من غير الله من الأصنام والتمائيل، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا تملك الرزق، إنما الرزق بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف تدعو من ليس بيده رزق وتنسى الرزاق الجواد الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! ❁ قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ اطلبوا الرزق من الله، ولا تطلبوه من هذه التماثيل وهذه الأصنام، وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ هذا يفيد الحصر؛ لأن أصل الكلام: فابتغوا الرزق عند الله، لكنه قَدَّمَ الظرف ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ليفيد الحصر، أي: لا تطلبوا الرزق من غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم قال: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن طلب الرزق عند الله هذا نوع من العبادة، وقوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ هذا عام لجميع أنواع العبادة، وهو من عطف العام على الخاص.

فهذه الآية فيها إشارة إلى أن العبد يجمع بين طلب الرزق والعبادة، فلا يجلس في المسجد ويترك طلب الرزق، ويقول: أنا أصلي وأصوم وأذكر الله، وسوف يأتيني الرزق وأنا جالس في المسجد!! ليس هذا بصحيح، بل

اطلب الرزق، واعبد الله، ولا يتنافى هذا مع هذا، فتعبد الله وأنت في المتجر، وتعبد سبحانه وأنت في المزرعة، أو في المكتب، أو في أي مكان تطلب فيه الرزق، فلا يتنافى طلب الرزق مع العبادة أبدًا، فلا تترك طلب الرزق لأجل أن تنقطع للعبادة، ولا تهالك في طلب الدنيا وتنسى العبادة.

والناس بين طرفي نقيض، إما إنه ينقطع للعبادة ويترك طلب الرزق، ويصير عالة على غيره، وإما أنه يتهالك في طلب الدنيا وطلب الرزق، ويترك العبادة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْرُ بِالْأَثْنَيْنِ: طلب الرزق والعبادة.

وهذا هو دين الإسلام، دين كامل والله الحمد، ليس فيه رهبانية مثل رهبانية النصارى، الذين يتركون الدنيا ويتفرغون في الصوامع للعبادة، هذه رهبانية ما كتبها الله عليهم، بل أمر بطلب الرزق والعبادة، ولا يتنافيان أبدًا.



وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
كَافِرِينَ﴾ فهذه الآية تبين وتوضح ما تقرر في الآية قبلها، فأخبر عز وجل أنه لا
أضل ممن يدعو أحداً من دونه كائناً من كان، وأخبر أن المدعو لا يستجيب
لما طلب منه؛ من ميت، أو غائب، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقاً؛ من
طاغوت ووثن، فليس لمن دعا غير الله إلا الخيبة والخسران.

ثم قال عز وجل: ﴿وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ كما قال في آية يونس: ﴿وَيَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَفَى
بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨-٢٩].

ثم قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وقال عز وجل:
﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ
كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].
فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده، فيتبرأ منه ومن عبادته،
وينكر ذلك عليه أشد الإنكار، وقد صار المدعو للداعي عدواً.

ثم أخبر عز وجل أن ذلك الدعاء عبادة بقوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾،
فدلت أيضاً على أن دعاء غير الله عبادة له، وأن الداعي له في غاية الضلال.

وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ما طمَّ وعمَّ، حتى أظهر الله من بينه بعد أن كان مجهولاً عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله عَزَّجَلَّ، وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان، لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان، كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين، لما دعوهم إلى توحيد الله، جرى لهم من شدة العداوة ما ذكره الله عَزَّجَلَّ؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]. ويشبه هذه الآية في المعنى قوله: ﴿ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّتْكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٣-١٤﴾. [فاطر: ١٣-١٤]. أخبر الله عَزَّجَلَّ أن ذلك الدعاء شرك بالله، وأنه لا يغفره لمن لقيه به.

فتدبر هذه الآيات وما في معناها؛ كقوله: ﴿وَأَنْ أَلْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠]، وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى.

... — الشَّبَحُ — ...

﴿قوله عَزَّجَلَّ في أول سورة الأحقاف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أحد أشد ضلالاً؛ لأن (من) هذه استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أشد ضلالاً ممن يدعو من دون الله؛ لأن الشرك أعظم الظلم، وأعظم الذنوب، وأعظم الضلال، والضلال معناه: الضياع عن الحق، والتهيه عن الهدى، فالضلال لا يدري أين يسير.

❁ قوله: ﴿مَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير الله ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ هذه الأصنام، وهذه القبور، وهذه الأشجار والأحجار لا تستجيب لمن دعاها؛ لأنها عاجزة، وهم يعترفون بذلك، فيقولون: نعم نحن نعرف أنها جمادات، لكن نحن نجعلها وسائط وشفعاء بيننا وبين الله، فالذي يستجيب هو الله لكن هذه وسائل!!.

سبحان الله! الله عَزَّوَجَلَّ لم يأمر أن تتخذ وسائط بينك وبينه، بل أمرك بدعائه مباشرة، كما في قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ مباشرة بدون واسطة من أي مخلوق كائنًا من كان.

❁ قوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لا يُتصور أن هذه المعبودات تستجيب لمن دعاها في يوم من أيام الدنيا إلى أن تقوم الساعة؛ لأنهم يدعون إما أموالًا في القبور صاروا رميًا وترابًا، وإما جمادات من حجارة وبنيات أو أشجارًا لا تملك نفعًا ولا ضرًا. سبحان الله! كيف لعاقل أن يترك الله القادر على كل شيء، السميع البصير الذي يراه ويسمعه، وينصرف إلى جمادات وأموال ومخلوقات، ويتعلق بها من دون الله عَزَّوَجَلَّ؟!

❁ وفي قوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ تبيّن لهم بأنهم يطرقون بابًا مغلقًا لا يُفتح أبدًا، فأنت إذا أتيت إلى دار أحد وطرقت بابه الليل والنهار ولا يفتح لك، فالذي في الدار إما ميت أو نائم أو لا يريد أن يفتح لك، فلماذا تبقى عند بابه؟! هذا هو باب المخلوقين لا تطرقه، ولا تقف عنده؛ لأنه ليس فيه فائدة.

❦ قوله: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ هذه الأموات والجمادات والأشجار لا تدري عمن دعاها، ولا تسمع دعاءهم، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] إِذَا مَا الْفَائِدَةُ؟!

فهذه المعبودات التي يدعونها من دون الله وصفها الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآيات بصفتين:

الأولى: أنهم لا يسمعون ولا يدرون عمن دعاهم.

الثانية: أنهم لو دروا ما استجابوا؛ لأنهم لا يقدرُونَ.

إِذَا مَا الْفَائِدَةُ من دعائهم، والوقوف عند أبوابهم وعتباتهم؟ وترك أقرب الأقربين سبحانه، وأجود الأجودين، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لماذا تنحرف عنه وتنصرف إلى غيره؟ وما هذا إلا من انتكاس الفطر.

❦ قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يوم القيامة يتعادى المعبودون مع العابدين ويتبرؤون منهم، وقد كانوا يحبونهم في الدنيا حبًّا شديدًا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] لكن في يوم القيامة إذا تبرؤوا منهم انقلبت المحبة عداوة، ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يحدون، يقولون: أبدًا ما دعوتونا ولا عبدتمونا، ينكرون عبادتهم لهم ويتبرؤون منهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ يوم القيامة يتبرأ المتبوع على الضلال من التابع، والمعبود من دون الله ممن عبده، ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

فَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يعني: جاحدين لها، يقولون: أبداً أنتم ما عبدتمونا ولا أمرناكم بذلك، ولا صلة بيننا وبينكم ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ بِإِثْمِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] يعني: الشياطين؛ لأن الشياطين هي التي أمرتهم بذلك، فهم يعبدون الشياطين ولا يعبدون الملائكة ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ هذا ما لهم: في الدنيا لا يستجيئون لهم، ولا يسمعون دعاءهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم ويعادونهم.

قال عَزَّجَلَّ في آية سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، هذه مقالة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لقومه، يحذرهم من عواقب الأمور، والعاقِل يتفكر في عواقب الأمور، ولا ينظر ما عليه الناس، ولا يدخل معهم دون تفكير في العواقب، بل يتفكر في العواقب والنتائج قبل أن يدخل في الشيء، ولا يأخذه التقليد الأعمى إلى أن يغامر مع الناس بدون نظر في العواقب.

وما أحسن قول الشاعر:

وَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ لُو مَاتَ مِنْ ظُلْمٍ لَا يَقْرُبُ الْوَرْدَ حَتَّى يَعْرِفَ الصَّدْرَا^(١)

(١) هذا البيت للشاعر صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِيِّ عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم، السننسي الطائي، شاعر عصره، ولد ونشأ في الحلة بين الكوفة وبغداد، سنة سبع وسبعين وستائة، =

فالإنسان العاقل البصير يتأمل في العواقب ولا يغامر مع الناس، وهؤلاء لم يتأملوا في العواقب، بل غامروا وتركوا عبادة الله، وعبدوا الأصنام والأموال، ويوم القيامة هذا مآلهم. ذكر الله عَزَّجَلَّ عن واقعهم في الدنيا، ثم ذكر واقعهم وما يصير لهم في الآخرة، حتى يتضح الأمر أمام الإنسان، ولا يكون إمعة، فصار الأمر واضحاً جداً، والتائج مكشوفة واضحة، وهذا من رحمة الله بعباده، أنه لم يتركهم في عمى وجهل، بل بيّن لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَانَ وما سيكون، ليكونوا على وضوح النهار. وبهذا البيان بطلت حجج هؤلاء المشركين، ولم يبق لهم شيء يتعلقون به، ولكن مع هذا لا يزالون مصرين على ما هم عليه، ويعتبرونه هو الدين، ويعتبرون ما عداه تطرفاً وخروجاً عن الحق ... إلى آخر ما يقولون من أنواع العيب في دعاة التوحيد.



= واشتغل بالتجارة، وتقرَّب من ملوك الدولة الأرتقية ومدحهم، ورحل إلى القاهرة، فمدح السلطان الملك الناصر، وتوفي ببغداد سنة خمسين وسبعمائة، له (ديوان شعر)، و(العاطل الحالي): رسالة في الزجل والموالي، و(الأغلاطي): معجم للأغلاط اللغوية، و(درر النحور): وهي قصائده المعروفة بالأرتقيات، وغير ذلك كثير. انظر: ديوان صفي الدين الحلبي (ص ٨٩)، وانظر ترجمته في: الوافي بالوفيات (٢٩٢/١٨)، والنجوم الزاهرة (٢٣٨/١٠)، والبدر الطالع (٣٥٨/١).

وَقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ وهذا مما أقر به مشركو العرب وغيرهم في جاهليتهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، أخبر عَزَّوَجَلَّ أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا في شدة.

قال أبو جعفر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم؟ وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] يقول: تذكروا قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم، تذكرون وتعتبرون حجاج الله عليكم سيرا، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته^(١).

... — الشَّبَحُ — ...

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذا استفهام تقرير وتوبيخ للمشركين، من يجيب المضطر إذا دعاه؟ هم يعترفون بأنه لا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَّيَّةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/٢٠).

لَيْنَ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٣﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]، هذه حالة المشركين الأولين أنهم يخلصون الدعاء في حالة الكرب والشدة؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينقذ من الشدائد إلا الله عَزَّجَلَّ، فإذا كانوا في حالة الرخاء عادوا إلى شركهم.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي «القواعد الأربع»: (القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء، ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة)^(١).

فهم الآن إذا وقعوا في كرب أو غرق في البحر ترتفع أصواتهم بالاستغاثة بالمخلوقين: يا بدوي، يا حسين، يا رفاعي، يا فلان، يا علان!! هذا الشرك لم يفعله المشركون الأولون، بل كانوا يخلصون في الشدة؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينجي من الشدائد إلا الله عَزَّجَلَّ، وهؤلاء يقولون: إن هؤلاء الأولياء يخرجون من الشدائد، وإن فلاناً لما وقع في الغرق هتف باسم فلان، فمد يده إليه وأنقذه من البحر!!

والذي يفعل ذلك معهم في الحقيقة إنما هو الشيطان الرجيم، ولهم في ذلك قصص عجيبة، ومن يقرأ «طبقات الأولياء» للشعراني^(٢) يجد العجب العجائب من هذه الأمور، بل ويتبادحون في أن أولياءهم أنقذوا فلاناً من

(١) انظر: القواعد الأربع (ص ٢٠٢) ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

(٢) هو عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، شيخ الصوفية، له العديد من المؤلفات مملوءة بالأباطيل، منها: «الفتح المبين»، و«لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار»، و«العهود المحمدية»، و«الجواهر والدرر»، وغير ذلك كثير، توفي سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة. انظر: شذرات الذهب (٨/ ٣٧٢)، وكشف الظنون (١/ ٦١٨)، (٢/ ١٥٦٧).

الأسر، أو أنقذوا فلائناً من البحر، وأنهم عملوا ... وعملوا، وهذا كله كذب، ومن خداع الشيطان.

وقد ذكر مثل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مواضع كثيرة في كتبه^(١)، حيث قال: «إن المستغيث بال مخلوقات قد يقضي الشيطان حاجته أو بعضها، وقد يتمثل له في صورة الذي استغاث به، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به، وإنما هو شيطان دخله وأغواه لما أشرك بالله، كما يتكلم الشيطان في الأصنام، وفي المصروع، وغير ذلك. ومثل هذا واقع كثيراً في زماننا وغيره، وأعرف من ذلك ما يطول وصفه في قوم استغاثوا بي أو بغيري، وذكروا أنه أتى شخص على صورتي أو صورة غيري، وقضى حوائجهم، فظنوا أن ذلك من بركة الاستغاثة بي أو بغيري، وإنما هو شيطان أضلهم وأغواهم، وهذا هو أصل عبادة الأصنام واتخاذ الشركاء مع الله عَزَّجَلَّ في الصدر الأول من القرون الماضية».

ولمَّا تحداهم الله عَزَّجَلَّ بقوله: ﴿أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ ما أجابوا وقالوا نعم. فمن يجيب المضطر إذا دعاه، ومن يكشف السوء، هل من إله مع الله يفعل ذلك؟ هذا سؤال من الله عَزَّجَلَّ يتحداهم به إلى يوم القيامة، لم يجب عليه أحد، فما دام أنه لا أحد ينقذ من الشدائد غير الله عَزَّجَلَّ، ولا أحد يكشف السوء إلا الله، إذًا بطل شرك المشركين.



(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٥٠) والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٣٢٤).

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَعِثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَعَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَعَاثُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

قوله: [وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ... الحديث]، الطَّبْرَانِي هو: الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الدبري، وخلق كثير. مات سنة ستين وثلاثمائة. روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَعِثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ... الحديث): قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقدر أن يغيثهم منه.

قلت: فلعله أراد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقدر أن يترك المنافقين يُفَعِّلُ بهم ما يستحقونه، ولكنه لم يفعل مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق، وفي السنة ما يدل على ذلك؛ كما فعل مع ابن أُبَيٍّ وغيره^(٢).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، في مسند عبادة بن الصامت رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من القسم المفقود من المعجم. وذكره الخطابي في الغنية عن الكلام وأهله (ص ٥، ٣٢)، والهيتمي في مجمع الزوائد (١٠/١٥٩) وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق.

(٢) فقد روى الطبري في تفسيره (١٠/٢٠٦) أن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ -رأس المنافقين- سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُكَفَّنَ في قميصه، فلما مات كُفِّنَ في قميص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، =

وقيل: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقدر أن يغيبهم من ذلك المنافق، فيكون نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الاستغاثة به حماية لجناح التوحيد، وسدًا لذرائع الشرك؛ كنظائره مما للمستغاث به قدرة عليه، مما كان يُستعمل لغة وشرعًا، مخافة أن يقع من أمته الاستغاثة بمن لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يستجيب؛ من الأموات، والغائبين، والطواغيت، والشياطين، والأصنام، وغير ذلك.

وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى إنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدير أمور خلقه، كما أشركوهم معه في إلهيته وعبوديته، والوسائل لها حكم الغايات في النهي عنها، والله أعلم.

... — الشَّيْخُ — ...

في هذا الحديث الذي رواه الطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ». والمنافق: اسم فاعل، من: نافق ينافق نفاقًا فهو منافق، والنفاق: إظهار الإيمان وإبطان الكفر، هذا هو النفاق الأكبر الذي كان عليه المنافقون في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، تحت عباد الأصنام؛ لأن عباد الأصنام يُصرحون بكفرهم وشركهم، أما هؤلاء فقد أخفوا كفرهم بدعوى الإيمان، فصار عذابهم أشد

= ونفث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جلده، ودلاه في قبره. ولما كُلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك قال: «وما يُعني عنه قميصي من الله -أوربي- وصلاقي عليه، وإني لأرجو أن يُسلم به ألف من قومه». وقد تحقق ما أمّله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن المنافقين كانوا لا يفارقون عبد الله في مرضه، فلما رأوه يطلب هذا القميص، ويرجو أن ينفعه، أسلم خلق كثير منهم، ولم يبق على النفاق إلا عدد قليل.

من عذاب عبدة الأصنام، في الدرك الأسفل من النار، فلا أحد أسفل منهم في جهنم والعياذ بالله.

❦ قوله: (كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ) لم يسم هذا المنافق، ولكن جاء في بعض الروايات أنه عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين، فقد كان يؤذي المؤمنين بكلامه، وسبابه لهم، وتنقصه لهم وللرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهكذا المنافقون في كل زمان ومكان، همهم السخرية بالمؤمنين، وتنقص المؤمنين، والتماس العيوب للمؤمنين، والتشهير بالأخطاء بين المسلمين، وإلقاء العداوة بين المسلمين، هذه حرفة المنافقين في كل مجتمع، ولا يكون النفاق إلا مع قوة الإسلام، فإذا قوي الإسلام وجد النفاق، وإذا ضعف الإسلام فإنه لا حاجة إلى النفاق؛ لأن المنافق حينئذٍ يصرح بكفره وشره.

ولذلك لم يكن في مكة قبل الهجرة نفاق، إنما كان النفاق بعد الهجرة إلى المدينة لما قوي الإسلام واعتز المسلمون، فلا يوجد النفاق إلا مع قوة المسلمين، أما إذا ضعف المسلمون فالكافر يصرح بكفره ولا يبالي كما هو معلوم.

كان هذا المنافق -ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر- همه دائماً الواقعة بالمسلمين، وكان يؤذيهم بكلامه ولمزه وسخريته.

❦ قال: «فَقَالَ بَعْضُهُمْ» جاء في بعض الروايات أنه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١) «قَوْمُوا بِنَا نَسْتَعِثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ»، أي: نطلب منه

(١) ذكر ذلك الخطابي في الغنية عن الكلام وأهله (ص ٥).

أن يمنع شر هذا المنافق عنا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ»، هذا فيه دليل على أن الاستغاثة لا تجوز بالمخلوق؛ لأنها أشد أنواع الدعاء. فالذين ينادون الآن ويقولون: يا رسول الله. في قيامهم، وقعودهم، واحتفالهم، في يوم المولد وفي غيره، ويستنجدون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا جاءوا إلى قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستنجدون به، والرسول يقول: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ».

لكن يرد على هذا الحديث نوع من الاستشكال، وهو: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قادرًا على أن يستجيب للمسلمين ويردع هذا المنافق، فلماذا قال: «لَا يُسْتَغَاثُ بِي» مع أنه قادر؟ وكذلك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا استغاثة الذي من شيعته على الذي من عدوه، نصر الذي من شيعته، ووكز الذي من عدوه ففضى عليه، وهذا يدل على جواز الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، والرسول قادر على أن يردع هذا المنافق، فلماذا أجابهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الإجابة؟

قيل: إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل هذا - وإن كان قادرًا على إغاثتهم - من أجل سد الذريعة التي تفضي إلى الشرك، ومن أجل التأدب مع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى. فهذا فيه سد الذرائع التي تفضي إلى الشرك؛ لأنه لو أقرهم على هذه الكلمة وأغاثهم صار هذا وسيلة إلى أن يُدعى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شدة وفي كل ملمة، والناس على أشد الاستعداد عندما تحصل لهم

مناسبة أن يستدلوا بفعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: الصحابة استغاثوا به فأغاثهم، فلماذا لا نستغيث به وهو ميت؟

انظر إلى حكمة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث سد هذا الباب من أصله، فدل ذلك على أن الشيء ولو كان جائزاً إذا كان يفضي إلى محرم فإنه يصبح غير جائز، وهذا ما يسميه أهل العلم بسد الذرائع، فهذا الحديث من باب سد الذرائع.

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منع من شيء جائز خوفاً أن يفضي إلى شيء غير جائز، مثل ما منع من الصلاة عند القبور، والدعاء عند القبور، وإن كان المصلي والداعي لا يدعو إلا الله، ولا يصلي إلا الله، لكن هذا وسيلة من وسائل الشرك، كذلك هنا؛ فالرسول أنكر هذه اللفظة سداً للذرائع، وتعليماً للمسلمين أن يتجنبوا الألفاظ غير اللائقة.

فإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر الاستغاثة به فيما يقدر عليه، فكيف بالاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! وكيف بالاستغاثة بالأموات؟! هذا أشد إنكاراً.

وإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منع من الاستغاثة الجائزة به في حياته تأدباً مع الله، فكيف بالاستغاثة به بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وكيف بالاستغاثة بمن هو دونه من الناس؟! هذا أمر ممنوع ومحرم.

وهذا وجه استشهاد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بالحديث للترجمة.

إِذَا فَقُولِ الْبوصيري^(١):

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم فضلا
إن لم تكن في معادي أخذًا بيدي وإلا قل يا زلّة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

أليس هذا من أكبر الشرك؟

يقول: لا يُنقذ يوم القيامة إلا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُخرج من النار إلا الرسول، فأين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!

ثم قال: إن الدنيا والآخرة كلها من جود الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلم اللوح المحفوظ، والقلم الذي كتب في اللوح المحفوظ بأمر الله هو بعض علم الرسول، إذا الرسول يعلم الغيب!!

(١) هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن، الشهير بالبوصيري، رأس من رؤوس الصوفية، أصله من المغرب من قلعة حماد، ولد ببهشيم من أعمال البهساوية سنة ثمان وستائة، له العديد من الأشعار فيها من الأقوال الكفرية ما لا يُحصى. وقد شمر العلماء عن ساعد الجد للكشف عن حقيقة قصيدته المسماة بـ «البردة»، وبينوا ما فيها من شرك وكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ، ومن الردود على هذه البردة: رد الإمام الشوكاني ضمن الدر النضيد (٥٩/ ٦٠)، وردود شراح كتاب التوحيد؛ كما في تيسير العزيز الحميد (ص ٦٢١)، وفتح المجيد (١/ ٣٨١)، (٢/ ٦٩٣) وغيرهما، ورسالة الشيخ عبد الله بابطين، المطبوعة ضمن كتاب: «الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن بابطين مفتي الديار النجدية» (ص ٣٦١-٣٨٨) للدكتور: علي العجلان، ورد العلامة محمود شكري الألوسي ضمن كتابه «الرد على النبهاني»، و«نقد البردة» للشيخ عبد البديع صقر، ورد الشيخ العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٢١٨).

وهذه القصيدة - مع الأسف - تُطبع بشكل جميل، وحرف عريض، وتوزّع، وتُقرأ، ويُعتنى بها أكثر مما يُعتنى بكتاب الله عزَّ وجلَّ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الحاصل: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان أنكر على خواص أصحابه هذه الكلمة، وقال: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي» وهذا في الدنيا، مع أنه قادر على أن يغيثهم من المنافق، فكيف يُستغاث به بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وكيف يُستغاث بمن هو دونه من الأولياء والصالحين؟! هذا أمر باطل، والاستغاثة لا تجوز إلا بالله، فيكون في هذا شاهد للترجمة: (بَابُ مِنَ الشَّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بغيرِ الله أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ) والمناسبة ظاهرة والله الحمد والمنة، وكل هذا من أجل حماية التَّوحيد، وصفاء العقيدة، والمنع من كل ما يُفضي إلى الشرك، ولو على المدى البعيد.

لأن الشرك لا يُتساهل فيه أبداً، والطُّرُق التي توصل إلى الشرك لا يُتساهل فيها أبداً، وماذا حصل في قوم نوح خير دليل على ذلك، فقد حصل فيهم الشرك بسبب تعليق الصور، والغلو في الصالحين، وكانوا في وقتهم لم يشركوا، ولكن صار هذا وسيلة إلى الشرك فيما بعد، لما مات أولئك، ونُسي العلم أو نُسخ، وعُبدت هذه الصور، فالوسائل إذا تسوَّهَل فيها أدَّت إلى الشرك.

فالواجب علينا منع الشرك، ومنع وسائله وأسبابه، وأن لا نسمح بالألفاظ الشركية، ولا بأي شيء يُفضي إلى الشرك، وعلينا أن نحذر من ذلك

.....

صيانةً للعقيدة، وحمايةً للتوحيد، وإشفاقاً على المسلمين من الضلال والكفر والإلحاد، فإنه ما حصل هذا الشرك في الأمة، وما حصل هذا الضلال في الأمة إلا لما تساهل الناس في أمر العقيدة، وسكت العلماء عن بيان خطر الشرك، والتحذير من أسباب الشرك، ورأوا الناس على الشرك وعبادة القبور ولم ينهوهم. هذا إذا أحسنّا بهم الظن، وقلنا: إنهم ينكرون هذا بأنفسهم، ولكن ما قاموا بواجب الإنكار، أما إذا كانوا يرون هذا جائزاً، فهذا شرك وكفر؛ لأن من رضي به صار مثل من يفعله.

نسأل الله عَزَّجَلَّ أن يحفظ لنا ديننا وعقيدتنا، وأن يجعلنا من الدعاة إليه بالحكمة، والدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: أَنَّ عَطْفَ الدُّعَاءِ عَلَى الْإِسْتِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِّ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ يَفْعَلُهُ إِِرْضَاءً لِغَيْرِهِ صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

الخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

السَّادِسَةُ: كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

السَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ.

الثَّامِنَةُ: إِنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ.

التَّاسِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ لَا أَضْلَ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَذَرِي عَنْهُ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِيُغْضِبَ الْمَدْعُوَّ الدَّاعِي

وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.

قَوْلُهُ: «قَوْمُوا بِنَا نَسْتَعِثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ» لِأَنَّهُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْدِرُ عَلَى كَفِّ أَذَاهُ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْأَمْرُ الْعَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ

الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا أَجَلَ هَذَا يَدْعُوهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: حِمَايَةُ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ وَالتَّادُّبِ

مَعَ اللَّهِ.



فهرس الموضوعات

٧.....	مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ
١١.....	مقدمة الشارح معالي الشَّيْخ حفظه الله
١٩.....	معنى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)
١٩.....	مناسبة البدء بالبسملة في افتتاح الكتاب
٢٢.....	كِتَابُ التَّوْحِيدِ
٢٣.....	تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
٢٤.....	أقسام التوحيد ثلاثة
٣٢.....	تعريف العبادة لغة وشرعاً
٣٧.....	تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا...﴾
٣٩.....	تعريف الطاعات وأنواعه
٥٧.....	تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾
٦٢.....	تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾
٦٨.....	تفسير الآيات المحكمات في سورة الأنعام
٩١.....	شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ...»
٩٤.....	شرح حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ رَذِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»
٩٨.....	معرفة حق الله عَزَّجَلَّ علينا
٩٩.....	معرفة حق العباد على الله عَزَّجَلَّ إذا أدوا حقه
١٠٧.....	مسائل الباب
١٠٨.....	فوائد عظيمة في هذا الباب

- ١ - بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكْفَرُ مِنَ الذُّنُوبِ ١١١
- تفسير قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ ١١٨
- تعريف الظلم لغة ١٢١
- أنواع الظلم في الشرع ١٢٢
- فضل التوحيد على أهله ١٢٤
- شرح حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...» ١٢٧
- معنى الشهادة ١٢٧
- معنى كلمة التوحيد ١٢٨
- جهل هؤلاء المتأخرين لمعنى كلمة التوحيد ١٤٦
- شرح حديث عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ...» ١٧٤
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَرَّمَ عَلَى النَّارِ» ١٧٥
- اللفظ له ثلاث دلالات ١٨٠
- شرح حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ مُوسَى...» ١٨٣
- الدعاء على قسمين ١٨٤
- شرح حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا ابْنَ آدَمَ...» ٢١٢
- الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي ٢١٣
- الفرق بين القرآن والحديث القدسي ٢١٣
- مسائل الباب ٢١٦
- ٢ - بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢١٨
- معنى تحقيق التوحيد ٢١٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً...﴾ ٢٢٥
- ذكر الله له لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام خمس صفات في هذه الآية ٢٢٥

- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ...﴾ ٢٣٥
- أربع صفات عظيمة للمؤمنين ٢٣٦
- شرح حديث حصين بن عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٤٠
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَسْتَرْقُونَ» ٢٦٠
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَكْتُمُونَ» ٢٦٠
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ» ٢٦٠
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» ٢٦١
- الجمع بين تحقيق التوحيد والأخذ بالأسباب ٢٦١
- مسائل الباب ٢٧٠
- ٣- بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشُّرْكِ ٢٧٢
- مناسبة الباب لما قبله ٢٧٣
- الشرك ينقسم إلى قسمين ٢٧٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ ٢٧٥
- وجه الاستدلال من الآية ٢٧٥
- تفسير قول الخليل عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَأَجْنُبْنِي...﴾ ٢٧٩
- شرح معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ...» ٢٨٦
- تعريف الشرك الأكبر والأصغر ٢٨٧
- معنى الرياء وأقسامه ٢٨٨
- شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو...» ٢٩١
- وجه الاستدلال بحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٩١
- شرح حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ...» ٢٩٣
- اختلف العلماء في الشرك الأصغر على أقوال ٢٩٤

- مسائل الباب ٢٩٦
- ٤- بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ٢٩٧
- سبب تبويب الشيخ بهذا الباب ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي...﴾ ٣٠٠
- مسائل عظيمة في هذه الآية الكريمة ٣٠٣
- شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ...» ٣٠٦
- فوائد في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ٣١٠
- في رواية: «إِلَى أَنْ يُوحَّدُوا اللَّهَ تَعَالَى» دليل على مسائل ٣١٢
- شرح حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ...» ٣٢٦
- المعرفة بحق الله في الإسلام ٣٢٨
- مسائل الباب ٣٤٥
- ٥- بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ٣٤٧
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٣٤٧
- تفسير آية الإسراء ٣٥٠
- معنى الوسيلة في الآية ٣٥٣
- معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ...﴾ ٣٥٩
- معنى قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ...﴾ ٣٦٣
- الشاهد من الآية للباب ٣٦٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ...﴾ ٣٦٩
- المقاييس في الحب والبغض ٣٧١
- الحب والبغض يجب أن يكونا في الله ٣٧٦
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...» ٣٧٩

- حرمة الدم والمال معلق بشيئين ٣٨٠
- مسائل الباب ٣٨٣
- معنى قول الماتن رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَشَرَحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ) ٣٨٣
- ٦- بَابٌ مِنَ الشَّرْكِ لُبْسُ الْحُلَقَةِ وَالْحَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ ٣٨٦
- مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب ٣٨٦
- معنى قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابٌ مِنَ الشَّرْكِ لُبْسُ الْحُلَقَةِ وَالْحَيْطِ) ٣٨٧
- شرح حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ رَأَى رَجُلًا ...» ٣٩٤
- فوائد من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣٩٧
- شرح حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ تَعَلَّقَ ...» ٤٠٢
- تعريف التميمة ٤٠٢
- تعريف الودعة ٤٠٣
- الشاهد من الحديث للباب ٤٠٥
- شرح أثر حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا ...» ٤٠٧
- مسائل الباب ٤١٤
- ٧- بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّهَائِمِ ٤١٥
- مناسبة الباب للكتاب ٤١٨
- شرح حديث أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ ...» ٤١٨
- درجات إنكار المنكر ٤٢٠
- شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى ...» ٤٢٢
- سبب ذكر عبد الله بن مسعود لهذا الحديث ٤٢٢
- حكم التهائم من غير القرآن ٤٢٤

- شروط من أجاز تعليق التَّمِيْمَةِ من القرآن ٤٢٦
- شرح حديث عبد الله بن عُكَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ تَعَلَّقَ ...» ٤٢٨
- شرح حديث رُوَيْفِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٣٣
- اختلف العلماء في عقد اللحية على أقوال ٤٣٧
- شرح حديث سعيد بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَطَعَ ...» ٤٤١
- فضل قطع التَّمِيْمَةِ ٤٤٢
- قول إبراهيم: «كَانُوا يَكْرَهُونَ ...» ٤٤٤
- مسائل الباب ٤٥٠
- ٨- بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ نَحْوِهِمَا ٤٥١
- الفرق بين هذا الباب والذي قبله ٤٥٢
- معنى البركة ٤٥٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ...﴾ ٤٥٧
- قولان لأهل العلم في تفسير (اللات) ٤٦٠
- شرح حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٦٥
- معنى قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر» ٤٦٧
- مسائل الباب ٤٧٩
- ٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ ٤٨١
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي...﴾ ٤٨١
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ ٤٨٨
- شرح حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ...» ٤٩٢
- اشتمل حديث علي على أربع مسائل ٤٩٤

- يدخل في الذبح غير الله أصناف ٤٩٥
- شرح حديث طارق بن شهاب: «دَخَلَ رَجُلٌ...» ٥٠٥
- مسائل عظيمة في حديث طارق بن شهاب ٥١٠
- مسائل الباب ٥١٢
- ١٠- بَابُ لَا يُذْبَحُ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ٥١٤
- مناسبة هذا الباب للكتاب ٥١٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا...﴾ ٥١٨
- مسجد الضرار ٥١٩
- شرح حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَذَرَ رَجُلٌ...» ٥٢٣
- تعريف النذر لغة وشرعاً ٥٢٣
- مسائل الباب ٥٣٥
- ١١- بَابُ مِنَ الشَّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ ٥٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ ٥٣٩
- تعريف النذر لغة وشرعاً ٥٣٩
- النذر عبادة لله عَزَّوَجَلَّ ٥٤٠
- حكم نذر الطاعة ٥٤٠
- نذر المعصية لا يجوز الوفاء به ٥٤٣
- شرح حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ نَذَرَ...» ٥٥٤
- نذر الطاعة على قسمين ٥٦٠
- مسائل الباب ٥٦٣
- ١٢- بَابُ مِنَ الشَّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ ٥٦٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ...﴾ ٥٦٤

- مناسبة تبويب الشيخ لهذا الباب ٥٦٤
- وجه الاستدلال من آية سورة الجن ٥٧١
- شرح حديث خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ نَزَلَ مَنَزِلًا...» ٥٧٤
- مسائل في حديث خولة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٥٧٩
- مسائل الباب ٥٨٥
- ١٣- بَابُ مِنَ الشُّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ ٥٨٧
- أهمية هذا الباب ٥٨٧
- تفسير آية سورة يونس وسورة العنكبوت ٥٩١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ ٥٩٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ...﴾ ٦٠٣
- شرح حديث: «إِنَّهُ لَا يُسْتَعَاثُ بِي...» ٦٠٦
- مسائل الباب ٦١٤
- فهرس الموضوعات ٦١٧



تم بحمد الله الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني: ويبدأ بـ

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَبْشِرُوا مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١١))

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴿[الأعراف: ١٩١، ١٩٢]﴾